رواية

مكتبة

جيوكوندا بيلي

المرأة المسكونة

ترجمة: روعة حقي

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

المرأة المسكونة

رواية

اسم المؤلف: جيوكوندا بيلي
Author: **Gioconda Belli**

عنوان الكتاب: المرأة المسكونة
Title: **La mujer habitada**

ترجمة: روعة حقي
Translated by: **Rawa Haqqi**

الناشر: دار المدى
P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: **2023**
First Edition: **2023**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Gioconda Belli

c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria

www.schavelzongraham.com

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street.
+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289
ص.ب: 8272

مكتبة
t.me/soramnqraa

جيوكوندا بيلي

مكتبة
t.me/soramnqraa

المرأة المسكونة

ترجمة : روعة حقي

مكتبة
t.me/soramnqraa

- 1 -

نهضتُ عند الشروق... كان غريباً كلُّ ما حدث منذ آخر مرة رأيت فيها ياريتشي في ذلك اليوم في المياه. قال كبار السن في الحفل إنهم سيسافرون إلى تلالوكان وهي حدائق دافئة في الشرق -بلد الخَضار والزهور التي تداعبها الأمطار الخفيفة-، غير أنني وجدت نفسي وحيدةً لقرون في مسكن من التراب والجذور وأنا أنظر مندهشة من جسدي المتحلل في الدبال والنباتات العشبية. قلبت الذكريات فترة طويلة وعشت على ذكرى آلة ماراكاس الموسيقية والأصوات القوية التي يُحدِثها الحصن وأعمال الشغب والحِرَاب وحزن الفقدان وياريتشي وتلك العروق القوية المشدودة التي كانت تميز ظهره.

سمعت منذ أيام خُطى المطر الصغيرة والتيارات الكبيرة للمياه الجوفية التي كانت تقترب من مسكني الذي يعود تاريخه إلى قرن من الزمان وهي تشق الأنفاق وتجتذبني عبر المسامية الرطبة للأرض. أحسستُ أن العالم كان قريباً. خمّنتُ ذلك عن طريق تدرّجات ألوان الأرض المختلفة، ثم رأيت الجذور كأيادٍ ممدودة تناديني، فجذبتني قوة النداء على نحو لا رجعة فيه. توغّلت في الشجرة، في أوعية عصارتها التي مَرَرْت فيها مروراً كأنه مداعبة طويلة للعصارة والحياة وانفتاح البتلات واهتزاز الأوراق. شعرت بلمستها الخشنة وبالهندسة المعمارية الدقيقة لأغصانها وتمددت في ممرات الخَضار في هذا الجلد الجديد متمطيةً بعد فترة طويلة ومطلقةً شعري وأنا أتطلع إلى السماء الزرقاء ذات السحب البيضاء لسماع العصافير وهي تغرّد كما كانت تغرّد من قبل.

غنيت أيضاً بأفواهي الجديدة (كنت أريد أن أرقص) وثمة أزهار برتقال على جذعي ورائحة البرتقال تفوح من جميع أغصاني. تساءلت عمّا إذا كنت قد وصلتُ أخيراً إلى الأراضي الاستوائية، إلى حديقة الرخاء والراحة وغبطة الطمأنينة اللامنتهية الخاصة بالذين يتوفون تحت رمز كيوتي-تلالوك، رب المياه. ربما كان قدري أن أقضيَ الخلود هنا.

رغم أنه قد حان وقت الفاكهة وليس وقت الإزهار، فإن الشجرة قد أخذَتْ تقويمي الخاص، دورة أوقات الغروب الأخرى: لقد وُلِدَتْ من جديد، يسكنها دم امرأة.

لم يعانِ أحد هذه الولادة كما حدث عندما أطلَلْتُ برأسي على الحياة من بين ساقي والدتي. في هذه المرة، لم يكن هناك شك أو حزن ممزق حين الفرح. لم تدفن القابلة المولِّدة كسيكميتايولت -سُرَّة بطني- في الزاوية المظلمة من المنزل ولم تأخذني بين ذراعيها لتقولَ لي: «ستكونين في البيت بمنزلة القلب من الجسم... ستكونين الرماد الذي يغطي نار المنزل». لم يبكِ أحد عندما قاموا بتسميتي كما بكت والدتي التي كان الغم يغمرها لأن جميع الفؤول كانت حزينة منذ ظهور الرجال الشقر الذين كانت وجوههم ذات شعر. حتى إنهم كانوا خائفين من استدعاء العراف كي يعطيني اسماً ويمنحني دفء النهار. كان والداي المسكينان يخشيان معرفة حظي.

حمّمَتني القابلة وطهّرتني متوسلة إلى تشالتشيوهتليكوي -أم وأخت الآلهة- وفي نفس هذا الاحتفال أطلقوا عليَّ اسم إيتثا -قطرة الندى-. سموني باسمي عندما كنت سأصبح بالغة دون انتظار أن يأتي زمني لاختياره لأنهم كانوا يخشون المستقبل. أما الآن، فبالعكس، يبدو كل شيء هادئاً من حولي: هناك شجيرات حديثة القَطع وأزهار في أصص كبيرة ورياح منعشة تحركني وتهزني من جانب إلى آخر كما لو كنت أقوم بإلقاء تحية وترحب بي في الضوء بعد ظلمات كثيرة.

غريبة هي هذه البيئة. ثمة جدران تحيط بي وأبنية ذات جدران عريضة كتلك التي قادنا الإسبان إلى بنائها.

رأيت امرأة تعتني بالحديقة. كانت شابة وطويلة ذات شعر غامق اللون

وجميل. كانت ملامحها شبيهة بملامح نساء الغزاة لكنها كانت تتحرك بعزيمة، كما كنا نتحرك ونمشي قبل الأوقات العصيبة. كنت أتساءل عمّا إذا كانت ستعمل لمصلحة الإسبان. لا أعتقد أنها تحرث الأرض مثلما لا أعتقد أنها تعرف الغَزْل. إنها تتمتع بيدين رقيقتين وبعينين كبيرتين ذواتي بَريق. كانتا تلمعان بدهشة من هو في طور الاكتشاف.

كان كل شيء صامتاً عندما غادَرَتْ. لم أسمع أصوات المعبد من حركة الكهنة. كانت المرأة فقط هي من تقطن في هذا المنزل بحديقته. لم تكن لديها عائلة ولا والٍ ولم تكن إلهة حيث كانت تساورها المخاوف: كانت تغلق الأبواب وتقفل الأقفال قبل المغادرة.

***

في اليوم الذي أزهرت فيه شجرةُ البرتقال، استيقظت لابينيا مبكراً للذهاب إلى العمل للمرة الأولى في حياتها. أوقفَت المنبه وهي نعسانة. كانت تكره صوته القوي الذي كان أشبه بصفارة إنذار مَرْكَبٍ تعكر صَفْو الصباح. فركت عينيها وتمطّت. كانت الرائحة تأتي من كل جانب. إنه عبق أزهار البرتقال يحاصرها بإصرار قادماً من الحديقة. انحنت إلى النافذة وهي تجثو على ركبتيها فوق السرير وتنظر من مكانها إلى شجرة البرتقال المُزهِرة. كانت شجرة قديمة أمام نافذة غرفة النوم. كان جنائنيُّ عمتها إينيس قد زرعها من قبل وأقسم أنها ستؤتي ثمارها طوال العام لأنها كانت منتَجاً مطعَّماً من اجتهاده ومن صنع يديه كمعالج وجنائني وخبير أعشاب. أعجبت العمة بالشجرة على الرغم من عدم إظهارها أبداً لعلامات تدل على أنها ستُزْهِر أثناء حياة العمة.

اعتقدت لابينيا أنها أمطار أواخر كانون الأول. «ثمة أمطار في غير موسمها، إنها علامات معجزة» هذا ما كانت معتادة على قوله لجدها.

دخلت تستحم متكاسلة. شَغَّلَت جهاز الراديو أثناء مرورها لتلتقطَ من الأرض الملابسَ التي تركتها تسقط أرضاً دون مبالاة عندما وصلت في وقت متأخر من الليل للذهاب إلى الفراش. كانت تحب غرفتها المرتبة بالسلال والمفارش الملونة. بينما كانت تستحم بحماس حيث إنها في اليوم الأول

من العمل، فكرت أنه يمكنها براتبها كمهندسة معمارية أن تحسّن الديكور المتسم بطابع الفنون الشعبية.

كانت رائحة أزهار البرتقال تمتزج بقطرات مياه الاستحمام. قالت في قرارة نفسها إنه لفأل حسن أن تُزْهر الشجرةُ في ذلك اليوم بالتحديد بينما تفرك شعرها البني الطويل ثم تمرر المشط لفك تشابك الشعر وتسريحه. خرجَت من الحمام ونشفَت نفسها بمنشفة الشاطئ الضخمة ووضعَت المكياج أمام المرآة موسِّعة حجم عينيها ومُبْرِزَةً ملامح وجهها الجذّاب. لم تكن تود أن تكون مثل صديقتها المقرّبة سارة التي كانت تتمتع بملامح دميةٍ خزفية. غير أن ما ينقصها كانت له جاذبيته. لم يكن وجهها كلاسيكياً، كان وجهاً مثالياً في تلك الأزمنة. منذ الستينيات، أعلنت موسيقى الروك وموضة الهيبي والتنانير القصيرة عن الحداثة التي كانت تستمتع بها في ذلك الوقت، في السبعينيات.

نعم، هذا ما قالته لنفسها وهي تختار الملابس بعناية وتهز رأسها لإسدال تموّجات شعرها –لم يكن السر يكمن في تمشيط الشعر– كانت تتماشى مع العصر الذي تعيشه. قبل أكثر من شهر، انتقلت إلى منزل العمة إينيس وتركت منزل والدها. كانت امرأة وحيدة وشابة ومستقلة.

إن العمة إينيس هي من قام بتربيتها عندما كانت طفلة. كانت تقضي فترات طويلة في منزل عمتها، إذ كان والداها منشغلين للغاية بالشباب والحياة الاجتماعية والنجاح. عندما أدركا أنها كبرت بالفعل وعندما رأيا بلوغها وبروز نهديها وظهور شعر جسمها واتخاذه لتقوّسات البلوغ، فقط عند ذلك، وضع والداها الولاية الأبوية موضع التنفيذ لإرسالها إلى أوروبا لغرض الدراسة كما جرت العادة عليه في ذلك الزمن بين الناس ذوي الأنساب.

لم ترغب العمة إينيس قط في رؤيتها وهي تغادر، لكنها كانت محرجة من أخيها بما كانت لديه من حقوق كأب واكتفت بتنبيهها بأن لا تدعهما يقنعانها باختيار مهنة سكرتيرة ثنائية اللغة أو طبيبة عيون. أخبرَتْها أنها تريد أن تصبح مهندسة معمارية ولها الحق في ذلك.

كان لديها الحق بالقيام بما يسرها وهو بناء المنازل التي كانت تبتكرها في الحديقة والنماذج المصغرة التي بُنِيَت بعناية باستخدام أعواد الثقاب وصناديق الأحذية القديمة والمدن السحرية. كان من حقها أن تحلم بأن تصبح ذات شأن وأن تتمتع بالاستقلالية وقد تمهّد لها الطريق لتحقيق ذلك قبل الموت. لقد ورثت منزل شجرة البرتقال وكل ما تحتويه «عندما تريد أن تكون بمفردها».

انتهت لابينيا من ارتداء ملابسها وتنفست الرائحة العطرة بملء رئتيها في منتصف كانون الثاني دون أن تنتبه للتقويم المتغير للطبيعة ودون الشك في القدر الذي أشار إليها بإصبع طويلة لا تدركها الأبصار. لقد أغلقت باب الغرفة وتجولت في المنزل للتحقق من الأقفال والقيود. كان مبنىً جميلاً، نسخة مصغرة من قصور الاستعمار الضخمة التي تطل على الفناء الداخلي. عندما أخذته على عاتقها، كانت حينها تعاني من الإنهاك والإهمال. كانت الأبواب تطقطق والسقف يسرب قطرات الماء وهي تترنح من روماتيزم الرطوبة ومن الإهمال. أعادت تصميم الدار بفضل المال الذي جنته من بيع الأثاث العتيق وبفضل معرفتها بالعمارة. ثم ملأت المنزل بالنباتات والوسائد الملونة وأدراج الكتب والأسطوانات لتشتت جو الكآبة الذي عادةً ما يعيشه الكبار الوحيدون. بدت الفوضى واضحةً ذلك اليوم، بعد عطلة نهاية الأسبوع في ظل غياب الخادمة المنزلية، الوحيدة التي كانت ترتب المنزل حيث كانت لابينيا معتادة على حياة مريحة وسهلة. فقط بمجيء لوكريثيا ثلاثة أيام في الأسبوع، تخلص المنزل من الغبار وكانت تتناول الطعام ساخناً. أما بقية الوقت، فكانت تأكل الشطائر أو الجبن والسلامي والجوز لأنها لم تكن تعرف الطبخ.

اكتسحت ريح كانون الثاني الزهور الوردية لأشجار البلوط المتساقطة على قارعة الطريق. لقد حلّت شعرها المسرح عندما خرجت إلى الشارع وسارت على الأرصفة الواسعة في الحي الذي كانت تقطنه. نادراً ما كانت ترى جيرانها. كانوا كباراً في السن، معاصرين للعمة. كانوا ينتظرون الموت ملتزمين الصمت يأوون لذكرياتهم خلف جدران قصورهم، غارقين في كآبة غرفهم. كان يحزنها أن تراهم يتأرجحون مساءً على الكراسي البيضاء

ذات المساند أمام الأبواب المفتوحة للغرف الاثنتي عشرة غير المستعملة. أصبحت الشيخوخة بالنسبة لها حالة مرعبة ووحيدة. التفتت للنظر إلى منزلها بشيء من الكآبة، تفكر في عمتها إينيس. على الرغم من أنها ربما تكون راضية عن موتها دون أن تصل إلى مرحلة الهرم، إلا أن لابينيا كانت تود أن ترى هيئتها الطويلة الفارعة وهي تودعها من الباب كما يحصل عندما كانت تغادر بهندام مغسول ومكوي للذهاب إلى المدرسة في الصباح. في ذلك اليوم، كانت واثقة وودعتها وداع امرأة لامرأة وهي تستعرض في ذاكرتها الأحلام التي لم يسمح لها زمنها بتحقيقها. بسبب ترملها في شبابها، لم تتغلب العمة إينيس قط على الخوف من الوحدة. لم يعد عليها كونها عرابة الشعراء والفنانين بالكثير من الفائدة. كانت نصيرة أدب وفنون قلقة لزمن التنورات الداخلية والحياء الذي عاشته. كانت آخر صورة احتفظت بها لها هي صورة الوداع في مطار فيوميتشينو. أمضتا شهري العطلة معاً في إيطاليا. اعترفت العمة لها مخبرة إياها أنها تفتقدها لدرجة كانت تموت بها من شدة الحزن. لم تشك لابينيا بالمرض المميت الذي استنفدها لأنها كانت تُصِر بابتسامة تناقض كلماتها بأنها ستستغل أكبر قدر من الوقت -لم تكن تعرف قط ما يمكن أن تخبئه الحياة لأحد- وستقضي بضعة أشهر أخرى في تعلم الفرنسية. قالت ذلك وهي تبكي في المطار. تتذكر لابينيا ملاحظتها لمدى ضعفها في الوقت الذي كانتا تبكيان معاً وتتعانقان أمام الأنظار المتسامحة للإيطاليين المعبرين عن مشاعرهم. وَعَدَتْها برسائل طويلة. سرعان ما ستعود وستكونان معاً وسعيدتين. لم تَرَها مرة أخرى قط. عندما ماتت، لم ترغب في تقديم عودتها لحضور مراسم الحداد الرهيبة. كانت تتذكر العمة إينيس وهي على قيد الحياة. كانت تعلم أنها كانت ستوافق.

كانت الشوارع في ذلك الوقت فارغة. لقد سارعت الخطى للوصول إلى الشارع، إلى حدود حي كبار السن. أوقفت سيارة أجرة عند الزاوية. توقفت سيارة مرسيدس بنز جديدة ملمعة ومعاد تلميعها بجوارها. لم تكف البتة عن الإعجاب بمفارقة كون سيارات الأجرة من نوع مرسيدس بنز. في فاغواس، أعطى الجنرال الكبير تراخيص استيراد مجانية لسيارات مرسيدس بنز للعسكريين. باع العسكريون سياراتهم المستعملة من مرسيدس بنز

إلى مؤسسات تعاونية خاصة بسيارات الأجرة، إذ كانوا أعضاء في تلك المؤسسات واشتروا موديلات جديدة. لذلك، كانت سيارات الأجرة في فاغواس الفقيرة ذات الجو المغبر والحار من نوع مرسيدس بنز.

بمجرد أن جلست على الكرسي الذي تنبعث الرائحة من جلده، انتبهت إلى البث الإذاعي. كانوا ينقلون محاكمة مأمور سجن لا كونكورديا. كانت المحاكمة عبارة عن الحديث الإلزامي في الأيام الأخيرة وقد سئمت من الموضوع. لم تكن ترغب بسماع المزيد عن تلك الفظائع، لكنها كانت في سيارة الأجرة. لم ينبس سائق سيارة الأجرة الذي كان يدخن ببنت شفة وكان ينظر بانتباه إلى الطريق. نَظَرَتْ من النافذة. كان بالإمكان مشاهدة المدينة من تلك المنطقة المرتفعة، فكانت تُشاهد الصورة الظلية البعيدة للبراكين منعكسة على شاطئ البحيرة. كان المشهد رائعاً. كان جميلاً أن تكون وظيفة البحيرة كمصب للمياه الثقيلة، لكن ذلك أمر لا يغتفر. تخيلت ما سيكون عليه هذا الصباح لو لم تُدِر المدينة ظهرها إلى منظر البحيرة، لو كان هناك ممشى على الشاطئ يتنزه العشاق عليه وتمشي فيه المربيّات مساءً وهن يدفعن عربات الأطفال الزرقاء. لكن كبار الجنرالات لم يهتموا قط بالأمور الجمالية. كانت المدينة عبارة عن سلسلة من التناقضات: قصور مسورة ومنازل متضررة. لم يكن هنالك مفر من صوت الطبيب الشرعي العسكري، الشاهد الرئيس على العملية. كان صوته وهو يتكلم دون توقف يصف ندبات جروح التعذيب التي شوهدت على جثة السجين. قال إن مأمور السجن قد ألقى بشقيق المتوفى -المتهم أيضاً بالتآمر- على بركان تاغو. كان تاغو بركاناً نشطاً ذا حمم صاخبة في فوهة البركان. كان يمكن رؤية نيران البركان في الظلام إذا ما نظر أحدهم من حواف المناطق المطلة عليه. اعتقد الإسبان الغزاة أنه ذهب مصهور. كان الرجل يصف كسور وتمزقات الأخ الذي اغتيل هو أيضاً وكأنه أحد المهندسين وهو يبدي رأيه حول آثار زلزال ما. كان الحديث غنياً بالكلمات الفنية. تذكّرَت كيف كُسِرَت الأعمدة بعد الانفجارات تحت الأرض في الأفلام الوثائقية التي عرضها الأستاذ في جامعة بولونيا. أما هنا، فالأمر يتعلق بالبشر، بالبنى المدمرة للبشر.

فكرت قائلة «كان يجب أن أبقى في بولونيا» وكانت تتذكر شقتها بجوار

برج الجرس. كانت تلك ردة فعلها في كل مرة تصادف فيها الجانب المظلم لفاغواس. أما في أوروبا، فكان يتوجب عليها أن ترضى عن التصميمات الداخلية وتجديدات المباني القديمة التي لم تتغير واجهاتها، تاريخ الماضي الأفضل. في فاغواس، كانت التحديات مختلفة. كان الأمر يتعلق بالسيطرة على الطبيعة البركانية الزلزالية الغنية. تتخطى الأشجار الشبقة النمو الإسفلتَ على نحو يصعب التغلب عليه. كانت فاغواس تحثّ مسامها وتثير رغبتها بالعيش. إنها أرض الحسيّة: تشبه جسماً منفتحاً وعريضاً ومتعرجاً ذا تضاريس غير منتظمة كما لو كانت صدور نساء متوعدة وجميلة تتناثر فوق المناظر الطبيعية.

لم تكن ترغب في مواصلة سماع الحديث عن الموت. أدارت وجهها نحو النافذة نظرت بالتحديد إلى الشوارع. قالت في قرارة نفسها إن ما ينقص فاغواس هو الحياة. لذا، كانت تحلم ببناء المباني وبترك أثر وبإكساب الخرسانة الدفء والاتساق واستبدال تقليد ناطحات السحاب المقطوعة في نيويورك في شارع ترومان –التي تتقدم فيها سيارة الأجرة ببطء أثناء حركة المرور– بتصميمات تتكيف مع المناظر الطبيعية. رغم أنه كان حلماً يكاد يكون مستحيلاً، فإنها قد فكرت وهي تنظر إلى اللوحة الإرشادية للمحل ذي الأقسام الذي تم افتتاحه حديثاً. كان بالإمكان مشاهدة الدرج الكهربائي من الشارع، مشاهدة الابتكار العظيم الذي كان الوحيد في البلدة كلها. كان على المتجر أن يعين حراساً عند الباب للحيلولة دون دخول الأطفال من ذوي الثياب الرثة الذين يبيعون الصحف والذين بمجرد ما فتح المحل أبواب خدمته، كانوا يصعدون وينزلون وهم يضحكون لتخريب متعة السيدات الأنيقات اللائي يتم تصعيدهن إلكترونياً باتجاه منطقة الاستهلاك. سعت المدينة إلى الحداثة على حساب أي مهارة غريبة.

كان القتلى أعضاء في حركة التحرير الوطني السرية. قال أدريان، زوج سارة: «إنهم الشجعان الوحيدون في هذا البلد». قال المدعي عندما توقفت سيارة الأجرة: «ما هي تلك الطريقة التي يمكن بها القضاء على التخريب؟».

نظرت لابينيا إلى ساعتها. كانت الساعة الثامنة صباحاً. لقد وصلت في الوقت المحدد. دفعت لسائق سيارة الأجرة أجرته. رأته ينظر إلى ساقيها

الطويلتين وشعرت بالسخرية في ابتسامته التي تمنى لها بها قضاء «يوم سعيد» بعد إجبارها على سماع ذلك الوصف التفصيلي للكريول الجلجثيين.

دخلت القاعة. كان المبنى حديثاً على طراز علبة الثقاب. كان مستطيلاً ذا جدران رمادية وتفاصيل حمراء. كان المبنى يحتوي على مصعد وعلى إشارة الحالة. هناك خمسة أو ستة مصاعد في جميع أنحاء فاغواس. يُؤدي المصعد إلى مكاتب أنيقة للأطباء والمهندسين والمحامين والمعماريين. قبل أيام، عندما وصلت إلى مقابلة العمل، كانت لابينيا قد أوقفت المصعد من باب الفضول في كل طابق. كانت جميع الطوابق متشابهة. كانت الأبواب خشبية وكبيرة واللوحات الإرشادية مكتوبة بأحرف ذهبية.

دفعت الأبواب الخشبية لشركة «شركاء معماريون، شركة مساهمة» ووجدت نفسها في القاعة البسيطة والحديثة أمام السكرتيرة المهذبة ذات العيون الخضراء التي طلبت منها الجلوس. كان السيد سوليرا سيستقبلها خلال لحظات.

أخذت مجلة وأشعلت سيجارة. في مكان ما داخل المكتب واصلت الإذاعة البث لنقل المحاكمة. لحسن الحظ، لم تستطِع تمييز الكلمات.

للاستفادة من مظهرها المهني، تظاهرت بأنها تنظر بإمعان إلى المجلة وإلى تلك المنازل التي كان شبه مستحيل تخيل أن هنالك بشراً في داخلها. يقال إنها صنعت للملائكة الأثيريين الذين لا يعرفون معنى الاحتياجات الأولية مثل وضع أرجلهم على الطاولات وتدخين سيجارة وتناول الفستق السوداني.

عندما حضرت المقابلة، خاض خوليان سوليرا في التفاصيل المتعلقة بصعوبة أن يكون الشخص مهندساً معمارياً في فاغواس. قال لها إن الأمر يختلف عما هو عليه في أوروبا. كانت السيدات يحملن كشكولهن ويكلفنهم بعمل تصاميم لمنزل وحديقة وبيت جميل. كن يعشقن أن يكن في مأوىً جبلي في جبال الألب ويقرّرْن تطبيق التصميم على منزل صيفي على الشاطئ. كان عليهن أن يقتنعن أنهن في بلد آخر تكون فيه درجات الحرارة والمواد مختلفة. قال: لكنها امرأة ومن الأسهل التواصل معها،

فالنساء يتفاهمن فيما بينهن. ابتسمت وهي تتذكره عندما تذكّرت كيف أقنعته بابتسامتها أن يمنحها الوظيفة. في البداية كان ينظر إليها بتهجس. عندما دخلت إلى مكتبه الأسبوع الماضي لحضور الموعد الذي أعطاها إياه أدريان، نظر إليها سوليرا من الأعلى إلى الأسفل وسجل نسبها وطول التنورة القصيرة والشعر غير المرتب والمجعد. كان رجلاً في الأربعينيات من عمره ذا عينين يقظتين ومباشراً وبراغماتياً، غير أنه كان بحاجة إلى الإغواء الخاص برجال أمريكا اللاتينية في ذلك العمر. بعد التحية الأولى، عندما أخرجت محفظة أوراقها وقدمت وثائق مؤهلاتها الدراسية الرائعة وفخر مشاريعها الجامعية ومعاييرها بشأن احتياجات فاغواس معبرةً عن ولعها بالهندسة المعمارية وهي في عنفوان شبابها بعمر الثلاثة والعشرين عاماً، فاستسلم خوليان للأمر. كطفل يقوم بالدوران بالدراجة الهوائية، أقحمها في التعقيدات الوظيفية ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإقناعه بأنها ستكون صفقة جيدة للتعاقد معها. لم تعانِ من تأنيب الضمير عند استخدام أسلحة الأنوثة القديمة. استفادت من الانطباع الذي تثيره الأسطح المصقولة في الرجال. لم تكن هي المسؤولة عن ذلك، بل إنه ما ورثته.

لقد طال الانتظار. قام رجل طويل القامة متوسط البُنْيَة ذو عينين رماديتي اللون بعبور الحاجز ودخول مكتب سوليرا. أخبرت السكرتيرة ذات العيون الخضراء لابينيا أنه بإمكانها الدخول.

كان المكتب حديثاً والكراسي ذات أذرع إسناد مصنوعة من الجلد. ثمة رسوم مجردة ومؤطرة بالألمنيوم على الجدران. كانت نافذة الطابق الرابع تطل على مناظر البحيرة الطبيعية. كانت البراكين تقذف حممها وهنالك حيوانات ضخمة. تقدم سوليرا لإلقاء السلام عليها. أحبت فيه شخصية الرجل النبيل على الرغم من أنها لم تكن ترتاح للشكليات الرسمية التي يتعامل بها. بدا التعامل باستخدام صيغة «حضرتك» التي كانت أكثر ملاءمة بالنسبة لجاراتها المسنات منه بالنسبة لها.

قال سوليرا: «أعَرِّفُكِ بفيليبي إيتوربي».

كان الرجل الذي أشار إليه يقف في منتصف الغرفة في جو المبنى المشيد

على نحو جيد. صافحها مصافحة قوية. انتبهت لابينيا لعضلات ساعده ولعروقه وطبقة الشعر الأسود المجعد الذي كان يغطي كل جسمه تقريباً. كان أصغر سناً من سوليرا ونظر إليها بسخرية بينما كان سوليرا يتحدث عن تأهيلها الدراسي وعن مزايا وجود امرأة ضمن فريق العمل وكان يوضح لها دور فيليبي كمهندس معماري منسق، مسؤول عن إسناد جميع الأعمال والإشراف عليها. قال سوليرا: سيأخذ المهندس إيتوربي على عاتقه تعريفها بأنظمة وإجراءات المكتب.

كان يبدو أن الرجلين يتمتعان بموقف تعاملها معهما كمسؤولي عمل. شعرت لابينيا أنها في وضع غير مؤات. لقد انحنت داخلياً للشراكة الذكورية وتمنّت أن ينتهي تعريف بعضهم ببعض. لم يكن يعجبها الشعور كأنها في واجهة متجر. ذكّرها ذلك بعودتها من أوروبا عندما اصطحبها والداها إلى الحفلات بزينتها وأطلقا سراحها لتشمها الحيوانات الصغيرة التي كانت ترتدي السترات وربطات العنق، الحيوانات الأليفة التي كانت تبحث عمّن يمنحها أبناءً أقوياء خصبين يطعمونها ويرتبون مساكنها. لقد قاما بعرضها تحت أنوار الثريات الزجاجية والأضواء المذهلة كقطعة خزف ليموجس أو سيفريس في تلك السوق الفارسية لحفلات الزواج برائحة المزاد وكانت تكره ذلك. لم تعد تريد ذلك وهروباً منه، فهي في مكانها هذا. كانت تتحرك بشيء من عدم الراحة. أخيراً، أنهى السيد سوليرا عملية التعريف وخرجت هي بعد فيليبي.

ساروا عبر الممر إلى الغرفة المضاءة لقاعة الرسم. كانت النافذة الكبيرة تعبر المكتب من الطرف إلى الطرف غامرة المكتب بفيض النور الطبيعي. كان الديكور حديثاً وكانت الحواجز المبطنة بقماش المعطف تفصل الأماكن لتشكّل مقصورات للمهندسين المعماريين. قال فيليبي «الكونكِ امرأة، لديك امتياز بأن يكون مكتبك بجوار النافذة الكبيرة. فتح الأبواب ليريها مكانها ثم أخذها إلى المكان الذي كان يشغله. كان أكبر بقليل من مكانها. كان يعلق على الحائط ملصقاً بسيطاً بلون الكعك وهو إعلان لمعرض للفنون الغرافيكية.

شاهدت في الأثاث خلف المكتب جهاز راديو أسود قديماً بما يكفي.

تساءلت لابينيا عما إذا كان هو الذي كان يستمع إلى المحاكمة، لكنه لم يقل شيئاً.

جلست على كرسي من القماش الرملي اللون ذي إطار من الكروم أمام المكتب بينما ظل هو مستنداً إلى مقعد بجوار منضدة الرسم.

- قال لها مخاطباً إياها بصيغة أنتِ: «اسمكِ غريب».

- أجابت وقامت بإيماءة الخضوع لما تفضله الأمهات: «إنه ولع أمي بالأسماء الإيطالية».

- وهل لديك أشقاء بأسماء من هذا القبيل أيضاً؟ رومولو، ريمو...؟

- كلا. ليس لدي إخوة. إنني الابنة الوحيدة.

- تعجب قائلاً: أه! تاركاً العنان للتعبير بدلالات تفرض نفسها: الابنة الوحيدة، فتاة جيدة، مدللة...

لم تدع ذلك يؤثر عليها ومازحته بدورها أيضاً قائلةً ما السبيل، فالولادة قدر. كانت تود أن تسأله هل كانت لهجة السخرية ستكون مماثلة لو كانت هي رجلاً وكان اسمها على سبيل المثال أبولونيو أو أكيليس وهو أمر شائع جداً في فاغواس، لكنها فضلت عدم مواجهته على الأقل في ذلك اليوم. قالت لنفسها: سيكون هناك وقت لذلك. غيرت الحديث للتكلم حول الميدان المهني، فشعر فيليبي بذلك. أخبرها أنه درس عدة سنوات في ألمانيا. أضاف أنه بالإضافة إلى العمل أثناء النهار كان يُدَرِّسُ في الجامعة ليلاً. لقد وجدا بالحديث مخاوف مشتركة حول تجانس الخرسانة والأشجار والبراكين وحول شمولية المناظر الطبيعية وإنسانية المباني. ظن أنهما سيفهمان بعضهما بعضاً في المهنة. بعد ساعة، نظر إليها بشكل مختلف. بدت التنورة القصيرة كأنها تتحرك بعيداً عما كانت عليه في البداية، لكن الهاتف قد قاطعهما. رفع فيليبي السماعة وأجرى محادثة أحادية من جانب واحد، من تلك المحادثات التي تجرى عندما لا تكون هنالك رغبة بالتحدث بوجود شخص آخر. تظاهرت لابينيا بأنها مشتتة الانتباه وهي تنظر حوله حتى أنهى المكالمة. أبلغها أن عليه الخروج وتركها مع مجموعة من المخططات على باب مكتبه.

لقد ظلت وحدها في المقصورة، جلست أمام منضدة الرسم على

الكرسي الدوار وقامت بالدوران حول نفسها للعديد من المرات وهي جالسة على ذلك الكرسي ومستمتعة بالشعور بأنها «مهندسة معمارية». كان الجو حاراً في الخارج. يمكنك أن ترى البخار وهو ينعكس في الإسفلت. كان البخار يرتفع إلى السماء لتشكيل أبراجٍ من السحب الضخمة عند غروب الشمس، لتشكيل كتلاً من الغيوم الأرجوانية البرتقالية التي تجوب السماء قبل أن يتلاشى الضوء ويتلاشى معه يوم عملها الأول.

نشرت المخططات محاولة منها لتحديد التسميات. كانت تلك هي الممارسة. بدا النظري مختلفاً عند الممارسة العملية. تمكنت شيئاً فشيئاً من رؤية المركز التجاري والمنازل الصغيرة والتوزيع الجديد المتسلسل. كان التصميم قياسياً. قد يكون الشيء ذاته موجوداً في إحدى الضواحي الأمريكية كما هو موجود في فاغواس. من ناحية أخرى، أعطت التضاريس احتمالات أخرى. كان من المؤسف أن يقتصر الخيال على تلك الخطوط المربعة. بدأ برسم دوائر تاركاً الأمر لدوافعه. قال فيليبي «أريد أن أعرف رأيك».

كانت تفتقد فنجان القهوة. نهضت وتركت المقصورة. كانت سكرتيرة المهندسين المعماريين، ميرثيدس، شابة سمراء ميسورة الحال وودودة، تحب الاهتمام بالآخرين. قالت: «سأحضر القهوة لكما» وخرجت تتبختر تحت أنظار رسامي الخرائط. بقيت لابينيا لبعض الوقت عند الباب مبتسمة للأعين المرفوعة عن المخططات. عادت ميرثيدس ومعها الفنجان الذي كان بخار القهوة يخرج منه.

- قالت: «تفضلي، آنسة ألاركون».

- قالت لها: «ناديني بلابينيا. مناداتك لي بـ «الآنسة ألاركون» رسمية جداً.» ثم سألتها: «هل تعلمين إن كان فيليبي سيعود قريباً؟»

ابتسمت ميرثيدس ابتسامة خبيثة.

- قالت: «لا يُعرَف أبداً في أي ساعة سيعود عندما يخرج على هذا النحو في منتصف الصباح».

عاد مبكراً عند المساء وأطلقت له لابينيا وابلاً من الأفكار.

- قال فيليبي «يجب أن تذهبي لتعايني المكان».

- 2 -

عادت في المساء. فتحتُ الأبواب والنوافذ. كانتْ تبدو سعيدة، سعيدة جداً كما حصل معي في اليوم الذي تعرفت فيه على العالم وأنا أتنفس من خلال كل أوراق هذا الجسد الجديد. من كان سيخبرني أن ذلك سيحدث! عندما كان كبار السن يتحدثون عن الجنة الاستوائية لأولئك الذين ماتوا في الماء بمشيئة كيوتي - تلالوك، كنت أتصور مناطق شفافة مصنوعة من جوهر الأحلام. لكن الواقع غالباً ما يكون أشد خيالاً من التصور. إنني لا أتجول في الحدائق، بل إنني جزء من الحديقة وأن هذه الشجرة تحيا مجدداً بحياتي. كان كل شيء في الشجرة متضرراً، لكنني وضعتُ العصارة في جميع أغصانها وعندما يحين الوقت ستؤتي ثمارها وستبدأ الدورة من جديد.

أتساءل كم تغير العالم. لقد تغيرت أشياء كثيرة بلا شك. هذه المرأة وحيدة وتعيش وحدها. ليست لديها عائلة أو والٍ. إنها تتصرف كشخصية رفيعة تخدم نفسها فقط. جاءت للاستلقاء على الأرجوحة الخشبية بالقرب من أغصاني. مدّت جسمها المشدود وفكرت. كانت تستمتع بوقت التفكير، بأن تكون هكذا تفكر دون أن تفعل شيئاً.

تحيط بي جدران عالية وأسمع أصواتاً غريبة، ضوضاء مئات العربات كما لو كان هناك طريق قريب.

غريبٌ هذا الهدوء الصاخب. أتساءل ماذا حلّ بمن يخصني. أين يارينثي؟ لربما يكون قد سكن شجرة أخرى أو أنه يجول في السماء كنجم ساطع أو قد يكون قد تحول إلى طائر طنان؟ مازلت أسمع صراخه، ذلك الصراخ الطويل واليائس مخترقاً الهواء كالسهم المسموم.

أتساءل ماذا بقي منا، من والدتي التي لم أكن أراها البتة بعد أن غادرتُ مع ياريتشي. لم تفهم قط أنني لا أستطيع ببساطة البقاء في المنزل. لم تغفر قط لثيتلاكويالت الذي كان سيعلمني استخدام القوس والسهم.

***

عندما فتحت لابينيا باب المنزل شعرت بوجود العطر مرة أخرى، إنها رائحة أزهار البرتقال، تلك الرائحة الصافية. كان المنزل يلمع، إذ قامت لوكريثيا بتنظيفه. وجدت ملاحظة بخطها البدائي تخبرها فيها أنها ستصل يوم الأربعاء في وقت مبكر لرؤيتها قبل أن تذهب للعمل وقبل أن تحضر لها الإفطار. ابتسمت وهي تفكر في دلال لوكريثيا وكيف أنه بتواجدها ثلاث مرات في الأسبوع، كانت ترتب أمور حياتها. دخلت المطبخ وصبت لنفسها رشفة من الرون، ثم توجهت نحو الأرجوحة في الممر. ارتمت على نبات جوز الأرض الناعم الذي جلست عليه مسندة جسدها. هدأ الممر مع ظلام المساء. كانت الظلال تنحدر بصمت على الأشياء الهادئة. كانت الزهور البيضاء لشجرة البرتقال تبدو فوسفورية في الضوء الخافت وتلامس الجلد برفق. كما أنه لمن الجيد أن تكون هناك بسلام، وحدها مع نفسها، على الرغم من أنها كانت تود أن تتحدث مع العمة إينيس عن اليوم وأن ترى الأمل في عينيها الصافيتين وترى المحبة التي كانت تنهال من نظرتها عندما كانت تحكي لها نجاحات طفولتها أو كان عليها أن تزور سارة. لكن سارة لم تفهم أن لابينيا كانت تشعر بسعادة بالغة ولم تفهم متعة أن يكون الشخص نفسه ويتخذ قراراته ويكون المتحكم بحياته. لقد انتقلت سارة من الأب -الأب إلى الأب- الزوج. كان أدريان يتفاخر أمامها بارتداء السراويل في المنزل وكان بوسع سارة الإنصات له بابتسامة. ذلك طبيعي بالنسبة لها. كانت الحفلات التي عرضوها فيها طبيعية أيضاً، ضروريات التزاوج، تماماً مثل رقصات التودد في مملكة الحيوان. عندما تزوجت سارة، تم توزيع بطاقات من الورق المقوى وقد كلفت إيميلي بوست بطباعة وكتابة تلك البطاقات. كانت لابينيا تتذكر سارة عند خروجها من الكنيسة كسحابة بخارية من النسيج الرقيق تحمل في يدها باقة من زهور الأوركيد البيضاء

وترتدي قفازات طويلة. عليها أن تتكاثر لقرون متتالية إلى أحفاد صاخبين وبدينين. تلك هي حياتها وذلك هو إنجازها. هذا ما كان والدا لابينيا أيضاً يتمنيانه للابينيا، لكن حفلات النادي كانت تسبب لها الملل. كانت تفضل أنواعاً أخرى من قضاء الوقت.

ربما سترغب في يومٍ ما بالزواج، لكن ليس الآن. كان الزواج بالنسبة لها يعني التقيّد والخضوع. عليها أن تصادف في الطريق رجلاً خاصاً وربما لم تصادفه لحد الآن. يمكنهما أن يعيشا معاً. لن يتطلب الأمر أوراقاً للمصادقة على الحب.

كان الهواء يزداد برودة وضوء القمر المصفر ينير بطلّته البهية. كان صوتُ الصمت في بعض الأحيان يبدو لها مهدداً، كما لو كان ينتظرها متخفياً بين أغصان شجرة البرتقال. كررت حديثها مع نفسها قائلة إنه ربما كان يجب عليها الذهاب لرؤية سارة. رغم كل شيء، كانت هي وسارة تحبان بعضهما بعضاً. كانتا صديقتين منذ نعومة أظافرهما تربطهما صداقة حميمة. تقبلت إحداهما الأخرى رغم اختلافهما. لقد ندمت للحظة من الزمن كانت قد اختارت فيها العزلة. إلا أنها قررت التعلم على أن تكون بمفردها. كانت طريقتها في الإشادة بالعمة إينيس التي اعتادت القول: «يجب أن تتعلمي أن تكوني صاحبة جيدة لنفسك».

نهضت وشغلت التلفاز. أصدروا الحكم على الشاشة الصغيرة باللون الأبيض والأسود. لقد أدين مأمور السجن. نظر حراس المحكمة إلى الطبيب الذي قام بتوريطه على نحو قطعي. يكمن الانتصار الباهظ الثمن للعدالة بعد بضعة أشهر، بعد أن يخرج مأمور السجن من سجنه لحسن السلوك ويغتال الطبيب على طريق الصحراء.

مَرَّ زمنٌ اعتقدت فيه لابينيا أن الأمور قد تكون مختلفة. كان وقت غليان عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرها وكانت تقضي الإجازة مع والديها. وجدت الشوارع مغطاة بملصقات لحزب المعارضة. غنى الناس بحماس حقيقي أغنية المرشح بيردي. سادت تصورات بأن من شأن الحملة الانتخابية أن تؤدي إلى انتصار المعارضة. كل الأحلام قد تبددت يوم الأحد

الأخير من المواجهات. خرجت مظاهرة كبيرة في الشوارع تطالب بإقالة الأسرة الحاكمة وبانسحاب المرشح ابن الدكتاتور. ألقى قادة المعارضة خطبة لهذا المد البشري. يجب ألا يتحرك أحد. يجب ألا يتراجع أحد ويعود إلى منزله. المقاومةُ سلميةٌ ضد الاستبداد، حتى بدأ الجنود بالنزول إلى الشارع بخوذاتهم القتالية متجهين نحو المجموعة المتعددة الألوان المضطربة بسبب الخطب. لم يكن هناك من يستطيع أن يقول في وقت لاحق متى بدأ إطلاق النار أو كيف ظهرت مئات الأحذية التي رأتها لابينيا متناثرة هنا وهناك على الأرض في الوقت الذي كانت فيه الجموع تركض في فرار جماعي كالخيول الهاربة إلى حيث تلوح لها عمتها إينيس بيديها وتناديها.

في تلك الليلة، انتظرت العائلات بقلق وهي تنصت لصوت الطلقات النارية للقناصين في الليل. بزغ الفجر في منتصف الصمت المقيت. أعلنت الإذاعات أن المرشح بيردي ومعاونيه قد لجأوا إلى أحد الفنادق وطلبوا حماية السفير الأمريكي. كان هناك حديث عن ثلاثمائة، ثم ستمائة، ثم عدد لا يحصى من القتلى. لم يُعَرف قط عدد الأشخاص الذين لقوا حتفهم في ذلك اليوم وحملوا نعش آخر أمل للكثيرين في التحرر من الدكتاتورية إلى مثواه الأخير.

لقد ازداد القمع.

منذ ذلك الحين بدأ توزيع الأوراق. «الكفاح المسلح هو البديل الوحيد». ثمة أوراق كانت توزع تحت الأبواب. مجموعاتٌ تتخذ ثكنات نائية في الشمال مأوىً لها بينما تقوم مجموعات أخرى بإلقاء خطابات نارية في الجامعة. ازدادت الدكتاتوريةُ صلادة وكان موت «المخربين» مجدولاً.

علق والدها قائلاً: «إنه جنون. ما بقي لنا هو الاستقالة فقط» في الوقت الذي أومأت فيه والدتها برأسها.

حتى عمتها إينيس، قد أُحبِطَت. كانت لابينيا تتذكر بقشعريرة مدى قربها من موت غير مُجدٍ بالمرة.

انتهت الأخبار بإعلان عن جوارب نايلونية «الحرية الاستفزازية لا تكلف سوى تسعة بيزو»، حسب ما قاله المذيع. ابتسمت وهي تفكر كيف وصلت

الحداثة في فاغواس إلى أرجل النساء باقتراح لباس داخلي - بأسعار زهيدة يمكن لأي شخص شراؤه، التحرّر من خلال الجوارب. أطفأت التلفاز وتمددت في فراشها وهي تقرأ كتاباً حتى تغلب عليها النعاس ومرة أخرى ظهر جدها يدعوها إلى ارتداء الأجنحة.

***

إنه الليل. تسللت إلي رطوبة الأرض من خلال عروق خشب النبات الطويلة هذه. إنني مستيقظة. هل إنني لن أنام مرة أخرى أبداً ولن أترك نفسي للأحلام أبداً ولن أعرف الطوالع المفكوكة الشفرة للمنام الحالم؟ بالتأكيد ثمة أشياء كثيرة لن أشعر بها مجدداً. عندما كنت أنظر في الحديقة إلى المرأة الكثيرة التفكير، كنت أرغب في معرفة ما كانت تتأمله وكانت هناك لحظات بدت لي فيها كأنها قريبة مني، كما لو كانت أفكارها ممزوجة بتمتمة الرياح.

آه! لكنني سرعان ما سرق القمر انتباهي. لقد ذهب بعيداً. كان يبدو كبيراً وأصفر، كما لو كان ثمرة ناضجة تعلو في القبة الزرقاء وهي تتضح تتألق بلونها الأبيض مرتفعة بعيداً إلى أعلى نقطة في السماء. أما النجوم، فللأخرى غموضها. كان الليل دائماً هو الوقت الساحر بالنسبة لي. كانت الرؤية المجددة للكثير من النجوم (التي كنت أتساءل في قرارة نفسي عن عددها) كافية للتخلص من الحزن الذي بدأت أشعر به «جراء عدم تكرر حصول الأشياء معي» والذي كان ينتظرني. كان علي أن أشكر الآلهة على انبعاثي من جديد وعلى التنفس المتعدد من خلال العديد من الأغصان داخل هذا اللباس الأخضر الواسع الذي أتاح لي العودة.

بدأت أهتز في الهواء أتأرجح وأشعر بالخفة. تصورت أكثر من أي وقت مضى كيف كانت الأشجار منتصبة ورشيقة، كما لو لم تكن للجذوع العريضة وزنها. الآن أعرف الفرق بين الجذور والقدمين، فالجذور تمنحني شعوراً مختلفاً تماماً. إنها أرجل صغيرة ممتدة في الأرض. نصف جسمي غارق في الأرض. لم أشعر قط بفكرة التوازن الثابت هذه عندما كنت أستند إلى السطح، عندما كانت لي أقدام فقط. كان الليل قد حل واليراعات تحوم حول الطيور النائمة. كانت الحياة تنبض في داخلي كما لو كنتُ حاملاً، مثل

منول الفراشة والإنبات البطيء للفاكهة في نورة أزهار البرتقال. من المسلي التفكير بأنني سأكون أماً للبرتقال. كان علي أن أرفض الأبناء.

***

في اليوم التالي، خرجت لابينيا مبكراً وتوجهت إلى موقع البناء المبين في مخطط المركز التجاري. كان يوماً دافئاً. أثارت رياح كانون الثاني أثناء هبوبها الغبار. نزلت سيارة الأجرة عبر الشوارع باتجاه جوار البحيرة. عندما اقتربَتْ من المكان، رأتْ من النافذة جزء المشروع الذي هو قيد الإنشاء بالفعل. كان أساساً لعدد لا يحصى من المنازل ذات النمط الواحد. خرجت من سيارة الأجرة وبدأتْ بالسير في منتصف الشوارع المرسومة حديثاً كان لا بدّ للجص الممتزج بالغبار أن يلطخ بنطالها ببقع بيضاء. وجدتْ هنا وهناك مجموعات من العمال المجتهدين يصبون الخرسانة لتشكيل الدعامات التي ستُشَيَّدُ عليها الجدران. كانوا ينظرون إليها وهي تمر متفاخرةً ويتركون الأسمنت كي يصفروا أو يدعوها تذهب «وداعاً، يا حلوة». ظنت لابينيا أن هذه المضايقة التي تتعرض لها النساء في الشارع غير قانونية. من الأفضل التظاهر بعدم الانتباه رغم أنها أحياناً كانت تتوقف وتسألهم حول العمل. توقفت للرجوع إلى المخططات. لم تتمكن من تحديد مكان بناء المركز التجاري. توجّهت أخيراً بعد أن أدركت أن اللافتات تشير بوضوح إلى الجانب الآخر من الشارع. نظرت إلى الأعلى ونظرت مرة أخرى إلى تعاقب المساكن من الورق المقوى والألواح، مستوطنات المحتلين. شغلت أحياءٌ مثل هذه محيط المدينة وتسللت أحياناً نحو مناطق وسط المدينة.

حسبت أن خمسة آلاف شخص على الأقل كانوا يعيشون هنالك. خيّم على الحي هدوء الفقر وثمة أطفال عراة، أطفال ذوو سراويل قصيرة كانوا يملأون دلاء الماء من الحنفية المشتركة، ونساء حافيات الأقدام ينشرن ملابس من قماش بالٍ ومدبوغ على الأسلاك الصدئة. كانت هنالك امرأة تطحن الذرة وأسلاك. هناك في الزاوية رجل سمين كان حاضراً في ورشة عمل خاصة بالفَلْكَنَة.

وفقاً للمخططات، فإن ركن المركز التجاري سيكون فوق ورشة الفلكنة

التي لم يكن لها وجود وستُستبدل بمحل مشروبات باردة. ستجتاز جدران البناء الجديد الحدائق الصغيرة هناك بأشجار الموز واللوز.

ثمة أسئلة دارت في خَلَدها وماذا بشأن الناس؟ ما الذي سيحدث للناس؟ لقد قرأَتْ أكثر من مرة عن عمليات التشريد في الصحيفة. لم تظن قط أنه قد جاء دورها لتساهم بهذا التشريد.

نظرت حولها. حركت رياح كانون الثاني الأدغال التي كانت تنمو على الأرصفة وسط البناء. كانت مجموعة من العمال تضع كتلاً على قواعد أحد المنازل الجديدة، فاقتربت منها.

- سألتهم: هل تعلمون أنه سيتم بناء مركز تجاري على الجهة المقابلة؟

نظر العمال إليها من أعلى إلى أسفل. مسح أحدهم عرقه بوشاح قذر سمائي اللون كان مربوطاً على رقبته.

حرك رأسه مؤكداً.

- سألت لابينيا: لكن ماذا عن هؤلاء الناس؟

نظرت المجموعة إليها دون أن تعبّر بشيء. فتاة بيضاء ترتدي ملابس جيدة وتطرح هذه الأسئلة وهم عمال أقوياء البُنية وكانت صدورهم السمر العارية تلمع من العرق. كانوا حفاة وكانت أقدامهم وأيديهم مصطبغة باللون الأبيض للجص.

قام الشخص الذي أشار برأسه قبل ذلك بإيماءة ازدرائية بوجهه. رفع كتفيه في تعبير واضح مفاده «من يدري»، «من يهتم بذلك».

أكد أحد العمال وكان يرتدي وشاحاً أحمر مربوطاً على جبينه كاسراً الصمت قائلاً: «سينتقلون إلى مكان آخر». سيأخذونهم من هنا لأنهم محتلون.

- سألت هي: «ومنذ متى يعيشون هناك؟»

- تأوه ذو الوشاح الأحمر قائلاً: أُوه! منذ سنوات. منذ أن انطمت البحيرة.

- وماذا يقولون هم؟

مرة أخرى الإيماءة، لكن من قام بها هي المجموعة بأكملها. كان رد فعل متطابق ومتزامن.

- قال ذو الوشاح الأحمر: «إسألوهم». إننا لا نعلم شيئاً.

– أجابت قائلةً «شكراً» وابتعدت مع علمها أنهم لن يخبروها بالمزيد. عندما عبرت الشارع شعرت بعيون الرجل ذي الوشاح الأحمر وهي تنظر إليها من خلفها.

كان العرق يتصبب من ساقيها ويجعل بنطلونها ملتصقاً على جلدها وكان القميص الأحمر على ظهرها. لطخ المكياج المناديل الورقية التي كانت تنشف بها وجهها. ذهبت لابينيا إلى الكوخ الخشبي الذي كان بمنزلة ورشة عمل للفلكنة. وضع الرجل السمين إطار عجلة في برميل مليء بالماء وكان يراقب منتظراً الفقاعات التي تشير إلى مكان الشق. إنها طرق تشخيص بدائية للفقراء، لكنها دقيقة. ألقت التحية. في الداخل، كان هنالك رجل نحيف قد نظر إليها وكان يُخرِجُ إطارَ العجلة بضربات من جهة غطاء الحافة المطاطي.

– سألت لابينيا الرجل السمين قائلة: «هل تعلم إذا ما كان يجري في هذا الميدان التخطيط لبناء مركز تجاري؟»

– توقَّف وأجاب: «نعم». كان الإطار يُخْرِجُ فقاعاتٍ من جميع الجهات وقد انتبه لذلك.

– هل أنت راضٍ؟

مرة أخرى، نفس إيماءة العمال. تساءلت لابينيا لماذا كانت تطرح الأسئلة، ما الذي تريد أن تعرفه.

– قالوا إنهم سينقلوننا إلى مكان آخر، إنهم سيعطوننا أراضي أخرى. مضى على وجودي هنا خمسة أعوام. أشار إلى الشوارع الترابية للحي قائلاً: هناك يقع منزلي. لقد ناقشنا الأمر مع الشركة الإنشائية، لكنها أكدت أن هذه الأراضي لا تعود لنا. كما لو أننا لم نكن ندرك أننا لا نملك شيئاً! لقد دخلنا هنا عندما أخذتنا المياه من البحيرة إلى هناك –قال ذلك وهو يشير إلى مكان غير محدد باتجاه البحيرة–. لم يزعجنا أحد طوال خمس سنوات. لقد استثمرنا هنا حتى إننا أنشأنا مدرسة من بين أشياء أخرى. لكنهم لا يكترثون لذلك. لا أحد يسمعنا. سيطردنا الحرس إذا لم نذهب. هذا ما قالوه. وحضرتك، من أنتِ؟ –هذا ما طلب الرجل معرفته ونظر إليها فجأة بنظرة شك كأنه قد ندم على الحديث أكثر من اللازم–. هل أنتِ صحفية؟

– أوضحت لابينيا بشيء من عدم الراحة، قائلة: «كلا، لست بصحفية. أنا مهندسة معمارية وطلبوا مني مراجعة المخططات. لم أكن أعلم بهذا الوضع».

– قال الرجل السمين ملاحظاً بانتباه المخططات تحت ذراعها بينما كان يعيد إطار العجلة إلى الماء: «في هذا البلد لا أحد يعرف ما لا يناسبه».

غادرت لابينيا. مشت لفترة أطول في الطريق المقابل للمستوطنة ورأت الشوارع الترابية وهي تتلاشى داخل تفرعاتها المجنحة المؤدية إلى منازل من ألواح خشبية وحواجز مبطنة بالصحف داخل الغرف وسقوف من الخوص والقرميد والزنك والخشب، مشيرةً إلى تباين درجات الفقر. ثمة فتية ذوو كروش قذرون وعراة يقفون على عتبة الباب بجوار الكلاب السقيمة. هنالك أيضاً محاصيل الموز ودجاجات تتجول هنا وهناك. على مسافة من ذلك، يقع المكان المغطى الخاص بالمدرسة والأطفال يجلسون على الأرض والمعلمة ترتدي ثوباً بالياً وتنتعل نعلاً من المطاط وتقف أمام السبورة. لقد شعرَتْ بالأسف والانزعاج. لم تكن تلك الطريقة الأكثر استحساناً للتعرف عملياً على هذا الشعور الذي يشكل جزءاً من الأداة المدمرة التي من شأنها أن تجبر على هجرة جديدة لأولئك الغجر الأبديين. تساءلت: «لماذا لم يحذرها فيليبي؟» متجهةً إلى الشارع وسط الحرارة الخانقة والرياح التي تثير الغبار.

عادت إلى المكتب في سيارة أجرة مرسيدس بنز.

استقبلتها نسمة هواء التكييف خلف الأبواب الخشبية الكبيرة. لاحظت سيلبيا، موظفة الاستقبال، تعرقها. أخبرتها أن تغير الجو الكبير عليها أمر خطر وأنها ستصاب بالبرد.

ذهبت لابينيا إلى الحمام ونشفت جسمها بمنشفة. تحول الغبار على ساعديها إلى طين عندما لامسه الماء. وجدت نفسها شاحبة عندما نظرت في المرآة. أخرجت أحمر الخدود لتصلح مكياجها مرة أخرى قبل التحدث إلى فيليبي.

طرقت الباب وسمعت صوت فيليبي وهو يقول لها «تفضلي». دخلت

لابينيا. كانت تعي أن البلوزة ما تزال مبللة وملتصقة على جلدها وصدرها مقشعرّ من برودة تكييف الهواء.

– سألها مُمَازحاً والابتسامة مرتسمة على عُرْض فمه الكبير ذي الأسنان المتعرجة بعض الشيء: «هل رشقوكِ بدلو من الماء؟»ً.

– قالت لابينيا: «دلو من الماء البارد. لماذا لم تخبرني بأمر أرض المركز التجاري؟»

– رد عليها فيليبي وهو ينظر إليها بنظرته الساخرة: «اعتقدت أن الفتيات من أمثالك لا يكترثن لهذه الأشياء».

– أرأيت؟ لقد كنتَ مخطئاً. لقد حكمت عليّ مسبقاً بناءً على بيان ولادتي. بالطبع أقلق بشأن هؤلاء الفقراء. لا تعجبني فكرة البدء في ممارسة تصميم الإنشاءات التي ستطرد ما يقرب من خمسة آلاف روح، كما يقول الكهنة... – هزت بلوزتها ونفخت في الداخل وهي تهوّي صدرها. كانت تشعر بالحر. كانت تشعر بأن خديها يحترقان وكان جلدها محمرّاً بسبب التباين بين درجة حرارة جسمها والبيئة ذات البرودة الاصطناعية. اتكأت على الكرسي. لم يعجبها موقف فيليبي.

– قال: «أظن أنه من الجيد أن تفقدي بعض أفكارك الرومانسية حول الهندسة المعمارية».

– كان بوسعكَ أن تمنحني المزيد من الوقت...

– ربما. أعتقد أن الأمر هو أكثر صعوبة في وقت لاحق، ستكون الضربة أصعب... دعيني أطلب لكِ ماء. إنك تشعرين بحرارة كبيرة وقد تؤذيكِ البرودة.

نظرت إليه لابينيا. لقد خفّ تعبيره قليلاً. خرج من المكتب وعاد بالماء البارد. شكرته على تفكيره بتلك الطريقة المفاجئة التي استبدل فيليبي بها الفظاظة بالرقة.

– قالت لابينيا بينما كانت تشرب الماء ببطء وهي تتذكر إيماءات العجوز: «أكثر ما أثّر فيّ هم الأشخاص المستسلمون».

- قال فيليبي: «ليس لديهم خيار آخر. إما أن يغادروا أو أن يطردهم الحرس».

- هذا ما قاله لي أحدهم.

ظلوا يتحدثون حتى الظهر. دعاها فيليبي إلى الغداء في مقهى قريب.

- قالت: «سنذهب معاً في يوم آخر». من الأفضل أن أذهب الآن لتغيير ملابسي.

كانت تفكر في فيليبي وهي متوجهةً إلى منزلها. كان غريباً وكان الحديث معه موسعاً حول حقائق العمل. حسب ما قاله، لقد حاول دون جدوى أن يثني أرباب التوزيع عن تغيير موقع المركز التجاري. كانت الأرض التي تم شراؤها من البلدية بسعر صفقة رابحة أرضاً وطنية. لقد جنى آمر السجن أرباحاً من وراء الصفقة وكانت المخططات قد تم الانتهاء منها بالفعل. قال لها: «أريد فقط رأيكِ». لم تكن هي مَنْ يصمم الجدران التي ستكتسح حدود الرجل السمين وورشة الفلكنة الخاصة به. كنت أحاول فقط «أن أهبط عليها». أخبرها أنه من الأفضل السير على الأقدام على الأرض.

- 3 -

فهمتُ ببطء هذا الزمن واستعددتُ له. لقد راقبت المرأة. يبدو أن النساء لم يعدن تابعات بل يشكلن عنصراً أساسياً حتى إنهن يحافظن على عبوديتهن الخاصة بهن ويعملن خارج المنزل. على سبيل المثال، تخرج لابينيا للعمل في الصباح ولا أعرف كم ميزة قد ينطوي عليها ذلك. كان لأمهاتنا على الأقل عمل واحد فقط وهو العمل المنزلي وكان ذلك كافياً. أرى أنه ربما كان من الأفضل أن يكون للمرأة أطفال لديمومة الحياة وزوج ينسّيها ضيق الدنيا بمعانقته لها ليلاً. بالمقابل، لا تتمتع لابينيا بهذه السعادة.

في هذا الوقت يبدو أنه لا توجد عبادة للآلهة. إنها لا تشعل أغصان الزيتون ولا تميل للاحتفالات. لا يبدو أن لديها أدنى شك بأن توناتيوه سيضيء صباحاتها. لقد عشنا دائماً خائفين من أن تغرب الشمس إلى الأبد. فما ضماننا بأن تشرق الشمس غداً؟ ربما وجد الإسبان طريقة ما لضمان ذلك. لقد ادعوا أنهم قادمون من بلادٍ لا تغرب الشمس فيها أبداً. لكن ذلك لم يكن له صحة في ذلك الوقت وكذب لسانهم الغريب المعسول. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تعرفنا على هواجسهم النادرة. كانوا قادرين على القتل من أجل حجارة وذهب مذابحنا وأثوابنا، إلا أنهم ظنوا أننا كفار لأننا ضحينا بالمحاربين للآلهة.

كيف تعلمنا أن نكره تلك اللغة التي جردتنا والتي فتحت ثغرات في كل ما قد كنا عليه حتى لحظة وصولهم!

ولهذا الزمن لغة مشابهة للغتهم التي هي فقط أحلى منها بترنيماتها التي تشبه ترنيماتنا. لا أريد المغامرة بالتفكير في المنتصرين أو في المهزومين.

تستمر عصارتي بعملها باندفاع لتحويل أزهار شجرة البرتقال إلى فاكهة. أشعر بالفعل بأجنة الثمار وهي تكسو نفسها بالغلاف الأصفر للبرتقال. أعلم أنه ينبغي علي أن أسرع. سنلتقي أنا وهي قريباً. سيأتي وقت الثمار، وقت النضج. أتساءل عما إذا كنت سأشعر بالألم عندما أقطعها.

***

أمضت لابينيا الشهر الأول من العمل وهي تثبت نفسها على أرض الواقع تحت الإشراف المستمر لفيليبي الذي أدى بكل سرور دوره بجعلها تعيش الواقع، بهبوطها على الأرض، حسب وصفها. مكتبة سُر مَن قرأ

لقد اعتادت على الروتين اليومي، على النهوض مبكراً للذهاب إلى العمل حتى عندما كانت تأسف كل صباح لتركها الشراشف الباردة والمريحة. لم تتمكن قط من فهم سبب عدم تعديل الجداول الزمنية واحترام الساعات الأولى وهي أكثر أوقات النوم راحةً. كانت تراهم يميلون للمخالفة. كانوا ينامون في الوقت الذي تستيقظ فيه المدينة وفي الوقت الذي تبدأ فيه شاحنات التوصيل والحافلات وسيارات الأجرة صباحها في الشوارع وهي تحمل الناس وشحنات الحليب والخبز مع الزبدة وينامون على الرغم من دخول الشمس لا محالة دون علاج من خلال شقوق الأبواب.

لكن النعاس لم يدم طويلاً. بعد ما أصبحت جزءاً من الصخب والطباعة على الآلة الكاتبة في المكاتب، فهمت لماذا وجد الناس ارتياحاً كبيراً في القلق وفي الحدود الضيقة لتوقيع العقود وفي إنهاء المشاريع. لقد كانت طريقة للشعور بالأهمية ولإيجاد سبب للخروج من عالم المنزل والدخول إلى عالم سجل الميزانيات حيث يكمن الخطر، خطر الربح والخسارة. هكذا تحولت الحياة إلى عمل مثير للاهتمام ورهان مستمر ويمكن للمرء أن يتظاهر بأنه لم يبدد وقته وأنه قد فعل شيئاً بتلك الساعات الممتدة وبتلك الأيام المتكررة بلا هوادة يوماً بعد يوم.

نهَضتْ من السرير واستأنَفت الطقوس التي تمارسها وهي: وضع الماء للقهوة والنظر من النافذة لمراجعة ولادة الشجرة من جديد –البرتقال المستقبلي الذي كان يتلألأ بالفعل بين الأغصان مثل الكرات الخضراء

الصغيرة–، ثم الدخول للحمام ورؤية الوجه في المرآة. فكرت في وجهها الصباحي الذي كان يبدو بعيداً على نحو غريب وقبيحاً. لحسن الحظ، فإن الشخص يعرف أنه بعد وقت قصير من ذلك سيعود إلى مظهره المعتاد. فتحت مرشة ماء الحمام (الدوش) وشعرت بزوال النعاسِ بفعل الماء مما يعلن عن نهار جديد. لقد أحبت فرك الصابون حتى قامت بعمل تطريز رغوي على جسدها العاري ورؤية شعر جسمها يتحول إلى اللون الأبيض بفعل الرغوة وكانت تتعرف على ذلك الجسم الذي خُصِّصَ لها بغموض مدى الحياة، إنه مجسها الكوني. «يجب أن نحب أجسادنا»، هذا ما قاله لها خيرومي عندما كانا يتبادلان الحب ويلتقيان بجوار البحر، وسط أشجار الزيتون الملتوية في تلك الجولات لسكن طلاب اللغة الفرنسية الشباب الذين كانت تتذكرهم في تلك اللحظة. يذكرها الاستحمام بخيرومي وباكتشاف قوام الفاكهة الخضراء للجسم الذكري وبالعضلات القوية التي كانت تحسها بفخذيها الناعمين. بهذه الطريقة علمت أن بشرتها كانت مستعدة للمداعبة وأنها قادرة على إصدار أصوات تجعلها تظن أنها من أقرباء القطط والفهود والنمور الأمريكية في غاباتها المدارية.

أغلقت عينيها تحت مرشة الدوش في الحمام ورسمت في مخيلتها صورة واضحة ومتراكبة لفيليبي في علاقة غرامية عرضية. ثمة ما هو أكبر من الاهتمام بالهندسة المعمارية كان يجذبهما لبعض. لقد لعبا لعبة القط والفأر وهما يبحثان بعضهما عن بعض ويحاولان الهروب بعضهما من بعض باختلاق التناقضات الوهمية التي كانت ذريعة لمشاورات طويلة لكل منهما في مكتب الآخر. كانا يتناقشان باستمرار منذ اليوم الذي أرسلها فيه لملاحظة الإخلاء الذي تضمنه بناء المركز التجاري. مع ذلك، ما إن مرت الأسابيع عليهما حتى فهمت التأثير المحدود لآرائه على العملاء. لم تتوقف عن الإصرار على أنه بالرغم من أن من يتمتعون بالمال هم غير إنسانيين على وجه التحديد، فإن زمام أمور الرسم والتصميم هي في يد المهندسين المعماريين. كان قبول الطلبات البسيطة أو المليئة بالثغرات أو المنمقة من العملاء يكلفها كثيراً. أبدت صبراً كبيراً وساعدها فيليبي على التوصل إلى حلول وسط. لكن إرادتها كانت تطالبها بين تارة وأخرى وهي تصرخ

داخلها صرخة «الطفلة المدللة» وتؤكد عليها أن الراتب الذي تكسبه هو لإرضاء العملاء وليس لثنيهم عن رغباتهم، خاصة عندما يتضح عدم جدوى المناقشات. كانت لابينيا على يقين من أن فيليبي كان يستمتع بالجدل حتى عندما كان يتظاهر باليأس عندما يراها تظهر عند باب المكتب بوجه المتخاصم. كانت نظراتهما تلتقيان وتفترقان في الاجتماعات. مع ذلك، كانا يتظاهران بالبرودة المهنية من خلال عد العدة خلف المباني والمنازل ومواد السقوف والجدران والتحدث عن الأشياء في الأماكن المحيطة ويتجنبان المواضيع الشخصية. كانت تميل أكثر من مرة إلى دعوته إلى منزلها، غير أنها لم تجرؤ ولا حتى على أن تقترحَ عليه أن يدعوها للغداء. شعرت بأنها محاصرة بمجال مغناطيسي لمغناطيس وغبار فولاذي. بدا فيليبي كأنه يتغزل بهذا الانجذاب في الوقت الذي كان فيه يتجنب دوامة الاستسلام إليها على الرغم من أنه كان من الصعب التفكير بعدم حدوث شيء. لا بد للعبة من أن تحسم أمرها في يوم ما. كانت عيناهما تنطقان بنظرة الليلة التي يتجردان فيها من ملابسهما ويطلقان القيود ويغرقان معاً. لكن لابينيا كانت تظن أن مفاهيمه ربما تكون أكثر تقليدية وأنه يروق له التسويف ورمي فتات الخبز لها مثل حَمَام الساحات ليرفرفَ بجناحيه عندما تقترب الساعة الخامسة بعد الظهر، وهو الوقت الذي يفترقان فيه. قالت في قرارة نفسها وهي تنزع جواربها ربما أنها ضحية للتأملات الرومانسية بينما الواقع هو أن لفيليبي علاقات حب غير مشروعة مع المرأة الوهمية التي كانت تنتظر بتوق مغادرة زوجها لإجراء تلك المكالمات الهاتفية الغامضة التي تحفزه للخروج منطلقاً من المكتب في منتصف الصباح أو بعد الظهر. أو قد يكون دون جوان يداري رغباته مع العديد من النساء المسؤولات عن الاجتماعات الدراسية في الليل والطلاب الذين يحتاجون إلى ذلك، إذ ما من شخص طبيعي لديه كل هذا الكم من الأشياء التي يقوم بها، ما من أحد كانت ساعاته مشغولة جداً خارج ساعات الدوام كما كان الأمر معه.

رن الهاتف وأخرجتها رنته من ذلك القلق الذي كان يساورها. إنه أنتونيو، لقد دعاها للرقص ليلاً. قبلت دعوته مرتين دونما تفكير. كانت بحاجة لأن تلهي نفسها.

عندما وصلت مسرعة إلى بهو المبنى، وجدت فيليبي ينتظر المصعد. دخل الاثنان معها جنباً إلى جنب وجلسا بصمت وسط الرجال والنساء الذين كان القلق بادياً على وجوههم. فكرت لابينيا في غرابة أمر المصاعد وفي الصمت المتوتر الذي كان يسود. كان الناس في المصعد يشبهون الأسماك الصامتة الخائفة في الجوار التي تسبح فارّة نحو الأبواب المفتوحة دون أن تُمسَك والوجهات المختلفة والشقق. عندما خرجا من المكان المسور الصغير، تنفسا الصعداء كالذي يخرج ليأخذ جرعة من الهواء بعد أن غرقَ. ثمة مصاعد وأحواض سمك وأشياء من نفس الصنف.

عندما خرجا في الطابق الرابع، حَكَت الأمر لفيليبي. ضحك فيليبي على حصوله.

كانت سيلبيا على مكتبها بالفعل. قالت صباح الخير لمن تأخروا في الوصول.

مزحت لابينيا من الطريقة الخداعة التي التصق فيها جسمها بملاءة السرير جراء النعاس في ذلك الصباح. شعرت بالاندماج الكامل في الجو المرح والإبداعي للمكتب. بدت شكليات اليوم الأول بعيدة عنها. السيد سوليرا هو الآن خوليان. كان زملاؤها من الرجال يحترمونها -إنها المرأة الوحيدة التي كان لها منصب جوهري، إذ كانت النساء الأخريات سكرتيرات ومساعدات وعاملات نظافة-. تذكرت أنه لم يكن سهلاً انفصالها عن فيليبي في الممر ودخولها مكتبها المريح الذي أصبح مزيناً بالنباتات والملصقات على الحائط. في البداية استمعوا بشكل مرتاب إلى رأيها. عندما جاء دورها لتقديم المشاريع أو التصاميم، تعرضت لوابل كثيف من الأسئلة والاعتراضات. لم تترك نفسها أسيرة الخوف. استفادت من شهادة ميلادها التي كان لها الفضل عليها لأنها ولدت في طبقة اجتماعية تربت فيها على أن تكون سيدة العالم.

ساعد موقف خوليان تجاهها في تلطيف محاولات الآخرين لفرض التسلط الذكوري. كثيراً ما أشار إلى إبداعها وإلى إنجازها المهني. لقد جعلها قدوة في الاهتمام بتحقيق مستويات أفضل من الجودة، حتى لو تطلّب ذلك إطالة الاجتماعات مع العملاء.

وضعت حقيبتها على المكتب وحركت ستائر النافذة، ثم أخذت أقلام الرصاص لشحذ رأس القلم بالمبراة الكهربائية. دخلت ميرثيدس تحمل لها القهوة وتضع الصحف على المنضدة.

استمتعت لابينيا بالقليل من الأشياء مثل تلك الساعة الأولى في المكتب وهي تتهيأ نفسياً للنشاط اليومي الكبير.

فتحت الصحف وتصفحت الأخبار اليومية بينما كانت تحتسي قهوتها. بعد برهة وجيزة، دخل فيليبي لمراجعة عمل الأسبوع. كان يوم الجمعة وكانا سيجتمعان مع خوليان بعد الظهر كما هو معتاد لتقييم ما تم إنجازه لوضع خطة الأسبوع التالي.

في لحظة ما أثناء المحادثة، ذكرت خططها لليل.

- «ألا تود الرقص؟» سألت فيليبي.

- قال: «بالطبع نعم». منذ كنت طفلاً فزت بالمسابقات في المدرسة - ونظر إليها مبتسماً ابتسامة كبيرة. اعتقدت لابينيا أنها لم تلاحظه بمثل ذلك المزاج الجيد منذ أيام.

في تلك الليلة، بينما كانت ترقص مع أنتونيو على منصة الرقص في «إيليفانتي روسادو»، رأت فيليبي متكئاً على الحانة يحتسي جرعة المشروب ويراقبها. فقدت تركيزها للحظة مندهشة لرؤيته هناك وسط الدخان والموسيقى الصاخبة، بدا كرجل مبتسم يظهر ويختفي خلف الأزواج المزدحمة من الناس في المساحة الضيقة لمنصة الرقص.

ظلت ترقص تاركةً نفسها لآلة الدفيّة الموسيقية وهي تأخذها بإيقاعها. شاهدت فيليبي وهو ينظر إليها من بعيد. كانت ساقاها تغريانه. استسلمت لإحساسها بالشعور بأنها مراقبة. كانت ترى فيليبي من خلال الأضواء والدخان. كانت عيناه الرماديتا اللون تخترقانها وتداعبانها. رقصت له محاولة أن تتجنب رؤيته وهي تعي أنها تفعل ذلك لإثارته مستمتعة بتلك الإثارة وبشهوانية الرقص وبنشوة التفكير بأنهما سيلتقيان أخيراً خارج المكتب. كانت ترتدي إحدى تنوراتها القصيرة وكعباً عالياً وقميصاً مثقباً من كتف واحد -صورة خالصة للخطيئة، هذا ما فكرت به قبل الخروج-

ودخنت القليل من مادة (الماريغوانا). كان يروق لها القيام بذلك بين حين وآخر. رغم أنها قد عاشت في إيطاليا وتخلصت من غضب الهروب السريع الزوال إلا أن أصدقاءها، هنا في فاغواس، كانوا يكتشفونه وكانت تقوم بمسايرتهم.

عندما تغيرت الموسيقى، كانت قد قررت أخذ زمام المبادرة، عدم المخاطرة ببقاء فيليبي ببساطة في الحانة يراقبها من بعيد، ثابتاً في مكانه كما هو الحال دوماً. لم يتفاجأ أنتونيو عندما أخبرته أنها ستذهب لتسلم على رئيسها في العمل. عاد إلى طاولة مجموعة الأصدقاء بينما توجهت لابينيا إلى الحانة.

- قالت لابينيا لفيليبي ساخرةً: «حسناً، حسناً. كنت أظن أنك أسمى بما يكفي عن أن تتواجد في مراكز الرذيلة والفناء كهذه» وكانت جالسة على مقعد فارغ ثلاثي الأرجل بجواره في الحانة..

- قال فيليبي «لم أستطع مقاومة فضول رؤيتكِ وأنتِ في هذه البيئة. أراك كسمكة في الماء. ترقصين بشكل جيد جداً».

- أجابت ساخرةً: «لا يرتقي رقصي لمستوى رقصك، فلم أفز قط بأية مسابقة».

- قال لها وهو ينزل من مقعده ويقف على الأرض ويمد يده إليها: «لأن الفتيات مثلك لا يشاركن بهذه الأشياء. فلنذهب للرقص».

تغير إيقاع الموسيقى. اختار الـدي.جَيْ. موسيقى بوسا نوفا بطيئة. انسحب معظم الثنائيات من منصة الرقص. لم يبق سوى عدد قليل من الأجساد المتعانقة. قبلت دعوته مسرورة. لقد تحدثت بلا توقف وكرهت نفسها لشعورها بالتوتر الشديد. ضمها فيليبي بثقة وبقوة إلى صدره العريض. مكّنها ذلك من أن تشعر بالشعر الأسود الوفير من خلال القميص. بدآ بالتحرك الإيقاعي البطيء. كان جلداهما متلامسين وكانت ساقا لابينيا ملتصقتين ببنطال فيليبي.

- سألها وهو يشير إلى أنتونيو عندما مرّا بالقرب من الطاولة: «هل هو صاحبكِ؟».

– أجابت لابينيا: «كلا، لقد ذهبت موضة الصاحب».

– قال لها وهو يضمها إليه بضغطة أشد قوة: «إذن هو حبيبكِ».

– قالت لابينيا: «إنه صديقي ويرفّه عني بين حين وآخر».

شعرت باهتزاز في جسم فيليبي كردة فعل على نيتها في بيان حقيقة الأمر معه. ضمها بقوة شديدة لدرجة أن ضمه لها كان مؤلماً تقريباً. تساءلت لابينيا عن المرأة المتزوجة والدروس الليلية في الجامعة، ثم أخذا نفساً عميقاً. استطاعت أن تلامس بفمها أزرار القميص في منتصف صدره. فكر أن الرقص قد أصبح جدياً. سقطت الحواجز وتحررت القيود. تسارعت دقات القلوب والتنفس. كان تنفس فيليبي دافئاً على مؤخرة عنقها. كانت الموسيقى تحركهما في الظلام والمحيط بالكاد مضاء بكرة المرايا التي تدور تحت شعاع الضوء العاكس. ثمة دخان ورائحة طيبة للمدخنين المختبئين الخارجين من الحمامات.

– سألها فيليبي من الأعلى هامساً لها دون أن يفلتها: «هل تحبين تدخين الماريغوانا حقاً؟»

– هزت رأسها من الأسفل قائلة: «بين حين وحين، لكنني قد اجتزت هذه المرحلة».

عانقها فيليبي بقوة أشد. لم تفهم التغيير المفاجئ جداً. بدا كأنه قد تخلى فجأة عن كل مظاهر اللامبالاة مطلقاً العنان لنفسه علانية للإغواء الغريزي. شعرت أنها في حيرة من أمرها. أطلق فيليبي قوة فطرية ولدت في داخله. إنه مختلف عن الآخرين، عن أصدقائه. شعرت بالقوة في جميع أنحاء جسده وفي عينيه الرماديتين اللتين كانتا تنظران إليها في تلك اللحظة وبالكاد كان يفلتها.

– قال لها: «عليك ألا تستمري بتدخين الماريغوانا. لستِ بحاجة لهذه المواد المصطنعة. في داخلكِ حياة نابضة. لا تستمري بأخذها».

لم تعرف لابينيا ماذا تقول. شعرت بالدوار وهي تتحرك أسيرة عينيه، تختطفها تلك النظرة الرمادية الدخانية. قال شيئاً عن الأحاسيس. زادت العشبة التي دخنتها من الأحاسيس.

قال: «لا أعتقد أنك بحاجة إلى أن يزيدوك أي شيء».

انتهت الموسيقى الهادئة. تغيرت إلى موسيقى روك قوي. لم يطلقها فيليبي. واصل مراقصتها متحركاً على الإيقاع الضروري لجسمه الذي لا يمت بِصِلة للموسيقى، كما لو كان يستجيب لموسيقى كان يسمعها هو فقط. بدا للابينيا كأنها لا تعرفه. لقد ضمها إليه بقوةٍ، كغريقٍ قد تعلق بلوح إنقاذ وسط المحيط. شعر بتوترها. رأت أنتونيو من بعيد يؤشر لها إشارات، فأغمضت عينيها. بالنسبة لها، كان فيليبي يعجبها أيضاً. كانت تريد أن يحدث ذلك. رددت في قرارة نفسها مراراً وتكراراً أنه لا بد لذلك أن يحصل يوماً ما. لن يقضيا حياتهما كلها بالنظرات في المكتب. كان يدفعهما ذلك الشيء الفطري بشم أحدهما الآخر متبعين ما تدفعهما غريزتهما إليه وذلك الانجذاب الكهربائي الذي لا تشوبه شائبة. لم تفكر أكثر من ذلك، إذ لم تستطع التفكير. كانت تموجات جلده تلتف من حولها مغطية إياها من جميع الجوانب. نظرت إلى التناقض بين الموسيقى وقفزات والتواءات أنتونيو وفلورنثيا والبقية الذين كانوا يرقصون وبين حركتهما التي كان بها إيقاعها الخاص. ثمة فقاعة مذهلة بعيدة عن الجميع كالكُرَة. إنها سفينة فضائية تائهة في الفراغ. شمّت لابينيا ولمست وأدركت الحقيقة المطلقة والوحيدة لجسد فيليبي وحركتها من جانب لآخر.

ارتأى أنتونيو أن عليه إنقاذها. اقترب منها محاولاً كسر الإغواء. نظر فيليبي إليه بغيرة. ظنت لابينيا أن أنتونيو كان يبدو سريع الزلل للغاية وهو يقف على بحيرة فيليبي المتقلب للغاية.

كانت مستمتعة ومتحمسة وبعيدة، امرأة على حافة منصة الرقص. سَمِعَتْ فيليبي وهو يخبر أنتونيو بأنهما سيغادران وأن لديهما موعداً وأنه لا ينبغي على أنتونيو أن يقلق عليها.

ثم طلب منها أن تأخذ حقيبتها. انصاعت لابينيا لما قاله لها دون المقدرة على مقاومة انبهارها بجو هذه السلطة الذكورية وتركت وراءها نظرة أنتونيو المذهول.

دخلا البيت الذي كان مظلماً. حدث كل شيء بسرعة كبيرة. تحركت يدا

فيليبي صعوداً ونزولاً على ظهرها، ثم مررها برقة على جميع حدود جسدها لمرات كثيرة وبحيوية وهو يستكشفها ويشق طريقه عبر عائق ملابسها. لقد استجابت لمداعباته في جو من الظلام الظليل وهي ما تزال تدرك أن حيزاً من دماغها كان يحاول استيعاب ما كان يحدث، لكنه لم يفلح في ذلك. لم تكن قادرة على فصل نفسها عن المد والجزر المرتعش لجلده.

على ضوء القمر الفضي، وجدا طريقهما إلى غرفة النوم بينما قام بتجريدها من بلوزتها بالكامل وبفتح سحاب التنورة القصيرة إلى أن وصلا إلى الفراش. كان السرير تحت النافذة وكان قد فتح كل أقفال التعري. ومرة أخرى كفت لابينيا عن التفكير. غرقت في صدر فيليبي واستسلمت إليه ليأخذها معه في تدفق الحرارة التي كانت تنبعث من بطنه وغرقت في الأمواج التي تتالت ثم تركت وراءها محاراً ورخويات وزهور أنثوريوم وأشجار النخيل وممرات جوفية قد فسحت الطريق لحركة جسد فيليبي وجسدها بالتقوس تارة والشد تارة أخرى كحركة السهم والقوس وصوت النمر الأمريكي حتى الغابة والمناخ والقوس التي كانت تطلق الرماح ووسط الزهرة التي كانت تنفتح وتنغلق.

بالكاد تحدثا قبل أن يعاودا البدء من جديد وقاما بذلك مراراً وتكراراً. حاولت لابينيا تدخين سيجارة بينما كانت تتحدث تحت قبلات فيليبي، لكنه لم يسمح لها بذلك. مرة أخرى شعر كأنها لم تكن هناك وقال لها ذلك.

- قالت له: «انظر. هل تراني؟».

- قال فيليبي: «بالطبع أراكِ. وأخيراً، إنني أراكِ. أعتقد أنني كنت سأصاب بالمرض لو لم يحدث ذلك اليوم. كنت أظن أنني سأضطر إلى اتباع وصفة الاستحمام بالماء البارد لتحمل المكتب».

ثم ازدادت قهقهات لابينيا التي قررت أخيراً الاستمتاع بذلك والتخلص من استغرابها بسبب ذلك التصرف المخالف للقوانين والتقاليد لتلك العاطفة التي انطلقت بقوة ساحقة في ليلة واحدة مرهقة تاه فيها الحساب واعتقدت أن لوكريثيا ستجدهما عند الفجر ميتَيْن، كضحايا لنوبة قلبية.

***

جاء اليوم رجلٌ ودخل مع المرأة. كانا يبدوان سجيني مصافي ترشيح غرامية. لقد أحبا بعضهما بعضاً بشدة كما لو كانا يتمالكان نفسيهما لفترة طويلة. كان الأمر أشبه بمعاودة عيش ذلك من جديد، عيش نار يارينثي مرة أخرى، ذلك ما كانت ترجعني الذاكرة إليه والأغصان وأوراق الشجر والجزء الرقيق تحت القشر لثمار البرتقال. تبارَيا كمحاربَيْن قبل القتال. ثم لم يحل بينهما كليهما شيء بعد ذلك سوى الجلد. نمّى جلدُها يديها لتحتضن جسد الرجل. انقبضت بطنُها كما لو كانت تريد أن تكون عشه وتريد أن تجتذبه إلى الداخل وتجعله يسبح داخلها لتعاود ولادته من جديد. لقد أحبا بعضهما بعضاً كما أحببنا أنا ويارينثي بعضنا بعضاً عندما عاد من الاستكشافات الطويلة للعديد من الأقمار. لقد أحبا بعضهما بعضاً مراراً وتكراراً حتى أُنهِكا وتمددا هادئين على ذلك الفراش ذي الزغب. صدرت عن الرجل اهتزازات قوية. أحاطت به هالة من الأشياء الخفية. إنه طويل وأبيض مثل الإسبان. مع ذلك، الآن عرفتُ أنهما لم لا يكونان كذلك، لا هي ولا هو. أتساءل ما هو هذا العرق؟ هل هو مزيج من الغزاة وسكان البلد الأصليين «الناهواس»؟.

هل هما ابنا نساء قبائلنا التي تم إرغامها على الاختلاط والعبودية؟ هل هما ابنا رهبة الاغتصاب وشهوة الغزاة التي لا تنضب؟ لمن يعود قلباهما ونَفَس صدريهما؟

ما أعلمه فقط أنهما يحبان بعضهما بعضاً حباً غريزياً دون ملابس ولا موانع. هكذا كان شعبنا يحب قبل أن يقوم الرب المستغرب من الإسبانيين بالنهي عن ملذات الحب.

***

استيقظتْ في الثامنة صباحاً. فتحتْ عينيها وشعرتْ بجسم فيليبي. رأته متداخلاً مع جسمها وسط فوضى الفراش. لم تتحرك خشية أن توقظه. استغرق الأمر برهة حتى أدركت الساعة وتذكرت أن لوكريثيا لن تأتيَ وليس عليهما الذهاب إلى العمل لأنه كان يوم السبت. في الليلة السابقة، تشابك عليهما الوقت تماماً.

ابتسمت مطمئنة وهي تنظر إلى هدوء نوم فيليبي. كانت تفكر أنه

من المسلي رؤية الناس نائمين. كان يشبه الطفل. تخيلته وهو يلعب لعبة المغزل. لقد نامت مرة أخرى حتى أيقظها فيليبي.

- صاح: «لقد تأخر الوقت جداً! علي أن أذهب راكضاً».

- قالت له: «لكن لا عمل اليوم. يمكننا تناول الإفطار معاً».

- قال: «لا أستطيع وهو يدخل الحمام، لدي اجتماع مع طلابي. وعدتهم أن أساعدهم في الامتحان»، ثم خرج وارتدى ملابسه في عجلة من أمره.

- إنك مشغول دائماً.

- قال وهو يغمز لها: «لا. ليس دائماً».

ودعته عند الباب. رأته يبتعد وهو يسير مسرعاً ويصبح حجمه أصغر كلما ابتعد في المسافة. عادت إلى الغرفة وحيدة ونظرت إلى نفسها في المرآة. كان وجهها وجه امرأة محبوبة على ما يرام. كانت رائحته تفوح منها. من جانبها، لم تكن لتغتسل، كانت تود أن تبقى رائحته تفوح منها طوال اليوم. كانت تحب رائحة المني والجنس، لكنها استحمّت للتخلص من الكسل والرغبة في العودة إلى الفراش. كانت سارة تنتظرها لتناول الإفطار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- 4 -

استيقظتْ وهي تغني. غنتْ وهي تستحم. إنني سعيدة لسعادتها. كما أنني سعيدة لأنني أثمر. لا تزال ثمار البرتقال صغيرة وخضراء. سيستغرق الأمر بضعة أيام حتى تنضج وتكون مستديرة وصفراء. إنني سعيدة لأنني وجدت هذه الشجرة. إنها أحد الأشياء الجيدة القليلة التي جلبها الإسبان. كنا نسرق أنا وياريتشي البرتقال بعضنا من بعض عندما كنا نمر عبر مزارع أشجار البرتقال. لم يقوموا دائماً بالتقاطها من الأرض. كانوا يتركونها تتعفن. بالمقابل، كنا نلتهمها لأن عصيرها منعش. إنها ليست كالمانجو التي تتسبّب بالعطش بشكل أكبر. على الرغم من عدم وجود أي استياء من شأنه أن يجعلني أسكن شجرة فاكهة أخرى، فإنني بالمقابل لا أعرف ما الذي كنت سأفعله لو أنني ظهرت في الصبار الذي كان قريباً جداً. لا يعجبني الصبار. إنه يذكرني فقط بالخدوش على ساقي.

للبرتقال لب ذو طبقة سميكة وإنتاجه دقيق. يتطلب الأمر صنع آلاف الأغلفة الصغيرة وأغلفة خفيفة لتغليف الطبقة السميكة وغلاف آخر لفصل الأجزاء، ثم القشر والعديد من البذور: المشاريع الصغيرة للشجرة التي تُركَت للصدفة بسبب الإرادات المتقلبة.

آمل أن تكون نهاية بذوري جيدة.

أستطيع أن أرى عن كثب باطن الفاكهة. أن أكون فيها، في نهاياتها المسطحة، في أطرافها، في دائرتها. «الأرض مستديرة ومسطحة مثل البرتقالة». إنه اكتشاف عظيم. لقد ضحكت، فالأرض تشبهني.

***

عندما وصلت لابينيا، قامت سارا بجولتها اليومية في الحديقة. لقد تزوجا هي وأدريان منذ ستة أشهر وتقوم سارة بدور مدبرة المنزل على أتم وجه.

كانا يعيشان في منزل قديم له أربعة ممرات وغرف نوم واسعة. كانت شبابيكه ذات أقواس مدببة من الأعلى. في الحديقة الداخلية، هنالك شجرة الرنف الملكي (الشجرة المتوهجة) تعلو فوق السطح لتظليل الداخل.

قامت سارة بتعليق النباتات السرخسية حول الشجرة التي كانت تزهر الورود ذات اللون الأحمر الناري مرة واحدة فقط في السنة وزرعت مختلف أنواع نبات البيغونيا ودوار الشمس المكسيكي والورود.

بدت الحديقة كأنها تشكرها لرعايتها بإنبات زهور جميلة.

اعتادت الصديقتان على تناول الإفطار معاً أيام السبت. تم تحضير المائدة: القهوة الساخنة والخبز المحمص والمربى التي ينعكس بريقها من خلال الزجاج والزبدة في وعائها الفضي والأواني الفخارية الجديدة ومفارش المائدة الجديدة.

ما زال جو هدايا العرس يسود المنزل.

- تعجبت لابينيا قائلة بنبرة مازحة وهي تقترب من المائدة: «سيدتي، أرى أن كل شيء جاهز لتناول الفطور».

- قالت سارة: «لم أقم هذه المرة بإعداد الفطائر. وبما أنكم دقيقون في مواعيدكم، فلن تخيبوا استعداداتي أبداً. قهوتي لا تبرد ولن يصبح الخبز المحمص صلداً كما يحصل مع أدريان الذي يقرر وقت الغداء بالضبط أن لا يترك الكتاب أو أن يكون في الحمام ليغسل يديه.

ضحكتا وهما تجلسان إلى المائدة وكانت سارة تمزح. كان شعرها الأشقر ملموماً على شكل كعكة. كانت خفيفة الظل ورقيقة بكل ما فيها.

- سألت سارة: «كيف تسير أمور عملكِ؟»

- أجابت لابينيا: «على ما يرام. ما زلت أتعود على أن الأحلام هي أحلام. أعتقد أن فيليبي كان محقاً بشأن اللعبة الصغيرة في مركز التسوق. عالم الأعمال صعب. لا يمكن القيام بشيء من أجل الفقراء الذين يسكنون

المناطق العشوائية. لن يتخلى أصحاب الأملاك عن أرضهم التي تم شراؤها حديثاً. إنهم بعيدون كل البعد عن أن يكونوا محبين للخير».

- قالت سارة: «هكذا هي الحياة. لا تشغلي بالكِ، فهؤلاء الناس معتادون على الأمر. وماذا تصممين الآن؟»

- ردّت لابينيا وهي تحتسي القهوة وتفكر كيف أن كل شيء طبيعي بالنسبة لسارة: «أصمم بيتاً». أضافت قائلةً دون التمكن من كبح الثقة: «لقد حصل ما يتعلق بفيليبي».

لقد أشرق وجه سارة. منذ أن سمعتها تذكر فيليبي علمت أنه أعزب، بدأت في تأدية دور القوّادة الذي رفضته لابينيا قائلة لها أن تكف عن الرغبة في تزويجها، تماماً مثلما كانت تفعل مع والديها. لكن سارة لم تتوقف عن المحاولة. كانت تسأل دائماً عن فيليبي.

- سألت محاولة إخفاء فضولها كي لا تثير ريبة صديقتها: «وكيف هي الأمور معكِ؟»

- على خير ما يرام. رغم أنني لا أريد التحمس أكثر من اللازم. حدث كل شيء بسرعة كبيرة. أخشى الوقوع في الحب قبل أن تكون لدي صورة واضحة عن الأمر.

- قالت سارة: «إنكِ تعقدين الأمور جداً. الحب هو أكثر الأمور طبيعية في الحياة. لا أجد سبباً لمخاوِفِكِ».

- حسناً، لدى فيليبي أيضاً بعض التصرفات الغريبة، إذ يتلقى في كثير من الأحيان مكالمات هاتفية غريبة، ثم يخرج في أوقات غير مناسبة. إنه مشغول دائماً. بالنسبة لي، فإنني أشم رائحة وجود امرأة متزوجة في حياته. لا أدري، قد يكون الأمر مجرد سوء ظن».

- «لطالما تتمتعين بخيال خصب للغاية».

- قالت لابينيا منزعجة مع نفسها وبالها مشغول وهي تجلس كما تجلس بعض المتزوجات الغيورات وتفكر في فيليبي ودروسه يوم السبت صباحاً: «لربما ذلك. وبالنسبة لكِ، كيف تسير أموركِ مع أدريان؟»

بتعبير رزين، بدأت سارة برسم صورة غير دقيقة لعلاقتها مع أدريان، صورة تتحدث عن الزواج المثالي. اعترفت سارة بأنهما ما زالا يواجهان بعض المشاكل فقط في حياتهما الخاصة. إن أدريان فظ جداً ولا يفهم أهمية الرقة.

تجد لابينيا صعوبة دائماً في تخيل سارة وهي تمارس الحب، إذ كانت أثيريةً جداً وتكاد تكون متصوفة، حتى إنها تحدثت ذات مرة عن دخولها إلى الدير وعن تكريس نفسها -على حد قولها- لحب الله.

- قالت سارة: «لا أعلم إن كنتُ رومانسيةً أكثر من اللازم أو إن كنتُ متأثرة أكثر من اللازم بمشاهد الحب في الأفلام». ثم تحركت وهي في كرسيها وانحنت لتضع الزبدة على الخبز.

ابتسمت لابينيا.

- قالت لها: «إن الحب في الأفلام هو محض وهم. لا بد له في الواقع من أن يكون قاتلاً، إذ تتخيلين نفسكِ: تحت عاكسات الضوء والكاميرات مع إمكانية وجود «القَصْ»! في أي وقت. التهديد الدائم بالتوقف عن الجماع إذا لم تفعلي الأشياء بالطريقة المناسبة وفقاً لرأي المخرج».

ضحكت كلتاهما. قالت لابينيا: «ما يتعلق برقة القلب والحنان هو برمته مسألة تعلُّم. صحيح أن الرجال عموماً يكبتون رقة قلبهم وحنانهم ولا بد من تعليمهم». ثم فكرت أن عليها أن تقوم بالأمر ذاته، لكنها فضلت عدم مناقشة الأمر مع سارة. قالت إن البدايات كانت صعبة بشكل عام، إنها تقليد فظ لما من شأنه أن يحدث عندما يتم فك رموز الأعضاء الحميمة. هكذا حصل الأمر معها، على الأقل مع خيرومي على الرغم من أن سارة وأدريان كانا معاً لمدة ستة أشهر -هذا ما كانت تظنه به-. تحدثت مع سارة حول أهمية فقدان الحياء وحول إخبار أدريان بالخرائط المخفية وإعطائه البوصلة.

استمر حديثهما حتى منتصف الظهر تقريباً. كان أدريان سيصل قريباً وقالت سارة إن عليها الاستحمام. لا يعجبها أن يلقاها زوجها كما تركها.

انتهزت لابينيا الفرصة لتوديعها بالرغم من الدعوة لتناول الغداء. لم تكن في حالة مزاجية تسمح لها بسخرية وخطابات أدريان. أرادت أن تتعافى من عدم نومها في المساء: النوم، القراءة، التفكير.

مر الأسبوع بالسرعة المذهلة التي اعتاد المرور بها عندما يكون مفعماً بالأحداث.

اكتسبت الأيام التي قضتها في المكتب، منذ بداية العلاقة مع فيليبي، طابعاً غير دقيقٍ عن عواطفه. وجدت صعوبة في التركيز على العمل، إذ كانت تتداخل فيه ما يضفيه من إيماءات وتعليقات تدل على علاقتهما الأخيرة. على الرغم من أنهما قد رأى بعضهما بعضاً ليلة واحدة فقط للذهاب إلى السينما ثم لتناول القليل من الخمر، فإن تلك النزهة وتلك الليلة الوحيدة التي مارسا فيها الحب الجامح كانتا كفيلتين بتحريك خيالها وما تثيره المداعبات العابرة والسرية التي كانا يتبادلانها يومياً أثناء ساعات العمل.

تكلم فيليبي بسرور عن ماضيه رغم أنه كان يبدو متجنباً للتفاصيل بشأن حاضره.

تخيلته لابينيا بينما كان يتحدث كأنه في رحلة طويلة عبر المحيط الأطلسي باتجاه ألمانيا، يرتدي فيها زي البحارة في الصور القديمة وكأنها قد لمحَتْه وهو يتجول في شوارع هامبورغ: الميناء الشهير حيث كانت تستعرض فيه نساء الدنيا أنفسهن عاريات في نوافذ المتاجر، في ريبرباهن كي يتم بيعهن للمزايد الذي يدفع أكثر. توقف خيالها لا سيما عند أوتي وهي المرأة التي وفقاً لعبارات لم تفهم معناها تماماً قد علمت فيليبي، من بين أمور أخرى، أن عليه العودة إلى فاغواس. رسمت في مخيلتها صورة لها كأنها حورية ذات شعر أشقر وطويل تتمتع بخبرة في أمور الحياة وفي فن الحب. تمكنت وهي تنظر من نافذة المنزل بمدخنته وطابوقه الأحمر من استذكار أوتي وهي تعلّم فيليبي الحبَّ.

في سن السابعة عشرة، أخذ فيليبي مَرْكَباً في بويرتو ألتو حيث كان والده يعمل في تحميل وتفريغ السفن. تحولت المغامرة إلى كابوس. عقد العزم على عدم تكرار رحلة العودة تحت رحمة ذلك القبطان الذي كان يمتاز بروح تاجر عبيد. بقي في ألمانيا وكاد يموت من البرد والجوع وأوتي هي من أنقذته. قال: «إنها الأم والحبيبة في امرأة واحدة». لقد وفّرت له المأوى وفكت له رموز اللغة وعلّمته «أهمية الشوارع المضيئة للنساء الوحيدات» ودراسة فن

العمارة والجسد. ما لم تستطع لابينيا فهمه هو نبرة فيليبي الممتنة عندما كان يشير إلى أنها هي من أقنعته بالعودة. بدا لها وكأنه يسمع حديث أوديسيوس عن عودته إلى إيثاكا. لم تفهم كيف كانت تبدو أوتي وليس بينيلوبي وهي تصرُّ إصراراً كبيراً على أن يعود لبلاده. لماذا أقنَعتْه بالعودة إن كانت تحبه؟

كان الأمر لغزاً من ألغازه، تماماً كما هو الأمر مع المكالمات الهاتفية والمشاغل الليلية التي كان يصر على أنها مسؤوليات الجامعة. تنهدت لابينيا بينما كانت ترتب الكتب على الرف الذي تم شراؤه حديثاً. كان يوم السبت، لكنها لم تذهب في هذه العطلة لنهاية الأسبوع لتناول الإفطار مع سارة. لقد قبضت راتبها في اليوم السابق وقضت الصباح في شراء أثاث وزينة لمنزلها. ثم خرجت في الليل للترفيه عن نفسها مع الشلة وفي اليوم التالي، يوم الأحد، كان فيليبي قد وعدها بالوصول مساء لاحتساء القهوة.

أطلت من النافذة على الحديقة. نظرت إلى ربيع شجرة البرتقال والأوراق المتلألئة في الشمس. كان البرتقال شبه ناضج. كان يبدو كل يوم أكبر وأكثر صفاراً. تعاطفت مع الشجرة. شعرت باندفاع الشجرة الشبيه باندفاعها. شجرة سعيدة وتتشبث بشدة بالحياة وتفتخر بقدرتها على الإزهار. لذلك قامت بتغيير شجرة البولفينية وبرج الجرس والأروقة. منذ نعومة أظافرها، كانت تحب النباتات الاستوائية الناشرة والمتشابكة وإصرار النباتات التي تقاوم الصيف الحارق والشمس العالية التي تحرق الأرض. اعتقدت أن الثلج كان شيئاً آخر أبيض وبارداً وغير مضياف وهي تعود إلى الخزانة ذات الرفوف. لم تستطِعْ قط التعود على الشتاء الأوروبي، إلا مع حلول الربيع الذي كانت تشعر فيه أن شخصيتها قد عادت إليها. في الشتاء، كانت تقبع في لب الثمرة صامتةً. ظهر لها جانبها المتأمل والحزين. أما في فاغواس، فلا تُصاب البذور بأي ثلج. دعتها الحرارة إلى الخروج من نفسها لتجد السعادة في المناظر الطبيعية المنعكسة في عينيها كما لو كانت تلك المناظر داخل إناء خزفي جميل. لهذا، كانت المناطق الاستوائية وهذا البلد وهذه الأشجار ملكها. إنهم ينتمون إليها بالقَدَر الذي تنتمي هي إليهم.

كانت تفكر وهي جالسة بمفردها: «أيام السبت بطيئة».

***

إنني أجتهد وأعمل في معمل العصارة والخضرة. يجب أن أسرع. ثمة حكمة خفية تغذي هدفي وتقول لي إننا على وشك اللقاء، أنا وهي.

في الصباح، جاءت الطيور الطنانة والعصافير. مَرَحَت بين أغصاني تدغدغني وتثير ضجيجاً وتهيج عروق أوراقي موقظة الرغبة في جسدي النباتي. من يعرف إذا ما كانت روح ياريتثي تسكن أسرعها، ذا المنقار المرتفع الذي يطير بحثاً عن حبوب اللقاح. من المعروف للجميع أن المحاربين يعودون كالطيور الطنانة ليطيروا في الهواء الدافئ.

آه! ياريتثي، إنني أتذكر جسدك القوي والمشَمَّس بعد الصيد عندما جئتَ ببهائك تشبه أسد الجبل المتعَب وأنت تبحث عن مأوى على ساقي. جلسنا على حافة النيران في صمت، نراقب ألسنة اللهب وهي تتصاعد وتنخفض ولون وسطها الأزرق وألسنتها الحمراء التي تقضم الدخان الذي ملأ الهواء بجلدات دافئة. كانت طويلة تلك الليالي الصامتة التي قبعنا فيها في الجوف الأحراشي للجبال بينما كنا نختبئ للرصد. لم يجرؤ الإسبان على متابعتنا. كانوا يخافون من أشجارنا ومن حيواناتنا. لم يعرفوا شيئًا عن سم الثعابين. لم يكونوا يعرفون النمر الأمريكي ولا طائر الدانتو ولا حتى رحلة طائر البوكويا الليلية التي أخافتهم لأنها كانت تبدو أرواحاً منكوبة. مع ذلك، فقد أفرغوا ضجيج عصِيِّهم وأفزعوا الببغاوات وأطلقوا العنان لأسراب الطيور وجعلوا القرود التي مرت من فوق رؤوسنا في قطعان تصرخ بينما كانت القردات تحمل القرود الصغيرة التي بقيت منذ ذلك الحين مذعورة الوجه.

لكنك عانقتني وسط تلك الطلقات النارية المُدَوِّية. لقد وضعت يديك على أذنَي وحضنتني كي تحميني في أعماق الأدغال وهدأتني بوزن جسمك وجعلتني أنسى قرب الموت عند سماع نبض الحياة عن كثب جداً. كان جسمك يحمي جسمي حتى كان ضجيج دقات قلبينا هو الضجيج الأكثر رنيناً في الجبل.

آه! ياريتثي ربما ذهب كل شيء سدىً. ربما لم تبقَ حتى ذكرى لمعاركنا!

***

في اليوم التالي وفي وقت مبكر، كانت لابينيا تصارع بين اليقظة والنوم. كانت عادة الاستيقاظ مبكراً مزروعة فيها مثل ساعة غير مرئية في صدرها، لكن فكرة يوم الأحد كانت تستدعيها بالوسائد وبترخيص للنعاس. نهضت حافية القدمين مرتدية ثوب الكيمونو الحريري بلون الزبرجد. كانت تشعر أيام الأحد أن وجودها في العالم لا حاجة له. كان يوماً غير مريح للأشخاص الوحيدين. أيام الأحد مخصصة لنزهة العوائل والأطفال والكلاب الصغيرة التي كانت تطل من النافذة الخلفية للسيارات؛ للأب والأم اللذين كانا يرتديان البيجاما المخططة ويجلسان عند المنضدة ويقرآن الجريدة في الوقت الذي يقوم فيه الأطفال بتناول وجبة الإفطار اللذيذة. تذكرت الثلاجة الممتلئة في منزل والديها وشعرت بالحنين إلى الوطن.، إذ إنها لم ترهما منذ الغداء الذي أعلنت فيه أنها قررت أن تصنع مستقبل حياتها وانتقلت إلى منزل عمتها. ما زالت تتذكر الصدمة بين صدور الدجاج في الصلصة البيضاء وأكواب الماء ومفارش المائدة التي لا تشوبها شائبة. كان وجها والديها يتنبآن لها بالخزي والقيل والقال والافتراء. كانت أهوال العالم خارج الجدران الأربعة لمنزلها (على الرغم من سنواتها التي قضتها وحيدة في أوروبا): خطر الغرباء والرجال الذين حاولوا اغتصابها واستغلالها، إذ كان مستهجناً أن تكون المرأة وحيدة.

بأعجوبة وبشق الأنفس قدما كل التضحيات كي تحصل على تعليم جيد وتكون سعيدة كأي فتاة محترمة تقدر قيمة نفسها. حاولا مصالحتها باستخدام الحلوى وإقناعها بعدم الانتقال: حصل ذلك عندما كانا قد عرفا بعضهما بعضاً وتعلما حب بعضهما لبعض. كان الأمر متاخراً جداً بالنسبة للابينيا. كانت العمة إينيس والجد هما أباها وأمها. أما والداها الفعليان، فقد حافظت على المودة البايولوجية الشديدة تجاههما. أصبحت المسافة التي تفصلهم بعضهم عن بعض واضحة عندما اقتنعا بأنهما لا يستطيعان ثنيها عن رأيها. تبادلا الإقناع بالتهديدات وأجبراها في النهاية على حزم كل أغراضها «كي تغادر على الفور إذا كانت مقتنعة برأيها إلى هذا الحد». بينما كان والدها يحاول الهروب من الصراع، ملتجئاً إلى الجلوس في غرفته، كانت الأم تقف بجانب الباب، وتمسك بسيف الملاك المهلِك وتطردها بعيون غاضبة من جنة الأرض.

هكذا اختفت من حياتها الثلاجات الممتلئة ووجبات الإفطار الوفيرة في يوم الأحد. بهذا فقدت الامتيازات المتأخرة للابنة الوحيدة وعزاء المحبة الأولية. لقد غزاها الحنين الذي يشعر به الأيتام ولم يتوقف عن الحصول لها في أيام كهذه. لتصبير نفسها، قررت أن تُدلل نفسها، أن تقوم بطهي وجبة إفطار عائلية خاصة بيوم الأحد لنفسها هي وحدها.

كان المطبخ يبدو فارغاً. أعربت عن أسفها لعدم وجود شخص ما يزجها في فنون الطهي. لم تكن لا والدتها ولا عمتها إينيس من هواة الطبخ لأسباب مختلفة وكانت تحذو حذوهما. فكرت مع نفسها «لكن لن تخسر المرأة شيئاً بمعرفتها الطبخ». كانت شخصياً معجبة بالأشخاص الماهرين. تخيلت كيميائيين ساحرين قادرين على تحويل قطعة اللحم النيء الأحمر الذي يكاد يبعث على النفور إلى طبق فاتح للشهية ليس فقط لذيذ الطعم، بل يبدو رائع المظهر أيضاً: ذو لون ذهبي يناغم تماماً مع البقدونس الأخضر والطماطم الحمراء.

بدت الرفوف منظمة. تسببت العلب المختلفة بنسيان الأشياء غير المتحركة وكان صندوق العمة خيميما مغلقاً. فتحَت الثلاجة بحثاً عن الحليب والبيض والزبدة. خلطَت المكونات وبدأتْ في خفق الخليط الأبيض الذي تكاثف ببطء في الطاس.

وضعت القهوة على الموقد والخبز في محمصة الخبز. فرشت على طاولة المطبخ الخشبية الريفية مفرش المائدة الإيطالي *تراتوريا*: مربعات بيضاء وحمراء. شغّلت الموسيقى. تحمست بشأن إيقاع نشاطها الخاص.

ما كان ينقص هو فقط عصير البرتقال للأسف. حدثت نفسها قائلة: «لماذا لا نحاول الحصول على العصير باستخدام القليل من البرتقال الأخضر؟»، فلن يكون طعم العصير المر سيئاً للغاية، سيعوض ذلك اللون الأصفر في القدح عن مرارته. على الأقل سيكمّل قائمة الطعام من وجهة النظر الجمالية.

بحثت عن مفاتيح كتيبة المنزل ورفعت عنها الأقفال، ثم خرجت إلى الفناء. تألقت شجرة البرتقال. لقد منحت شمس الحادية عشرة صباحاً التي كانت عمودية تقريباً الأوراقَ الخضراء لوناً متوهجاً وقوياً. نظرت إلى

الشجرة وربتت على جذعها. اعتادت مؤخراً الحديث معها كما لو كانت قطة أو كلباً. قالوا إنه من الجيد التحدث إلى النباتات. نظرت إلى الكأس ورأت بعض البرتقال وهو يبدأ بالنضوج، مع وجود خطوط صفراء على ظهرها الأخضر.

بمساعدة عصا طويلة، أنزلت برتقالة واحدة، برتقالتين، ثلاث برتقالات، أربع برتقالات.

سقطت تلك البرتقالات بصوت جاف على العشب.

دخلت المنزل وعادت إلى المطبخ.

أخرجت السكين الحاد المشحوذ من خزانة أدوات المطبخ. وضعت إحدى البرتقالات على لوح التقطيع وهي تنظر إليها ممسكةً بها بيدها. حسبت حسابها أن يكون مكان القطع في المنتصف ثم أغمدت السكين. ظهر لب الثمرة ونصفا كرة ووجهان أصفرا اللون يراقبانها وهي تسكب العصير القليل المتساقط بشكل خيوط. قطعت لاحقاً البرتقالات الثلاث الأخرى وهي تلعق شفتيها وتستنشق رائحة فطائر الپان كيك الذهبية والقهوة والخبز المحمص. ثم عصرتها في طاس صدفي. سكبت العصير المضيء في القدح البلوري.

***

لقد حدث الأمر. شعرت كأنهم يقرصونني أربع قرصات محددة مستديرة. أحسستُ بأطراف أصابعي عندما نالت منها الحافة الحادة للسهام، لا شيء آخر، لا دم ولا عصارة. كنتُ خائفة عندما رأيتُها تخرج إلى الفناء بنية واضحة في عينيها وفي حركاتها. ارتجفت أوراقي بخفة، لكنها لم تلاحظ ذلك. للأحداث في زمنها الخطي تسلسل منطقي. لم تنتبه لسبب ارتجافي قبل أن تهز أوراقي بالعصا الطويلة، تساءلت إذا كان جسمي الشَجَرِي يعاني من فقدان ثماري. لكن كلا. وجدت نفسي أعيش في بُعدين: من الأرض، من حيث ألتف، حيث رأيت جذعي وأوراقي حتى لامستني يداها، ففهمت حينها أنني كنت موجودة في البرتقال أيضاً رغم أنني ما أزال في الشجرة.

كانت لدي موهبة التواجد في كل مكان، كالآلهة تماماً! إنتابتني الدهشة (كنت سعيدة كذلك بكوني أكثر من كيان). لم أكن كياناً واحداً فقط: فكل جزء من شجرة البرتقال كان يحتويني. كانت ثمة امتدادات لا نهاية لها تتكون وتتلاشى. بدت لي مساراتُ الحياة غريبةً.

قامت بفتح الثمرة بإحداث قطع فيها. كان شقاً نظيفاً غير مؤلم تقريباً. ثم أمسكت القشرة بأصابعها، فتدفق العصير على نحو ممتع. أخذ التوتر الداخلي الضعيف بالتراجع والتلاشي. كما هو الحال مع البكاء، تفتّحت الأغصان وانبعثت من قشورها الرقيقة دموع كانت تحتبس بدقة في ذلك العالم الدائري الخاص بها. أصبحت سائلة على المنضدة. كنت أراقبها من وعاء شفاف. أنتظر أن تحملني إلى شفتيها لترتشفني لإتمام الطقوس، طقوس اتحاد الدوائر.

كانت الشمس تشرق في الخارج على أوراقي وهي تتجه نحو المساء.

***

بعد أن أصبحت حرارة الطعام مقبولة: فطائر الپان كيك المنفوشة والقهوة والخبز المحمص، قامت بوضع الموسيقى بالوضع المطلوب، ثم وضعت قدح عصير البرتقال على المائدة؟ على عكس العادة، كانت تحب شرب العصير في النهاية كي تبقى نكهة البرتقال بين أسنانها. بشكل عام، كانت تأكل بسرعة كبيرة. لكن كان ينبغي على الشخص أن يكون على تناغم مع إيقاع اليوم: *مبتهجاً ولكن ليس كثيراً.*

هل سترى فيليبي اليوم؟ أبلغها أنه سيصل الساعة الخامسة مساء وإذا لم يستطع ذلك، فسيتصل بها هاتفياً. في الليلة السابقة، استجوبها أنتونيو. لقد حذرته من الوقوع في حبها، لكن ذلك كان أمراً لا مفر منه. إنه الآن يشعر بالغيرة. كان رفيقها الأكثر ديمومةً. لم تستجب لابينيا لفضوله. لم تكن تثق به، بل شعرت بدلاً من ذلك بأنها بعيدة عن التدخين وعن رقص الروك خلال الضجيج في منزل فلورنثيا ولم يستطع أنتونيو إقناعها بالبقاء معه. لم يكن أنتونيو يروق لها بعد فيليبي ولم تُرِدْ أن تشعر بالتناقض، بالاستسلام لإيقاعات صغيرة.

في ذلك المساء من يوم الأحد، فكرت فيما لو كانت لديها سيارة، كانت ستود أن تشارك فيليبي رَبوَتَهُ الصغيرة وأن تصطحبه في نزهة على الأقدام على الطرقات الظليلة وسط مزارع البن وتنظر معه إلى المناظر الطبيعية من ذلك المكان القريب من القمة وتطعمه السحب التي جاءت لتجلس على راحة يده وتشاهد معه أسراب الببغاوات ذات اللونين الأزرق والأخضر ويستذكران طفولتهما. لطالما ذكَّرَها ذلك المكان بالرسوم الرائعة المنقوشة لأحد كتب الأطفال المفضلة لديها، كتاب الفتاة ذات القبعة المصنوعة من القش والفستان الخفيف المصنوع من الزهور ومرفقيها المتكئين على الأرض ونظراتها إلى الأفق اللامتناهي وإلى المروج ذات الطرق المتعرجة وحقول القمح وكان مكتوباً أسفل الصورة: «العالم ملكي وكل ما فيه لي».

اعتادت صعود الرابية عندما كانت تقضي إجازتها في مزرعة جدها. كانت المناظر الطبيعية تتحد بشكل مباشر مع الرسوم المنقوشة. بقيت هذه العبارة عالقة في ذاكرتها منذ ذلك الحين.

في هذا الوقت تقريباً، بدأَتْ بالبحث عن عالمٍ أكثر ملاءمة لأحلامها. كان «لاس بروماس» منزلاً كبيراً ذا جدران عريضة مصنوعة من الطوب، يحتوي على غرف ضخمة وأحواض في الحمامات وحديقة مليئة بألف زهرة ونافورة في الوسط. كانوا يتناولون الشوكولاتة عند المساء لحماية أنفسهم من البرد. أحدثت سارة وأبناء عمها الكثير من الضوضاء، حيث قاموا بالذهاب بدراجاتهم الهوائية عبر المنحدر الحاد الذي كان ينحدر من المنزل.

ظهر جدها في ذلك الوقت ومعه كتب جول فيرن.

اجتذبتها تماماً تلك الصفحات التي تحتوي على نص مرتب في عمودين. لقد كانت رائعة بالنسبة لها ألف مرة أكثر من الدراجات وأكثر من أطقم الملابس ومعارك الهنود ورعاة البقر.

اتضح من الملاحظات التمهيدية للكتب أن بيرني لم يغادر فرنسا قط. مع ذلك، فقد تمكن بخياله من السفر إلى القمر ومن التنبؤ بالعديد من المآثر والاكتشافات البشرية. كانت تحب ذلك، تحب القدرة على السفر بالقدر

الذي يسمح به خيالها. من أجل ذلك، كانت كثيراً ما تبحث -عندما كانت طفلة- عن العزلة.

كانت تحب النزول من المنحدر الحاد خلف المزرعة لمشاهدة البركان الذي يخرج منه دخان من بعيد وللذهاب إلى الرابية أو المشي بمفردها باتجاه السد وينابيع المياه. كانت تبقى هناك لفترة طويلة تنظر بلا كلل إلى العين التي تتدفق منها المياه. كانت تكوّن أفكاراً حول مصدر الماء المتدفق من الحفرة: كان ماءً صافياً يتدفق بحركات دائرية تشبه التنفس أو المد والجزر. كانت تتخيل أن هذه الحفرة التي يصدر عنها خرير الماء قد كشفت التدفق المستمر للمياه الجوفية من المحيط الموجود في مركز الأرض.

بينما كانت تشرب عصير البرتقال على مهلها شاردة الفكر، تتذوق نكهته الحامضة – الحلوة المرة التي تشبه تلك النكهة الخاصة بذكرياتها، تذكرت جدها وملأها الحنين. عندما غارت في دهاليز ذاكرتها، بدا لها كأنها ترى رجلاً طويلاً نحيفاً ذا أنف طويل وعينين صغيرتين صافيتين ثاقبتين. تذكرت شفافية بشرته والأوردة الدقيقة والحمراء التي تشبه الدلتا الصغيرة للأنهار الداخلية الكبيرة.

كان الجد يرتدي سروالاً ترابي اللون فضفاضاً وقميصاً أبيض ذا أكمام طويلة مطوية حتى ساعديه. كان يضع على خصره سلسلة لحمل ساعة الجيب يتدلى منها مطوى رائعاً مزوداً بجميع أنواع الأدوات. كان يستخدمها في صنع آلات الصيد الخشبية المصقولة التي يصطاد الأولادُ بها الطيورَ أو يلعبون بها لعبة الحرب.

كانت تفضله عندما يكون جالساً بهدوء على كرسي هزاز وتتحدث معه. يتمتع بمعرفة واسعة وبإلمام بأمور الفضاء، فهو يعرف مواقع الأبراج والكواكب والنجوم. قال: «إنه المريخ، إنه هناك» أو الثريا أو كوكبة الجبار أو القنطور أو الميزان أو كوكبة صليب الجنوب... فضلاً عن مراحل القمر والاعتدالات والمد والجزر. كان ملماً بالأساطير القديمة لزعماء القبائل والأميرات الهنديات ومولعاً بالكتب. سمحت لها ذاكرتها الخاصة بالصور باستدعاء مقاطع كاملة من الذاكرة.

عاش وحيداً منذ أن ترمّل في سن الخامسة والثلاثين، لكن مغامراته الغرامية كانت مشهورة. على الرغم من أن والدة لابينيا كانت ابنته الشرعية الوحيدة، فإنه عندما توفي جدها، ظهر الأبناء والبنات –الذين تم تقديمهم لها كأخوال وخالات– وساروا أمام التابوت أثناء الجنازة، وكانت ملامح الشبه بينهم وبين الجد بادية لا لبس فيها في ملامحهم. التقى الإخوة، الغرباء فيما بينهم، في تلك المناسبة للمرة الأولى والوحيدة.

ما زالت تجهل عددهم المضبوط.

في عيد ميلاده الأخير، سلّمها جدها مكتوباً أبلغها بفحواه اعتماداً على ذاكرته، مبلغاً إياها أن ذلك هو إرثها وميراثها الأكثر أهميةً ونصه: «في البداية وفي الأخير أطلق عليه الإغريقيون تسمية ألفا وأوميغا: إنني الآن في طريقي إلى أوميغا، أترك لكِ هذا الموروث: أرجو أن تُبجّلي الكتابَ، إنه محراب الكلمة والكلمة هي التي تمجد *الإنسان العاقل*، كما أرجو أن تتذكري أنه لم يضِعْ جهدٌ قد بُذِل من أجل الثقافة العالمية كما قال كاستيلار».

توفي في 31 من كانون الأول، ترافقه مفرقعات نارية وإطلاقات وحفلات ودعته مع وداع العام القديم. توفي بسبب مرض نادر في الحجاب الحاجز جعله يعطس حتى الموت.

سادت مراسم دفنه المحتشدة أجواء تجمع سياسي. تذكرت لابينيا المساء الحار وزهور المقبرة وعدد العمال الذين رافقوه حتى اختفى خلف شاهد القبر، إذ قام جدها وهو أحد أتباع الأفكار الليبرالية والاشتراكية ومعارض غاضب على نظام سلالة الجنرالات الكبار بإقامة وردية العمل ذات الثماني ساعات في شركاته قبل إصدار قانون العمل، كما أوجد المنافع الاجتماعية والضمان الخاص بالعمل. كان أيضاً عالم آثار تجريبياً وكان قد اكتشف أطلال تينوثتل القديمة.

كان الجد بالنسبة لها الطفولة وانبهار الخيال. ما تزال تلتقي به في حلم متكرر: أنهما على جبل مرتفع شاهق تكسو الثلوجُ قمتَه ويزين الربيعُ منحدراتِه. ثبّت لها جدها أجنحةً ضخمة من الريش الأبيض على ظهرها –كتلك الأجنحة التي كانت تستخدمها وهي طفلة عندما كانت تتنكر

بزي ملاك في موكب الأسبوع المقدس- ثم ينفخ نفخة قوية يدفعها فيها للطيران. كانت تحلق في تلك الأحلام وتشعر بالسعادة وبأنها كالعصفور، كما كانت تشعر بالأمان لأن جدها كان ينتظرها على قمة الجبل مستمتعاً برؤيتها وهي تطير. لكنها بدأت في الآونة الأخيرة بالشعور بالكوابيس. تحولت الأجنحة في رحلة التحليق برمتها إلى أجنحة من المعدن الثقيل وكانت تقع على الأرض بصوت عالٍ.

استوقفتها الموسيقى. لاحظت الأطباق المتسخة والقدح الفارغ لعصير البرتقال. نهضت لِلَمْلَمَة ما على المائدة والاستحمام الذي من شأنه أن يصرف الحنين عنها.

***

مَررت بأغشية وردية اللون. دخلت كشلال عنبري في جسد لابينيا. رأيت الجرس الصغير لسقف فمها يمر فوقي قبل أن أنزل عبر نفق مظلم وضيق إلى داخل المعدة.

إنني الآن أسبح في دمها. أتجول في هذا المكان الواسع لجسمها. أسمع القلب كصدى في كهف تحت الأرض. كل شيء هنا يتحرك بشكل إيقاعي. الشهيق والزفير، عندما تتنفس في الشهيق، تتمدد الجدران. بإمكاني رؤية الأوردة الرقيقة التي تشبه خط حزمة أسهم طويلة مربوطة بالمكان. عندما تخرج أنفاسها في الزفير، تغلق الجدران وتظلم. جسمها يافع وسليم، فالقلب ينبض بشكل إيقاعي بلا راحة. رأيت باطنها القوي. شعرت بالقوة وأنا أنطلق عبر الكهوف الجوفية من مكان صغير إلى آخر. هكذا كانت قلوب المحاربين تنبض عندما أخرجها القسّيس من صدورهم. كانت تخفق بشدة حتى الموت. بالنسبة لي، شعرت بالأسف لرؤيتهم وهم يُنتَزعون من منازلهم. ظننت أن على الآلهة أن تقدر هدية الحياة هذه. ما الذي يمكن أن نقدمه لهم أكثر من مركز كينونتنا، من قلوبنا الأفضل والأكثر إقداماً وبسالةً؟

مع ذلك، فقد تخلت الآلهة عنا أمام دواب وعصي نار الإسبان. ربما كانت الآلهة تفضل الذهب أيضاً. لا يبدو أنها تعبأ لأنيننا. لقد تركَتْنا لغضب من لا ضمير ولا قلب لهم، فلا قيمة للكثير من القلوب الحمراء. بدا أنها قد

استسلمت لإله الوافدين الجدد الذين قالوا إن الإله قد دخل إلى الروح من خلال الماء.

قام يارينثي بالتعميد لتجريب ما قاله الإسبان. كان يود التعرف على ما يمكنه تعلّمه من إلههم الذي من شأنه أن يفيد شعبنا. لكن إله الإسبان لم يَمَسّ روح يارينثي. انتبهنا إلى أننا لم نكن نَرُقْ لهذا الإله أيضاً. ربما طلب من الإسبان أن يجعلونا أضحية.

تحافظ لابينيا على مساحات كبيرة من الصمت. يضم عقلُها مناطق واسعة نائمة. انهمكت في حاضرها وتمكنت من الشعور برؤى ماضيها: أشجار البن والبراكين ذات الدخان والينابيع يلفها الضباب الكثيف للحنين. حاولت فهم نفسها، إذ إن مصدر الصدى والتوقعات معقد. لا أستطيع أن أجد ترتيباً في تعاقب الصور التي تحدثها هذه الأسطح البيضاء والملساء، فهي تحيرني وتربكني. يجب أن آخذ قسطاً من الراحة، حيث أشعُر بالاضطراب الروحي.

***

دقت من بعيد ساعة الكاتدرائية معلنة الساعة الخامسة. أطلت لابينيا من النافذة بانتظار فيليبي ورأت كبار السن من الجيران جالسين في حالة من الهدوء المعتاد يستمتعون بالهواء المنعش.

بدا المنزل نظيفاً ومريحاً. لم يذهب سدىً ما قامت به نهاية الأسبوع من ترتيب الأثاث الجديد وإزالة الغبار وسقي النباتات وفرز الأوراق القديمة. تساءلت عمّا إذا كان الحب هو ما يولد حب الحياة المنزلية، لكنها كانت تشعر بالرضا لما بذلته من جهد. ارتدت بنطال جينز وبلوزة فضفاضة وصندلاً. ابتسمت وهي تتخيل نفسها بصورة الفتاة المنزلية وشعرها مربوط من الخلف بتسريحة ذيل الحصان.

لم يصل فيليبي. بدأ صبرها بالنفاد بحلول الساعة السادسة. لم يرن هاتفها. كان المزاج السيئ ينذر باجتياحها، بيد أنها حاولت ألّا تفقد صبرها من خلال التفكير في مشاكل النقل والتأخير المحتمل. قالت في قرارة نفسها

بالرغم من أنه كان يتوجب عليه أن يتصل بها هاتفياً على الأقل ليبلغها بأنه سيتأخر، فإنه لم يكلّف نفسه جهد رفع سماعة الهاتف وإجراء المكالمة، لا سيما بالنسبة له كمدمن اتصالات هاتفية. أخذت كتاباً بلا تعيين وجلست على الأرجوحة. كان من شأن القراءة أن تساعدها على قضاء الوقت، غير أنها لم تستطع التركيز. استيقظت في الساعة السابعة صباحاً بمزاج سيئ. كانت تتجول في المنزل وهي تمشي كالأرنبة الأسيرة لا تعرف ما عليها فعله. حدّثت نفسها أنه ربما عليها الخروج وعدم الانتظار أكثر من ذلك. اتصلت برقم أنتونيو، فَلَم يرد على الهاتف. من المؤكد أنه لم يعد بعد من النزهة التي كان قد دعاها إليها. لم تكن سارة وأدريان في المنزل أيضاً. تراكمت وحدة اليوم في الصمت. شغّلت الموسيقى. رغم أنها قد نَوَت الأسبوع الماضي عدم التفكير بمشاغل فيليبي، فإنها الآن لا تستطيع مسك نفسها عن القيام بذلك. كانت تخشى أن تكون قد استسلمت لأي دون جوان أو على الأقل لشخص ذي علاقة مضطربة ربما تم اختيارها لهذه العلاقة كبديلة أو كي تعوض مكان إحداهن. لقد حصل ذلك في الحياة الحقيقية ولم يكن الأمر خارجاً عن المألوف. مع ذلك كان موقف فيليبي تجاهها صادقاً. حضّرت لنفسها كأساً من مشروب الرون وقالت في قرارة نفسها إنها لن تيأس بعد الآن ولن تنتظره بعد الآن. في اليوم التالي، حاول توضيح كل شيء دفعة واحدة. لم تستمر بالتظاهر بعدم اكتراثها لألغازه. كانت تسأله بشكل غير مباشر. على الرغم من أنه لم يكن هناك ارتباط بينهما وهذه حقيقة ولا شيء يعطيها الحق بالاستقصاء، لكنها حدثت نفسها أن التفكير بهذه الطريقة هو فخ. إنه الفخ الذي تقع فيه دائماً النساءُ الخائفات من الاتهام الفظيع بأنهن مسيطرات أو لديهن حب التملُّك. لم تستطع أن تتجنب النظر إلى الشباك وأن تصغي بانتباه إلى وقع الخطى.

دقت الساعة معلنة التاسعة. كان من الواضح أن فيليبي لن يصل. قالت العمة إينيس إن الرجال كانوا متقلبين وغير قابلين للاختراق، فالنساء تقضي ليالي مغلقة تعد النجوم. أما النجوم، فهي الفتحات التي تطل المرأة من خلالها. الرجال هم كالكهف الذي تحتمي النساء في كنفه، كالنار وسط الوحوش، هم الأمان بصدورهم العريضة وأيديهم الكبيرة التي تمسك بالمرأة عندما

يمارسون معها الحب، إنهم كائنات تتمتع بميزة عدم وجود حدود للمساحات الضيقة وهم أصحاب الامتيازات الأبدية. على الرغم من خروجهم جميعاً من رحم المرأة، فقد اعتمدوا عليها كي ينشأوا ويتنفسوا ويتغذوا ويجروا اتصالاتهم الأولى بالعالم الخارجي وليتعلموا الكلمات، إلا أنهم يبدون لاحقاً كأنهم يتمردون بشراسة غير عادية ضد هذا الاعتماد ويتسلطون على رمز الأنثى ويسيطرون عليها ويرفضون الاعتراف بقدرة مَنْ أهداهم لهذا الكون وجعلهم يتمتعون بهبة الحياة بفضل ألم أرجلهن المفتوحة عند ولادتهم.

شغّلَت التلفاز. كان الفيلم على غير ما يرام. على القناة الأخرى، كان المسلسل تافهاً. لم تكن هناك سوى قناتين تلفزيونيتين في فاغواس. قامت لابينيا بإطفاء التلفاز، ثم قامت بإطفاء أنوار المنزل. أغلقت باب الحديد على الحديقة. خلعت ملابسها ودخلت الفراش لتقرأ. دقت الساعة الحادية عشرة ليلاً. شعرت بصداع وبحزن شديد وبالخيانة وبغضب من نفسها للسهولة التي أبدتها لبناء قلاع من الرمال ولرومانسيتها. أخيراً، جعلها سكون الوحدة تشعر بالنعاس. غرقت في حلم بغيوم بيضاء ضخمة وبوجوه أطفال سمينين ومرحين وبالجد الفارع الطول يضع عليها جناحيه الكبيرين من الريش الأبيض وبالتحليق فوق أزهار كثيرة: رقيب الشمس والزنبق والسرخس العملاق وقطرات الندى الرائعة التي تعكس أشعة الشمس كمشكال رائع ولحية وشعر الجد الأشيب المغطى بالندى والأجنحة السميكة التي تُحدِثُ نسيماً عند هبوبها في الريح وهي تتبلل بالندى وتتمرغ فيه. كانت الأجنحة المبللة ثقيلة. كان الجهد يزداد بالتدريج للوقوف على فج الزهور الكثيرة. عبثاً حاولت العودة إلى الجد.

وسط رفرفة الأجنحة اليائسة، استيقظت في الظلام. كان ظل شجرة البرتقال فقط يرسم ظله على ضوء القمر الذي ينير النافذة.

***

أحاط الليل بأغصاني وأصدرت صراصير الليل صياحها الرتيب وسط مغازلة اليراعات. بالكاد تمكنتُ من اللحاق بها في الحلم. كتبتُ اسمي: إيتشا، قطرة ندى، عند رؤيتها للزهور وعند تحليقها. حلمتُ بدوري بالطيران

عندما رأيت العصافير تحلق مرتفعة في أسراب عند وصول الوحوش وأفواج الرجال التتنين والشُّعْر، إنها عصافير صغيرة جداً، لكن فائدتها كبيرة بالنسبة لنا!

إنني محتارة بما حدث. الجريان في دمها يعني أنها بداخلي. هذا ما يفترض أن يكون عليه جسدي. أشعر بالحنين إلى الأوردة والأحشاء والرئتين. بالمقابل، كانت أفكارها تدور حول عائلة من الببغاوات تحلق في دوائر وتحدث ضوضاء وتصعد بعضها فوق بعض في صخب فظيع. مع ذلك، كان لهذه الببغاوات نظام بالنسبة لها، إنني متأكدة من ذلك. تشير إحدى الصور إلى صورة أخرى وأخرى كمرآة تنعكس فيها الصور بلا حدود. تذكرتُ سحر المرايا. بالمرايا، تمكن الإسبان من لفت انتباهنا. في البداية اعتقدنا أن تلك الصورة التي تكرر كل حركاتنا هي استهزاء حتى أدركنا أننا كنا نرى بعضنا بعضاً ولأول مرة بوضوح وليس كما يحصل مع الانعكاس المتموج والعابر لمياه الأنهر وكنا مفتونين بذلك. ما الذي يمكن أن يكون أكثر روعة من أن يرى المرء نفسه لأول مرة؟ هل جربت ذلك؟ كان ياريتشي غاضباً عندما فاجأني وهو ينظر إليّ في المرآة. لكنني لم أكن أعرف أنني كنت جميلةً حتى ذلك الحين وكنت أحب النظر إلى نفسي.

- 5 -

عاودت النوم من جديد، لكنها سمعت فجأة ضوضاءً. حافظت على سكونها في الظلام. كانت الرياح في الخارج تهب على الأشجار. في البداية ظنت أن الرياح الشديدة كانت تحرك الباب محدثة ضربات، لكن الضربات كانت إيقاعية وقوية وعاجلة. تنبهت فجأة وانتابها الخوف. سرعان ما عدّلت ثوب الكيمونو الزبرجدي اللون الذي كانت ترتديه وخرجت لغرفة المعيشة. أضاءت الأنوار عندما سمعت صوت فيليبي. كان الصوت أجشّاً، صوت شخص يحاول عدم الصراخ.

- قال فيليبي: «لقد فتحت، بسرعة، لقد فتحت».

سحبت قفل الباب وهي تفكر: ظهور فيليبي في هذه الساعة والمأزق ونبرة الصوت المخنوق... ما الذي قد حدث؟ كان عليها أن تبتعد لأن الباب كان يُفتَح بدفعة جسم قوية. دخل رجل يتمايل منحني القامة يتكئ على ذراع فيليبي.

لم يكن لديها وقت لتسأل عمّا حدث. بالكاد لمحت تغيّر مظهر فيليبي عندما مر من جانبها وهو يقود الغريب إلى غرفة النوم دون تردد أو دون أن ينظر إلى الخلف.

- قال لها: «إغلقيه جيداً. ضعي جميع الأقفال لتأمين إغلاق الأبواب والشبابيك وأطفئي جميع الأضواء».

قامت بالإغلاق وبإطفاء الأضواء في حالة من الإرباك. تساءلت: «ما الذي قد حدث؟ ما معنى ذلك الاقتحام المفاجئ في منتصف الليل؟ كانت رائحتهما غريبة وتدل على الخطر واليأس.

اتجه إلى الغرفة والأدرينالين يشوش مسامعه.

تحت خُطاها التي كان ضوء الغرفة ينيرها، رأت البقع على الأرض، إنها قطرات كبيرة، قطرات كبيرة حمراء. شعرت بأنها لا تقوى على الوقوف وكان العرق يتصبب من ساقيها. دخلت عليهما. كان فيليبي يدور حول الرجل.

سألها فيليبي: «هل لديك ملاءات، أي شيء يمكننا استخدامه كضمادات، شيء لعمل عُصابة ضاغطة شرايين؟ كانت البقعة الحمراء تتسع بلا توقف على المنشفة التي كان يضعها على ذراع الجريح.

دون أن تنبس ببنت شفة، دخلت لابينيا الحمام. كانت تحتفظ هنالك بالمطهرات والقطن وأدوات الإسعافات الأولية. كانت يداها ترتجفان. خرجت ومعها الملاءات والمزيد من المناشف والمقص. وضعها على السرير.

أصدر الرجل ضوضاءً غريبة عندما تنفس. وضعت المنشفة على ذراعه وضغطتها باتجاه خصره. رأت لابينيا قطرات الدم تسيل على سرواله. شعرت كأن عينيها تخرجان من تجويفهما.

- قالت لابينيا بكلمات سريعة: «إنه مصاب بجروح بالغة. هل تعرض لحادث؟ علينا أخذه إلى المستشفى. اتصل بطبيب».

- أجابها فيليبي بأسلوب جاف: «لا يمكن القيام بذلك، ربما غداً. ساعديني. علينا إيقاف النزيف».

اقتربت. سحب الرجل المنشفة كي يتمكن فيليبي من وضع عُصابة ضغط الشرايين. رأت جلد ذراعه فوق المرفق بقليل، ثمة حفرة دائرية، كان اللحم الحي للجلد ظاهراً والدم الأحمر الكثيف يتدفق ولا يمكن إيقافه. خطرت في مخيلتها صور متفرقة: أفلام حربية وجروح عيارات نارية. ظهر الجانب المظلم لفاغواس في منزلها على نحو مفاجئ غير متوقع. كيف يمكن لأحدهم أن يفهم عدم أخذه إلى المستشفى؟ فهمت أخيراً مكالمات فيليبي الغامضة وخروجه. فكرت بينها وبين نفسها، لا يمكن أن يكون أمراً آخر وشعرت بالرعب يتصاعد في جسدها بينما كانت تحاول أن تطمئن نفسها بأنه لا ينبغي عليها أن تبدأ بالاستنتاجات بهذه السرعة. لكن إذا لم يكن الأمر

كما تظن، فلماذا كان على فيليبي أن يجلب هذا الرجل إلى منزلها؟ انتابتها موجات من الهلع وهي تحدق في الجرح والدم ويكاد يغشى عليها من الذهول وتقاوم جاهدةً الدوار الذي شعرت به ورغبتها في التقيؤ.

قام فيليبي بلف قطعة غطاء السرير حول ذراعه، ثم بدأ بالضغط بقوة.

لم ترغب لابينيا برؤية البقع الحمراء الرطبة وهي تلطخ غطاء السرير الأبيض. ركزت على ملامح الرجل، على ملامحه القوية، وعلى جلده الزيتوني وشحوبه وشفتيه المشدودتين.

من هو يا ترى؟ كيف أُصيبَ؟ كانت تتمنى أن لا تفكر. شعرت بأنها مكبلة. لم يكن بوسعها فعل شيء سوى النظر إليهما ومساعدتهما. لم يكن لديها طريقة أخرى. كان رأسها ينبض كقلب كبير قد أُطلِق له العنان.

– قالت جازمةً: «لقد أُطلِقَ عليه الرصاص» دون النظر إلى فيليبي. قالتها بدافع ضرورة قول ذلك، لتخرج ما كان يجول في رأسها. حرك فيليبي العاصبة وأمسكها بقوة. أصبحت قطعة القماش البيضاء حمراء اللون. كان اللون الأحمر مخيفاً حيّاً.

كان الرجل بالكاد يلهث. كان وجهه متجهاً دون تعبير نحو يد فيليبي. شاهد العملية كأنها لم تكن ذراعه. كان شاباً متوسط القامة ذا عينين مسحوبتين بعض الشيء وذا شفتين عريضتين. كان شعره بنياً تتدلى منه خصلة على جبينه. كان قوي البنية. يمكن بسهولة ملاحظة شكل عضلاته وأوردته القوية والواسعة. عند سماعها التفت إليها.

– تحدث إليها للمرة الأولى وهو ينظر إليها قائلاً: «يا رفيقة، لا تقلقي، فلن أموتَ في منزلِك» وابتسم بحزن تقريباً.

كان فيليبي يتصبب عرقاً، يشدّ العاصبة ويفكّها.

في النهاية، مزق قطعة أخرى من غطاء السرير وربطه بإحكام بذراع الرجل.

مسح الدم المتبقي بمنشفة نظيفة، ثم مسح بها جبينه لتجفيف العرق.

هتف مخاطباً الغريب: «حسناً، أعتقد أنك نجوت من هذا». ما هو شعورك؟

- أجاب الآخر بتعبير لطيف ساخر قائلاً: «كما لو كنت قد أصبت للتو بإطلاقة. إنني بخير، لا تقلق، اهتَمّ بالرفيقة. يبدو أنها خائفة جداً».

- قال فيليبي: «سأعتني بها، لكنني أعتقد أنه يجب عليك حالياً ألا تتحرك من هنا. الرفيقة «سجلها نظيف». أفضِّلُ أن تبقى هنا. إنه أكثر أماناً. يجب عليك الآن أن تشرب شيئاً وأن تنام. لقد فقدت الكثير من الدم».

- «حسنا سنرى. لا نعرف حتى ما الذي ستقوله» ونظر إليها.

بدا الرجل الجريح فقط أنه قد أدرك وجودها. انتهى فيليبي من تنظيف السرير. فكرت لابينيا أنه لم يعد بإمكانها الشك بعد الاستماع إلى مخاوف فيليبي بشأن سلامة ذلك الغريب. كانت تعتقد أنه كان بإمكانه أن يبعدها بالتجاهل ولا يجبرها على مواجهة مثل هذا الموقف فجأة بدون تحذير.

- «هل لديك شيء يمكننا أن نقدمه له؟» هذا ما سأله فيليبي واستدار نحوها. بدا وجهها قاسياً، خالياً من التعبير، فريسة لفكرة محددة.

- أجابت مضطرة نظراً لرغبة فيليبي قائلةً: «أستطيع أن أحضر لك عصير برتقال ولدي حليب أيضاً». لقد شعرَتْ بالحرج والذهول منه.

- قال الجريح: «الحليب أفضل». يسبب البرتقال لي حموضةً.

التقى بها فيليبي في المطبخ.

- قال لها: «أعتقد أنه سيكون من الجيد لو قمت بتسخينه قليلاً».

- قالت لابينيا: «لا أعتقد ذلك». لقد قرأت ذات مرة أن المشروبات الساخنة غير جيدة للنزيف. من الأفضل أن نقدمه بارداً... أخبرني بما حدث ومن هو.

- أجاب فيليبي: «اسمه سيباستيان. لَنُقَدِّمَ له الحليب وسأشرح لكِ الأمر فيما بعد».

ابتعد عنها وتوجه صوب النافذة. واصلت الرياح هبوبها. كانت الكلاب السائبة تنبح في الشارع. كانت تمر سيارة بين الحين والآخر. رأته وهو يتأكد من الأقفال ومن سلسلة الباب.

تناول سيباستيان الحليب. أعاد القدح إلى لابينيا وانحنى إلى الوراء للرقود في السرير. أغلق عينيه.

قال لها: «شكراً لكِ، شكراً لك أيتها الرفيقة».

لقد ذكّرها شيءٌ من رباطة جأشه وهدوئه بالأشجار المتساقطة.

خرجت مع فيليبي إلى الصالة في الظلام. كانت أضواء الفناء تعكس ضوءاً أبيض خافتاً. بدا ظل شجرة البرتقال وهو يهتز على الطوب.

ارتمى فيليبي على الأريكة وأمال رأسه للخلف. أغلق عينيه. كان يفرك وجهه بحركة تدل على الإرهاق والرغبة في نسيان ما حدث والعودة إلى ما كان عليه سابقاً.

– ناداها: «لابينيا». فتح فيليبي عينيه وأشار إليها للجلوس بجانبه. تحسنت تعابير وجهه بعض الشيء، على الرغم من تقطّب حاجبيه وعيونه ذات النظرة الحادة والثابتة.

جلست بجانبه والتزمت الصمت. لم ترْغبْ بالسؤال. كان الخوف يساورها. ظنت أنه من الأفضل لها ألا تعرف أي شيء، لكن فيليبي تحدث لها قائلاً:

– «تم اكتشاف سيباستيان من قبل الحرس الوطني. لقد أطلقوا النار على المنزل الذي كان فيه. تمكن من الخروج بالقفز فوق الأسيجة والجدران. لقي ثلاثة من الرفاق الآخرين مصرعهم...»

واصلت الصمت. فكرت لابينيا، ما الذي بوسعها قوله؟ كان هناك حذر في نظرة فيليبي. لم تكن لها ردة فعل. كانت تود الهرب بسرعة. لقد أرهبتها فكرة أن يكون هنالك حارس يتقفى خطاهم. كانت الأساليب التي استخدموها معروفة جيداً، التعذيب والبركان وهي امرأة. تخيلت تعرضها للاغتصاب في زنزانات الجنرال الكبير. بدت أصوات الليل موحية بالشر ومليئة بالشؤم. الرياح.

لم يكن على فيليبي الدخول ببساطة وبهذه الطريقة في منزلها. حدثت نفسها أنه لربما لم يكن لديه بديل، لكن ليس لديه الحق بأن يغرقها في الخطر، في ظل «الرفاق» الثلاثة القتلى. والجريح النائم في فراشه... فكرت بيأس ما الذي بوسعها القيام به؟

قال فيليبي وهو ينظر إليها بلطف ويضع يده على يديها: «ها قد

علمت لماذا لم أتمكن من المجيء وما هي مشاغلي والمكالمات». إنني آسف لأنكِ اضطررتِ إلى العلم بالأمر بهذه الطريقة. لم يكن ليأتي قط إلى هنا لو لم تكن هذه حالة طارئة. لم يكن بمقدوري اصطحاب سيباستيان إلى منزلي، فهناك أناس آخرون. من شأن تقرير واحد أن يكون قاتلاً». كرر قائلاً «إنني آسف. لم يخطر لي شيء أفضل من إحضاره إلى هنا. إنه في أمان في منزلكِ».

لقد رأت شحوب فيليبي في الظلام والعرق يتلألأ على وجهه. كان الجو حاراً.

- «وما الذي سنفعله؟» سألته لابينيا ذلك بينما كانت تتحدث إليه همساً كما كان يفعل معها.

- «لا أدري. ما زلت لا أعرف» تمتم فيليبي ومرر يديه على شعره بحركة لمس.

شعرت لابينيا بارتباكه في تنفسه المضطرب في جسده المرتمي على الوسائد، في ساقيه الممددتين بكامل طولهما كما لو كانوا يزنونهما. فجأة، استقام فيليبي وبدأ بتنظيف نظارته بشكل آلي وهو يتحدث إلى نفسه دون رؤيتها.

- قال: «لن يعتاد المرء على الموت أبداً. لن يعتاد أبداً».

قال إنه يعرف الرفاق الثلاثة الذين لقوا حتفهم. كان أحدهم صديق الطفولة، زميل في المدرسة، إنه فيرمين. تم استدعاؤهم إلى اجتماع في المساء. أضاف قائلاً: لذلك قد فاته الموعد معها، كما لو كان ما يزال مهتماً. استغرق الاجتماع حتى التاسعة ليلاً. كان فيرمين يمزح حول هدوء الحي. لقد شعروا هنالك بالأمان، في المنزل المستأجر حديثاً بالأموال الشحيحة للمنظمة (وتحدث عن المنظمة كما لو كانت هي تعرفها). كان حياً فقيراً ومهمشاً، يضم منازل من الألواح الخشبية ومراحيض في الباحات ومزارعين مهاجرين إلى المدينة بحثاً عن حياة أفضل. من أبلغ عنهم؟ سأل ذلك وكان ينظر إليها دون أن يراها. في الساعة التاسعة، غادر للعودة إلى منزله. وكرر قائلاً: «لم أكتشف شيئاً. لم أكتشف أي شيء» كما لو كان يلوم نفسه على

شيء خطير للغاية. أعاد ترتيب ما رآه محاولاً استيعاب بعض التفاصيل غير العادية: الرجال والنساء يجلسون عند أبواب منازلهم والكلاب الضالة والباصات المارة التي كانت هياكلها الحديدية القديمة تصدر ضوضاءً شديدة، قال لأكثر من مرة: «لم أكتشف شيئاً». قال إن سيباستيان هو الذي أخبره كيف ظهر الحرس فجأة. لقد سمعوا صوت فرملة سيارات الجيب وسمعوا عبارة «أنتم محاطون، سَلِّموا أنفسكم» بوقت متزامن تقريباً. وكان لديهم عدد قليل من الطلقات ورشاشان بينما كانوا هم يتخذون مواقع إطلاق النار ويمسكون المسدسات متأهبين. قرروا أن يقوم سيباستيان بالبحث عن كيفية إنقاذ نفسه ومحاولة الخروج والبقاء على قيد الحياة للاستمرار. ثم صرخوا «لنذهب» لمنحهم الوقت. كان هذا آخر ما سمعه سيباستيان عندما قفز من فوق الجدران.

قال فيليبي وهو يخلع نظارته: «لقد كانوا على قيد الحياة في الساعة التاسعة مساءً وضغط على عينيه بإبهاميه. وأضاف أنه لا يمكن عمل أي شيء لهم الآن. لا يمكن لأحد أن يعيدهم للحياة. لقد فقدوا حياتهم، لكن أحلامهم ستبقى حية».

سكت فيليبي. مد ذراعه ليعانقها، كما لو كان قد فرّغ ما بداخله واحتاج إلى قرب إنسان آخر كي لا ينزلق إلى الثقب الأسود العميق لليأس.

ارتمت وهي منكمشة ومصدومة وغير قادرة على النطق بكلمة واحدة في أحضان فيليبي على صدره وهي تلمسه وتعانقه ولا تعرف كيف تواسيه. كانت تريد أن تصونه وتحميه بجسدها كامرأة. أسنَدَتْ رأسَها إلى صدره وشَعَرَتْ بإيقاع أنفاسه وبمحراب كيانه الدافئ وبجسده المشدود وعضلاته. مع ذلك، من السهل التعرض له: إذ من شأن قطعة من الرصاص منطلقة بسرعة معينة أن تدمّر فيليبي. سيخرج هذا الجلد الذي لمسته وكل ما تحتويه بشرته عن مجرى نهرها وسيتهشم السد إلى ألف قطعة وستتدفق المياه وسيتلاشى الخرير وترتفع وتنخفض تيارات المياه الجوفية بلطف. شعرت بقشعريرة من فكرة الموت التي كانت تحوم على مقربة جداً. في تمام الساعة التاسعة مساءً، غادر فيليبي المنزل لا شيء غير ذلك. ولو بقي؟ لضمّته بشدة أكبر. فكرت في أصدقائه الذين لم تعرفهم قط.

كانت ترغب بالبكاء على ما كان يشعر به وعلى الألم الأصم للموت والعجز.

فكرت أنهم قد يموتون جميعاً. قد تموت هي نفسها. لقد طغى عليها الخوفُ مقتحماً حزنها. أخبر فيليبي صديقه أنهما سيبقيان هناك ولن يغادرا حتى اليوم التالي. ضغطت على جفنيها. كانت تود أن يكون ذلك اليوم هو اليوم التالي وأن تراهما يغادران منزلها وتبقى وحيدةً وهادئة مرة أخرى وتنسى ما قد حدث. لكنها شعرت بالخجل، إذ أدرك فيليبي مدى رغبتها في أن يغادر مع صديقه الجريح. لم تكن تنظر إليه. ما تزال نائمة على صدره في الوقت الذي كان فيه يشبك يديه في شعرها الطويل وكانت تشعر فيه بذراعه المشدودة وبعضلاته المتقلصة.

تساءلت لابينيا: «هل سيأتون للبحث عنهما. ما الذي عَلَيّ فعله إذا جاؤوا للبحث عنهما؟»

بدأ ضوء الفجر يتسلل عبر باب الحديقة. نهض فيليبي وذهب إلى النافذة. كان الديك يصيح من بعيد في الخارج.

– قال مؤكداً شكوك لابينيا: «نحن من حركة التحرير الوطني». ثم سأل: «تعرفين ما هذه الحركة، أليس كذلك؟».

– قالت لابينيا: «نعم». كررت قائلة: «نعم. إنها الكفاح المسلح».

– قال فيليبي: «نعم. بالضبط. الكفاح المسلح، لم نستطع الاستمرار فقط في الجبال. إننا نتنامى وبدأنا العمل في المدن. لن يكونوا قادرين على إيقافنا. الاستقالة ليست هي الطريق، لابينيا: لا يمكننا الاستمرار في السماح للحرس بأن يفرض نفسه بالقوة. هل تتذكرين الذين يتملكون ويضعون أيديهم على ما ليس لهم؟ لا يمكننا الاستمرار في السماح لذلك بأن يحدث. لم يبق شيء ضد العنف سوى العنف».

وقف متكئاً على إطار باب الحديقة وتحدث دون أن يراها. شاهدت لابينيا جانبياً عيني فيليبي تنظران بإصرار إلى نقطة في الفضاء. كرر قائلاً إنها الطريقة الوحيدة وهو يسير من جهة إلى أخرى ويفتح ويغلق قبضتي يديه. كان يستمد القوة من قناعته. كانت العملية واضحة تقريباً مثل رؤية مريض معين وهو ينهض عازماً على العيش بعد الإعلان الرهيب.

فكرت أنه كان عليها أن تشك في ما كان عليه. رغم مراجعتها لسلوك فيليبي، لم تتمكن من إيجاد أي شيء يدل على مثل هذا الارتباط. الحقيقة هي أنه لم يكن ثمة سبب لتخمين ذلك على الرغم من العديد من المشاغل الغامضة. كانت ستستمر في عزو الأمر إلى علاقات الحب غير المشروعة أو إلى خوف الذكور التقليدي من الارتباط. قالت لنفسها إنه لأمر مؤسف أن تراه محفوفاً بالخطر. نظرت إلى وجهه كمثقف وإلى نظارته ذات الإطار الرفيع وإلى عينيه الواسعتين الرماديتي اللون. من الجنون أن يخاطر على هذا النحو من بإمكانه أن يكون له مستقبل خالٍ من المشاكل، ومن بذل جهوداً حثيثة ليشق طريق حياته المهنية كمهندس معماري. كانت تعتقد أنه من الجنون أن يكونوا قد أقنعوه بأن المَخْرَج الوحيد هو الكفاح المسلح.

- قالت: «لكنهم لا مستقبل لهم يا فيليبي. سيقتلونهم جميعاً. إنه أمر غير واقعي وأنت شخص عقلاني. لم أتخيل قط أنك تؤمن بتلك الأشياء».

التفت إليها وكان على وشك أن يقول شيئاً. أن لا تنسى أبداً تلك النظرة الزيوسية الحادة التي كانت توشك أن تفرغ شحنتها كالبرق. لا بد أنه رأى الخوف في عينيها لأنه قد تمالك نفسه وتراجع.

قال لها: «لنعد القهوة».

بينما كانا يستنشقان رائحة القهوة أثناء احتسائها ببطء وهما يجلسان على مقاعد المطبخ الخشبية الريفية، مد ذراعه على الطاولة وأمسك بيدها.

قال وهو ينظر إليها بعمق: «لابينيا. لا أريد أن أورطكِ ولا أريد أن أفسد راحة بالكِ. فما أحبه هو عكس ذلك. أحب هذا البيت السعيد وهذا السلام. أحب ذلك بأنانية -قالها كأنما لنفسه-. لا أطلب منكِ أن تفهمينا ولا أن توافقي على ما نفعله. قد يبدو الأمر جنونياً بالنسبة لكِ، إلا أنه الطريقة الوحيدة بالنسبة لنا. فقط أطلبُ منكِ أن تبقي سيباستيان هنا حتى نتمكن من نقله إلى جهة أخرى. منزلك آمن. لن يبحث عنه أحدٌ هنا. سيباستيان مهم جداً للحركة. أقسم بأنني لن أطلب منك أبداً شيئاً آخرَ».

- سألت لابينيا: «وأنت، ماذا ستفعل؟»

- «أود البقاء معه غداً لأرى ما سيؤول إليه وضعه ثم سآخذه بعد ذلك.

لست أنا المشكلة، فأنا نسبياً لا غبار علَيَّ. تكمن المشكلة في عدم توفرنا على موارد كبيرة وبيوت وسيارات، كل ذلك. علي أن أفكر أين آخذه».

– سألت لابينيا: «إذن، أليست الحركة كبيرة جداً؟».

– أجابها فيليبي بنظرة أخرى خاطفة: «إنها في حالة تنامي. ما هو قولك، هل توافقين؟»

فكرت وهي تنظر إليه أنه من الصعب عليه أن يطلب منها ذلك وأن يرجوها تقريباً.

كان بريق عينيها متألقاً. أطلق يدها وانتظر بترقب أن تقول شيئاً.

فكرت في قرارة نفسها «إنني محاصرة، لا أستطيع أن أقول كلا»، إلا أنه لم يكن أيضاً بوسعها أن تكون رومانسية. لا يجب لعلاقتها بفيليبي أن تورطها. لم يكن الأمر لعبة، بل دم وموت. لم تتخيل قط أن يحصل لها شيء من هذا القبيل. بالنسبة لها، كان رجال حرب العصابات أمراً مستبعداً، كائنات من صنف آخر. في إيطاليا، أعجِبَت، مثل أي شخص آخر، بتشي جيفارا. تذكرت افتتان جدها بفيدل كاسترو والثورة. لكنها لم تكن من هذه السلالة. كان واضحا جداً بالنسبة لها. إن عدم اتفاقها مع السلالة شيء والقتال بالسلاح ضد جيش مدرب على القتل بدم بارد شيء آخر. هنالك حاجة لشخصية أخرى، لشخصية صلدة كالخشب. إن تمردها الشخصي علي *الوضع الراهن* والمطالبة بالاستقلال ومغادرة منزلها شيء وأن تعرّض نفسها لهذه المغامرة المجنونة، لهذا الانتحار الجماعي وهذه المثالية المتطرفة شيء آخر. لا يمكنها أن تنكر شجاعتهم، إنهم أجناس استوائية من كيخوتي، لكنهم غير عقلانيين.

سيواصلون قتلهم وهي لا تريد أن تموت. لكنها أيضاً لا تستطيع أن تترك فيليبي ولا صديقه. لا تستطيع إخراجهما من منزلها. على الرغم من شعورها بضرورة مغادرتهما وبضرورة إنهاء كل شيء معه ومحوه من ذاكرتها في تلك الليلة.

– قال فيليبي: «لقد بقيت صامتة. لم تردّي علَيّ».

استعادت نبرة صوته حزمها هذه الليلة، بدون عاطفيات.

- أخيراً، قالت لابينيا: «أعلم أنني لا أستطيع أن أقول لا حتى لو وددت ذلك. أتفهّم أن لديكم أسباباً للقيام بما تقومون به. أريد فقط أن أوضح أنني لا أتفق مع تلك الأفكار. ليس لدي استعداد وإمكانية لمثل هذه الأمور. يمكن لسيباستيان البقاء، لكن ما أطلبه هو أن تنقله إلى مكان آخر في أسرع وقت ممكن. أعلم أن هذا الأمر يبدو فظيعاً بالنسبة لكَ، لكنني لا أشعر بالمقدرة على أي شيء آخر. ينبغي أن أكون صادقة معك».

- قال فيليبي: «إنني واضح. ذلك هو كل ما نريدك أن تقومي به في الوقت الحالي».

- قالت لابينيا: «لا، رجاءً. لا شيء في الوقت الحالي. أن أحترم شجاعتكم مثل كثير من الناس شيء، لكن ذلك لا يعني أنني أتفق معكم. أعتقد أنكم مخطئون وأنه انتحار بطولي. رجاءً، ما أطلبه منكَ هو ألا تقحمني في أي أمر من هذا القبيل».

- قال فيليبي وهو ينظف نظارته مرة أخرى: «حسناً، حسناً».

خفضت لابينيا رأسها ووضعته على ذراعيها اللتين كانتا تستندان إلى الطاولة. أغلقت عينيها. كانت تشعر بالتعب والإرهاق. ثمة ذنب مصدره صور غريبة ومدن محترقة ورجال سمر يقاتلون كلاباً مسعورة كان قد أتعبها ذهنياً.

قالت لفيليبي وهي ترفع رأسها: «من الأفضل أن نأخذ قسطاً من الراحة. يبدو لي أنني حتى أسمع أصواتاً».

- 6 -

آه! كيف أراد أن يؤثر فيها ويجعلها تفهم. إنها مثل الكثيرات الأخريات. مثل الكثيرات اللائي عرفتهن، الخائفات اللائي يعتقدن أنهن سيحافظن بذلك على حياتهن. لقد انتهى بهن الأمر هياكل عظمية محزنة: خادمات في المطابخ، مقطوعات الرأس عندما توقفن عن المواصلة، أجساد يفرغ البحارة حمولتها في تلك السفن التي أبحرت لبناء مدن بعيدة وهي تحمل رجالنا.

عندما كانوا يناقشون مع يارينثي جرأة حيله، قال إن الخوف مستشار سيئ. تنبعث من فيليبي قوة الشجاعة. أما هي، فإنها لا شيء في بحر من الإرباك. كان تفكيرها عديم الحماسة. كان دمها يسيل من الداخل مثلما يصاب المرء بجرح في الماء. تشبثت بعالمها كما لو أن الماضي غير موجود وأن المستقبل هو مجرد لوحة ذات ألوان زاهية. إنها مثل الذين عُمِّدوا إيماناً منهم بأن الماء سيغسل قلوبهم والذين يعتقدون أن معارضة مقاومة الخيول والعصي النارية والسيوف القوية اللامعة أمور غير مجدية ولم يبقَ إلا الاستسلام والانتظار لان آلهتهم كانت تبدو أشد قوة من آلهتنا. ما زلت أسمع نحيبهم بعد المعركة التي خضناها على بعد خمسة أيام من المشي من ماريبيوس. سمعنا أخباراً عن رحلة للقباطنة الإسبان يستعدون فيها لغزو البلدات المجاورة للموقع الذي أرادوا أن يشيدوا فيه منازلهم ومعابدهم. مدينة أرادوا بناءها ليستقروا في أراضينا! كانت لحظة يأس كبير. في ذلك الوقت لم نكف عن مهاجمتهم بغتةً ليلاً ونهاراً منتهزين معرفتنا بالمنطقة وتضاريس وأماكن الاختباء فيها، لكننا فقدنا العديد من المحاربين. لقد قاموا بإخراج وحوشهم وبالرمي بالنار بعصيهم وبمطاردتنا مما أجبرنا على التفرُّق.

خطرت لتاكوتَيْدي، الكاهن العجوز، حيلة من شأنها أن تجعل الإسبان يتراجعون بالتأكيد. تناقشنا لمدة يومين بلياليها داخل الجبل حول النيران. لم أتفقْ معهم. يستحق شيوخنا حظاً أفضل. إنه بذلٌ لتضحية غير مجدية رغم أنني لا أكف عن التفكير في التأثير الذي قد تسببه. كان ياريتشي وكيابيت وأستوتشيمال يهتفون بصوت عالٍ، بعضهم مؤاتٍ وبعضهم معارض.

أخيراً جاء كويوبيت، الرجل العجوز الذي نحترمه جميعاً، ذو الشعر الأبيض، والذي جعلنا نجري قرعة بشأن القرار.

يبدو أنني أرى في الليل الدائرة الضيقة للمحاربين حول الطرق الرئيسية. يتم وضع المشاعل على الزوايا بين جذوع وأغصان الأشجار. كان كويوبيت وتاكوتَيْدي يجلسان على الأرض يدخنان التبغ.

أطلقوا السهام. اهتز الهواء في الأقواس. استقرت سهام ياريتشي وكيابيت بعيداً، أما أستوتشيمال فقد أخفق، فطأطأ رأسه ثم بكى بصوت عالٍ.

في تلك الليلة اختار المحاربون في مجتمعات المناطق أربعين رجلاً وامرأة من المسنين ونقلوهم إلى معسكرنا بوجوه ما تزال نعسانة ملفوفين بعباءاتهم. بدأوا بمضغ التبغ وكانوا جالسين في حلقة. تحدث إليهم تاكوتَيْدي. قال لهم إن رب الساحل كسيبي توتيك قد تحدث إليه في المنام وأخبره أنه لا بد من تقديم أضحية من الرجال والنساء الحكماء من أجل إخراج الغزاة من البحر. كان على المحاربين أن يلبسوا بعد ذلك جلود الأضاحي وأن يضعوها في الخط الأول من المعركة مما يخيف الإسبان ويجعلهم يهربون وبالتالي، سيتخلون عن بناء مدنهم في ماريبيوس. أخبرهم أنه قد وقع الاختيار عليهم للتضحية وأنهم سيذبحون عند الفجر.

كنت أشاهد، مختبئة بين الأدغال، إذ لم يُسمح للنساء بالمشاركة في المراسم الكهنوتية. لكنني، قد قمت بتحدٍ مسبقٍ لما يخص النساء بالذهاب للقتال مع ياريتشي. على أية حال، تم اعتباري كاهنة شامانية ساحرة قمتُ بإغواء ياريتشي برائحة عضوي الجنسي.

هكذا رأيت، في ضباب الفجر، أن المسنين بشالاتهم الملفوفة عليهم متقاربون بعضهم من بعض تميز وجوههم أخاديد التجاعيد وهم يستمعون

إلى تاكوتَيْدي. انتابهم الصمت، ثم ارتموا واحداً تلو الآخر على الأرض وهم يبكون بصوت عالٍ. قالوا «فليكن، فليكن». «فليكن، فليكن» حتى بدت أصواتهم كأنها أغنية.

شعرتُ كأن إناء قد كُسِرَ في صدري وأنا أرى شكل من سيموتون في اليوم التالي. إنهم شيوخنا الذين ستموت معهم قصص شعبنا وحكمتنا وسنوات ماضينا. كان الكثير منهم من آباء أو أقارب المحاربين الذين كانوا ينظرون بوجوه حجر السبج إلى كل ذلك. إننا نعاني كثيراً من تلك التضحيات! في الصباح الباكر من اليوم التالي وبينما كان تاكوتَيْدي يستأصل قلوبهم واحداً تلو الآخر في المذبح المرتجل لكسيبي توتيك[1]، كان الغضب يثقل كاهلنا جميعاً وكان كره الإسبان يتأجج داخلنا ويحرق دمنا.

سلخ تاكوتَيْدي جلودهم واحداً تلو الآخر. لبس أربعون من محاربينا تلك العباءات المروِّعة وأطلق بعضهم في النهاية أنيناً من الأعماق. كان ارتداؤهم لتلك الجلود مشهداً قد هزّنا نحن أنفسنا.

ما قلل من حدة حزننا هو تخيلنا للإسبان عندما ينظرون إلى ما رأيناه. بالتأكيد، لن يستطيعوا تحمل ذلك. لا شك أن وحوشهم ستخاف وسنحظى بالفوز. لن تذهب تضحية الأقارب المسنين سدىً.

لم نأخذ بالحسبان صلابتهم من الداخل. كانوا خائفين بالتأكيد. رأيناهم يتراجعون وسقط الكثير منهم وقد اخترقتهم سهام مسمومة. إلا أنهم قد بدا عليهم الغضب بعد ذلك. هاجمونا بالصراخ علينا بأننا «هرطوقيون» «زنادقة». لقد أثاروا ضجيج الموت الرهيب بخيولهم وألسنتهم السليطة وعصيهم النارية.

اختبأنا في تلك الليلة مجدداً في الجبل. لم نرغب حتى في رؤية بعضنا وجوه بعض. كانت تلك الليلة التي قال فيها كثيرون إن آلهتهم كانت أقدر من آلهتنا.

استلقى يارينثي ووجهه على الأرض. لقد تلطخ وجهه بالوحل ولم يكن

1- إله الساحل أو إله الربيع إو إله السلخ. كان يؤتى له بجلود الأضاحي البشرية المسلوخة. هو الإله المختص بالتجدد والخضرة في الربيع.

يسمح لي حتى بالاقتراب منه. كان كالحيوان الجريح يفكر تماماً كما يفكر فيليبي في موتاه، إلا أنه قد نهض من انهيار جسده.

أميّز دمي، دم المحاربين في فيليبي وفي الرجل الذي يرقد في غرفة لابينيا، الذي يتسم برباطة الجأش وبموقف زعيم قبلي. كانت هي فقط من تأرجح مثل فتيل في الزيت ولم أستطع احتواء نفسي في دمها، كان عليّ أن أناديها وأن اختبئ في متاهة سمعها وأهمس لها. إنها تشعر الآن بالذنب.

***

قبل الساعة السابعة صباحاً بقليل، شعرت لابينيا بالقلق إزاء الفكرة المفاجئة ليوم الإثنين. سيستمر العمل والحالة الطبيعية للأسبوع دون تأثر بالوقت الذي تقضيه داخل المنزل. كانت لوكريثيا في طريقها للوصول. كان عليها أن توقفها وأن تختلق عذراً لإبعادها. جلست على الفراش تفوح منها رائحة الخرق القديمة. أمرها فيليبي بأخذ قسط من الراحة في الغرفة التي اعتقدت ذات يوم أنها ستؤهلها كمرسم، إلا أنها كانت حينها مجرد مستودع للأشياء غير المستخدمة. بالكاد تمكنت من النوم. شاهدته من خلال الباب شبه المفتوح وهو يسير في المنزل في الصباح الباكر ويراقب الشارع والرجل الجريح.

بعد فترة وجيزة سمعتْ ضجيج صوته المتأتي من الغرفة الأخرى. كان يتحدث إلى سيباستيان. قامت وثنت ركبتيها ووضعت رأسها فوق زاوية ساقيها اللتين كانت تضغط عليهما وهي تضمهما إلى صدرها. منذ نهار الأمس، لم تكن على ما هي عليه. كانت ترغب في البقاء في وضع الجنين والبحث عن ملجأ تشعر فيه بالأمان، بعيداً عن خطر تلك الأصوات التي تتسلل إليها عبر الجدران وعبر فتحات الأبواب. لكنها نهضت بسرعة وارتدت ملابسها ووقفت بجانب النافذة. كانت السابعة صباحاً. كانت رطوبة الندى تتلألأ على العشب. بدا كل شيء في الخارج هادئاً.

اقتربت لوكريثيا من المنزل في الوقت المحدد. وصلت في وقت مبكر لإعداد وجبة الإفطار لها. فتحت لابينيا الباب متظاهرة بالنظر إلى الحديقة. كانت تفكر كي تستبعد الأعذار والذرائع وتظاهرت أخيراً بأنها أدركت وجود لوكريثيا وهي تقترب. ألقت عليها التحية وحاولت أن تبدو واثقة من نفسها،

أوضحت لها أن أفراد المكتب سيأتون إلى منزلها للعمل في مشروع خاص. قالت لها إن الأمر لا يستحق التنظيف وأن عليهم وضع الأوراق على الأرض وستتسخ بذلك. سيكون من الأفضل لو عادت يوم الأربعاء. أصرت لوكريثيا قائلة إنها في هذه الأثناء يمكنها إعداد القهوة والترتيب. كررت لابينيا قائلة إن الأمر لا يستحق العناء وإنهم سيصلون في غضون نصف ساعة وإنها ستعاود رؤيتها يوم الأربعاء وهي تبتسم للوكريثيا، ثم أخبرتها أن عليها الاستحمام بسرعة. كان على لوكريثيا قبول حجج لابينيا والابتعاد وارتسم على وجهها تعبير عدم فهم ما كان يحدث.

عادت لابينيا إلى المنزل. كانت ترى أن الأمر لم يكن مقنعاً على الإطلاق، لكن لوكريثيا لن تتفاجأ كثيراً، إذ ظنت أن الأمر هو إسراف في عملهم. لمحت فيليبي مختبئاً وهو ينظر من النافذة. بالتأكيد سيخاف عند سماعها وهي تفتح الباب. عندما دخلت بالفعل لم يكن هو في الصالة.

والآن ماذا عليها أن تفعل؟ هل تذهب إلى العمل؟ توجّب عليها استشارتهما بهذا الشأن. ذهبتْ إلى الحمام لتغسل وجهها. سكبت على نفسها الماء والمزيد من الماء.

تساءلت مرة أخرى يساورها شعور بالخوف: «هل عليها الذهاب إلى العمل؟». كان من الصعب تخيل أن كل شيء سيكون كما هو في الخارج. لا شيء قد تغير: الباصات وسيارات الأجرة والناس في المصعد وفي المكتب. شعرت بأنها عارية وهشة وخائفة من النظرات ومن أن يكون أحدهم قد لاحظها الليلة السابقة ومن السر والدم.

حدثت نفسها أنها تفضل البقاء في المنزل. تم ترتيب ما يخص لوكريثيا، إلا أنه يحتمل أن يقوم أي شخص بطرق الباب. ماذا سيحدث إذا فتح فيليبي؟ وسيباستيان... جريح في سريره؟

نظرت إلى عينيها في المرآة، كانتا منتفختين. كان وجهها نفس الوجه، لكنها كانت تبدو فقط متعبة قليلاً، بعد ليلة من الحفلات. كانت تفكر وهي تنظر إلى وجهها في الورطة التي حلّت بها.

خرجت وقررت ضرب باب غرفة نومها محدثة صوتاً.

سمعت صوت فيليبي يقول لها: «ادخلي. ما إن دخلت حتى سألته مع من كان يتحدث».

كان الجريح نائماً في الفراش. كانت ضمادة ساعده نظيفة وقد توقف نزيف دمه، لكن وجهه ما يزال شاحباً.

- قال لها: «أسعدت صباحاً، أيتها الرفيقة». أصر على مناداتها باسم «الرفيقة».

- ردت عليه: «صباح الخير. كيف يشعر الآن؟»

- قال: «أفضل، أفضل، شكراً لكِ».

- «وددت أن أسألكم إذا كنتم ترتأون أن علي الذهاب إلى العمل أم أن علي البقاء هنا».

تقاطعت نظرات التساؤل للرجلين.

- قال فيليبي وهو يتجه إلى سيباستيان: «من الأفضل أن تبقى. ما هو رأيك في ذلك؟».

- قال سيباستيان: «كلا. أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب. من غير الملائم أن يتغيب كلاكما عن العمل في المكتب».

- قالت لابينيا: «ماذا لو احتجتم لشيء؟ ماذا لو حصل شيء...؟»

- سأل سيباستيان: «هل تنتظرين أحداً اليوم؟»

- قالت لابينيا: «كلا. ما من أحد آخر أنتظره».

- قال: «إذن لا تقلقي. نحن هنا في أمان إلى حد ما. من الأفضل أن تذهبي إلى العمل وإذا جاءوا للبحث عنك، يمكنك إخبارنا -وهو يعود بأنظاره نحو فيليبي-. بوسعك جلب الصحف ومعرفة ما كتب فيها. إذا بقي البيت مغلقاً، سيبدو أن لا أحد هنالك، كما هو معتاد. من الأفضل أن تذهبي»- معاوداً النظر إلى لابينيا. أضاف قائلاً: «من غير الملائم أن يربطوا غيابك بغياب فيليبي».

كانت نبرة سيباستيان هادئة. كان يتحدث كما لو كان الأمر يتعلق بالأمور اليومية والذهاب إلى الشاطئ يوم الأحد وليس بما قاله: إحضار الصحف (صور الرفاق القتلى -كانت لابينيا تفكر-) وأن تكون متيقظةً إذا جاء أتباع

الجنرال الكبير للبحث عن فيليبي (وإذا جاءوا، ما الذي ستفعله؟) والانتباه للشائعات والتعليقات.

فضلت لابينيا البقاء. لم ترَ نفسها قادرة على الاستقصاء، إذ سيظهر ذلك على وجهها. كان وجهها شفافاً يعكس ما بداخلها ومن السهل تخمين ما تفكر به. كانت متوترة، لكنها لم تقل شيئاً. شعرت بالحرج من نظرة سيباستيان وهدوئه.

- قال فيليبي: «يمكنك أيضاً أن تمري في طريقك بإحدى الصيدليات لشراء المضادات الحيوية، أي مضاد حيوي قوي. قد يلتهب الجرح».

- سألت لابينيا: «ولن تبحثوا عن طبيب اليوم أيضاً؟»

قالت إنها لا تفهمهم، فمن شأن إصابة طلق ناري في الذراع أن تؤثر على الحركة. لماذا لا يتم التظاهر بأنه حادث؟

طمأناها. وأخبراها أنهما يبحثان عن طبيب ولكن ليس أي طبيب، وأنهما سيتحدثان عن ذلك عند عودتها.

طلب منها سيباستيان الراديو للاستماع إلى الأخبار.

أخرجت لابينيا ملابسها وغادرت الغرفة.

كان الجو حاراً في الشارع. كان التنفس الدافئ والرطب للأرض يخرج من كل مكان ويمتزج بالرياح والغبار. كل عام كان الصيف أسوأ وكان هنالك المزيد من قطع الأشجار. كانت أشجار البلوط تبدو رماداً. أسرعت لابينيا في خطواتها وهي تنظر إلى المنازل المجاورة. كان هنالك من بعيد بستاني يقص الأعشاب بمنجله الطويل. اعتقدت أن كل شيء كان على حاله. فقط هي كانت غريبة عن الأجواء الهادئة خلال أيام الأسبوع. كانت تسير إلى المكتب متأخرة متسارعة الخطى وتشعر بساقيها كأنهما ساقا شخص آخر.

فتح الخوف عينيها في جسدها. تذكرت العبارة التي كررها فيليبي عدة مرات في الليلة السابقة كالكابوس. لم أكتشف أي شيء. لم أكتشف أي شيء. ماذا لو كانوا هناك؟ ماذا لو كان رجال الأمن يحومون حول المنزل في انتظار اللحظة المناسبة لمحاصرته؟

وصلت إلى المصعد. في ذلك الوقت كانت ردهة المبنى فارغة. رأت

انعكاس صورتها في الجدران المعدنية. كانت متأكدة من عدم ملاحظة أحد للأمر. حدثت نفسها «إنني مثل كل يوم»، لكنها لم تكن مقتنعة تماماً. كان الدم في داخلها يتدفق بشكل متسارع بسبب جرعة الأدرينالين الزائدة.

ألقت تحية الصباح على سيلبيا، ثم واصلت طريقها إلى مقصورتها وهي تسلِّم على الرسامين عند المرور وهو ما تفعله بشكل طبيعي. «تصرفت بشكل طبيعي»، إذ قال لها فيليبي: «تصرفي بشكل طبيعي»، ثم عانقها عند خروجها. كرر مدى أسفه لتوريطها رغم الاستمرار في توريطها وطلب منها أن تتقصى عن الشائعات، الاحتمالية المروعة لقيام عملاء الأمن بالوصول بحثاً عن فيليبي (كانت بعيدة جداً، أكد سيباستيان ذلك)، كما طلب منها إحضار الصحف وشراء الأدوية...

كانت ترغب بعدم العودة إلى المنزل وبالبقاء مع سارة أو أنتونيو حتى مغادرتهما، بأن تتخلى عن مسؤوليتها وإنسانيتها وألا تشعر بتلك القوة التي أجبرتها على فعل ما طلباه، ذلك الصوت الداخلي الذي حدثها قائلاً «لا يمكنكِ تركهما وشأنهما»، «لا يمكنك الدفع باتجاه خطر تعرضهما للقتل»، إنها قوة حبها لفيليبي. رغم أن الأمر كان شيئًا أكبر من ذلك -كانت تفكر-، شيئاً أكبر من حبها لفيليبي. بعد كل ذلك، لم تكن تعرف حتى ما إذا كان هذا الحب موجوداً وإذا كان من الممكن إطلاق تسمية «الحب» على علاقة بدأت حديثاً ولربما سيكون من الأفضل ألا تستمر بعد ما حدث.

نادت ميرثيدس وطلبت منها الصحف وتفاجأت من نفسها وهي تكذب عليها.

- «لن يأتي فيليبي إلى العمل. اتصل بي ليطلب مني إبلاغكم بأنه مريض، يشعر بوعكة في المعدة».

نظرت إليها ميرثيدس بنظرة خبيثة من نوع ما. خرجت لتحضر فنجان القهوة والصحف وهي تتغنج كالعادة، موازنة مشيتها على كعبي الحذاء. تخيلتها تمشي في صالة الرسامين مبتسمة عند مرورها وهي تدرك أنهم كانوا ينظرون إليها. هل هي عميلة سرية؟ مَنْ مِنْ بين هؤلاء الأشخاص الذين يبدون عاديين جداً ويتمتعون بحياة يومية طبيعية يعيشون أيضاً حياة مزدوجة؟

عادت الفتاة بالقهوة والصحف. وضعتها على المنضدة.

- سألتها: «هل علمت بما حدث؟».

- «كلا» هذا ما قالته لابينيا دون أن تنظر إليها وهي تخشى أن تنكشف (جعل السؤال قلبها يرتجف خوفاً). تظاهرت بأنها تتصفح الصحف.

- قالت لها ميرثيدس: «لأنك تعيشين بعيداً عن هناك، لكن ثمة طلقات نارية كانت تُسمَع وأنا في منزلي. كما لو أنني رأيت طائرات ودبابات... بدا الأمر لي كأنه حرب. أصيب الحراس بالجنون! كانوا ثلاثة فتية فقط! تصوري! ثلاثة فتية»، ثم استدارت وأغلقت الباب خلفها.

انحنت إلى الخلف مستندة إلى الكرسي وأغلقت عينيها. جعلها السهر تشعر كأنها تحت الماء. كانت تحتسي قهوتها بجرعات كبيرة وتحمد الله أن يبارك لها بملاذها وبخصوصية مكتبها الصغير وأجّلَت قراءة الجريدة.

ماذا ستفعل طوال اليوم هناك؟ أتتظاهر بالعمل؟ كررت مع نفسها قائلة إن ذلك خارج عن طاقتها، إنها لا تستطيع تحمل هكذا توتر. شعرت كأن ثمة عقدة في معدتها تشبه قبضة اليد في وسط صدرها، إنه القلق الخانق.

أخيراً، انحنت ونظرت إلى صور الحراس الذين اتخذوا مواقعهم أمام المنزل وإلى العنوان: «تم اكتشاف عش الإرهابيين. الحرس الوطني في عملية تطهير ناجحة» وتحتها صورة للمحاربين الثلاثة القتلى. تساءلت «من هو فيرمين؟» وهي تنظر إلى الجثث: كانوا رجلين وامرأة وكلهم من الشباب المضرجين بالدم وقد مزقهم الرصاص. كان المنزل في الصورة مليئاً بالثقوب التي أحدثتها الطلقات.

كانت تعتقد أنهم أصدقاء فيليبي وكان سيباستيان بينهم والآن هو في منزلها. واحد منهم هو الآن في منزلها. قرأت بشغف لترى ما قيل عنه. لم يكن هنالك شيء بخصوصه. مع ذلك، فقد اجتاز أسيجة البيوت المجاورة عبر الأفنية ولم يبلِّغ أحدٌ عنه.

تم اختصار المسافات. لم تعد تشعر بالحزن البعيد الذي تولده دائماً مثل تلك الصور للشباب الذي خرمه الرصاص، إذ كان الموت قريباً، قريباً ومحفوفاً بالمخاطر.لقد دخلت الوجوه المجهولة والمشوهة والغريبة

حياتها. كانت أشباحهم حقيقية. في الليلة السابقة، عانقت فيليبي وعانت من أجلهما. شعرت كما كانت تشعر في أوقات أخرى باللوم، بالمطالبة الصامتة بالمخاطرة بمواجهة جيش الجنرال الكبير بهذه الوجوه الشابة وبالأسلحة الضعيفة بجانب الجثث، على عكس الخوذات وأجهزة اللاسلكي ورشاشات الحرس وطائراتهم ودباباتهم.

باتت الآن محاطة ومتأثرة بتلك الشجاعة الانتحارية.

دخلت السيدة نيكو وهي المرأة التي كانت مسؤولة عن المرطبات والمشروبات والتنظيف لتحضر لها عصير الجزر مع عصير البرتقال الذي كانت لابينيا تشربه في منتصف الصباح. عند وضع القدح على المنضدة نظرت نظرة خاطفة إلى الصحف.

– قالت بصوت منخفض جداً غير مسموع تقريباً: «فتية مساكين...»، ثم أضافت قائلة لتوضيح سبب تعليقها: «كان يسكن في الحي الذي أسكن فيه».

– سألتها لابينيا دون أن تعرف تماماً كيف تفتح الموضوع وكيف تقوم بالاستقصاء عمّا يدور بين الناس: «وكيف حصل الأمر؟».

– قالت المرأة بعصبية وهي تمرر يديها فوق مئزرها الخاص بالعمل: «لا أعرف. لا أعرف كيف حصل. كان الجو هادئاً عندما كنت أقوم بغسل الملابس. سمعت حينها الإطلاقات النارية وكان صوتها مروِّعاً. استغرق الأمر حتى منتصف الليل تقريباً. اعتقدنا أن هناك الكثير من الناس في المنزل، إلا أنهم كانوا هؤلاء الثلاثة فقط. هذا هو كل ما أعرفه».

– سألت لابينيا: «وهل تعرفينهم؟».

– كلا. لم أَرَهُم قط.

– وكيف عرف الحرس أنهم هناك؟

أجابت المرأة وهي تتراجع نحو الباب للخروج على عجل من أمرها: «لا أعلم».

اعتقدت لابينيا أن تلك هي الدكتاتورية والخوف. قالت المرأة إنها لا تعرفُ شيئاً لأنها لم تكن تريد أن تورّطَ نفسها. عدم معرفة الشيء هو الأفضل والأكثر أماناً، تجاهل الجانب المظلم من فاغواس. إن الخروج بالطريقة

التي خرجت بها السيدة نيكو يشير بوضوح إلى أنها لم ترد التحدث عن الموضوع. كانت الحاجة للبقاء أقوى من الحزن، وتجلى ذلك في صوتها وهي تقول «الفتية المساكين». كيف تُلام ولديها أربعة أولاد وهي وحيدة؟!

لكن سيباستيان قد هرب دون أن يقوم أحدٌ بالإخبار عن هروبه. بعد قراءة الصحف، حاولَت العمل والتركيز على مخططات المنزل الفخم الذي كانت تصممه: الحمامات ذات البلاطات والحدائق الداخلية. لم تستطع إخراج صور القتلى من ذهنها. كانت تتراءى لها بين خطوط التصميم وفي الغرف الفسيحة وبين عوارض السقف الظاهرة والواجهة. تخيلت ردة فعل فيليبي وسيباستيان عندما سيفتحان الصحيفة ويجدان صور أصدقائهما القتلى.

رغم كل شيء، كانت تشعر بالهدوء. أعادت لها البيئةُ الهادئة الخالية من الأحداث في المكتب الشعورَ تدريجياً بالحياة الطبيعية. لم يأت أحد للبحث عن فيليبي. قالت لنفسها إن كل شيء على ما يرام ولم يتغير شيء، سوى عقارب الساعة التي كانت تتقدم بالزمن على الساعات متسارعةً. سرعان ما ستكون الساعة الخامسة مساءً. سيتوجب عليها الخروج والسير إلى الصيدلية وشراء المضادات الحيوية والعودة إلى منزلها، العودة إلى منزلها ومعها الصحف.

أطل أحد المهندسين المعماريين برأسه من الباب وسألها إن كانت تعرف متى سيصل فيليبي.

- سألته بتوتر محاوِلةً أن تخفي صدمتها: «هل حصل شيء؟».

- أجابها: «لا شيء معين. أردتُ أن أسأله سؤالاً».

- قالت لابينيا مستعيدة اتزانها: «لقد اتصل ليُخبِرنا بأنه يشعر بوعكة في معدته»، ثم أضافت: «يبدو أنه قد أكل شيئاً جعله على غير ما يرام».

كذبت على الفور وتقريباً دون تفكير.

***

لم يتوقف خوفها عن التأثير في، بوسعي الآن التمييز بين الماضي والحاضر في الكثبان الرملية البيضاء لدماغها. في البداية كان من الصعب

معرفة كيفية التمييز. كانت تفكّر وتربط بذهنها الحدث مع أحداث مسبقة لتستوعب ذلك الحدث. أربكتني هذه المقارنات المستمرة حتى أدركت اللون. عندما تواجه إحساساً فورياً، يكون اللون حيوياً وبراقاً. لا يهم إن كان غامقاً أم فاتحاً، فأسود الحاضر هو حجر السبج والأحمر هو الدم. بالمقابل، فإن لون الماضي معتم: إنه أسود الحجارة البركانية وأحمر لوحاتنا المقدسة. في الماضي، كانت الأشياء وكان الأشخاص ينبعثون من صدى دائري خافت بداخله حنين متداخل ورائحة جوفاء. أما في الوقت الحاضر، باتت الصور والأصوات واضحة وسهلة ولها رائحة قوية: رائحة رؤوس الحراب قبل القتال. هكذا تعلمت قراءة آثار الأقدام والاستدلال على أثرها في متاهة أصواتها وأشكالها.

هنالك العديد من الأمور غير المفهومة بالنسبة لي، بسبب الزمن الذي مضى. لكن ثمة علاقات ثابتة وما زال الأساسي من هذه العلاقات دون تغيير كما هو في زمني. أتعلم دون أن أخاف من الوقوع بالخطأ. أتعلم السلام والقلق والحب والاهتمام والشوق وعدم اليقين والحيوية والأسف والإيمان وعدم الثقة والعاطفة والغريزة. أستوعب الحرارة والبرودة والرطوبة والخشونة والسطحية والعمق والنعاس والأرق والجوع والشبع والحذر وفقدان الحماية.

إنها المناظر الطبيعية التي لا يمكن المساس بها. يمكن أن يغير الإنسان بأعماله الملامحَ والمظاهرَ: قد يزرع أو قد يقطع الأشجار، قد يغير مجرى الأنهار، قد ينشئ تلك الطرق الكبيرة المظلمة التي ترسم أنماط التعرج، لكنه لا يستطيع تحريك البراكين ولا رفع المنخفضات ولا اختراق قبة السماء ولا منع تكوّن الغيوم ولا موقع الشمس أو القمر. تمتعت لابينيا بجوهر مماثل للمنظر الطبيعي الذي لا يمكن المساس به. لذلك يمكنني أن أفهم خوفها وأن أمنحه القوةَ.

***

في الركن، تنبعث من الصيدلية رائحة زجاجات الأدوية القديمة ورائحة الفيتامينات المحببة وزجاجات الكحول وبيروكسيد الهيدروجين. على

الأرفف الخشبية صناديق صغيرة مصفوفة تم تثبيت ملصقات عليها كُتِبَت عليها أسماء غريبة. تبيِّن القوارير الزجاجية ذات الأغطية اللامعة المطلية بالنحاس ما بداخلها وهي ممتلئة بالكعك والحلوى والألكا - سيلتثير. كان الصيدلاني ذو الشارب الغليظ، وهو رجل مكسيكي يرتدي معطفاً أبيض، يقرأ الصحيفة جالساً على كرسي هزاز من الخيزران يشعر بكسل وقت غروب الشمس.

طلبت لابينيا من الصيدلاني الحصول على مضاد حيوي قوي واخترعت قصة الجرح الذي تعرضت له جارتها بمقص تقليم الأشجار.

سألها الصيدلاني وهو يملس شاربيه ويفكر: «هل تم تلقيحها ضد الكزاز؟».

قالت نعم. إنه فقط لمنع الالتهاب، إذ إن الجرح عميق ويجب أن يكون المضاد الحيوي حسب رأيها قوياً ويعمل على نطاق واسع.

في فاغواس، عادة ما يؤدي الصيدلانيون وظيفة الطبيب. كان السكان يفضلونهم لأنهم لا يتقاضون أجراً مقابل الاستشارة، فقط ثمن الدواء. كانوا يتمتعون بصلاحية الوصف بكفاءة عالية.

نظرت إليه وهو يمشي نحو الأدراج السفلية ويملأ الكيس الورقي بعدد كبير من الكبسولات ذات اللون الأسود والأصفر ويتحرك بالرصانة النموذجية الخاصة بمهنته.

سلمها الكبسولات موضحاً لها أن على صديقتها أن تأخذ كبسولة واحدة كل ست ساعات لمدة لا تقل عن خمسة أيام. لقد حضّر لها الجرعة الكاملة.

خرجت ومعها الأدوية في حقيبتها. تحول المساء ببطء إلى ليل. كانت كل واحدة من تلك الأماسي الاستوائية مشهداً جميلاً للغيوم الحمراء ولأشكال غريبة في السماء وللشفق البرتقالي.

نزلت من سيارة الأجرة في الشارع. كان توتر جسمها يتزايد مع كل خطوة تقرِّبُها من منزلها وعضلاتها متشنجة وأعصابها يقظة متأهبة وضربات قلبها متسارعة. كانت تفكر فيما لو كان بوسعها معرفة أن كل ذلك سينتهي، أنها ستصل ومعها الأدوية وتجد سيباستيان وفيليبي على استعداد للمغادرة،

ليودعها عند الباب ويعيد لها هدوء الليالي الذي كانت تعيشه، لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت تحسب أنهما على الأقل سيبقيان يومين آخرين وأن عليها الاستمرار بهذه الشخصية المزدوجة لمدة يومين آخرين وربما ثلاثة أيام.

مع ذلك، قالت في قرارة نفسها، إنها قد تجاوزت خطأً آخر. اعتادت العمة إينيس القول إن النشأة في الحياة هي مسألة تخطي للحدود الشخصية: اكتشاف القدرات التي لا يعتقد المرء أنه يمتلكها. لم تعتقد قط أنها تستطيع البقاء على قيد الحياة ليوم مثل ذلك: في المكتب أو في الصيدلية، وأن تكذب دون الشعور بالذنب، بدم إيمان مدهش، بدون حساب، بصوت قوي واضح، كما لو أن الكلمات قد حُفِظَت وأُعِدَّت وجُهِّزَت لتستخدمها.

كانت دائماً تصارع الكذب. عند الاعتراف، كانت دائماً تتهم نفسها بالكذب عندما كانت طفلة. تطلَّبَ ترك هذا الأمر الكثير من الجهد. كانت تتسلى بالكذب، لذا، كان الدافع سريعاً. لم تكن تعرف ولا حتى كيفية اختلاق الكذب، بل كان يخرج من فمها كالسمك الملون الذي يعيش في داخلها، في حياتها الشخصية: أكاذيب لا تتسم بالأهمية تُقال من أجل المتعة فقط للشعور كأنها تستطيع اللعب بعالم البالغين وبتغييره بمهارة. شعرت بالضيق فقط في وقت لاحق، عندما كان الكذب يعيش خارجها وكانت تعمل بوصايا والدتها أو مربيتها، إذ تقول إحدى الوصايا «الكذب خطيئة». لقد توقفت عن الكذب بدافع الخوف، الخوف من عذاب جهنم الذي وصفته الأخت تيريسا بفيض من التفاصيل المروعة للموت والقبور: لقد جعلتهما تشعلان عود ثقاب وتضعان إصبعها برفق في اللهب. كان ذلك جحيماً، لكن الجحيم هو في الجسد كله: تلك النار في الجسد برمته، تحترق دون أن تقتل إلى الأبد. فيما بعد فقدت الكذبة مدلول الخطيئة وأصبحت بالنسبة لها مضاداً للصدق الضروري في حياتها كراشدة. لهذا السبب، أزعجها الشعور بالذنب في الأوقات التي كذبت فيها عندما عاشت مع والديها بعد عودتها وجعلها تشعر بعدم الارتياح لخداعهما وللتظاهر لهما بوجه أكثر قبولاً.

لكن ذلك كان مختلفاً -كانت تفكر- بينما وضعت المفتاح في القفل ودخلت المنطقة المظلمة من البيت.

دخلت بصمت مطبق، بصمت انتظار النمور الرابضة. لمحت في الممر بجانب شجرة البرتقال فيليبي واقفاً منتصبا ويده على خصره منتظراً إزاء صوت الباب عند فتحه. قمرٌ شاحب قد رسم ظلال الشجرة على بلاطات الممر.

أشعَلَت الأضواء. تقدم فيليبي إلى الأمام لاستقبالها.

– سألها بصوتٍ منخفض جداً: «كيف سارت الأمور معكِ؟».

– أجابت: «أظن على ما يرام» ومدت ذراعها إليه لإعطائه الصحف ونظرت إليه وهي تفكّر في تلك الوجوه وفي أصدقائها الذين لن تراهم مرة أخرى.

أخذ فيليبي الصحف بحركة قوية توّاقة لمعرفة الأخبار وبدأ وهو بجانبها بقراءة العناوين والأخبار على الصفحة الأولى ونظر إلى الصور دون أن ينبس ببنت شفة.

التزمت لابينيا الصمت لا تعرف ماذا تفعل، هل ستبقى بجانبه أم ستنسحب بتكتم كما يفعل الأصدقاء في الجنازات عندما يحين وقت النظر إلى نافذة التابوت الصغيرة للمرة الأخيرة.

أخيراً، قال فيليبي بهدوء «أيها القتلة! يا أبناء العاهرات!» في صرخة أطلقها داخل نفسه. تخيلت لابينيا رسم الصرخة في رئتيه وهي تنتشر في صدره وذراعيه وساقيه.

عانقته من الخلف وهي تفكر في مدى عجز اللسان عن التعبير بالكلمات إزاء الموت.

ظهر سيباستيان عند باب الغرفة. استدار مستعجلاً نحو فيليبي ووقف بجانبه ينظر إلى صفحات الصحيفة المفتوحة. لم يُلْقِ عليها التحية هذه المرة. كان يبدو أفضل. كانت ضمادته نظيفة وكان يرتدي أحد القمصان الرجالية التي كانت تستخدمها.

– قال فيليبي «لم يذكروا أن أحداً قد هرب» وهو يمرر الصحيفة له كما لو تخلص من شيء سام: الصفحات التي كانت فيها صور الموتى. ذهب بصمت إلى المطبخ الذي عاد منه وفي يده قدح من الماء شرب منه رشفات كبيرة بينما واصل سيباستيان القراءةَ بصمت.

ابتعدت لابينيا باحترام. تمشت بهدوء نحو باب الحديقة وهي تطل لرؤية الليل والفناء والبيئة الهادئة وهدوء النباتات وشجرة البرتقال التي تنبعث منها الرائحة الحمضية. تذكرت عبارة «محظوظة هي الشجرة التي بالكاد تشعر». كانت ترغب برؤية الخضرة في ذلك الوقت.

شعرت باقتراب فيليبي منها.

تحدث إليها بصوت منخفض كي لا يشوش على سيباستيان قائلاً: «هل حدث أمر غير طبيعي في المكتب؟ هل سألوا عني؟ هل سمعتِ شيئاً غريباً؟»

أجابته بهمس: «كلا. لم يحدث شيء غير طبيعي. عرف الجميع ما حصل من أحداث، لكنهم لم يتحدثوا كثيراً. لقد تكلموا عن الانتشار الذي قام به الحرس ضد ثلاثة أشخاص فقط. أخبرتني السيدة نيكو أن ذلك قد حصل في الحي الذي تسكن فيه، لكنها لم ترغب في مزيد من الحديث. ما قالته فقط هو «فتية مساكين» عندما شاهدت الصور، إلا أنها كانت تبدو خائفة من الكلام. أخبرتُ ميرثيدس بأنكَ مريض وتشعر بوعكة في المعدة».

لم يرد على أي شيء قد قالته. تركها وعاد إلى جوار سيباستيان.

تكلما فيما بينهما. قال سيباستيان: «من رخصتكِ أيتها الرفيقة» ثم دخلا الغرفة وأغلقا الباب.

بالطبع لم يبكِ الرجلان -كانت تفكر- وهي متكئة على العتبة تحدق في جذع شجرة البرتقال. شعرت بالدموع تحرق عينيها. لم تكن تعرف الموتى! لكنها في نهاية المطاف امرأة! قالت ذلك لنفسها بسخرية. استطاع الرجلان النظر إلى الصحيفة بعيون جافة وثابتة، كانا يقرآن الصحيفة بعناية رغم الصور.

بدا فيليبي كأنه قد تعافى من آلام الليلة السابقة. قال وهو يعاني ضعف الإرهاق إن المرء لم يعتَدْ قط على الموت. ها قد رأتهما وهما يهضمان الموت بدون مأساوية، بدون ضجة، بدون غضب. بالطبع، سيتم على ضوء ما قد حَكَتْه لهما تحديدُ كيفية التصرف الآن. الآن قد عرفا أنه لم يتكلم أحد عن الشخص الآخر، عن ذلك الذي قفز فوق الجدران وهو جريح هارب.

لم تكف عن الإصابة بالقشعريرة لرؤيتهما بهذا الثبات محصنَيْن كما لو

كان الموت أو الحزن يرتد على جلدهما دون التمكن من اختراقهما. تذكرت محادثة مع ناتاليا وهي صديقة إسبانية حول عدالة تصرفات الباسك ضد نظام حكم فرانكو: كان كلا الفصيلَيْن يرتكبان عمليات القتل بدم بارد. ما الذي كان يميزهما بعضهما عن بعض؟ كيف يختلف الرجال في الحرب؟ ما هو الاختلاف الأساسي الذي كان بين رجلين يحمل كل منهما بندقية ومستعد كل منهما لقتل الآخر للدفاع عن مفهوم مختلف للعدالة؟

أثارت أسئلتها غضب ناتاليا. وصفتها بالميتافيزيقية. لكنها لم تستطع التوقف عن طرحها حتى عندما كانت مدركة للاختلافات بين المعتدين والضحايا، بين المتمردين الفرنسيين والنازيين، على سبيل المثال. ضمن المنطوق الاجتماعي وكذلك على المستوى الفردي، كان هناك دفاع عن النفس وعنف مبرر، كانت هنالك صفات بشرية مختلفة: أناس يقتلون من أجل القتل وأناس يقتلون من أجل الحياة دفاعاً عن الإنسان وعن الحفاظ على ما هو إنساني إزاء بهيمية القوة الوحشية. لكن، على أي حال كان اللجوء إلى الرصاص والأسلحة بعضهم ضد بعض أمراً فظيعاً. لم يستطِع البشر لقرون عديدة تغيير الطريقة الوحشية التي يواجه بها بعضهم بعضاً.

في فاغواس، كان من السهل التبرير للأولاد. كان الظلم والاختلاف في الجوهر وما دافع عنه البعض والبعض الآخر وغياب البدائل إزاء الجنرال الكبير أكثر من واضح. بمجرد النظر في الصحيفة اليوم، على سبيل المثال، بإمكان المرء أن ينحاز بين القوة الهمجية والمثالية، لاختيار الموتى، حتى لو كان على مستوى التجريد.

لكنها لم تستطِع استبعاد الشكوك. برؤيتها لسيباستيان وفيليبي، فكرت في خطر دخول القسوة إلى الروح. بالمقابل، لو كانا قد أجهشا بالبكاء، فربما كانت ستعدهما ضعيفين. قالت لنفسها: «كلا، لماذا؟». لطالما اعتقدت أنه من الفظاعة والسخف اعتبار بكاء الرجال ضعفاً. لكنها من الناحية العملية، لم ترَ أياً منهما يبكي. ربما لن تحتمل هذه الحالة، إذ قد يزداد شعورها بعدم الحماية. ربما لم يكن من الضروري أن يبكيا، بل أن يقوما فقط بشيء ما أو حركة ما أو أي شيء لتجنب عدم التأثر ذلك الذي قادها إلى استيعاب فكرة التوازن الدقيق الذي إذا ما تم كسره، فسيعيد العالم إلى شريعة الغاب.

حينئذٍ سمعت من شباك غرفتها شبه المفتوح ذلك الصوت المرعب: صوت أجش متقطع لسيباستيان وهو يتمزق بنحيبه الجاف والشديد الذي نتج عنه صوت ألم لم تعرفه قط.

***

أراها تنظر إلي. أشعر بتفكيرها. إنها هنالك في منتصف الليل مثل اليراعة المتجولة، تطفو بيننا دون أن نكون قادرين على العثور على المكان الذي تنتمي إليه. يتناقش الرجال داخل المنزل. أسمع همهمة أصواتهم مثلما كنت وأنا في لجة الظلام أسمع يارينثي ومحاربيه في العديد من المرات في المجالس التي لم يُسمح لي بالمشاركة فيها حتى عندما أخذوني للقتال.

بعد معركة ماريبيوس -معركة المسلوخين-، كما سماها الغزاة، كانت هناك أوقات شعرت فيها بأن جنسي يشبه اللعنة. قضيت أياماً في مناقشة كيفية التصرف بينما كان عليّ التجول في الضواحي متحملة مسؤولية الصيد والطبخ.

عندما نزلت إلى نهر المياه الهادئة لجلب الماء، انتظرت وساقاي مفتوحتان ليصبح السطح هادئاً ولامعاً كي أنظر إلى أعضائي التناسلية. كان ثمة شق بين ساقَيّ يبدو لي غامضاً، كان يشبه بعض الثمار: شفتان لحميتان وفي الوسط بذرة وردية رفيعة. تسلل ياريثي من هناك وعندما أصبح في داخلي، شكلنا رسماً واحداً، جسداً واحداً. أصبحنا متكاملَيْن معاً، فكل منا يكمل الآخر.

كنتُ قوية وأنقذنا حدسي لأكثر من مرة من الوقوع في الكمين. كنتُ جميلة وكان المحاربون كثيراً ما يستشيرونني بشأن مشاعرهم. كان جسمي قادراً على إعطاء الحياة في تسعة أشهر قمرية وعلى تحمل آلام الولادة. كنتُ على دراية بالقتال وكنتُ ماهرةً مثل أي شخص لديه قوس وسهم. إضافة لذلك، كان بوسعي الطهي والرقص لهم في الليالي الهادئة، إلا أنه لم يبد أنهم يقدرون هذه الأشياء. لقد تركوني جانباً عندما كان علي التفكير في المستقبل أو اتخاذ قرارات مصيرية. وكل ذلك بسبب هذا الشق، تلك الزهرة النابضة الحمراء بين الساقين.

***

قضت لابينيا فترة أطول وهي تنظر إلى ظلال الحديقة التي كانت تتحرك بفعل الرياح. تلاشى النحيب وسط ضجيج محادثة المياه: صوت رجال يتحدثون، حديث سمكتين، فقاعات تتصاعد في الماء.

لقد ثقّل تَذَكُّر صخب بكاء سيباستيان صدرها بالحزن. تأسفت لأنها قد شككت بينها وبين نفسها بمشاعر تلك الكائنات الغامضة التي غَزَت سلام منزلها، تلك الكائنات الحالمة النشطة والشجاعة، كما قال أدريان.

لمست آلامهما عن كثب ودفعها ذلك إلى الرغبة بحمايتهما. فكرت ما الذي بوسعها أن تفعله لهما؟ شيء قليل. لا شيء تقريباً. تذكرت أنهما لم يأكلا. بإمكانها تحضير شيء لهما. لم تكن جائعة. لم يخطر ببالها الأكل حتى ذلك الحين. توجهت إلى المطبخ وهي تفكر ما الذي بوسعها أن تطبخه لهم ثلاثتهم. على الرغم من الألم، كان على سيباستيان وفيليبي أن يعيشا ويتغذيا.

على مغسلة غسل الأطباق في المطبخ، وجدت علبة سردين فارغة. مساكين! كانت تفكر وهي تشعر بالخجل من مطبخها الخالي مما هو ضروري.

أعدت الشيء الوحيد الذي كانت تعرف عمله بشكل جيد: معكرونة *السباغيتي* بالصلصة.

كانت تضع الأطباق على المائدة، عندما ظهر فيليبي على عتبة المطبخ.

– سألته لابينيا: «كيف حال ذراع سيباستيان؟» متظاهرة بعدم سماعها لشيء وهي تنهي سكب الماء المغلي الذي تم سلق السباغيتي فيه على مغسلة غسل الأطباق في المطبخ لإسقاط قطعة الزبدة وتقليبها.

– قال فيليبي: «إنها ملتهبة».

– قالت لابينيا وهي تصب الصلصة: «يجب أن أبحث له عن طبيب».

– قال سيباستيان: «هذا ما كنا نريد أن نطلبه منك» وقد ظهر خلف فيليبي وكان ينظر إليها عندما كانت تضع الصحون وهو غارق في التفكير وخشمه أحمر.

– قال لها: «نود أن تذهبي للبحث عن رفيقة ممرضة. سنرتب معها أيضاً موضوعَ نقلي ليوم غد».

– قالت لابينيا: «لماذا لا تشرح لي ونحن نأكل شيئاً. عليكما أن تأكلا».

كانت سعيدة برؤية سيباستيان يبتسم وهما يجلسان إلى المائدة.

كانت فلور -هكذا كان اسم «الرفيقة»- تمتلك سيارة. كان على لابينيا أن تأخذ تاكسي وتعود معها إلى المنزل. ذلك فحسب. بعد ذلك، ستكون في حل من الالتزامات تجاههما.

- قال سيباستيان مظهراً ابتسامته الخبيثة مجدداً: «على الأقل في حل من التزامها تجاهي».

تناولوا الطعام في صمت. كان واضحاً أن سيباستيان وفيليبي يأكلان بلا شهية.

نظرت لابينيا إلى سيباستيان نظرة خاطفة. دون أن تكون قادرة على الإنكار، لقد جعلها بصوته الناعم والحازم وبشكله الفارع كالشجرة أن تقوم بأشياء لم تفكر قط في القيام بها. كان يتصرف كما لو كانت لديه قناعة راسخة بأنها ستوافق. كانت ثقته أكثر إحراجاً وإلزاماً من كونها أمراً.

قالت لنفسها إن حياتها ستعود في اليوم التالي إلى ما كانت عليه من الأمان اليومي. ستنسى الخوف والقلق وتلك المشاعر المشوشة.

لم تَرُقْ لها مسألة عبور المدينة بسيارة الأجرة ليلاً، لكنها كانت على استعداد للقيام بذلك. كانت ستفعل أي شيء لإعادة منزلها إلى طبيعته التي كان عليها.

- سألها سيباستيان: «هل تبدد خوفكِ؟».

- أجابت: «تقريباً».

- قال لها: «إنه أمر طبيعي. كلنا خائفون. ما يهم هو ليس الشعور بالخوف، إنما التغلب عليه. وقد تغلبتِ عليه بشكلٍ جيداً جداً. كنتِ شجاعة».

- قالت لابينيا والابتسامة ترتسم على محياها: «لم يكن لدي خيار آخر».

- قال سيباستيان بتعبير حزين: «هذا ما يحدث لنا. ليس لدينا خيار آخر».

- قالت وهي غير مرتاحة بعض الشيء للمقارنة: «الأمر مختلف، فأنتم تعرفون سبب ما تفعلونه. إنها مسألة مختلفة. إنني آسفة لما حصل لرفاقكَ».

قال سيباستيان وهو ينظر إليها بحدة وبشكل لطيف في آنٍ واحدٍ: «لقد ماتوا كأبطال. لكنهم أشخاص مثلكِ أو مثلي».

- قاطعهما فيليبي قائلاً: «أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب لابينيا للبحث عن فلور. لقد تأخر الوقت».

– 7 –

إنها الساعة التاسعة ليلاً. كانت السماء صافية في شهر آذار تتفاخر بقمرها الأصفر. سارت سيارة الأجرة بسرعة متجنبة حركة المرور الخفيفة. كانت الشوارع خالية أكثر من المعتاد في ذلك الوقت وكانت الأثر المرئي الوحيد للأحداث الأخيرة.

كان جانب من ظهرها مستنداً إلى باب المركبة. كانت لابينيا تنظر إلى الوراء كما علّمها سيباستيان للتأكد من عدم وجود سيارات غير مناسبة تتبعها. سلك سائق سيارة الأجرة مسلك الأحياء الشرقية. كانت إنارة الأحياء غير جيدة وتبدو من النافذة كسلسلة متوالية من المساكن الوردية والخضراء والصفراء، منازل متواضعة ومتشابهة ومزينة فقط باللون المبهرج لجدرانها وحدائقها التي كانت هنا وهناك.

كان السائق يدخن داخل المركبة وينصت باهتمام إلى برنامج رياضي.

كانت لابينيا امرأة أخرى عندما كانت في حالة التيقظ وهي تراقب ما حولها. لحسن الحظ، انتهى الكابوس بعد ساعات. قامت بقضم أظافرها. كان التنقلُ في سيارة الأجرة ليلاً يوَلِّدُ لديها دائماً شعوراً بعدم الراحة وبالمخاطرة. في هذه المرة فقط، لم تكن تخاف من سائق التاكسي، بل من الظلام الذي كان يخيم على الطرقات ذات الإضاءة غير الجيدة ومن احتمالية تتبعهم... صَلَّتْ بصمت ألا يحدث لها شيء عند لقائها بهذه المرأة التي تدعى فلور وأن تعود إلى منزلها سالمة وآمنة.

عبرا الجسر باتجاه اليسار، ثم دخلا في طريق ترابي. كانت على كلا الجانبين منازل ذات ألواح غير منتظمة، مرتبة بشكل غير مستقر بعضها فوق

بعض ومفصولة هنا وهناك لتشكل أبواباً ونوافذَ مما أكسَبَ الشارعَ مظهراً ضعيفاً. في النهاية رأت بضعة منازل أسمنتية. كان منزل فلور أحد آخر المنازل ولاحظت من سيارة الأجرة سقف القرميد وهيكل المزرعة الصغيرة للمبنى والجدار الخشن الذي وصفه فيليبي.

عند الدخول في الشارع، نظرت بانتباه إلى كل الجوانب. نبهها سيباستيان وفيليبي حول المارة الذين ترتسم على محياهم ملامح البراءة والسكارى الذين يفترشون الأرصفة والمركبات المتوقفة على قارعة الطريق وداخلها عشاق يتغازلون، إلى أن أياً من هذه العلامات التي قد تدل على الخطر، على مراقبة رجال الأمن. لم ترَ أي شيء من هذا القبيل. (لم يرَ فيليبي أي شيء أيضاً -كانت تفكر- وتأمل ألا يحدث أي شيء غير طبيعي.)

- قالت لسائق التاكسي: «ها هنا. لقد وصلنا».

دفعت له الأجرة ونزلت من السيارة.

عقب صوت جرس الباب صرير شديد، ثم سمعت بعد فترة وجيزة خطى صوت خف يقترب.

نظرت إليها المرأة على الجانب الآخر من البوابة الحديدية. رأتها لابينيا وهي تتبع بعينيها سيارة الأجرة التي تركت الشارع باتجاه الطريق المعبد مخلفةً الغبار وراءها.

- سألت المرأةُ وهي تقترب منها: «تفضلوا؟ عمّن تبحثون؟»

- قالت لابينيا: «عن فلور».

- قالت المرأة: «أنا فلور. ما الذي بوسعي أن أفعله من أجلك؟».

مدت لابينيا يدها إليها لتسلمها الورقة التي كتبها لها فيليبي على طاولة غرفة الطعام ثم طوتها بشكل مثير للفضول.

لقد قال إنه بمجرد النظر إلى صيغة الطي، ستفهم فلور. إلا أن المرأة قد قرأتها قبل أن تفتح لها الباب. إن الضوء الخافت لشمعة الإشعال في إفريز المنزل قد مكن لابينيا من ملاحظة شعرها الغامق اللون المموج الذي يصل طوله إلى الكتفين. كانت ملامحها سمراء وناعمة وتبدو أنها في أواخر الثلاثينيات من العمر. كانت تتمتع بفراسة الممرضة الصارمة.

كانت ما تزال ترتدي الزي الأبيض. لقد غيرت الجوارب فقط والأحذية بالخف البلاستيكي.

- قالت لها «تفضلي» مبدية ابتسامة خففت من ملامحها على نحو شبه سحري.

فُتِحَت البوابة بضجيج قعقعة مفصلات الباب غير المزيتة.

قالت فلور: «آسفة لأنني جعلتك تنتظرين. في هذه الأيام ينبغي مضاعفة الاحتياطات».

لقد عبرتا ممراً مليئاً بالزهور الوفيرة. كانت النباتات ذات الأوراق الكبيرة: السرخس والبنفسج والبيغونيا تجمِّل وتمنح المنزل القديم والمتهالك الدفء. أدخلتها فلور إلى غرفة استقبال شبابية جعلت لابينيا تعتقد أن انطباعها الأول كان خاطئاً. كانت هنالك أقراص وكتب وكراس هزازة ومزيد من النباتات ولوحات وملصق بوب ديلان على الحائط. كان يتدلى على النافذة المطلة على الممر نبات متسلق تفوح منه الرائحة ليلاً.

كانت هنالك فقط بعض الكتب الطبية السميكة على الرفوف ونموذج تشريحي لامرأة تدل على مهنة صاحبة المنزل.

قالت فلور: «انتظريني لحظة. سأرتدي حذائي وألملم أشيائي ثم نذهب».

أشارت إلى لابينيا لتجلس واختفت خلف ستارة تحمل شكل ورود. انتظرتها وهي تهز جسمها وتنقر على مسند يد المقعد. كانت تعاني من ألم في الرأس.

خرجت فلور بعد فترة وجيزة مرتدية بدلة ذات لون أزرق سماوي فضفاضة وبسيطة تحمل في يدها حقيبة طبيب. بدا عليها القلق. أطفأت الأضواء وأغلقت النوافذ. لحقت بها لابينيا إلى المرأب الذي كانت تتوقف فيه سيارة فولكس فاغن قديمة.

- سألت فلور وهي تفتح باب السيارة: «هل تحققتِ من الطريق إلى هنا؟».

- سألت لابينيا: «ماذا؟»، إذ لم تفهم.

- وضحت فلور: «هل تحققتِ من عدم وجود شخص يتابعكِ؟»

– قالت لابينيا: «نعم. نعم. لم أرَ أحداً».

كان رد فعلها بطيئاً، إذ كانت غارقة في الكم المتراكم لتلك الأحاسيس التي انتابتها في الساعات الماضية ولذلك الشعور بكونها دخيلة في ذلك العالم الغريب والخطير. كانت تفكر في انعدام التشابه بأي نقطة بينها وبينهم. إنهم بارعون جداً في التآمر والكتمان. شاهدت فلور وهي تُخرِج السيارة وتغلق أبواب المرأب. إنها مثل سيباستيان تبدو كالشجرة الهادئة في الهواء.

جعلها الاتصال المفاجئ بهذه الكائنات غير واقعية. كانت تتخيلهم دوماً بوجوه شجاعة وبعيون ذات بريق تشع برؤىً خيالية، متعصبين، ساموراي، وكأن الأمر مجرد مقاطع سينمائية ساخرة، فعاتبت نفسها باستحياء. لم تشك قط في كونهم كائنات طبيعية، أشخاصاً عاديين. ها قد تبين أن فيليبي على الأقل هو واحد منهم. ربما كانت رومانسيته فقط هي التي منحت سيباستيان وفلور جواً من السلام والثبات والتوازن، مما أكسبهما نظرات تبدو أنها تعرف كل شيء. رغم ذلك، عليها أن تعترف بسهولة تقلّب فلور مع الأوضاع: إذ إنها الآن، عندما ركبت السيارة وشغلت المحرك، لم تعد تشبه الممرضة التي لاقتها عند الباب.

لقد غادرتا الشوارع المظلمة للأحياء الشرقية وخرجتا إلى الطريق المؤدي إلى الحي القديم الذي تسكن لابينيا فيه.

– قالت فلور: «من حسن الحظ أن سيباستيان على ما يرام. كنت قلقة جداً. لم نكن نعرف شيئاً عنه».

– سألتها لابينيا: «هل مضى وقت طويل على معرفتكِ به؟»

– قالت فلور محاولة التهرب: «تقريباً. وأنتِ، إنكِ صديقة فيليبي، أليس كذلك؟»

– نعم. نحن نعمل معاً.

– هل كنتِ تعرفين أي شيء عن ذلك الأمر...

– كلا.

– لابد أنكِ كنتِ مرعوبة.

– لم أتخيل الأمر قط.

– قالت فلور: «هكذا هي الحال عندما يتخيل المرء ذلك على الأقل...»

– قالت لابينيا وهي تفكر: «نعم. عندما يتخيل المرء ذلك على الأقل، فإنه يتخطى المرآة ويدخل في بُعْد العالم القائم الخفي عن الحياة اليومية، الذي يحدث فيه ركوب سيارة والحديث مع امرأة مجهولة قد تجاوزت خط التمرد لتضع نفسها في خط النار. بالنسبة لفلور ودونما شك، كان تمردها على خاطبات القدر والآباء والأعراف الاجتماعية فصولاً غير مترابطة من الحكايات الخيالية. كانت القصص التي تكتبها فلور بحرف H كبير. من ناحية أخرى، لن تكون قصتها أكثر من قصة شابة متمردة بدون سبب». نظرت إليها وهي تقود سيارتها. كانت فلور تتحدث. علّقت على حركة المرور وإشارات المرور والأمور التافهة. لم تبد متوترة على الإطلاق. شعرت لابينيا ببادرة إعجاب تجاهها. فكرت كيف كانت ستشعر؟ كيف يكون شعور المرء وهو يعيش الجانب البطولي من الحياة؟ تذكرَتْ إعجابها القديم بالمآثر الملحمية في كتب جول فيرن، إعجاب المراهقين. في العالم الواقعي الحالي، لم يكن من السهل العثور على أشخاص يكونون محط إعجاب. لهذا كان من السهل تحويلهم إلى كائنات أسطورية وهذا ما فعله أدريان الذي أعجب بشجاعتهم. كانت تعتقد أن عليها توخي الحذر، لا سيما مع قرب فيليبي. لم تخطر لها فكرة أن تكون مثلهم، إذ لم تكن تتسم بأي قواسم مشتركة مع «الشجعان» مثل فلور التي عرفت كيف تركب السيارة بهدوء في الليل في وسط المدينة ذات الشوارع المظلمة، في الطريق الذي تمر به السيارات التابعة لقوات مكافحة الإرهاب، وتخاطر من أجل شفاء رجل مجروح من رجال المقاومة برفقة امرأة غريبة تماماً كل ما بينهما هو أنها قد سلّمتها ورقة مطوية.

وجهت لها فلور بعض الأسئلة. استسلمت لابينيا للرغبة في الحديث عن نفسها مع شخص كان ينصت لها ببالغ الاهتمام: مع امرأة، كائن مثلها يخضع لبرمجة تعود للأجداد وتعيش، مع ذلك، في مستوى غير عادي من الواقع، مُقحَمَة في المؤامرة كما لو كانت مُقْحَمة في موطن طبيعي بعيداً عن كل الأقدار المسبقة للأنوثة. ظنت أنه بوسعها أن تسألها عن كيفية هذا النوع من الحياة، لكن الطريق لم يكن طويلاً بما يكفي.

قالت لها مشيرةً إليه: «ذلك هو المنزل».

مرت فلور من أمام المنزل دون أن تتوقف وأوقفت السيارة بعد عدة أبنية. في وقت لاحق. أوضحت لها أنه من غير الملائم إيقاف السيارة في نفس المكان، إذ لا يمكنها المخاطرة بكشفهم. سارتا على الأقدام وكان صوت وقع خطواتهما على الأرصفة الفارغة مسموعاً. كانت أشباح المنازل الكبيرة قابعة داخل المساكن النائمة وكانت بعض الكلاب تبحث في صناديق القمامة.

نظرت لابينيا إلى المرأة الصامتة، المشغولة البال وهي تسير بجانبها وتحمل في يدها الحقيبة الطبية السوداء. لم تكن تعرف شيئاً عن فلور. لقد تهربت بمهارة من الحديث عن نفسها. ظنت أن طريقة عملهم هي هكذا بالتأكيد. عندما دخلتا غرفة المعيشة في المنزل، حيث كان الرجلان ينتظران، تساءلت لابينيا عما إذا كانت فلور تعرف الثلاثة الآخرين، الموتى الذين جرى الحديث عنهم في جو منزلها. كانت الصحيفة مطوية بشكل واضح على طاولة غرفة الطعام. لقد احتضن بعضهم بعضاً وتعانقوا، عانقها سيباستيان أولاً ثم فيليبي. كان عناق الغرقى والناجين وكانت عينا فلور مغمضتين.

بعد ذلك، كسر الثلاثة منهم الحلقة الضعيفة من المودة والصمت وانشغلوا بذراع سيباستيان. قالت فلور إن اليد تبدو منتفخة قليلاً. دخلوا إلى غرفة النوم وكانت المرأة تحمل معها حقيبتها كممرضة. دخلت لابينيا معهم. لم تكن تريد أن تُترَك وحدها خارجاً. أوجدت لنفسها عذراً بأنهم ربما يحتاجون إليها من أجل القطن أو بيروكسيد الهيدروجين. لا يبدو أنهم يهتمون لوجودها. ظلت واقفةً. سمح سيباستيان لفلور وهو جالس على السرير بفك الضمادة المؤقتة.

- قالت: «إنها ملتهبة كثيراً». ثم التفتت إلى فيليبي بينما كانت تسأل سيباستيان: «هل أعطوك مضاداً حيوياً؟».

- قال فيليبي: «نعم. أعطيناه أمبيسيلين» وأخبرها بالجرعة التي أعطاها له.

بدقة احترافية، فتحت فلور الحقيبة السوداء وأخرجت القطن والضمادات. لم تستطع لابينيا أن تتفادى اندهاشها المفاجئ عندما رأت المسدسين بين الأمبولات والحُقَن والقناني. كانت تفكر كيف عبرت

المدينة بأكملها مع تلك المرأة في السيارة والمسدسان مغطيان فقط بالشاش والضمادات...!

قال سيباستيان دون أن يتأرجح: «أه!. جيد جداً. ها قد جلبتِ المسدسين» لقد رأى المسدسين هو أيضاً.

انتابت لابينيا الشكوك واللوم مرة أخرى. كانت لديها رغبة في التذمر من إشراكها في كل ذلك. فكرت في المظهر البريء والهادئ لفلور عندما جاءت بالسيارة، عندما سألتها عن إيطاليا، عن العادات السيئة للفاشية وهو ما كان الطلاب يناقشونه. كانت تجهل محتويات الحقيبة، فقد حملتها على قدميها طوال الطريق وحتى إنها قد عرضت عليها حملها أثناء عودتها إلى المنزل.

أعادتها الصورة الظلية السوداء للمسدسين إلى الخوف، إلى الخوف المتجسد بدافع الفضول لمراقبتهم.

***

أسعى جاهدةً للحفاظ على وضع الحدود لخوفها ولعدم السماح له بالتسرب بحرية في دمائها. الخوف مظلم ومشرق في الوقت ذاته. إنه يحيط بأفكارها مثل شبكة تمسك بها حتى تغرقها في الجمود. إنه مثل لدغة الثعابين. مثل الرؤية الأولى للإسبان وهم على دوابهم: في البداية اعتقدنا أنهم مخلوق واحد وظننا أنهم آلهة العالم السفلي، لكنهم قد ماتوا وماتت دوابهم. جميعنا بشر. عندما اكتشفنا ذلك في نهاية المطاف، كان الوقت متأخراً. لعب الخوف لعبة حيله معنا.

***

أنهت فلور تنظيف الجرح، ذلك الثقب المفتوح في الجلد الذي يُظهِر لوناً داخلياً أحمر لا شكل له. اخترقت الرصاصة الساعد، حيث كانت الفتحة أصغر وخرجت من فوق الكوع بقليل وأحدثت قطعاً غير منتظم. بدت المنطقة المحيطة بأكملها، بما في ذلك اليد، مصبوغة بالأزرق والأخضر الداكن. بعد أن طلبت من سيباستيان إجراء سلسلة من الحركات بذراعها – وهو ما فعله دون إخفاء الألم الذي تسببت به تلك الحركة، اقتنعت فلور

أن الرصاصة لم تؤثر على حركته بشكل لا يمكن علاجه وقالت إنه يجب عليه خياطة الجرح لتأمين عدم تلوثه ولتجنب التفاقم الخطر لإصابته.

طلبت فلور ونـادت: «لابينيا، هل لكِ أن تغلي القليل من الماء، رجاءً؟» قامت فلور بتعقيم إبر خياطة الجرح المنحنية في الماء المغلي وأخرجتها بعناية.

– سألت فلور لابينيا: «هل بإمكانكِ مساعدتي؟ ففي هذه الأمور، يكون تفاهمي مع النساء أفضل، إذ ينتاب الرجالَ التوترُ».

أومأت لابينيا برأسها مبدية موافقتها. عندما حددت مهنتها، كان الطب إحدى المهن التي كانت تحترمها. عندما كانت مراهقة، كانت تقرأ بشغف الروايات عن الأطباء والمستشفيات. لكن معارضة الأب كانت شديدة. إذ إن سنوات الدراسة عديدة، مما سيسبب لها العنوسة أو، في أفضل الأحوال، سيتسبب لها في تخلى الزوج عنها قبل الخروج للاهتمام بالحالات الطارئة في منتصف الليل.

ساعدت فلور في تجهيز ما تحتاجه على السرير ووضعته على منشفة نظيفة. عملت يدا الممرضة الرقيقة والمرتبة على تمرير الخيط الأسود بكفاءة من أحد جانبي الجرح إلى الجانب الآخر له، مما أدى إلى شد الجلد وسد الشق. فكرت لابينيا أنه لابد من أن يكون مؤلماً، إلا أن سيباستيان بالكاد كانت تظهر على وجهه مؤشرات الألم بتقليص عضلات وجهه. فقط رقبته قد أظهرت التوتر، حيث كانت الأوردة المنتفخة كالحبال. كان فيليبي ينظر إلى ذلك في صمت. من وقت لآخر كان يتمازح مع سيباستيان كي يصرف انتباهه مخففاً عنه الألم. أمسكت لابينيا بالمنشفة مع الأدوات وشعرت بأنها تعيش حياة لا تنتمي إليها. قالت في قرارة نفسها إن الأمر غير حقيقي، إذ إنه من غير المعقول أن تجد في غرفتها الخاصة: الأقراص والفراش على الأرض والبطانيات الملونة ملفوفة في الزاوية وأن ترى يدي فلور تخترقان جلد سيباستيان ذهاباً وإياباً وهي تخيط الجرح بالخيط. كان هؤلاء الأشخاص عدا فيليبي غرباء عنها تماماً. قد يعبرون الشارع دون أن تنتبه إليهم. ربما قد تشاركوا فقط تلك اللحظات العابرة التي ينظر فيها

أحدهم إلى إنسان آخر وسط حشد من الناس وتتقاطع النظرات كالسفن البعيدة في الضباب وتختفي الوجوه دون أن تترك أثراً ثم تتلاشى صورتها إلى الأبد. عندما يصل المرء إلى الزاوية، تشتت انتباهه الحلوى الملونة للصينية الموضوعة على أرجل المرأة التي تبيع الحلوى. لم تكن تتخيل قضاء هذه الليلة بصحبتهم والحر الشديد لآذار والزمالة المضمرة والقلق على ذراع سيباستيان ومعاناة سيباستيان والحميمية وكأنها تعرفهم منذ زمن طويل. كان نسيج الخطر والموت الذي يحيق بهم في الخارج يتربع على النوافذ الساكنة والمظلمة ويجعلهم عائلة واحدة، مجموعة بشر يحتاج بعضهم إلى بعض من أجل البقاء: رجال ونساء الكهوف يتكهنون بعضهم لبعض في الظلام ويشعرون بأنفاس النمور الأمريكية في الخارج. رفعت رأسها متنبهةً للضوضاء القادمة من الشارع. كانت مجرد سيارة. نظر الأربعة بعضهم إلى بعض واستمروا في مراقبة فلور بصمت. فكرت لابينيا أنهم لا يحتاجون إلى معرفة الكثير بعضهم عن بعض، إذ حال القلق المشترك دون التقاليد الاجتماعية. كانت العيون متوافقة على نفس التردد وكان الضعف والقوة يتعايشان جنباً إلى جنب ويتناوبان في المد والجزر، كان مد بحر يسبح فيه الجميع معاً. كانوا غرقى تلك اللحظة، غرقى فقاعة الصابون هذه.

انتهت فلور من عملها. نظر سيباستيان إلى ذراعه، إلى التصميم الأسود للغرز المتقاطعة. أخذ فيليبي لابينيا بلطف من كتفيها وأدارها واصطحبها إلى خارج الغرفة.

- قال لها فيليبي: «عليك الاستلقاء في الغرفة الأخرى. لا تقلقي أكثر من ذلك. يجب أن نتحدث عن تنقل الغد. سيكون الوقت متأخراً. يجب أن تأخذي قسطاً من النوم».

- قالت لابينيا: «فيليبي، يمكن لسيباستيان البقاء إذا لزم الأمر. لا أريد أن يحدث له أي شيء نتيجة إخراجه من هنا...».

ابتسم فيليبي قائلاً لها: «شكراً لكِ، لكنني لا أعتقد أن ذلك سيكون مناسباً». التنقل مهم في مواقف كهذه. لا نعرف ما إذا قام أحدهم بخيانة

سيباستيان بالفعل ولا نعرف ما إذا كانوا يبحثون عنه. ربما لم يقولوا أي شيء كي نقلل من درجة حذرنا، فننكشف لهم... لا تقلقي».

قبلها قبلة أبوية على جبينها واختفى خلف باب غرفة النوم.

تمددت على الفراش يساورها نعاس قديم متراكم يعود للغرفة الأخرى من المنزل التي لم تنم فيها. كانت مستلقية على ظهرها ومرتدية ملابسها وكان الضوء مطفأً. أحاطت ظلال الأشياء المخزونة في الغرفة بها مثل الأيقونات الصامتة والأصوات المشوشة بصوت الماء المنبعثة من الغرفة الأخرى والتي تصل بشكل غير مفهوم عبر فتحة الضوء أسفل باب الحمام.

قالت لنفسها أن عليها أن تنام وألا تفكر فيهم أكثر من ذلك ولا في احتمالية موافقة سيباستيان على البقاء. لم تعرف لماذا اقترحت ذلك وكيف خرجت هذه الكلمات من فمها. ربما بسبب حقيقة كونهما معاً كما لو كانا يعرفان بعضهما بعضاً لفترة طويلة. لذلك قالت ما قالته وهي تبرر لنفسها الأمر رغم أنه غير معقول. ستساورها الشكوك غداً وستندم وستخاف مرة أخرى. أوعزت لنفسها ألا تفكر في أي شيء وأن تخلد إلى النوم، إذ لم تنم تقريباً.

شعرت بالوحدة. كان فيليبي معهما، ينتمي إليهما. كان الثلاثة ينتمون بعضهم لبعض. ظلت وحدها في الغرفة الفارغة يحيطها الضباب الكثيف للصور والأفكار التي لم تسمح لها بالاستسلام للنوم. حاولت محوها بالتفكير في البحر. عندما لم تستطع النوم، فكرت في البحر.

في اليوم التالي، عندما فتحت عينيها، كان الضوء يدخل من الشباك العلوي. كان فيليبي يتكئ بجانبها على الحائط وهو يدخن سيجارة.

- قال: «لقد رحلا».

جلست لابينيا على الفراش وفركت عينيها. لقد ظنت أنه برحيلهما قد زال الخوف. شعرت بالرغبة في البكاء.

- تابع فيليبي: «الآن علينا أن نستحم ونذهب إلى العمل. طلبا مني أن أشكرك. قالا إنكِ كنتِ شجاعة جداً».

لم تقل شيئاً. نهضت والتقطت الملاءات وطوتها بعناية دون أن تعرف السبب. سيعودان إلى العمل. لقد ذهب سيباستيان وفلور. سيعودان

لحياتهما الطبيعية. لم يحدث شيء. كلهم سالمون وآمنون. أخذت نفساً عميقاً للسيطرة على رغبتها في البكاء.

نظر إليها فيليبي بترقب. كانت تقول في قرارة نفسها يفترض أن كل شيء سينتهي الآن بيننا وهي تدخل بمفردها إلى حمام غرفتها. أغلقت عينيها تحت الماء وتركت الماء يسقط في تيار قوي فوق رأسها. كانت تشعر بأنها تتعافى من مرض طويل.

عندما خرجت، كان فيليبي قد انتهى من ترتيب الغرفة. كانت الملاءات المضرجة بالدماء مكدسة بشكل واضح على السرير.

اقترحت لابينيا وهي ترتدي ملابسها: «من الأفضل التخلص من الملاءات». كان فيليبي يدخن سيجارة أخرى ويقف بجانب النافذة.

قال فيليبي: «إنه أمر خطير». يمكنهم العثور عليها واستخدامها كدليل. من الأفضل تركها مخفية في مكان ما وغسلها عندما تكونين بمفردك. أستطيع مساعدتك في ذلك».

لقد أخفوها في أعلى الخزانة، خلف حقائب قديمة.

قبل المغادرة، تجولت لابينيا في المنزل وأغلقت الأبواب والنوافذ.

- قالت قبل المغادرة: «آمل ألا يعاني سيباستيان من أي مشاكل أخرى» وانتابها فجأة الندم على الحماسة التي رغبت بها أن يغادر لاستعادة الهدوء في منزلها والأيام الخالية من الأحداث المهمة والروتين المبارك.

- قال لها: «نأمل ألا يعاني أية مشاكل»، ثم عانقها.

عانقته بقوة. أحزنتها رؤيته قلقاً وهو يراقبها ولربما يخاف من رفضها.

همست له «أحبك». تظن أنه ليس بمقدورها تركه رغم كل شيء.

أمضت لابينيا يومها في سعادة غريبة وهادئة. كان روتين المخططات ورسامي الخرائط المنحنين على طاولات الرسم وميرثيدس وهي تتجول متبخترة في المكتب والقهوة الساخنة على مكتبها أحداثاً لا تُنسى بالنسبة لها. شعرت بإحساس العودة من رحلة طويلة. تذكرت خلال اليوم فلور وسيباستيان عدة مرات. بدوَا لها بعيدين جداً حتى كانت الذكرى أشبه بحنين إلى الماضي. فكرت في حديث الثعلب عن قصة الأمير الصغير،

ذلك الحديث المتعلق بالروابط. لقد أحبتهما في وقت قصير جداً. لم تكن تُريد أن يصيبهما مكروه. إذا حصل شيء لهما، ستشعر بحزن عميق وليس بحزن تجاه شخصين غير معروفين تقريباً بالنسبة لها. كانت كيمياء أخرى قد حصلت بينهم تحرض على تواطؤ معين في النظرات وشعور بأنهم قريبون بعضهم من بعض: إنه تضامن الخطر.

لكنه كان من الأفضل أن يكون الزمن هو من يقلب بالفعل زاوية الصفحة، بالإمكان تذكر اللحظة مع العلم أنها كانت جزءاً من الماضي. لم تشعر أنها قادرة على الرجوع لعيش مثل تلك الأوقات.

عندما عادت إلى المنزل وجدته نظيفاً. كان يوم الأربعاء وكانت لوكريثيا قد وصلت. أشعلت أضواء الفناء ونظرت إلى شجرة البرتقال المحملة بالثمار. سكبت لنفسها رشفة من الشراب وارتمت في أرجوحة النوم الشبكية.

ظلت هكذا لفترة طويلة تستمع إلى الموسيقى وتشعر ببرودة هواء الليل وتستجمع سكينتها. شعرت بلحظات من القلق بمجرد ما أن نهضت للاتصال بسارة وأنتونيو، هنا تكمن حياتها الطبيعية التي تتوق إليها، مع ذلك شعرت كما لو أن منزلها وحياتها قد أصبحا خاليَيْن على حين غرّة. تخيلت وسماعة الهاتف في يدها وهي تدخن سيكارة ببطء أن المحادثة غير المهمة على وشك الحدوث وتساءلت عما تحبّه حقاً في هذا الهدوء. هل تحب حقاً هذا الهدوء أم أنها فكرة الاستقلال؟، امرأة عازبة تعيش وحدها ولديها وظيفة وغرفة خاصة بها، هل كانت خيارات غير مكتملة وشبه تمرّد وأشكالاً بلا محتوى؟

ظنت أنه لن يحدث شيء بعد الآن. يمكنها أن تتنبأ بأيامها يوماً تلو يوم. كان الفراغ الذي تعيشه كجزيرة وكهف وحبس خيري لتمثال أعمى في حديقة رومانية. كان إتقان العزلة أعظم منجزاتها. هنا يمكنها أن تبقى بينما كان العالم يتحرر بغضب تحت المطر، أما سيباستيان وفلور وفيليبي وعدد آخر من الأشخاص لم تكن تعرفهم، فكانوا يقاتلون طواحين الهواء هناك بهواء أشجارهم الهادئة.

***

توقَّفَتْ عند بداية التساؤلات، لم تجد رداً. إنني الوحيدة هنا المختفية وبوسعي أن أتخيل وألقي نظرة على مناطق التقاء الطرق وافتراقها. إنني الوحيدة التي شعرت بالحاجة إلى الموروث بينما كانت هي تخمن التقلبات في قلبها ولم تتمكن حتى الآن من تحديدها.

ادعى الأسبان أنهم قد اكتشفوا عالماً جديداً. لكن ذلك العالم لم يكن عالماً جديداً بالنسبة لنا. لقد ازدهرت أجيال عديدة في هذه الأراضي منذ أن استقر أسلافنا الذين كانوا يعبدون تاماغاستاد[1] وسيباتوفال[2]. كانت لغتنا الناواتل[3]، لكننا كنا نتحدث أيضاً لغة تشوروتيغا[4] واللغة النيكيرانية[5]. عرفنا كيف نقيس حركة النجوم وكيف نكتب على قطع من جلد الغزال. قمنا بزراعة الأرض وعشنا في مستوطنات كبيرة على ضفاف البحيرات. قمنا بالصيد وبأعمال النسيج وكانت لدينا مدارس وأعياد مقدسة.

لا أحد يستطيع أن يقول ما كان يمكن أن يكون عليه تاريخنا لو لم يتم القضاء على الكثير من القبائل. قال الإسبان إن عليهم أن يجعلونا حضريين وأن يجعلونا نتخلى عن الهمجية، غير أنهم استخدموا الهمجية للسيطرة علينا ولإخلاء موطننا من سكانه. لقد قدموا في غضون سنوات قليلة تضحيات بشرية أكثر مما قدمنا في الفترة الطويلة التي مضت منذ الاحتفالات الأولى.

كانت هذه الدولة هي الأكثر اكتظاظاً بالسكان. مع ذلك في الخمسة والعشرين سنة التي قد عشتها أصبحت تخلو من الرجال، إذ تم إرسالهم

1- تاماغستاد (وتعني النجم): هو الأب والمعلم السحري والآلهة التي خلقت العالم كله، حسب معتقد الحضارة القديمة لأمريكا اللاتينية.

2- سيبالتونال (وتعني كوكب خارج المجموعة الشمسية): هي الإلهة الرفيقة لتاماغاستاد والتي عاشت معه والتي يُنسب إليها خلق البشر، حسب معتقد الحضارة القديمة لأمريكا اللاتينية.

3- ناواتل أو ناهواتل وهو اسم استخدمه السكان المكسيكيون ويطلق أيضاً على مجموعة من لغات السكان الأصليين.

4- هي لغة أقوام يحملون نفس الاسم وهم من الهنود الحمر الذين عاشوا في المنطقة من جنوب المكسيك إلى نيكاراغوا.

5- إسم أقوام ينتسبون لبلدة هنود حمر من عائلة تولتيك التي عاشت بين بحيرة نيكاراغوا والمحيط الهادئ. وتطلق التسمية نفسها على لغتهم.

في سفن كبيرة لبناء مدينة بعيدة أطلقوا عليها اسم ليما. لقد قتلوهم ومزقتهم الكلاب وعلقوهم على الأشجار وقطعوا رؤوسهم وأطلقوا عليهم الرصاص وعمّدوهم وحثّوا نساءنا على البغاء.

جلبوا لنا إلهاً غريباً لم يعرفه تاريخنا ولا أصولنا وأرادونا أن نعبده لأننا لم نكن نعرف كيف نفعل ذلك. أتساءل «وما الذي بقي من كل ذلك الخير؟»

يواصل الرجال الهروب، فهناك حكام متعطشون للدماء. لم يتوقف تمزيق الأجساد، فالحرب مستمرة.

يجب أن يستمر سريان موروثنا الخاص بقرع طبول الحرب في دم هذه الأجيال.

إنه الشيء الوحيد الذي بقي منا، ياريتثي: إنها المقاومة.

- 8 -

رفعت لابينيا عينيها عن مستوى الأرض ونظرت إلى المنظر الطبيعي لغروب الشمس والسماء المرتسمة باللون الأحمر وبحرائق نيسان.

كانت معدتها تؤلمها وكانت متعبة. كانت على هذه الحال مع كل دورة شهرية، فتشعر بالخمول والحساسية. كانت تتمنى لو أنها في مكان آخر وفي زمن آخر، لو أنها سيدة في القرن التاسع عشر، صديقة أو حبيبة لأحد الشعراء الرومانسيين، تجلس بجوار المدفأة في شهر نيسان الشتوي بلا هموم. إلا أنه لم يحدث لها مؤخراً أيُّ شيء رومانسي. كانت في مزاج سيئ. ما إن مضت برهة من الزمن حتى دخل فيليبي ليشرح أسباب تخلفه عن موعده في الليلة الماضية: ثمة اجتماع عاجل لم يتمكن من إبلاغها به، إذ لم يكن هناك هاتف في المكان.

لقد انتظرته طوال الليل. كانت في البداية ترتدي هنداماً مرتباً وشعرها مصفف على نحو جيد وتقرأ أحد الكتب منتظرة إياه بفارغ الصبر. استلقت فيما بعد في الفراش واستيقظت فجراً خائفة من النوم ومن عدم سماع الطرق على الباب.

منذ أيام سيباستيان، كان فيليبي يتهرب من الحديث معها حول الحركة. لقد أصبح موضوعاً محظوراً بينهما. كان يجيب على أسئلة لابينيا وعلى رغبتها في الفهم ومحاولاتها الضعيفة للتوصل إلى حقيقة الأمر بتهرب وبنفس أبوي. في البداية، كان الأمر يبدو لها جيداً. لم تكن تعرف ما الذي كان سيسفر عن محاولة فيليبي إشراكها في الحركة بعد ما حصل بالضبط. استغرق الأمر أسابيع كي تسترد قواها من وقع ما حدث ولكي تتغلب على شكها حول

ما إذا كانت ستستمر في علاقتها معه أم لا والشعور مرة أخرى بملء فراغ منزلها وبالفائدة بالتغلب على وحدتها وبصداقته المُرْضِية كما هو الحال دائماً، وحول معاودة تحمّل مسؤولية علاقتها بفيليبي رغم كل شيء. إلا أنه في أعماقها لم تستطع فهم موقفه، كانت ترفضه. تقبل فيليبي ببالغ السلاسة مخاوفها وحجتها بشأن أفضلية إبقاء كل شيء على وضعه وعدم الخلط بين العلاقة والمناقشات أو الأفعال التي كانت تعود لخيارات فردية. التزم الصمت حيال وابل الأسباب التي كانت تخبره بها. عندما خشيت من إحساسه بضعف شكها، أجلسته في الليلة التي أعقبت ذهاب سيباستيان في الممر المجاور لشجرة البرتقال لتتناقش معه حول الأسباب المتعددة التي تدعوه للكف عن انشغاله بأمر لم يسع إليه حتى. تذكرت الطريقة التي استمع بها فيليبي إليها بصمت وأومأ برأسه مبدياً أنه يوافقها الرأي في جميع النقاط التي طُرِحَت.

– قال أخيراً: «أعلم أننا لا نستطيع العوم معاً. أنتِ ضفة نهري. إذا سبحنا معاً، أي ضفة ستستقبلنا؟»

– لقد اعترف –لدهشة لابينيا– بالحاجة إلى واحة منزلها وإلى ابتسامتها وإلى الأمان الهادئ لأيامها. أما موضوع سيباستيان، فقد كان حالة طارئة.

– قال لها: «لم أفعل ذلك لتوريطكِ، صدِّقيني».

كانت لابينيا تظن أن إقناعه هو أمر في غاية السهولة. من الواضح أن فيليبي لم يكن يريد أن يراها متورطة على الإطلاق، إذ إن ذلك ليس منطقياً، هذا ما اعتقدته لابينيا. كان من المنطقي أن يحاول أن يشاركها ما يعطي لحياتها معنىً وهدفاً وأن يحاول ذلك، حتى لو أصرت على الرفض.

كانت في قرارة نفسها تلقي باللوم على فيليبي بسبب خوفها. تلومه لأنه لم يساعدها في محاربة الخوف الشديد من احتمالية تعريض نفسها للخطر (رغم أن سيباستيان قد أبلغها بأنها شجاعة وكان يعجبها تصديقه)، بل كان بالأحرى يزجها بحكايات فظيعة عن التعذيب والاضطهاد أو ظنت أن الأمر قد يتعلق بروحها المتناقضة، لأنها لم تكن أيضاً متأكدة من استبعاد محاولة فيليبي لتجنيدها وهو ما كانت تَحْذَره وما كان يأخذها بعيداً ليس عن الحركة فقط، بل عنه أيضاً.

في الآونة الأخيرة، لم تكن لابينيا تفهم نفسها. لم تفهم لماذا عكر عدمُ حديث فيليبي عن الحركة مزاجَها. كررت مع نفسها أنها لا تريد أن تكون ضمن الحركة. مع ذلك، أصبح الحديث والسؤال عن ذلك مصدر جذب غير عقلاني وولع مستمر وتحفيز لا يمكن تفسيره. لم تتصور قط أن فيليبي يحول دون علمها بالأمر ويصدها عن ذلك ويرفض أن تعلم.

الأمر الوحيد المؤكد هو أنها كانت في حيرة من أمرها. كانت تشعر بالوحدة حتى عندما كان معها، وحيدة بوجوده، كالغرفة الفارغة.

كانت مع رجل ذي أهداف لا تمت بصلة لأهدافها، رجل كان يعتبرها بوضوح مجرد ملاذ لطيف في حياته، رجل قد يختفي في أي يوم ضحية لمؤامرة. فكرت أن عليها أن تتركه، لكنها لم تقو على ذلك. إذا كان قد جذبها من قبل، أما الآن فقد أضحت جاذبيته مضاعفة. لقد فتنتها هالة الغموض والخطر رغماً عنها. لم تكن تريد البقاء على الهامش، لكنها لم تجرؤ أيضاً على المخاطرة. ربما ستنظر في الأمر إذا أصر هو على ذلك وربما أرادها لهذا السبب أن تقوم بذلك. تساءلت عما إذا كانت حياته أغلى من استقلاله الشخصي والغرفة الخاصة به. لكن فيليبي كان يتهرب من أي إشارة ولم تكن تراه تقريباً في الآونة الأخيرة.

كانت المدينة تعج بالاحتجاجات. كان الجنرال الكبير قد أمر برفع أسعار النقل العام والحليب. بتشجيع من مجموعات من الطلاب والعمال انطلق السكان في مظاهرات ومسيرات ليلية في الأحياء. إضافة إلى الاحتجاج على الأسعار الجديدة، طالب الأهالي بالإفراج عن مدرس متهم بالتعاون مع الحركة التي بدأت إضراب جوع في السجن.

في الجامعة، تم حرق الباصات ونُظمت الشعلات في الليل. كان الجنرال الكبير قد أصدر مرسوماً بالرقابة على الصحافة. كان مناخ الشوارع حربياً وملتهباً.

كانت متأكدة من مشاركة فيليبي في أعمال الشغب تلك، بينما كانت في تلك الأيام لا تفعل شيئاً سوى انتظاره وهي تناضل في داخلها محاولة أن يتحول الحب إلى حزن واضطهاد.

لم تكن تريد أن تجعل فيليبي محور حياتها وأن تصبح بينيلوبي التي تغزل الأقمشة ليلاً. لكنها رغماً عنها قد وجدت نفسها حبيسة تقاليد عمرها آلاف السنين: المرأة في الكهف تنتظر عودة رجلها من الصيد والمعركة، وهي خائفة أثناء العاصفة، تتخيله محاصراً من قبل الوحوش العملاقة ومجروحاً بصاعقة أو بسهم. ثم تقفز المرأة القلقة منتبهةً لسماع همهمة تناديها في الظلام وأصوات أيضاً وتشعر بالبهجة في قلبها لرؤيته يعود سالماً، فتكون بذلك سعيدة لمعرفتها أنها ستأكل أخيراً وستحافظ على دفئها حتى اليوم التالي، حتى يذهب الرجل مرة أخرى للصيد، حتى الرعب التالي والخوف والصورة في الصحف وتنفس الوحوش البرية.

لم تكن تحب بينيلوبي قط وربما يكون سبب ذلك هو إمكانية مقارنة جميع النساء في مرحلة ما من حياتهن ببينيلوبي. في حالتها، لم يكن الأمر خشية من عدم تغطية أوديسيوس لأذنيه عندما كانت حوريات البحر تغني، كما يحصل مع معظم أوديسيوسات هذا الزمن. لم تكن مشكلة فيليبي حوريات البحر، بل كانت مشكلته العملاق ذا العين الواحدة. كان فيليبي أوديسيوس الذي يقاتل العمالقة ذوي العين الواحدة، عمالقة الدكتاتورية.

أما هي التي كانت بينيلوبي ذلك الوقت رغماً عنها، فقد كانت تشعر بأنها محبوسة في البيت الصغير لحبيبها، دون أن تتمتع بحق آخر في معرفة الحياة غير ما يتعلق بجسده: الإحساس المشترك الوفير، بتلات الخجل التي كان فيليبي يقطعها في كل مرة كان يتوغل فيها أعمق فأعمق في علاقته الحميمة وهو يرتكز على ركبتيه ليفتح ساقيها للنظر إلى رطوبة عضوها التناسلي وليسقيه كأساً من حبوب اللقاح، كنحلة تقف على تويج الزهرة لترتشف العطر المالح حتى تقوم هي بفك مفصلات الباب وتفتح له الممرات الجوفية وخنادق القلعة مع إحاطة برج المتعة الصغير الذي كان يحاصره بفمه، بجيش سهامه، مُسَلِّمَةً إياه كل الجلود فيتوغل داخل بطنها حتى تلقي بهما الموجة الأخيرة وهما يلهثان مهزومين بمواء الاستسلام.

رغم ذلك، لم تستطع اختراقه. لم تستطع حتى أن تعتب على موقفه، على رغبته في حبسها وفي الحفاظ عليها لخلق وهم لواحة ذات نخيل. لم تستطع أن تحاجِجَه باستخدامها لإشباع حاجة الذكور العامة والمعتاد

عليها بأن يكون لها مساحة طبيعية في حياته: امرأة تنتظره، لأن ذلك التَشكّي سيعني تركه أو اتخاذ قرار لم تكن مقتنعة به أو قرار غير ناضج. عبثاً كانت تعتقد أن القرون قد أنهت الرعب البدائي للكهوف: كان محكوماً على النساء البينيلوبيات أن يعشن وإلى الأبد حبيسات لشبكات صامتة وضحايا لعجزهن، متراجعات كما هو الحال معها في إيثاكاتهن الخاصة.

شعرت بالغضب من نفسها وقد تغلب عليها هذا الشعور في الآونة الأخيرة. لم تكن في حالة مزاجية تسمح لها حتى برؤية أنتونيو وفلورينثيا والآخرين الذين لم يملّوا من الاتصال بها. لقد أصبح عالمهم محدوداً وخيمت عليه الصراعات التي لم تكن تجرؤ على حلها. لقد حل ظلام الليل من حولها. ساد الصمتُ والظلامُ المكتبَ. كسر صوت السكون استغراقها في التفكير. لقد شعرت بالخوف من وجودها هنالك بمفردها في وقت متأخر جداً.

أسرعت بالخروج والتقطت حقيبتها خائفة وهي تجتاز الممرات حتى وصلت إلى المصعد، ثم إلى الشارع، المكان الذي تخلصت فيه أخيراً من الشعور بالأسى جراء الوقوع في الفخ والحبس.

كانت تعتقد أن الساعة كانت بالكاد السابعة ليلاً وهي تنظر إلى ساعتها بينما كانت تمشي إلى موقف السيارات للبحث عن سيارتها التي اشترتها مؤخراً. لم تكن تريد العودة إلى المنزل، لكنها لم تكن أيضاً تشعر بالرغبة في زيارة سارة أو المجموعة. زاد عدمُ القدرة على مشاركة شكوكها معهم من الشعور بالوحدة. تذكرت شعورها الذي لم يكن على ما يرام يوم الأحد الماضي في نزهتها إلى المزرعة التي يملكها والد فلورينثيا، بعدم الارتياح جراء وقوفها أمام الفلاحين الذين كانوا ينظرون إلى مجموعة من الشباب الأغنياء في المدينة. لم تستطع أن تستبعد من ذهنها وجهَيْ سيباستيان وفلور. لم تستطع الكف عن التساؤل عما سيفكران إذا ما رأياها وسط صخب الفتية المدللين.

قد حدث ذلك كثيراً. كانت ترى سيباستيان وفلور كما لو كانت تراهما في فيلم. بدا الأمر كما لو أن تلك الحلقة التي اقتحمت حياتها كانت هي

الكسر الذي كسر نظام عالم يبدو أنه غير قابل للتغيير. تساءلت «لماذا يقلقها ذلك كثيراً؟»، حتى إن أحلامها كانت تجتاحها الحروب والرجال والنساء القدامى وهم يواجهون الجيوش بالأقواس والسهام. لقد كان هاجساً، دواراً كانت تقاوم جاذبيته.

***

كانت تائهة بين التناقضات التي كانت تصارعها. شعرتُ يوماً بعد يوم بأنها تترنح دون أن تتمكن من التهرب. كانت تنظر إلى شكوكها مثل شخص يفكر في الهاوية. لا أعرف ما إن كان بوسعي فهمها، فالعلاقات لم تتضح بعد بالنسبة لي. أعلم أن بعض الصور من ماضيّ قد استباحت أحلامها وأنني أستطيع التخلص من خوفها بمقاومته. كذلك أعلم أنني أسكن دمها مثلما تسكن العصارةُ الشجرةَ، رغم أنها لم تسمح لي بتغيير جوهرها ولا استباحة حياتها. فهي تعيش حياتها، أما أنا، فإنني مجرد صدى دم يجري في عروقها أيضاً.

***

كان أسوأ شيء هو عدم القدرة على التحدث مع أي شخص عن كل ذلك، عدم القدرة على مناقشة مشاعرها وشكوكها. كانت المحادثات مع سارة ذات طبيعة تزداد أثيريةً وشبه حقيقية. لم تستطع لابينيا أن تذكر عدم ارتياحها حيال علاقتها بفيليبي دون توضيح الأسباب. من ناحية أخرى، لم تستطع الرد على أسئلة سارة حول التوقعات المعتادة في العلاقة بين حبيبين على الرغم من أن تبرير عدم وجود خطط طويلة الأمد في العلاقة كان أسهل، إذا كانت ستستند إلى حجج تتعلق فقط بمعايير الحداثة. فكرت لابينيا في حجم مفارقة رغبتها الحالية بالأمن والاستقرار، الأمر التقليدي، في الوقت الذي لا تسمح علاقتهما بمستقبل أكثر من اللحظة. نبهها فيليبي حول احتمالية اضطراره إلى «التواري عن الأنظار» ذات يوم، وقد أجابته بمقطوعة شعرية للشاعر والموسيقي البرازيلي بينيثيوس دي مورايس عن الحب: «إنه ليس خالداً، فهو شعلة لهيب، لكنه خالد عندما يدوم»، وهي

تتحدث عن جمال اللحظة، وعيش الحاضر. لكن كان عليها أن تدرك مدى صعوبة العيش بانتظار مستقبل مجهول غارق في عدم اليقين، دون أن يشكل هذا المستقبل جزءاً من أهدافها ودون أن تكون قادرةً على مشاركة عدم الأمان مع أي شخص.

فكرت أنه لن يكون أمامها خيار سوى الاحتفاظ بشكوكها لنفسها بينما كانت تدخل جو سيارتها الجديدة التي اشترتها مؤخراً.

بدأت تشغيل المحرك دون معرفة الاتجاه الذي ستسلكه. كانت تفكر في الذهاب في جولة والصعود إلى الطريق العام وفي التخلص من الشعور بالهاوية وتبديده وبعدم الاتصال بالبشر وبالبقاء على أرض الحرام محل النزاع دون حل.

طافت الشوارع والطرقات واشتاقت لعمتها إينيس، اشتاقت لكائن بشري يفهمها وبوسعها أن تتحدث معه.

تراءت لها صورة فلور بشعرها المتموج وملامحها البنية وتذكرت تعاطف المرأة تجاه المرأة في تلك الليلة التي كانتا فيها معاً مثلما تتراءى اليراعة بوهجها في الظلام.

لكن... كانت تتساءل «هل عليها الذهاب؟» فهما لم يودعاها حتى. لم تكن فلور شخصاً غير معقد من النوع الذي تعرفه ويمكن أن تزوره كما تشاء دون الحاجة إلى الاتصال به هاتفياً لإخباره بمجيئها. كانت تنتمي إلى عالم آخر. قالت لنفسها: «لِمَ لا؟: إذا رأت أنه من غير المناسب أن أزورها، فستخبرني بذلك دون أدنى شك.

فجأة أدارت لابينيا مقود السيارة إلى اليمين مبتعدةً عن الطريق العام الذي كان على وشك أن تسلكه وهي تركز انتباهها على تذكر عنوان المنزل.

أخذت اتجاه الأحياء الشرقية. كانت الحافلات القديمة الطراز والمتهالكة تنقل الناس عند محطات وقوف الباصات. كانوا رجالاً ونساءً تبدو وجوههم مربكة في الليل. كانوا يتجمعون بضجر تحت الأكشاك الملونة النابضة بالحياة لإعلانات الصابون والقهوة والرم ومعجون الأسنان.

كانت تفكر وهي في مقعد سيارتها ذي الزغب أنه كان من الممكن أن

تكون أحدهم. قالت في قرارة نفسها «كان من المحتمل أن أكون هناك، معهم، أصطف في طابور الباص هذه الليلة لو لم أكن قد ولدت في مكان آخر ومن أبوين آخرين». الولادة حظ فظيع. جرى الحديث عن الخوف من الموت، ولم يتم الحديث قطّ عن الخوف من الحياة. يتكوّن الجنين الجاهل في رحم الأم ولا يعرف ما ينتظره عند مخرج النفق. لقد خُلِقَت الحياة وتمت الولادة، دون مزيد من التفاصيل. فكرت «من حسن الحظ أننا لم نكن حينذاك ندرك ذلك». إذ يمكن أن يولد المرء للحب أو للكره، للعجز أو للوفرة، رغم أن الحياة نفسها غير مسؤولة بالتأكيد عن ذلك: إذ يؤدي مبدأ الحياة عمله بتوحيد البويضة والحيوانات المنوية، لكن البشر هم من يخلقون الظروف التي تواصل فيها الحياة السير في مجراها. يبدو البشرُ متسمين بمصير دهس بعضهم بعضاً وبجعل الوجود صعباً وبقتل بعضهم بعضاً.

كانت تفكر «لماذا نحن هكذا؟» عندما وصلت إلى الركن القريب من الجسر، ركن المؤسسة التجارية، نوع من البقالة الكبيرة التي تضع لافتة: «مخزن العناية الإلهية»؟ حدثت نفسها قائلة «كيف لا أتذكره» وابتسمت.

استدارت يساراً ووجدت الجسر، مدخل شارع فلور.

مرة أخرى، طاردتها الشكوك بشأن استقبال فلور لها. حدثت نفسها «لكنني قريبة جداً الآن». لم تستطع السماح للشكوك بامتلاكها وبالسيطرة على أفعالها. لم تستطع السماح لنفسها بفقدان الثقة بالنفس التي كانت فخورة بها منذ مراهقتها.

دخلت عجلات السيارة الطريق غير المعبَّد. تعرّفت على المساكن المصنوعة من الخشب، كانت أبواب بعضها مفتوحة في تلك اللحظة. بالنظر من خلال الأبواب، لمحت المنزل بأكمله: الغرفة الوحيدة والموقد في الخلف والأسرة جالسة خارج المنزل على كراس خشبية تستمتع ببرودة الليل والأطفال يلعبون حفاة الأقدام.

أوقفت السيارة بجوار الحائط البدائي لمنزل فلور. رأت سيارتها في المرأب وكان هناك ضوء في المنزل. كان صوت جرس الباب مسموعاً وسمعت لابينيا مرة أخرى صوت خُفَّيْن يقتربان. كان عقل لابينيا يرجو

أن تقوم فلور باستقبالها. اقتربت فلور من الباب وكانت مندهشة والسرور مرتسم على محيّاها عندما رأتها.

– قالت لها وهي تفتح قفل البوابة: «مرحباً، يا لها من مفاجأة!»

– قالت لابينيا: «مرحباً. قبل الدخول، أردت أن أسألك عما إذا كانت زيارتي لكِ ممكنة... لا أعرف هل يمكنني أن أزورك أم لا...»

– قالت فلور: «ها أنت هنا. لا تكوني رسميةً جداً، تفضلي.»

وابتسمت لها بحرارة.

دخلتا الغرفة. كان ملصق بوب ديلان على الحائط.

– سألت فلور: «هل تحبين القهوة؟ لدي قهوة جاهزة».

– قالت لابينيا: «حسناً، شكراً».

اختفت فلور خلف الستارة ذات الورود. جلست لابينيا على كرسي هزاز. لقد وازنت نفسها بدفع جسمها بقدمها وأشعلت سيجارة لإتاحة الوقت لفلور ومعها فنجان القهوة. ألقت نظرة على رفوف الكتب: *مدام بوفاري ومعذبو الأرض والحجلة والغثيان والمرأة والحياة الجنسية*... عناوين معروفة وغير معروفة... قراءات غير عادية لممرضة. تساءلت: «من هذه المرأة؟. عادت فلور بفنجانين مطليين بالمينا ووضعتهما على الطاولة.

– قالت فلور بينما كانت تحرك السكر في القهوة لتذيبه وتنظر لها بنظرة متشعبة: «وكيف خطر لكِ أن تزوريني؟»

– أجابت لابينيا بقليل من الخوف: «لا أعرف كيف خطر لي ذلك. شعرتُ بحاجة إلى التحدث إلى شخص ما... ظننتُ أنه ربما من المستحسن ألا أظهر هنا فقط، إلا أنني اعتقدت أيضاً أنك ستقولين لي ذلك...»

– قالت فلور: «حسناً. من الناحية الاعتيادية، من الأفضل ألا تأتي إلى هنا على هذا النحو دون أن تخبريني. لكن لم يكن لديكِ على أي حال مكان لتخبريني به، أليس كذلك؟ لذلك دعينا نترك القلق بشأن ذلك الآن. أنت هنا وأنا مسرورة جداً برؤيتك مجدداً.»

فكرت لابينيا «ما الذي سأقول الآن؟ كيف أبدأ الكلام؟ ما الموضوع الذي احتجت التحدث عنه؟»

- سألتها لتقول شيئاً: «كيف حال سيباستيان؟»

قالت فلور إنه بخير. لقد تعافى بشكل أفضل مما توقعت. بوسعه تحريك ذراعه جيداً. لم تُصَبْ ذراعه بسوء.

- قالت لابينيا: «الحقيقة أنني لا أعرف لماذا أتيت. شعرتُ بالوحدة. فكرتُ فيكِ، في أنكِ ستفهمينني».

نظرت إليها فلور بلطف وشجعتها بنظرتها على مواصلة الحديث، لكن دون أن تساعدها كثيراً في المحادثة.

- قالت لابينيا: «أشعر كأنني على أرض حرام محل نزاع. إنني مربكة».

- «ألم تتحدثي مع فيليبي؟»

- «في الآونة الأخيرة قليلاً ما أراه. لا أفعل شيئاً في الليل سوى انتظاره، إن ظهر. أشعر كأنني بينيلوبي».

- ضحكت فلور وقالت: «لا بد أنه مشغول، أليس كذلك؟»

- قالت لابينيا: «معنى ذلك، أن المرأة عندما تكون مع أي رجل، سواء كان محارباً أم بائع ثلاجات، فإن دور المرأة هو انتظاره، أليس كذلك؟»

- قالت فلور مبتسمةً مرة أخرى: «ليس بالضرورة. يعتمد الأمر على ما يقرره المرء لحياته، كامرأة في حالتك».

- سألت لابينيا: «وأنتِ، كيف توصلتِ إلى اتخاذ قرار بشأن ما أنتِ عليه؟»

بين رشفات القهوة والإيماءات التعبيرية وصمت الحنين، رَوَتْ لها فلور قصتها. أخبرتها أن لديها خالاً حازماً، لكن ليس بالمعنى الإيجابي للعمة إينيس في قصة لابينيا. أخذها خالها من المزرعة الضائعة في الجبال، حيث كانت تعيش مع والدتها وإخوتها الأميين من أجل تعليمها في المدينة. كان رجلاً قد جمع ثروته خلال فترة ذروة القهوة. كان عازباً كبيراً في السن ومنحطاً. أخذها في رحلات إلى الخارج لتتعرف على المتاحف والناس الجزعين والغريبي الأطوار. قالت فلور: «لقد تبنّاني بشكل عملي، لكن ليس بحسن نية». كانت قد لاحظت بالفعل كيف نظر إليها عندما أصبحت في فترة المراهقة. كان يراقبها وهي تستحم في النهر. قالت فلور وهي تدخن

وترتشف القهوة بتعبير حصين: «لقد انتظرني حتى كبرت لأصبح حبيبته. أنا التي تَرَيْنَها هنا وتتحدثين معها، قد فقدتُ عذريتي في سان فرانسيسكو».

تابعت قائلة: «لقد كرهته». وللعمل ضد شهوته، دخلَتْ إلى الجامعة وبدأتْ بالمغازلة وبالنوم مع من كان على استعداد للقيام بذلك (أضافت قائلةً وهي تنظر إلى لابينيا نظرة شبه المتحدية «كانوا دائماً موجودين»). الشخص الوحيد الذي لم يكن على استعداد للقيام بذلك كان سيباستيان. تذكرت فلور كيف واجهها وكيف حركها من الداخل ليجعلها ترى عملية التدمير الذاتي التي أوقعت نفسها فيها، مما يخلط بين الغضب الشديد النابع من الداخل تجاه الخال وكرهها نفسها.

قالت: «لقد قاومت، لكنني بدأت أفكر وأبكي». واسترسلت فلور: «وبين اللقاء غير المنتظر مع سيباستيان والصدمة والبكاء حدث أنه ذات يوم أن داهم الحرس الجامعة». تذكرت ما قاله سيباستيان في اللحظة المرعبة التي سمعوا فيها صفارات تقترب من الاجتماع «لقد خبأتُ هذا السلاح في حقيبتكِ»، عندما تحول النقاش إلى ضربات وجهتها مجموعة طلاب ضد مجموعة أخرى. كانت تروي للابينيا أنه قال لها «لقد خرجتُ بسرعة. هل أنتِ ذاهبة إلى منزلكِ. انتظريني حتى أصل في الليل»، ثم خرجت مشوشة ومندهشة لأنه قد وثق بها ولأنه لم يشك باحتمالية أن تشي به إذا ما أمسكوا بها والمسدس في حقيبتها. أضافت قائلة: «لقد وثق بي وجعلني أمر بواحدة من أسوأ اللحظات في حياتي». بعد ساعات، ظهر سيباستيان في منزلها وكأن شيئاً لم يحدث وطالبها بالمسدس الذي احتفظت به في درج الملابس الداخلية. بدون مقدمات كثيرة، أقنعها بمغادرة منزل خالها وبشراء المنزل الذي تعيش فيه الآن بالمال الذي تم ادخاره وبأن تتعاون بشكل كامل مع الحركة.

قالت فلور: «لقد أقنعتني ثقته. إما أن أقبلها أو أن أستمر بكوني ذلك الشيء المزري الذي كنتُ عليه. يُفترَض أن أنتقم من خالي».

بعد ذلك، كان علي أن أقوم بتجارب لا تُحصى حول إطلاق النار وأن أقتنع بأن الحركة لم تكن مجموعة علاج نفسي أو مؤاساة للحصول

على شيء تعيش من أجله -كما كان سيباستيان يخبرها باستمرار-. أخيراً تمكنت ليس من التصالح مع نفسها فقط، بل من تحمل مسؤولية جماعية. قالت لو كان الأمر كذلك فقط، لن تضطر أي أم فلاحية إلى إعطاء أطفالها لأقارب أغنياء اعتقاداً منها أنها بهذه الطريقة فقط ستتمكن من جعل أحدِهم يتولى تربيتهم.

أحْنَت فلور رأسها لتسنده إلى ظهر الكرسي. كانت لابينيا تستمع بصمت لحكايتها متأثرة ومندهشة من ثقة فلور بها.

- أضافت فلور: «لم يكن الأمر هيّناً، فمثل هذه القرارات ليست بسهلة على الإطلاق. فقط في بعض الأحيان قد تحدث الأشياء وتصادف الشخص في الوقت المناسب... لكن لا أحد يقرر عن أحد. مشكلتكِ ليست فيليبي».

- قالت لابينيا مدافعة: «أعلم ذلك، لكن يبدو لي أنه يتحمل بعض المسؤولية بحكم كونه الشخص الأقرب إليّ».

- قالت فلور مبتسمة: «من الواضح أن ما يريده هو «راحة المحارب»: المرأة التي تنتظره وتمنح الدفء لسريره، السعيدة بأن رَجُلها يقاتل من أجل قضايا عادلة وتسانده بصمت. إذا كان تشي جيفارا بنفسه قد قال في البداية إن النساء طباخات رائعات وسعاة بريد حرب العصابات، فذلك هو دورهن...» هذه المعركة طويلة.

- قالت لابينيا. «لكنني لا أريد أن أكون مجرد ضفة لنهره...»

- قالت فلور: «حسناً، إذا أردتِ، بوسعي أن أعطيك بعض المواد كي تعرفي بشكل أفضل ما هي الحركة وماذا تحاول القيام به. بذلك، لن يكون عليك السعي وراءه إذا كان ذلك هو ما يقلقك. هكذا، ستتمكنين من اتخاذ قراراتك الخاصة. بهذه الطريقة، سيكون بوسعك انتظاره على «ضفة نهره» ومعك قوس وسهم».

ضحكت لابينيا كثيراً حتى خرجت الدموع من عينيها من الضحك. لم تكن نفسها تعرف سبب الضحكة المفاجئة التي نبعت من أعماق صدرها ولم تتمكن من كبتها وكانت تقهقه: تصوّرت امرأة تتخيل نفسها وهي تشد قوسها متسلية تلعب بانتظار رؤية رأس الرجل يخرج من الماء.

كلفها التوقف عن الضحك جهداً.

قالت لابينيا إنها لا تعرف إن كانت ستجد إجابات في المواد، لكن لا بأس، ستقرأها، ففيليبي يستحق الحب.

- قالت لها فلور: «انتبهي. إنه موضوعك وليس موضوع فيليبي. غادرت منزل فلور تحمل معها *المواد* في الحقيبة.

تساءلت: «هل إن ذلك هو ما كانت تبحث عنه؟» كانت على وشك أن تخبر فلور بالرفض، بأن لا تعطيها المواد. إنها ليست لهكذا أمور، حيث تشعر بأنها لا تقوى على ذلك وتساورها المخاوف، لكنها لم تستطع الرفض. لقد ذهبت بعيداً. لم تعرف لماذا كانت الفكرة ومنذ أيام مضت تخطر لها بإلحاح وتطاردها كمطاردة قطة لها. بعد كل شيء، كان عليها على الأقل أن توضح الأمر مع نفسها وأن تعرف ما إذا كان قلقها مشروعاً أم أنه مجرد طريقة لإخفاء خيبة الأمل بعدم زج فيليبي لها فيما كانت تعتقد أنه أمر أساسي في حياته.

كان عليها أن تهتم بالمواد. قالت فلور إذا وجدوها والمواد بحوزتها، قد يتم اعتقالها. سلّمتها عدة كتيبات مطبوعة بآلة الميموغراف الناسخة: تاريخ الحركة وبرنامجها ونظامها الداخلي والإجراءات الأمنية (أبلغتها أنه لا بأس أن تتطلع عليها، خصوصاً أن تجربتها حديثة العهد مع موضوع سيباستيان). على لابينيا أن تعيدها بعد قراءتها.

ضغطت حقيبتها عندما ركبت السيارة ووضعتها بالقرب منها، بجوارها، على فرامل الطوارئ. ودّعتها فلور من الباب برفع يدها. فكرت لابينيا مرة أخرى في الأشجار وحتى في صوت فلور في النهاية، عندما أعطتها تعليمات حول المواد، الذي كان يخشخش قليلاً كخشخشة شخص يمشي على أوراق الشجر.

شغلت المحرك وتوجهت إلى الشارع. كانت تتقدم ليلاً باتجاه منزلها عندما رأت سيارة دورية الشرطة في الركن. كاد قلبها يخرج من صدرها من الفزع. أدى التدفق المفاجئ للدم في جسمها على إثر الفزع إلى حرارة قد شعّت من جسدها. ضغطت على المقود وأبطأت السرعة وتوسلت إلى جميع القديسين ألا يعتقلوها. كانت تفكر مضطربة «ما الذي فعلته؟ ماذا

لو رأى الشرطي الأوراق في حقيبتها بينما يطلب منها الرخصة؟ ماذا لو لاحظ توترها؟»

مرت بجانب رجال الشرطة ببطء دون أن تنظر إليهم. لم يوقفوها. واصلت السير في طريقها. بالكاد استطاعت السيطرة على رجفة ساقيها وعلى رغبتها في البكاء.

فكرت وهي تلمس الحقيبة أنها ليست لعبة وعاودت لمس حقيبتها والأوراق داخلها بينما كانت تتأكد من عدم حصول أي شيء غير قابل للمعالجة. قالت لنفسها: «إنها ليست دمية أحملها واسترسلت بالعودة إلى ذاكرة الطفولة بسبب الخوف». تذكرت الدمى التي كانت تخرجها من الخزانة والتي كانت ترتبها العمة إينيس بدقة. اختبأت مع الدمى خلف أبواب الخزانة في المكان الذي كانت تحتفظ فيه بماكينة الخياطة وكانت تتفحصها وهي تبحث عن قلبها. قالت والدتها إنها كانت مخرِّبة لأنها كانت تغسل الدمى حتى مُسِح الطلاء وأصبحت أفواهها شاحبة أو حتى أصبحت إحدى العينين زرقاء والأخرى قهوائية. كانت تمشط هذه الدمى حتى تساقط شعرها. كانت تتفحصها من الأعلى إلى الأسفل بحثاً عن بعض الملامح البشرية، عن شيء يعطي معنى لاحتضانها لها ولعواطفها كطفلة وحيدة وكابنة وحيدة تحاول أن تجد رِفْقة تناسب عمرها.

تذكرت خيبة أملها عندما أظهرت دمية تلو الأخرى صدرها الأجوف الخالي من القلب أمام عينيها، عندما أدركت أنها كانت تبدد التدليل والمداعبات والتهويدات، لأنه لم يكن لأي دمية قلبٌ.

فكرت لابينيا «ماذا ستقول والدتها إذا رأتها» وكانت مسرعة عصبية عندما أصبحت إشارة المرور خضراء وهي تتوق للعودة إلى المنزل وتشعر بأن كل المناطق التي كانت تمر بها على علم بالأوراق السرية التي تحملها.

عندما وصلت، وجدت فيليبي نائماً أمام التلفاز. لم تكن تتوقع رؤيته. كانت قد أعطته مؤخراً نسخة من مفتاح المنزل لتجنب الانتظار غير المجدي في الليالي والخوف من عدم سماع طرقات الباب. لكنها كانت المرة الأولى التي يستخدم فيها المفتاح. تحركت دون أن تصدر صوتاً حتى لا توقظه ودخلت غرفة النوم معتقدة أنه مكان جيد لتخبئ فيه الأوراق.

نظرت حولها ووصل مدى رؤيتها إلى الدمية القديمة التي تراكم عليها الغبار فوق الخزانة. ربطتها بأفكارها الأخيرة، فأنزلتها وخلعت رأسها وأدخلت الأوراق في صدرها المجوف وأعادت تركيبه من جديد. فكرت «الآن أصبح لها قلب». عادت إلى الصالة حيث كان الضوء يأتي من التلفاز بنور أبيض. واصل الممثلون تمثيلهم غير مبالين بالمشاهِد الذي كان نائماً.

نظرت إلى فيليبي. كان يبدو كأنه تمثال منهار أعزل. كانت تحب أن تراه نائماً. النوم حالة غريبة، مثل الانطفاء والخروج عن نطاق الحيز والغرق في موت قصير. حسب المعتقدات الشرقية، تنفصل الروح عن الجسد عند النوم وترحل عبر مستويات أخرى من الوجود. تساءلت «أين هو فيليبي الآن؟» استلقت مسندة ظهرها إلى الوسائد تسلي نفسها بالتأمل بذلك. بث التلفزيون نشرةَ أخبار منتصف الليل. لقد دشن الجنرال الكبير برنامجَ إصلاحٍ زراعيٍ مزعومٍ للفلاحين وتحدث عن الثورة في الريف. كان يحاول تجريد الكلمة من معناها وجعلها مناسبة ومنتقاة. كان رجلاً مكروهاً ومتوسط الطول ذا كرش وأبيض البشرة وشعره أسود وذا ابتسامة مصطنعة لأسنان مصقولة بعناية ويداه رفيعتان. كان يتحرك بطريقة سلطوية، بطريقة السطحية المُحْسِنَة، وتلتف من حوله حاشية الوزراء التي كانت تبتسم بخنوع.

لم يذكر أي شيء عن التجمعات في الأحياء والحافلات المحروقة في الشوارع.

فكرت لابينيا في الأوراق الموجودة داخل الدمية ونظرت إلى فيليبي.

قررت ألا تخبره بأي شيء. ستُخرِجه من نطاق قراراتها. ستحكم عليه بالبقاء على هامش الصفحة، بجهله البريء بشأنها وهو أمر معروف جداً في تاريخ الجنس الأنثوي. ستتركه أيضاً، مثلما فعل هو، مغيباً عن أحد مفاصل حياتها. صحيح أنه لو لم يكن بسببه، أي لو لم يأخذ فيليبي سيباستيان إلى منزلها ولم يزرع ذلك فيها الريبة، إلا أنه من الواضح أيضاً أن ما حدث بالنسبة لفيليبي كان مجرد حلقة عَرَضية، تغير يكاد لا يُذكَر في الحياة اليومية ويفتَرَضُ ألا تترتب عليه عواقب وخيمة. لقد حملها دون قصد منه بالتأكيد إلى أعتاب ذلك الواقع الآخر كي يبحث لاحقاً عن كيفية فصلها عنه. أخبرتها

فلور: «مشكلتكِ ليست فيليبي». من أجل ذلك تحديداً، كان عليها أن تتخذ القرارات بنفسها وألا تخبره بأي شيء وأن تهمِّشه فيما يخص انضمامها.

تساءلت فجأة وهي خائفة من نفسها: «ما الذي أفكر به؟ أي انضمام؟» ثم قالت في قرارة نفسها: «إنني بالنتيجة أحاول فقط أن أعرف الأمور بشكل أفضل دون أن أنخدع».

كان فيليبي مستغرقاً في النوم، أما لابينيا، فكانت مشتتة في تأملاتها. نظرت إلى شجرة البرتقال وهي تتمايل بفعل الرياح. كان الليل يسير في مجراه. كان وجود الأوراق ينبثق من قلب الدمية ويسود الجو الهادئ للمنزل.

***

لقد نظرَتْ إليّ. شعرتُ في عينيها بقوة المعركة التي انطلقت في رئتيها وأمعائها. كانت الريح تهزني من جانب إلى آخر. ستمطر قريباً. بدأت الأرض في إطلاق ذكرى رائحة المطر: تنادي كيوتي-تلالوك[1] وتخزن المياه.

أعتقد الآن أنه ربما قد توصّل أسلافي البعيدون أيضاً، أولئك الذين قرّروا من اتخاذ تيكوميغا وماغواتيغا[2]، للسكن في تلك الأماكن وبقوا في الأرض وفي الثمار والنباتات أثناء فترة حياتي. ربما سكن أحدُهم دمي ذا الأصداء وربما عاش أحدُهم داخلي وجعلني أغادر منزلي وأخذني إلى الجبال للقتال مع يارينتي.

للحياة طرق لتجديد نفسها.

1- إله المطر والبرق.

2- بلدتين قريبتين من تشولولا في المكسيك. نزح منها سكانها إلى نيكاراغوا في إحدى موجات النزوح الثلاثة التي حصلت بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر.

مكتبة t.me/soramnqraa

- 9 -

في اليوم التالي، استيقظت لابينيا على حرارة السبت. كانت تظن أنها ستمطر قريباً وتتلهف لبرودة موسم الأمطار والصباحات الباهتة والجلوس بانكماش وبتكبّب في الأيام الملبدة بالغيوم. لقد ذهب فيليبي. وجدت على المنضدة ليلاً الملاحظة: «لم أرغب في إيقاظك. لدي عمل. سأحاول العودة مساءً. قبلاتي. فيليبي». تذكرت بصعوبة أنها قد اصطحبته إلى الفراش. لم يستيقظ سوى لخلع حذائه. نام بجانبها كزوجين يشعران بالملل.

تمددت وفركت ساقيها على الطرف البارد من الملاءات. وقعت نظرتها على الدمية في الجزء العلوي من الخزانة: كانت عينا الدمية زرقاوين مستديرتين وأنفها مقلوباً وشعرها مجعداً، دمية فريدة من نوعها تستحق البقاء على قيد الحياة والنجاة من الدمار الذي ألحقتها به ممارستُها الطفولية عندما كانت تغدق عليها لابينيا بحب الأم.

عكست عيناها الزجاجيتان النافذة التي كان يشاهد امتداد أغصان شجرة البرتقال منها. كانت تميل إلى جانب وبدت مترهلة كأنها تنظر بلا خجل.

فكرت لابينيا في ضرورة قراءة الصحف. لن تتمكن هذا الصباح من الإفطار مع سارة. ستبقى في منزلها لتقرأ.

اتصلت بصديقتها لتخبرها أن لديها عملاً عاجلاً عليها القيام به. لقد كذبت بثقة للمرة الثانية. تفهمت سارة الأمر وأعفتها من الاعتذارات.

دون أن تستحم، أحضرت معها عصير برتقال وقهوة وقطعة خبز. جلست على السرير وخلعت رأس الدمية وأخرجت الأوراق.

كانت الساعة تشير إلى الثانية وخمس عشرة دقيقة مساءً عندما قلبت

الورقة الأخيرة. كانت الأوراق منشورة على السرير مثل الحشرات البيضاء - السوداء. كانت الكتيبات السرية المطبوعة بآلة النسخ على السرير وفيها رسومات *ستنسل* بدائية.

أغمضت عينيها وأسندت رأسها إلى الحائط.

تساءلت: «هل من المشروع أن نحلم على هذا النحو؟ أن تتم إعادة خلق العالم وإعادة صنعه من العدم؟» كانت تظن «إنه أسوأ، أسوأ من العدم. هل تتم إعادة صنعه من تلك البقعة التي تُرمى فيها القمامة، الأرض القفار والحزينة، التي يتم فيها التخلص من الخردة والنفايات؟ من المقبول والعقلاني أن يكون هناك أشخاص في العالم قادرون على اختراع العالم من جديد بهذه العزيمة، وذلك بتجزئة الحزن إلى أجزاء صغيرة وبرسم خطوط الأمل نقطة تلو نقطة، كما هو الحال في برنامج الحركة، حيث تم التحدث بأمن شديد عن جميع الأشياء التي لا يمكن تحقيقها والتي ينبغي أن تتحقق: محو الأمية والصحة المجانية والمستوجبة للجميع والإسكان والإصلاح الزراعي (الحقيقي، وليس مثل البرنامج التلفزيوني للجنرال الكبير) وتحرير المرأة (وفيليبي؟ ماذا عن الرجال مثله، الثوريين والذكوريين في نفس الوقت؟) ونهاية الفساد ونهاية الدكتاتورية... نهاية كل شيء، مثلما يحصل عندما تضيء الأنوار معلنة نهاية فيلم سيئ». كانت تعتقد أن هذا ما أرادوه: هو أن يشعلوا الأنوار. لقد قالوا: «نهاية الظلام والخروج من ليل الدكتاتورية الطويل». لا يقتصر الأمر على إشعال الأضواء فحسب، بل أنهار الحليب والعسل -كانت الحركة تحب لغة الإنجيل- المدينة الفاضلة الطوباوية لعالم أفضل يمتطي فيه دون كيشوت من جديد صهوة جواده متأهباً. إن قواعد الكيشوتات الجديدة هي: الأنظمة والواجبات التي لا تعد ولا تحصى والحقوق المحددة... صفات الرجل الجديد والكريم الذي ينعم بروح الأخوة والناقد والمسؤول والمدافع عن الحب والقادر على الوقوف مع أولئك الذين يشعرون بالمعاناة. اعتقدت لابينيا أنهم مسيحيون معاصرون على استعداد لأن يُصلَبوا لنشر التبشير... لكنهم غير مستعدين لأن يخطئ بعضهم بحق بعض: حيث إنه هناك عقوبات كاملة للخونة، حتى إنه قد تم

التفكير في الإعدام رمياً بالرصاص (تساءلت «هل سيفعلون ذلك حقاً؟» بينما كانت جالسة في السرير تحدق، دون رؤية رأس الدمية، بالعيون الزرقاء المستديرة والمفتوحة ذات الرموش الشديدة السواد).

لكنها تعتقد أنه بوسع المرء أن يتناسى هموم وآمال الأغلبية. ففي منزلها، بوسعها فعل ذلك بوجود الوسائد والنباتات والموسيقى. وفي نادي الرقص، مع الأصدقاء وفي السرير، مع فيليبي وغداً في المكتب المكيَّف. الكثيرون يقومون بذلك التناسي، بل إن كل أصدقائها يقومون بذلك. لم يشوه الفقر الجماعي ألق المصابيح الزجاجية للنادي أو الصناديق، فحياة سارة بسيطة وجميلة، لكن الحياة الاجتماعية لوالديها دؤوبة وجياشة.

كان بوسعها أن تختار العيش في العالم الموازي الذي ولدت فيه وألا ترى العالم الآخر إلا بالمرور به بالسيارة وهي تدير وجهها في أحياء الألواح والأرضيات الترابية لتنظر إلى الغيوم الجميلة في الأفق وإلى حافة البراكين على شاطئ البحيرة. تمكن الكثير من الناس من التغلب على مشاكلهم لتجاهل البؤس بقبول اللامساواة كقانون للحياة.

كانت تفكر أن الأمور هي هكذا دائماً. «من يجرؤ على الحلم بتغيير كل ذلك؟ لماذا التفكير بأنه من شأن هذه الرغبات المكتوبة بشق الأنفس (آلة نسخ تعمل في منتصف الليل تحت خطر الاعتقال) أن تغير حالة الأمور -*الطبيعية*، كما تقول سارة-؟

تساءلت لابينيا «إلى متى ستتباحث مع نفسها؟» سيكون من الأفضل أن تقوم ومن مرة واحدة بتقبّل عدم تمكّنها من أن تدع الرومانسية تسيطر عليها. صحيح أنها كانت تحب الحلم أيضاً. كانت تحلم منذ نعومة أظافرها، منذ زمن جول فيرن. من مِنا لم يحلم؟ من مِنا لم يحلم بعالم أفضل؟ كان من المنطقي أن تجتذبها فكرة تخيل نفسها رفيقة ومن حولها تلك الكائنات ذات النظرات الشفافة والعميقة المتسمة بهدوء الأشجار. لكن ذلك لم يمت بصلة للواقع، *لواقعها* كفتاة ثرية ومهندسة معمارية فاخرة تدّعي الاستقلال وغرفتها خاصة، فيرجينيا وولف. قالت لنفسها إن عليها أن تكسر هذا التساؤل المستمر، هذا الذهاب والإياب لأناها العقلانية إلى أناها الأخرى

الملتهبة بالحماسة العادلة، ما تبقى من طفولة مفعمة جداً بالقراءات البطولية والأحلام المستحيلة والأجداد الذين قد دعوْها للطيران.

***

آه! كيف تشك! فوضعها يسمح لها بذلك. إنها تفكر كثيراً. إنهن معصوبات الأعين. عندما اندلعت الحرب في عصرنا، كان على العديد من النساء أن يستيقظن ويدركن مساوئ قضاء الكثير من الوقت في اللهو والانقياد.

كنت محظوظة على الرغم من أن والدتي كانت غاضبة، فإنني كنت دائماً مولعةً بألعاب الأولاد والأقواس والسهام.

لم تتصور أنه بوسع النساء أن يحاربن ويرافقن الرجال.

في ذلك المساء عندما وصل يارينثي مع رجاله إلى تاغوثغالبا[1]، وهو اليوم الذي أصبحت فيه أعيننا مغلقة إلى الأبد، فإنها قد عرفت ذلك. كانت تعلم أنني سأذهب معه في الفجر لمحاربة الغزاة.

انتظرتني بجوار الموقد. عندما اقتربتُ، نظرتْ إلي نظرةً حزينة كانتْ قد نظرتْها قبل ذلك عندما لم يعد القتال مع الإسبان خبراً بعيداً.

كانت يداها القويتان تكثفان عجينة الذرة وتجعلانها متماسكة وتعطيانها شكلاً دائرياً. قالتْ لي: «كنتِ مع المحاربين».

كان صوتها يقول: لقد أخطأتِ، إنه ليس بمكان للنساء، لقد أثاروا في دمكِ الحماسة.

– قلتُ: «لقد جاءوا من بعيد. هم كاريبيون. قالوا علينا أن ننهض ونقاتل، وإلا فسينتهي كل شيء. سيقتلنا الأجانب لتبقى لهم الأراضي والبحيرات والذهب. سيدمرون ماضينا وآلهتنا. سيذهب الكثير منا غداً للقتال. سنُخرِج لهم ما نكنه من عداوات قديمة وسنشتبك بالرجال الشقر، كما أنني أريد الذهاب أيضاً».

1- معناها الحرفي بلغة الناواتل هو «التلال الفضية» وتطلق هذه التسمية على المناطق الشرقية من هندوراس ونيكاراغوا والتي ظل فيها الهنود الحمر غير المتحولين دينياً خارج السيطرة الإسبانية.

- قلتُ لكِ إنه لا مكان للنساء في المعركة. لقد استعد العالم بحكمة. سرتك مدفونة تحت رماد الموقد. هذا هو مكانك. هنا تكمن قوتك.

- قلتُ يارينثي، الرئيس، إنه سيأخذني.

- قالت والدتي: «نعم. رأيت كيف نظر إليكِ في الساحة، ورأيتك تنظرين إليه».

أنزلت عينَيّ. لم يخفَ شيء عن قلب أمي.

- قالت أمي: «إن مصير المرأة أن تتبع الرجل. إنها ليست لعنة. إنْ كان يحبك، عليه ترتيب أمور الحفل مع والدك وتقديم الأضاحي والحصول على مباركة القبيلة».

- نحن في حرب. لم يعد ذلك ممكناً الآن. علينا أن نغادر غداً في الفجر. يا أمي، لا تُلْحِقِي بي اللعنة. باركيني. -قلتُ ذلك وقد جثوتُ على ركبتيّ على الأرض-.

- لا تقودك إلا الغريزة. إيتشا، هل يمكن أن تعطيني المزيد من الأسباب كي ألعن الإسبان؟

- قلتُ مصححةً: «بقي أمامنا طريقان فقط يا أمي: إما أن نلعنهم أو أن نقاتلهم. يجب أن أرحل ليس فقط بسبب يارينثي. إنني أعرف كيفية استخدام القوس والسهم. لا أستطيع أن أتحمل هدوء الأيام الطويلة بانتظار ما هو قادم. أشعر في أعماقي أن قدري هو الرحيل».

أتذكر أنها مدّت يديها. كانت راحتا يديها بيضاوين من خلط عجين الذرة ومن تدوير الكعكة. لقد رفعتهما وخفضتهما مرة أخرى، ثم أحنت رأسها ممتنعةً عن مواصلة الحديث. لقد جعلتني أجثو على ركبتي وأدعو تاماغاستاد وثيبالتومال، خالقَيْنا، وكيوتي-تلالوك، إله المطر، الذين قد واظبتُ على عبادتهم.

ما زالت تبدو لي قوية كالبركان عند الفجر بتجاعيدها الناعمة القصيرة عند انعكاس الضوء عليها عند الباب في فجر ذلك اليوم الأخير من مغادرتي بينما كانت تودعني ويدها ممدودة: كانت إحدى يديها كغصن جاف ويائس.

كان تركها هو شكي الوحيد. أأتركها وهي من علمتني الحب.

***

رنَّ الهاتف.

- قالت لابينيا: «مرحباً. نعم؟ من المتصل؟»

- «لابينيا؟»

- قالت: «نعم. إنني لابينيا». لم تتعرف على صوت الطرف الآخر رغم أنه بدا مألوفاً على نحو غريب.

- «لابينيا. إنه أنا، سيباستيان».

أعادها الاسم فجأة إلى الفوضى على السرير. ما الذي يريده سيباستيان؟ ماذا يحدث؟

- «هل فيليبي معكِ؟»

أجابته بكلا وكأن شيئاً قد احتقن في صدرها. لم يكن فيليبي معها وقد خرج للعمل وترك لها ملاحظة.

- أجاب سيباستيان بصراحة تلقائية: «إلى العمل؟ في يوم السبت؟ لقد اتفقتُ معه على أن نرى بعضنا بعضاً لتناول الجعة منذ أكثر من ساعة!»

تساءلت لابينيا «هل جعل فيليبي سيباستيان ينتظر؟ هذا ما ظنته بينما جعلها الخوف مربكةً.

- أصرت لابينيا قائلة: «لقد أخبرني أنه ذاهب إلى العمل» دون أن تلاحظ محاولات الآخر لتمويه المحادثة، كان عقلها يسرع في تكوين الاستنتاجات المفزعة.

لم تستطع فهم ضحكة سيباستيان عبر الهاتف ولا تعليقه غير المتكامل على فيليبي، من يخطر بباله الذهاب إلى العمل اليوم. يكفي أن يعملوا أيام الأسبوع.

بدأت لابينيا تفهم أنه يجب عليها التظاهر بأنها محادَثة عادية، لكنها لم تستطع، فالكلمات لم تسترسل لديها.

بدا أن سيباستيان قد لاحظ ذلك أخيراً.

– قال لها: «لا تكوني هكذا. لنفعل شيئاً ما. إنني أتكلم من هاتف عمومي بالقرب من المستشفى المركزي. تعالي لاصطحابي وسنتحدث. سأكون في انتظارك بعد عشر دقائق». ثم أضاف ساخراً: «تذكري أنه لا يمكنني الوقوف تحت أشعة الشمس كثيراً».

كانت ساقا لابينيا ترتجفان عندما أغلقت سماعة الهاتف. ثمة صور غير منتظمة كانت تتضارب في بطنها وتصل صعوداً إلى عينيها كالضباب.

قالت لنفسها: «لا يجب أن أفكر دون أن أتمكن من رؤية الصحيفة وصور الجثث الممزقة. نهضت بسرعة وغيّرت الملابس المجعدة لليوم السابق». ثم قالت لنفسها «عليَّ أن أهدأ» وهي تمشط شعرها بالفرشاة وتلتقط حقيبتها والمفاتيح وتتوجه إلى السيارة.

كانت تشغل المحرك عندما استنفدت محاولاتها لتهدئة نفسها. حاول عقلها التشبث بحجج التأخير وبمتاعب النقل لإخراجها من الهم. تذكرت الفقرة المتعلقة بالالتزام بالمواعيد باعتبارها مبدأ لا يجوز انتهاكه في الاتصالات السرية. لقد قرأتها للتو في الإجراءات الأمنية: لا يمكن أن تتجاوز مدة الانتظار خمس عشرة دقيقة وكان سيباستيان قد انتظر ساعة.

انطلقت مسرعة في الشوارع المترامية الأطراف مساء السبت. كان الصوت الإيقاعي لصدرها هو الوحيد الذي يقطع صمت الخوف.

لمحت سيباستيان وهو يقف في الزاوية حاملاً صحيفة تحت ذراعه وقبعة سائق الشاحنة. كان يتحدث بهدوء مع بائعة فاكهة سمينة ترتدي صدرية بيضاء. كان الرصيف مليئاً بالمارة الذين يحملون الحزم والصناديق الخاصة بزيارات المرضى.

اقتربت بالسيارة من الرصيف ونادت: «سيباستيان»، إذ إن الضغط على بوق التنبيه في المركبة ممنوع.

رفع رأسه. ودع المرأة ودخل السيارة بتعبير جاد منزعج على وجهه.

– قال بعد أن استقر على المقعد: «لا تفعلي ذلك مرة أخرى أبداً».

– سألت لابينيا متفاجئة «ما الذي لا أفعله؟» ونسيت للحظة همها فيما يخص فيليبي.

– «أن تناديني بهذا الاسم في الشارع وعلناً. إنكِ لا تعرفين ما إن كان هذا اسمي في الحقيقة».

تذكّرت الكتيبات والأسماء المستعارة. إذن، سيباستيان لم يكن اسمه، بل كان اسماً مستعاراً. ربما فلور هو ليس اسم فلور وفيليبي لم يكن فيليبي... ربما تكتشف غداً في الصحيفة -الصورة- أن فيليبي كان يُدعى إيرنيستو أو خوسيه. كم إن كل شيء غريب بالنسبة لها! لا يمكنها أن تفلح في هذا المجال! كانت تفكر وحزنها يتزايد.

– قالت بتنازل «إنني آسفة. وهل فيليبي ليس اسمه أيضاً؟»

– قال سيباستيان: «فيليبي اسمه فيليبي. اسمه «قانوني»، إذاً هنالك أسماء «قانونية» و«سرية»، كما قد تعلمتِهِ للتو يا لابينيا.

سألت سيباستيان إذا كانت ستأخذه إلى منزلها. هز رأسه موافقاً، لكنه قد أبدا بعض القلق.

– سألت لابينيا: «وما الذي حدث برأيك؟».

– أجاب سيباستيان: «لا أعلم. لا أعلم. إنه غريب. فيليبي دقيق في مواعيده دائماً. حسناً، الالتزام بالمواعيد هو إحدى قواعدنا. للسبب نفسه، لا أعرف ما الذي حدث له. سنذهب إلى منزلك وننتظر ساعةً أخرى. إذا لم يظهر، سأخبرك حينئذٍ بما سنفعله». قال لها وهو يلمس ذراعها لطمأنتها: «حاولي أن تهدئي».

بينما كانت لابينيا تركز على القيادة بانتباه (إذ أخبرها سيباستيان: «علينا أن نتأكد من أن الشرطة لن توقفنا بسبب مخالفة مرورية») وكان سيباستيان يحاول ألا يجعلها تشعر بقلقه ولتبريد أعصابها، بدأ يتحدث بصوت هادئ.

أبلغها أنه من الضروري السيطرة على الخوف وعدم إطلاق العنان له. بهذه الطريقة، تمَكَّنَ من الصمود طوال سنوات العمل السري في الحركة. ينبغي على المرء أن يكون متفائلاً ومؤمناً ولديه أمل. ثم أضاف أنهم بذلك التفاؤل والإيمان والأمل يعيشون، إذ فهم أنها كانت مهمومة. لقد جرّب

الانتظار المؤلم. أخبرها أنه كان عليه أحياناً أن يختبئ وينتظر، دون حركة، من ينقله من جانبٍ إلى آخر متنكراً في زي هيبي، كزائر طبي. قال لها ليجعلها تضحك: «هل رأيت كم أبدو لطيفاً عندما أرتدي بعض الأزياء التنكرية» وأضاف أنه لا يقول لها أن لا تتضايق، بل أن تحافظ على رباطة جأشها. لا يمكن لأحد أن يتفادى المشاعر. إضافة إلى أنه من المهم، لا سيما بالنسبة لهم، أن لا يسمحوا لآلياتِ الدفاع أن تُفْقِدَهم إحساسَهم وتحولهم إلى كائنات ميكانيكية وباردة وتُقَسِّيهم. لا يمكن للمخاطر والموت أن تجعلهم مُحَصَّنين. فعلى الرغم من دفع ثمن باهظ للاحتفاظ بالإحساس، فإنه من الضروري عدم الابتعاد عن المشاعر اليومية، إذ سيكون بمنزلة الابتعاد عن الناس وعن القرية.

كانت لابينيا تستمع إليه بصمت. تحدَّث إليها سيباستيان كما لو كانت بالفعل «رفيقة». لم تكن رفيقة، فهي لا تريد أن تعاني. لم تُرِد أن يُقتل فيليبي. كانت تفكر أنه إذا حصل شيء لفيليبي، فستكرههم، ستكره فلور وسيباستيان والحركة برمتها لكونهم متوهمين بوهب حياتهم والتخلص منها كما لو لم تكن الحياة تعني شيئاً بالنسبة لهم.

كانوا يقتربون من المنزل. أخبرها سيباستيان أن تدور حول المنزل عدة مرات قبل الوقوف في المرأب. كان عليهما أن يتأكدا من عدم متابعة أحد لهما. اتبعت التعليمات. كانت تتأرجح بين التمرد الهائج والتضحية والرغبة في الشعور بأنها جزء منهم، مثلما حصل عندما كان سيباستيان جريحاً في منزلها. إنها الرغبة بالانتماء.

كانت طوال الطريق بين مد وجزر التناقضات. توسلت إلى قديسي عمتها إينيس أن تجد فيليبي عندما تفتح الباب. أغمضت عينيها في اللحظة التي كانت فيها تُدخِل المفتاح في القفل وهي تعتقد أنها ستراه عندما ستفتح الباب جالساً في ممر الحديقة، في ظل قمة شجرة البرتقال. لكن بوابة الحديقة كانت لا تزال مغلقة. كان الصمت يسود المنزل الذي كان على وضعه تماماً كما تركته ولم يتحرك فيه شيء. لم يكن أحد ينتظر عند ظل الشجرة.

لقد دخلا. طلبت من سيباستيان أن يجلس بينما ذهبت هي إلى الحمام.

لم تكن تريد أن يرى عينيها يغمرهما الدمع. كانت ترغب في تهدئة بكائها بالضغط على صدرها. كانت تشعر بالجنون وتريد أن تخرج إلى الشوارع للبحث عن فيليبي. فكرت أنه لولا وجود سيباستيان، لكانت ستجوب الشوارع وستذهب إلى كل مكان للبحث عنه.

خرجت من الحمام بعد أن غسلت وجهها بالماء ولم تسمح لنفسها بالبكاء معتقدة أنها إذا بدأت في البكاء فلن تتمكن من التوقف، كانت ستبكي دون توقف وذلك أمر مخجل رغم ما قاله سيباستيان في السيارة.

كانت تخشى أن ترافق الشتائمُ الدموعَ وأن تدينهم لدعوتهم الانتحارية. ذهبت إلى المطبخ متحججة بالعطش، بقدح ماء.

- سمعت سيباستيان يقول لها من غرفة المعيشة: «هل لكِ أن تعطيني أنا أيضاً قدحاً من الماء، من فضلك».

عادت لابينيا بالأقداح ووضعتها على الطاولة.

- قال: «اجلسي. عليك أن تبذلي جهداً وتهدئي. ربما لدى فيليبي مشكلة. لا يعني هذا التأخير أنه قد مات أو أنه قد أُلقِيَ القبض عليه».

هزت برأسها أنها توافقه الرأي، ثم جلست. كانت تفكر أنه ما من شيء لتفعله ولا أحد لتتصل به، ما من شخص لديه علاقات يمكنه الاستفسار منه عن مكان وجود فيليبي.

- قال سيباستيان: «يجب أن تحضري المذياع لنرى إن كان هناك خبر».

اعتقدت لابينيا أنه كان متوتراً أيضاً.

وضعا المذياع على المنضدة الوسطية. الإذاعة الوطنية -المحطة الإذاعية الرسمية، الإذاعة الخاصة بالبيانات عن الأعمال التخريبية- تبث برنامج جاز. لويس أرمسترونغ ينفخ في بوق الجاز ببراعة.

في الخارج، كانت السيارات تسير على الطريق المعبد من وقت لآخر وهي تكسر طوق الصمت الذي التزمه كلاهما بصوت مرورها في الوقت الذي كانا يستندان إلى الوسائد التي هي بمنزلة أريكة.

كانت لابينيا تفكر بالأصدقاء الذين يتمتعون بعلاقات. تذكرت أحدهم

بشكل خاص، أحد أصدقاء والديها. كان يرسل لهما في أعياد الميلاد من كل سنة هدايا باهظة الثمن وباذخة، أجهزة راديو صغيرة وأقلام حبر ذات ساعات. اعتقدت أنه يمكن لهذا الرجل أن يفعل شيئاً دون شك. إذ لديه أعمال تجارية مع الحكومة. هو صديق الجنرال الكبير. لكنها تساءلت «كيف نفعل ذلك؟» ذلك يعني الاتصال بوالديها وشرح الأمر لهما، لذلك استبعدته. ليس بمقدورها أن تشرح أي شيء لهما، إذ ستقول والدتها: «ينبغي عليها أن تدع هؤلاء الناس وشأنهم».

فكرت لابينيا «وخوليان؟ قد يعرف خوليان أحداً ما»، دون أن تكف عن الأمر. تربط فيليبي وخوليان علاقة احترام ومودة. فضلاً عن ذلك، كانت تشك في أن خوليان معهم في السر، فعندما زادت عمليات الخروج الغامضة لفيليبي بشكل كبير، ناداه إلى مكتبه.

قال لها فيليبي: «أحياناً يجعلني يائساً»، بينما كان يتحدث عن خوليان الذي كان يعرفه منذ فترة المراهقة. لقد تشاركا معاً مغامرة المرأة الأولى، حيث دخلا واحداً تلو الآخر إلى غرفة سيئة الإضاءة من غرف *مولين روج*، وهو بيت دعارة ذو أضواء حمراء وجدران غامضة عالية، وتتذكر لابينيا أنها قد نظرت إليه بفضول عندما كانت مارة من طريقه. حكى فيليبي بوضوح الرائحة داخل المكان والمرأة التي كانت تفتح نصف أزرار فستانها عندما دخل بعد خوليان. أخبرها فيليبي أنها كانت امرأة شابة جذابة بدت مستمتعة لرؤيته وهو يفك أزرار سرواله بتوتر، كما لو كانت تشعر بامتلاك سلطة قديمة وكانت تنظر إليه بوجه شخص يتطلع إلى طفل يقوم برسم أول الخطوط في دفتر الملاحظات المليء بالشخبطة. كان يتخيل النساء حزينات وذاويات في بيوت الدعارة، إلا أن تيرينثيا كانت تتمتع بابتسامة رائعة وأخبرته أنه في هذا العمل يجب أن يكون لدى الشخص حس الدعابة. بمجرد أن أصبح فوقها فعلياً، قذف على الفور تقريباً لمجرد فكرة أن يكون بين ساقي امرأة وهو يستشعر النفق الحار والرطب للمحيط الذي يحيط بعضوه الذكري مثل نسيج العنكبوت. ثمة يد غامضة قد وُلِدَت لتيرينثيا من بطنها، تذكر فيليبي أنه قد شعر بتوترها وبعدائيتها وهمهمتها بغضب خَفِيّ. أخبرته أنها دفعته وقالت له: «ها أنت تعرف كيف هو الأمر إذن، يمكنك أن تشعر الآن برجولتك»

واعترف فيليبي أنه حتى لو كانت طريقة الشعور بالرجولة حزينة، فإنه قد خرج هو وخوليان مسرورين بنفسيهما لتعلمهما الجرأة في بيت الدعارة.

ظنت لابينيا أنه بوسع خوليان أن يفعل شيئاً.

– قالت منحنية باتجاه سيباستيان الذي كان مشغولاً بالبحث عن الأخبار وهو يقلب ميل الاتصال اللاسلكي لجهاز الراديو: «لفيليبي صديق، رئيس المكتب، خوليان. ربما بوسعه الاستقصاء عن الأمر».

– قال وهو يُوَلّف الاتصال عائداً إلى لويس أرمسترونغ وإلى الإذاعة الوطنية: «من غير المناسب إثارة الشكوك وإثارة وكر الدبابير قبل الأوان... إنه أمر خطير... لا يوجد شيء في الأخبار. هذا الزنجي يعزف جيداً. إنه يعزف عزفاً جميلاً ببوقه». ثم سأل لابينيا ملتفتاً إليها: «هل تحبين الموسيقى؟».

– سأل سيباستيان: «ألم تشاهدي هذا الفيلم، وودستوك، في السينما؟»

– أجابت: «نعم. لقد شاهدته مع فيليبي».

– «أه! إذن كنتِ أنتِ... أخبرني فيليبي أنه رآه مع فتاة تعجبه. كان ذلك منذ شهرين تقريباً، أليس كذلك؟ كان يجب أن أتخيل أنه أنتِ. منذ متى أنتما معاً؟»

– أجابت لابينيا: «قبل إطلاق النار عليكَ بقليل».

– ابتسم سيباستيان قائلاً: «ها قد جاءت رصاصتي بفائدة، إنها بمنزلة تذكير، أليس كذلك؟» وهو يلامس ذراعه التي قد تماثلت بالفعل للشفاء. (كان يرتدي قميصاً ذا أكمام طويلة ليخفي الندبة).

– قالت لابينيا: «نعم. إنه كذلك. علاوةً على ذلك، بوسعي القول إن حياتي مقسومةً إلى مرحلتين: مرحلة ما قبل إطلاق النار عليكَ ومرحلة ما بعد إطلاق النار عليكَ».

– قال سيباستيان: «إنه لشرف لي، لكنني كنتُ مجرد فزع عابر».

– قالت لابينيا بإصرار: «كلا. لم يكن الأمر كذلك فقط. مذّاك وأنا أتساءل عن الحياة وأشك...».

– سأل سيباستيان: «حول ماذا؟»

– «لا أعلم... إنني مُرْبَكَة. أحياناً أكرهكم لشجاعتكم وأحياناً أود أن أكون مثلكم. بدا تافهاً ما اعتقدت أنه تمرد من قبلي. يبدو أن لديكم عزماً

كبيراً وأنكم واثقون جداً مما أنتم عليه ومن المصير الذي تذهبون إليه...، لكنني أخشى التورط. إنني لست كذلك».

– قال سيباستيان: «لا يصبح الشخص شخصاً من لا شيء. إنه يصنع نفسه. إنني أراكِ متورطةً» بابتسامة بدت لها ساخرة قليلاً، ثم واصل: «لا يهم إذا تمردتِ في بادئ الأمر على طريقتك الخاصة. إنها الخطوة الأولى بالنسبة للكثيرين. في فاغواس، لا يمكنكِ أن تستمري بإغلاق عينيكِ. مهما أردتِ أن لا تَرَي العنف، فإن العنف سيبحث عنك. لدى الجميع هنا جرعة ضَمَنَها حق الجنسية. قد يمارسون العنف مع شخص أو قد يمارس الشخص العنف أو، بكل الأحوال، إذا لم يفعلوا شيئاً لأحد، فسيفعلون شيئاً للآخرين... وهنا يأتي دور الوعي لأنه إذا سمح أحدٌ بفعل ذلك للآخرين، فسيصبح شريكاً، سواءً بشكل صريح أم غير صريح».

أنهى لويس أرمسترونغ عزفه المنفرد. امتدت النغمة الطويلة لتسود القاعة. ظنت لابينيا أنه كان على حق. كانت تشك إزاء أمرٍ واقع. إذ بالرغم من تفكيرها بمواصلة التناقش حول مشاركتها أو عدم مشاركتها، كان العنف قد وصل إلى باب دارها بخدمة التوصيل إلى المنازل، كهدية من الجنرال الكبير وفيليبي.

***

في زمن الحرب، لا أحد يعيش في مناطق متباعدة. ربما يتأخر الغزاة في وصولهم، لكنهم في النهاية يصلون. هذا ما قاله يارينثي وهذا ما كنا نقوله أينما ذهبنا. قلناه لأولئك الذين اعتقدوا أن عالمهم لن يُمسَّ أبداً. آه! لكن الكثيرين لم يستمعوا إلينا! سيباستيان يتحدث بحكمة. تخترق كلماته المقاومة الناهضة والجدران الضعيفة التي قامت هي ببنائها.

***

– قالت لابينيا: «زرت فلور أمس. أعطتني بعض المواد عن الحركة لأقرأها وقد قرأتها اليوم».

بدت المفاجأة على وجه سيباستيان. سألت نفسها عما إذا كانت ستجلب المشاكل لفلور.

– استفسر سيباستيان: «وهل هذه هي المرة الأولى التي تقرأين فيها مواد عن الحركة؟»

– أجابت لابينيا: «نعم».

قادتهما المحادثة حتماً إلى فيليبي وأغلقت الدائرة على فيليبي. لم يفهم سيباستيان أن فيليبي لم يجعلها تصل على الأقل إلى منشورات الحركة. كانت العودة إلى ضفة النهر حتمية.

فكرت لابينيا «حالياً، لا يهمني أن أكون دائماً ضفة النهر، ضفة النهر للمسافات البعيدة التي كان فيليبي يظهر فيها». حتى إنها بررت ذلك.

– قالت وهي تنظر إلى ساعتها: «أتفهم حاجته إلى مساحة حياة طبيعية».

مضت خمس وأربعون دقيقة. كان ذلك يكلفها القيام في كل مرة بالتركيز على شيء آخر أكبر غير عقارب الساعة التي لا تهدأ.

بدأ سيباستيان بالحديث عن بعض مشاكل رفاقه، لكنه توقف فجأة. رفع رأسه مثلما يرفع الحيوان أذنيه. لقد سمعت هي أيضاً خطى تقترب، إنها الخطى التي تعرفها تمام المعرفة عندما تنتظر سماعها في الليل، إنه صوت كعب حذاء يصطدم بالطريق المعبد. لم يتحركا حتى دخل المفتاح في القفل وظهر فيليبي في الغرفة سالماً وسليماً وهو يرمش لرؤية الضوء الذي تتعود عيناه عليه شيئاً فشيئاً.

نظر إلى سيباستيان ولابينيا دون أن يفهم شيئاً.

سأل فيليبي سيباستيان: «ما الذي تفعله هنا؟»

لقد رأى لابينيا كما لو أنها غير موجودة. لم تصدر أي صوت. كانت غير قادرة على استعادة وضعها الطبيعي جراء حضوره المفاجئ.

– قال سيباستيان منزعجاً بوضوح من لهجة فيليبي: «أتسألني عما أفعله هنا؟ عندما لم تحضر في وقت الموعد، انتظرتك ساعة، ثم اتصلت بك معتقداً أنك مع لابينيا ولم تكن موجوداً في أي مكان. ظننا أن شيئاً قد حصل لك!»

– قال فيليبي: «لكنني ذهبت إلى هذه النقطة في الوقت المحدد. كنت انتظرك أيضاً وكنت قلقاً أيضاً. قمت بالعديد من اللفات للعودة إلى هنا لأنني اعتقدت أن شيئاً ما حدث...»

تناقض الرجلان فيما بينهما وكان كل منهما يشير إلى الالتباس حول النقطة التي وجب أن يجتمعا فيها. قال فيليبي إنها ركن المتنزه بينما قال سيباستيان إنها مدخل المستشفى. أما لابينيا، فكانت غير مرئية، لقد اختفت وذابت في مزيج مشوش من الرغبة في الضحك والرغبة في البكاء.

التباس واحد قد غير الدنيا كلياً. هكذا كانت تلك الحياة على حافة الهاوية. ما إن التبس شخص ما واستغرق الأمر وقتاً أكثر من المعتاد حتى بدأت رائحة الموت بالتسلل مع كل نفس من الهواء. لكن فيليبي كان على قيد الحياة. لن تكون هناك صورة في الجريدة، بل كان الأمر مجرد التباس.

استمرا بالتجادل حول الملاحظة التي أرسلها سيباستيان مع الرفيق الذي جاء بالبريد.

- قال فيليبي: «إنني متأكد من أنك قد كتبتَ لي في ركن المتنزه. للأسف أنني قد أحرقت الورقة».

شيئاً فشيئاً، هدأ كلاهما ثم ضحكا في النهاية وعانقا بعضهما بعضاً وقالا في قرارة نفسيهما إنه لحسن الحظ كان مجرد خوف جيد. ثم قال سيباستيان لفيليبي: «انظر إلى حال لابينيا المسكينة، عانِقْها».

بعد ساعات، بينما كانت مستلقية -بهدوء- في زاوية ذراعي فيليبي، لم تستطع لابينيا النوم.

بعد الانتظار، بعد اتضاح نصف الالتباس (حيث لم يكن واضحاً مَنْ مِن الاثنين قد اختلط عليه الأمر وبدّل موازين الدنيا)، كان لا يزال على فيليبي الخروج ليأخذ سيباستيان. بقيت وحدها في المنزل وعندما رأت نفسها وحيدة ظنت أنها تخيلت عودة فيليبي. انتابها الذعر من جديد حتى عاد.

لقد مارسا الحب على نحو رقيق وبطيء بكت فيه لاحتمالية أن يلقى حتفه، لاحتمال فقدان هذا المخلوق الحسّي وتبادلهما القبلات واللسمات. بكت على نفسها وعلى ما كانت عليه قبل بضعة أشهر كفتاة لا يقلقها شيء، الأمر الذي قد راح بلا عودة وتركها بلا تركيز. أصبحت شخصيتها شخصية امرأة لم تجد هويتها ولا هدفها ولا أمنها بعد. بكت لعجزها إزاء الحب وإزاء معضلة العنف ومسؤولية عدم قدرتها على مواصلة التهرب من كونها مواطنة

كبقية المواطنين. ودون سابق إنذار، بينما كان جسداهما المتعرقان يستلقيان في الجو الهائج القريب من النهاية وفي أكثر لحظات المواجهة عنفاً، تنامت في داخلها الرغبة في إنجاب طفل. تمنته لأول مرة في حياتها بقوة اليأس، أرادت أن تُبْقِي فيليبي بداخلها لينمو ويكبر لأضعاف في دمها.

انتابتها السكينة، لكنها غير قادرة على أن تخلد للنوم. أثارت غريزة الحيوان التي استحوذت على عقلها رغماً عنها عرض صورة ذلك الطفل -الذي رأته بشكل واضح- التي ظهرت فجأة في مخيلتها. تساءلت: «لماذا؟» كانت الأمومة بالنسبة لها فكرة مؤجلة لمستقبل لم يُخطَّط له بدقة. مع الاتجاه الذي اتخذته حياتها الآن والذي لم تُحَدَّد خطوطه بعد، بدأ وجود الطفل يتقدم بخطواته مقترباً يوماً بعد يوم في عالم لا يمكن التنبؤ به. كان النهار والليل مناطق غير آمنة، حيث بات الاختفاء والموت احتماليين يوميين. في ظل هذا الوضع، لم يكن هناك خيار سوى جعل الأمنية تطول. لم يكن للطفل مكان في ظل انعدام الأمن هذا. كانت فكرة مجنونة. بما أنها تحب فيليبي، فلن يكون ذلك ممكناً. لا ينبغي حتى أن تفكر في الأمر. عليها أن تصرف النظر عن الفكرة مثلما فعلت الكثير من النساء الأخريات من قبل وسيفعلنها من بعد بالتأكيد. عليها أن تكف عن التفكير في المسألة لأن فيليبي شخصية تظهر وتختفي كومضات الضوء المتقطعة.

كانت بطنها تؤلمها. تحول الألم تدريجياً إلى احتدام، غضب مجهول يصدر عن صورة طفل لن يكون موجوداً أبداً.

فكرت «كم عدد الأطفال الذين يمشون عبر الأثير، المحرومين من الحياة بسبب هذه الضروريات؟ كم عددهم في أمريكا اللاتينية؟ كم عددهم في أنحاء العالم؟»

نظرت حولها محاولةً استعادة مبدأ الواقع. نام فيليبي بعمق. رسم ضوءُ القمر الذي تسلل عبر النافذة الظلال في الغرفة المظلمة. أما في الخارج، فكانت أغصان شجرة البرتقال تتمايل بفعل الرياح. لقد قرأت في مكان ما أن الرغبة في الولادة تتجلى بشكل أكثر قوة في أوقات الكوارث الطبيعية، عندما يكشّر الموت عن أنيابه.

فكرت أنه لا بد من حدوث ذلك لها، فمن غير المنطقي أن تخطر لها الفكرة في ظل هذه الظروف، مع ذلك فقد تراءت لها صورة الطفل مبتسماً. شعرت في داخلها بالغضب وبغريزة أحشائها التي أُطلِق العنان لها في هدوء الليل.

قالت لنفسها إن سيباستيان كان مُحِقّاً، فهي متورطة بالفعل. لماذا تخدع نفسها في صراعات داخلية طويلة حول ما إذا كان يجب عليها التحدث أم لا إلى فلور أو القيام ببساطة بإعادة الأوراق إليها كَمَن يعيد كتاباً قد قرأه إلى صاحبه؟ لم تستطع أن تتفادى الشعور بالسخرية من نفسها بسبب عدم يقينها وخوفها وخداعها الغريب لنفسها بأنه ما زال لديها حق الاختيار. الحقيقة أن صوت الموت قد امتطى صهوة لياليها وأن عنف الجنرالات الكبار قد اقتحم عالمهما كظل شرير مهول. لم يعد بإمكانها الهروب: لقد كانت بالفعل صاحبة جرعة الغضب الخاصة بها ومالكة نصيبها من العنف و«حقها بالجنسية»، كما قال سيباستيان.

قالت لنفسها إن الرحلة ستبدأ. تم رسم ضفة النهر في ضباب الأحلام ونامت بجانب فيليبي.

***

إننا نرفض الولادة.

بعد شهور من القتال العنيف، كان المحاربون يُقتَلون واحداً تلو الآخر. لقد رأينا قُرانا تُدمَّر وأراضينا تُسَلَّم لمالكين جدد وأهالينا يُجْبَرون على العمل كعبيد للمحتلين من أصحاب تشغيل الأهالي في المستعمرات الأمريكية - اللاتينية. رأينا الشباب من الصبية يُحْرَمون من أمهاتهم ويُرسلون إلى وظائف قسرية أو يُرسَلون إلى سفن لا يعودون منها أبداً. أما المحاربون، فيتم إلقاء القبض عليهم ويُخضِعونَهم لأقسى أنواع التعذيب: فإما تنهشهم الكلاب وتمزقهم إرباً أو يموتون ممزقين باستخدام الخيول.

لقد فرّ رجال من معسكراتنا. اختفوا خلسة في الظلام وخضعوا إلى الأبد لقدرهم بأن يصبحوا عبيداً.

أحرق الإسبان معابدنا وأشعلوا نيراناً كبيرة التهم لهيبُها المخطوطات المقدسة لتاريخنا: أضحى تراثنا شبكة ممزقة.

كان علينا أن نتراجع إلى أراضي الغابات العميقة والعالية والمكتظة بالأشجار في الشمال، إلى الكهوف على سفوح البراكين. كنا نجوب هناك تلك المناطق بحثاً عن رجال يريدون الكفاح ونحضر الرماح ونصنع السهام والأقواس ونستعيد قوانا لننطلق مجدداً للقتال.

تلقيتُ أخباراً من نساء تاغوثغالب[1]. لقد قررن عدم النوم مع رجالهن بعد الآن. لم يرغبن في إنجاب عبيد للإسبان.

كان القمر في تلك الليلة بدراً. إنها ليلة حَمْل. شعرتُ بذلك في حرارة بطني وفي نعومة بشرتي وفي الرغبة العميقة ليارينثي.

عاد من الصيد يحمل معه إغوانا كبيرة بلون الأوراق الجافة. كانت النار مشتعلة والكهف مضاء باللون الأحمر للنيران. اقترب بعد الأكل وداعب جانب وركي. رأيتُ الحرارة في عينيه اللتين عكستا ألسنة اللهب.

رفعتُ يده من جانبي وانزلقت أبعد باتجاه داخل الكهف. جاءني يارينثي معتقداً أن الأمر هو لعبة لإثارة رغبته بشكل أكبر. قبلني وهو يعلم كيف كانت تُثْمِلُني قبلاته الندية على شفتَيّ.

لقد قبّلْتُه. تراءت لي في داخلي صور مياه البرك ومناظر رقيقة وأحلام أكثر من ليلة واحدة: طفل محارب ومتمرد لا يخنع، يكون امتداداً لنا في الحياة ويشبهنا ويكون كطعم تُطَعَّمُ به شجرتي ثم يحظى بأكثر نظراتنا حلاوةً.

ابتعدْتُ قبل أن تهزمني شفتاه.

قلتُ: «كلا، يارينثي، كلا». ثم قلتُ «كلا» مرة أخرى وقلتُ ما قالته نساءُ تاغوثغالبا من قبيلتي: لا نريد أبناءً ليخدموا كعبيد في مؤسسات المحتلين ولا نريد أبناءً للبناء ولا للمراكب، لا نريد أبناءً يموتون ممزقين إرباً باستخدام الكلاب إذا كانوا شجعاناً ومحاربين.

نظر إليَّ بعينين يملأهما الجنون ورجع إلى الوراء. نظر إلي، ثم غادر الكهف وهو ينظر إلي كما لو أنه قد رأى شبحاً مخيفاً، ثم ركض إلى

1- معناها الحرفي بلغة الناواتل هو «التلا الفضية» وتطلق هذه التسمية على المناطق الشرقية من هندوراس ونيكاراغوا والتي ظل فيها الهنود الحمر غير المتحولين دينياً خارج السيطرة الإسبانية.

الخارج وساد الصمت. ما كان يُسْمَع هو فقط فرقعة الأغصان في النار وهي تموت محترقة.

في وقت لاحق، سمعت عواء الذئب الذي يعود لرَجُلي.

ثم عاد بعدها مخدوشاً بالأشواك.

في تلك الليلة بكينا ونحن نعانق بعضنا بعضاً ونحتوي رغبة جسدينا التي يكتنفها حزنٌ كبير.

لقد حرمنا أنفسنا من الحياة ومن أن يكون لنا امتداد فيها ومن إنبات البذور.

كم تؤلمني أرض الجذور بمجرد تذكرها!

لا أعلم إن كانت السماء تمطر أم أنني أبكي.

- 10 -

كانت تمطر في فاغواس، حيث بدأ موسم الأمطار. إنه شتاء المناطق المدارية. كان الأسبوع يقترب من نهايته. أجلت لابينيا منذ يوم الأحد تنفيذ قرارها بعرض خدماتها على فلور.

جلست أمام مكتبها ونظرت إلى النافذة المبللة بالمطر وإلى انزلاق قطرات المطر وهي تشكل أنهاراً صغيرة يدفع بعضها بعضاً مكونة شلالات على الزجاج. في الشتاء، تصبح السماء عند المساء ملبدة بالغيوم السوداء وتطلق العنان لفيضانات الغضب الرطب. تُرِكَت الأرض للعواصف تفعل بها ما تشاء. كانت تنبعث من الأرض رائحة نفاذة تعلن عن الولادة. أطلق المشهد خضاراً واسع النطاق وهزت الأشجار قممها السميكة وأغصانها الرطبة. لقد كان وقت عربدة العصافير، وقت التيارات الدافعة للمياه التي فقدت المدينة بسببها ملامحها المعتادة وتعايشت مع الطين والنمل المجنح وفتحات تسريب الماء. كان كبار السن يتذمرون من روماتزم عظامهم الرطبة وكانت الأَسِرَّة باردة عند الصباح والملاءات باردة جداً، أما مكان الأجساد فكان دافئاً.

فكرت لابينيا أنه يمكن الاعتقاد أننا قد عدنا إلى بداية العالم وأن الديناصورات ستظهر عما قريب وهي تسلي نفسها بتأمل مساحات الخضار المتقطع للمنظر الطبيعي.

بداية العالم والديناصورات والعالم يدور والمدارات والعصور المتتالية والرجل والمرأة يصنعان الحكايات.

اعتقدت أنه لن يكون بوسعها الاستمرار في تسويف الموضوع. كان الأمر

أكثر هماً. لقد أثر على عملها وقلل قدرتها على التركيز. لا شيء أسوأ من التردد. كان ذلك يوم الخميس. لقد أعطتها فلور رقم هاتفها في المستشفى. اتصلت بها واتفقتا على الالتقاء بعد العمل. في المساء، عندما دقت الساعة البعيدة للكاتدرائية مشيرة إلى الخامسة، أخذت حقيبتها وخرجت لأداء الطقس الأخير.

نظرت من الربوة وهي غارقة في التل الضبابي لطفولتها والمحاط بالضباب والرذاذ إلى الصورة الخيالية البيضاء الفاتحة للمدينة وبحيراتها وبراكينها. وقفت هناك بمفردها واستبعدت أي رجوع إلى الوراء، ثم استنشقت بملء رئتيها الهواء الرطب والبارد للجبل وتطلعت إلى هدوء المنظر الطبيعي الذي اكتسب من جديد اللون الأخضر. ارتأت ذلك الخميس الرفض بلا تأثر وأخيراً وبعد أن هدّأتها السماء الملبدة بالغيوم بطعم باطن الدنيا، عبرت الجسر الذي أدى بها إلى الكرسي الهزاز الذي تتأرجح عليه الآن وهي تسمع الأوراق المبتلة في صوت فلور. تحدثت بهدوء. كانت تبدو متعبة وهالات التعب الكبيرة تحيط بعينيها. قالت إن العمل في المستشفى مرهق. كان هناك الكثير من الأشخاص الذين يطلبون العناية في الوقت الذي كان فيه عدد الموظفين محدوداً جداً.

كانت فلور توحي لها بالاحترام وكان فيليبي يعتبرها صلبة. أخبرها أن سيباستيان حكى له تجربته معها فقارن نفسه بصياد يطمِس الصنارة داخل محارة لاستخراج اللؤلؤة المحفوظة داخلها. بينما كانت تنظر إليها، تخيلت لابينيا عرق اللؤلؤ داخل المحارة. فكرت لا بد أنه لم يكن من السهل بالنسبة لها أن يحبها خالها بشغف مماثل لشغف لويس كارول تجاه أليثيا. لقد ترك فيها ندبات وشكوكاً. بالنسبة لها، لا تبدو فلور صلبة، على الرغم من أنها كانت تحيط نفسها بهالة مغلقة من القوة الخاصة بالأشخاص الذين قد عانوا والذين يعرفون بقابليتهم للتأثر. لكن لابينيا شعرت برقتها من خلال الطريقة التي تحدثت بها إليها بينما كانت تحاول عدم إخافتها وتخبرها بأنها ستعلّمها الأمور شيئاً فشيئاً. أولاً، كان على لابينيا أن تقرأ المزيد. قالت لها من غير الممكن أن تكون القناعات عمياء أو ضعيفة وأرادتها أن تفهم وأن تكون مدركة لسبب الاحتمالات - تلك التي سمتها لابينيا أحلام البرنامج. قالت

فلور إنه عليها أن تكون قادرة على التعامل مع الأدوات لفهم العالم بطريقة مختلفة وأن تحل رموز الحقائق التي كانت تحيط بها منذ الأزل وأن تدرك أن بعض حقائق العالم خداعة وتفهم الطريقة التي انكشفت بها تلك الحقائق بشكل إيجابي أم سلبي حسب المصالح المختلفة.

ثم انتقلتا للحديث بعد ذلك عن التفاصيل العملية. أخبرتها فلور أن تحتفظ بكتيّب إجراءات السلامة.

أضافت قائلةً: «عليك الآن أن تتعلميه عن ظهر قلب كدرس المدرسة. في البداية، ستبدو الأمور مبالغاً فيها، حيطة شديدة وغريبة، لكنها ضرورية، ليس من أجل سلامتك الشخصية فقط، بل لسلامة الجميع. إبدأي اليوم وقتك باستبدال الـ «أنا» بـ «نحن». يجب أن تحرصي خصوصاً على سلامة رفاقك السريين، مثل سيباستيان، على سبيل المثال وأن لا تتحدثي مع أي شخص عن أنشطتك، لا تتحدثي على الإطلاق مع أحد لا يمت بصلة إليك من خلال عمل المنظمة.

– سألت لابينيا: «ومع فيليبي؟»

– قالت فلور: «ولا حتى مع فيليبي».

– قالت لابينيا: «أفضل. إنني لم أرغب أن يعلم بقراري».

– قالت فلور: «إعلامه بشأن ارتباطك من عدمه هو أمر يخصك. لكن، ذلك هو كل ما تحتاجين معرفته. إنْ كنتِ تريدين ذلك، بوسعكِ إخباره».

– قالت لابينيا: «لا أريد أن أخبره».

ابتسمت فلور.

– والآن علينا أن نخصص لك اسماً مستعاراً، ما الاسم الذي تودين أن نسميكِ به؟»

– قالت لابينيا مرتين دون تفكير: «إينيس».

– قالت فلور: «أحياناً نقوم بتخصيص أسماء مستعارة أخرى لأعمال محددة وأنت تعلمين أن الأمر هو بيننا فقط أو لما سيتم إخبارك به. لا تذكريه أبداً بشكل علني».

رَوَت لابينيا لفلور طرفة مناداة سيباستيان بصوت مرتفع في الشارع.

قالت: «شعرت بنفسي بلهاء جداً».

قالت فلور: «ها قد تعودتِ. إنها مسالة تعلُّم. بمرور الوقت، ستتيقظ الحواس. يعمل الأدرينالين بشكل أفضل من العديد من الهرمونات بالنسبة لنا وترين أنه، على الرغم من كل شيء، تُرْتَكَبُ في بعض الأحيان أخطاء كالخطأ الذي حدث يوم السبت مع سيباستيان وفيليبي، علماً بأن كلاً منهما لديه خبرة».

استمرت فلور بالحديث والشرح. سُمِعَ صوت الريح وهي تلامس نبات عطر الليل المتسلق الذي لم يكن يُرى من نافذة غرفة المعيشة. كان بوب ديلان يراقبهما وهو غارق في التفكير. هب هواء المطر. أضيئت السماء بومضات من البرق البعيد. شعرت لابينيا بإرهاق فلور التي ظلت صامتة.

قالت لابينيا: «إنكِ متعبة».

قالت فلور وهي تُبعِد خصلات شعرها عن وجهها: «نعم».

قبل أن تودعها إلى الباب، التفتت فلور وعانقتها.

قالت لها مبتسمة وقد انعكس الضوء الصافي للبرق البعيد عليها: «مرحباً بكِ في النادي، إينيس».

***

أشعر بدم لابينيا ويجتاحني امتلاء نسغ الشتاء والأمطار الأخيرة. لقد خُلِقْتُ على نحو غريب. إنني لست أنا. إنها ليست أنا التي عدتُ إلى الحياة. لم أتملكها كما تقوم به الأرواحُ التي كانت تفزِع أسلافي. كلا لم أتملكها. لكننا قد تعايشنا بالدم وبلغة قصتها التي هي قصتي أيضاً والتي بدأت تشدو في شرايينها.

لا تزال خائفة. ما زلت أرى في الليل الألوان الزاهية لخوفها التي كانت تعيشها. كانت صور الموت تلاحقها، لكنها الآن قد انتمت وهي تقف على أرض صلبة بدأت جذورها بالنمو. لم تعد تتأرجح مثل اللهب في الزيت. من الصعب تجاوز رماد الموقد، فالأيدي تقوم بإضرام النار وبطحن الذرة وبإعداد حقيبة المحاربين.

في البداية، أراد يارينثي أن أبقى في المخيم في انتظارهم. تمكنت من تجنب الأمر باستخدام حيلة ضعفي. قلت «ماذا لو جاء الإسبان؟ ماذا سيحل بي؟ ما الذي لا يمكن أن يحدث لي بينما أكون وحدي في الانتظار الطويل؟»

كنت أفضلُ الموت في القتال على أن يغتصبني الرجال الحديديون أو ان تمزقني النمور الأمريكية إلى أشلاء.

لقد أقنعتهم. تمكنت من أن أحظى بتعييني لتشكيل مكان محمي يتم من عنده إطلاق السهام المسمومة.

كنت دقيقة في التنشين. في النهاية، خصصوا لي وظيفة في المعارك على الرغم من أنني كنت أقوم بعدها بالطهي والطعام وعلاج الجرحى أيضاً. عندما انسحبنا إلى كهوف الشمال لاستعادة قوتنا ولمواصلة القتال -كان العديد من زعماء القبائل يستسلمون بالفعل إلى الغزاة، مطأطئين رؤوسهم مثل قصب النهر في تيار الماء الجارف-، أرسلني يارينثي إلى المناطق للدخول إلى المنازل والتحدث مع الرجال وحثهم على القتال. قال لي: «لا تجلبي النساء». لقد أمرني بذلك رغم أنني كنت أستشيطُ غضباً. قال إنه كان من الصعب على الرجال القتال وهم يفكرون في المرأة وصدرها معرّض لعصي النار. لم أفكر بذلك من قبل. لم يخبرني قط أنه يخاف عليّ في المعركة. لقد أثّر فيّ علمي بقلقه، فَلَم ألحّ أكثر من ذلك.

مع ذلك، كانت مهمتي فاشلة، إذ لم يثق الرجال بي. بالكاد تمكنت من الحصول على الذرة لأكل تورتيلا ذات مرة.

تجمعت النساء من حولي. لقد استمعن إلى قصصي. أردن أن يعرفن عن الحرب مع الإسبان. مع ذلك، لم تسأل أي منهن عما إذا كان بإمكانها الانضمام إلينا. أعتقدُ أنه لم يخطر ببالهن أن ذلك ممكن. بالنسبة لهن، كنتُ ساحرة شريرة، عرّافة.

تحدثتُ إليهن عن قرار العديد من نساء القبائل حول عدم إنجاب الأطفال كي لا يكونوا عبيداً للإسبان. كانت أعينهن تنظر إلى الأرض. ضحكت الشابات وهن يعتقدن أنها كانت تهذي.

كانت تلك الأوقات صعبة. كنت أعود إلى الكهوف حزينةً. حتى إنني

اعتقدت أنني مخلوقة من مادة غريبة لم تأتِ من الذرة. أو ربما تكون والدتي قد عانت من سحر عندما حملتني بين أحشائها، كما قالت لي. ربما أنني رجل بجسد امرأة أو ربما كنتُ نصف رجل ونصف امرأة.

ضحك يارينثي وهو يستمع إلي. مسك بثدَيّ وتفحّص عضوي التناسلي وقال «إنكِ امرأة، أنتِ امرأة: أنتِ امرأة شجاعة».

***

بدأت العاصفة عندما كانت لابينيا تسوق في طريقها إلى المنزل. عاصفة كهربائية ذات أسواط بيضاء تشق السماء. كانت الرياح تهز الأشجار والليل يكسوه الغبار وأوراق الأشجار. رأت بعض الأشخاص يركضون بحثاً عن ملجأ من المطر الوشيك. أما هي، فعلى النقيض، إذ بعد أن وضعت قرارها حيز التنفيذ بالتحدث إلى فلور، قادت السيارة بهدوء غريب لا يمت بصلة للظواهر الكهربائية. تساقط المطر على السيارة: قطرات مفردة سميكة، كانت خفيفة في البداية، ثم ما لبثت أن ترامت بقوة كما تسقط الحجارة على سقف من الصفيح.

بينما كانت بمفردها داخل المركبة، فكرت باطمئنانها وبالسكينة بعد العاصفة والنقطة النهائية للشكوك وتقبُّل قرارها الشخصي وفكرت في النهاية في نتيجة مضي أسابيع الشك. إذا لم تشعر بالقدرة فيما بعد، فلن يكون أمامها سوى الاعتراف بذلك والقول إنها قد أخطأت، فلكل الناس الحق في ارتكاب الأخطاء.

تساءلت «كيف ستغير حياتها الآن؟ ما الذي سيحدث». كان من الصعب تخيل ذلك. لم يكن بوسعها أن تتشارك التكهنات حول ما سيحدث مع أحد من معارفها. كانت وحيدة. لم تستطع أن تُربِكَ فلور بأسئلتها. كما لم تكن قادرة على أن تفعل ذلك مع سيباستيان. لم يكن بوسعها أن تسيء استخدام علاقتها بهم ولا أن تعطيهم انطباعاً بالسذاجة والتردد. كان الأمر نوعاً من المجهول الذي كان عليها معرفته بوضوح بدون رفقة. تساءلت «هل ستقاوم الميل لإخبار فيليبي بالأمر» كانت تود أن يعلم بالأمر أن تجعله يشعر على غير ما يرام لعدم كونه مَن جعلها تنتمي ولعدم تفكيره بقدرتها على هذا

الانتماء. قالت فلور «لا تحولي الأمر إلى نوع من الانتقام»، أما لابينيا فَنَفَت أن يكون ذلك هو سبب عدم قول أي شيء لفيليبي، لكن ثمة شيء من ذلك صحيح. لم تستطع أن تخدع نفسها. حتى إنها كانت ترغب في قرارة نفسها أن يقوم فلور وسيباستيان بإخباره بالأمر، كي يجعلاه يخجل من نفسه.

في رأيها، لا يفترض بالرجال الذين يمارسون مهنة الثوار أن يتصرفوا على هذا النحو. هل كان تشي جيفارا سيتصرف على هذا النحو؟ قالت فلور إن تشي قد كتب أن النساء مثاليات كطهاة وكسعاة بريد في الحرب. على الرغم من أنه ذهب في وقت لاحق إلى بوليفيا مع مقاتلة تدعى تانيا. قالت فلور «لقد بدّل رأيه». تساءلَتْ «من قد تكون تانيا؟ هل أحبها تشي؟» بينما كانت تستدير عند المنعطف وهي تجتاز زخّات المطر والشوارع التي اجتاحتها فجأة تياراتُ الماء الجارفة والطينية. توجب عليها السير ببطء كي لا تُحْدِثَ عند مرورها بالسيارة موجاتٍ كبيرة في الأركان وتخاطر بتبليل المحرك وبتعطّل السيارة.

من كان يهتم بالحياة العاطفية لتشي؟ لم يتوقف التاريخ عند تلك التفاصيل ولم يهتم بالحياة العاطفية للأبطال. التساؤل عن الحب هو من شأن النساء دوماً. بينما كانت تشاهد سيارتَيْ أجرة قديمتين تتعثران على وشك التعطل في وسط الشارع، كانت تفكر «لماذا يرى الرجال الاعتراف بالحاجة والأهمية التاريخية للحب أمراً صعباً؟» حاول السائقون دفع السيارتين وإخراجهما من الوحل. انقلبت المدينة رأساً على عقب جراء المياه.

سيعترف فيليبي في الوقت المناسب أنه كان مخطئاً بشأنها وأنه قد تصرف بأنانية. كانت معجبة بذكائه وبصدقه. لم تستطع إنكار جهوده للتغلب على مقاومته الذكورية بإغداقها بالحب، حتى لو وضع تلك النزعة الذكورية في خانة التقليد. كان يتسم بمظهر شخص ذي روحٍ مرحة وسعيدة وكانت تحب هذا الجانب اللطيف والواضح فيه. كان يحزنها أن تراه سجين أنماط وسلوكيات متنافرة تتعارض مع التطور المكتسب في مجالات أخرى من حياته. لن يسؤها تعلم الدرس. كان من دواعي سرورها أن تعرف أنها تمتلك سراً، شيئاً لا يمكنه اختراقه ما لم تسمح هي له بذلك.

لكنها لم ترغب بالمزيد من التفكير فيه. كررت قائلة إنها لم تفعل ما فعلته من أجل فيليبي بينما كانت تشاهد أشجار البلوط تنحني تحت المطر في حَيِّها. لم تفعل ذلك لفيليبي، فذلك بلدها هي أيضاً. لقد حلمت أيضاً بأن يكون بلدها مختلفاً. كانت تحب تَفَتُّحَ أزهاره والسحب البيضاء المستديرة والمطر الخفيف. كانت فاغواس تستحق حظاً أفضل.

عاودت التكرار مع نفسها قائلة كلا، لم يكن فقط من أجل فيليبي في الوقت الذي وصلت فيه وأوقفت سيارتها في المرأب وركضت حاملة مظلتها البنفسجية تحت المطر وصولاً إلى الباب.

– قال لها فيليبي في ممر الباحة: «لماذا تصمتين؟». كان قد وصل بدقائق قليلة بعد عودتها وقد وجدها صامتة وغارقة في التفكير، في الأرجوحة الشبكية. جلس على كرسي الخوص الأبيض أمامها وهو ينظر إليها ويلعب بلا مبالاة بأوراق شجرة البرتقال القريبة التي تنشر أغصانها الخضراء والفضية المتلألئة بفضل تجمع المطر على تلك الأوراق.

– أجابت: «لا أعلم. أعتقد أنني متعبة». كانت مرهقة ولا تزال متوترة. كانت ترى فيليبي بعيداً، خلف قبة زجاجية.

– قال لها: «منذ فترة وحتى الآن وأنا ألاحظ أنكِ شاردة الذهن للغاية: تبدين كأنكِ مغيَّبة وعقلك سارح بعيد. عليكِ أن تخبريني على الأقل ما الذي حصل لكِ. ربما أستطيع مساعدتكِ».

– قالت: «لا أعتقد أن الأمر يتعلق بتقديم المساعدة لي». شعرت أنها كانت تفضل أن تكون بمفردها وأن تبقى وحدها وتتعود على فكرة تسميتها بإينيس وتفكر فيما إذا كانت قد اتخذت القرار الصحيح.

– قال لها: «من الجيد دائماً أن يتواصل المرء مع إنسان آخر عندما يمر بأزمة».

– سألته على نحو دفاعي وهي متكئة على الأرجوحة الشبكية: «لماذا تعتقد أنني أمر بأزمة؟ لقد أزعجها موقف فيليبي المعتد بنفسه والأبوي.

– قال لها: «تبدين نمراً. إنني لا أتهمكِ بأي شيء، فكلنا نعاني من أزمات».

- قالت له: «من الصعب بالنسبة لي أن أظن أن لديكَ أيّاً من تلك الأزمات. إنكَ تعطي انطباعاً كأنكَ تعرف كل شيء منذ ولادتك»، وقد أخذت ورقةً من شجرة البرتقال وقضمتها حتى شعرت بمرارة الورقة والنكهة الحمضية والرائحة المنبعثة من عروق الورقة.

- قال: لا تكوني ظالمة... لقد كنتِ معي في عدة أزمات... منها عندما كان سيباستيان، عندما قتلوا الرفاق».

- قالت: «هذا بالضبط ما أعنيه: إنكَ تمر بالأزمة عندما تحدث أشياء خارج نطاقكَ، أما ما يتعلق بمشاعركَ، فيبدو أن كل شيء تحت السيطرة».

- قال وهو ينظر إليها بثبات: «الأمر هو أنني أجيد المداراة، لكنني لا أستطيع أن أؤكد لكِ أن لدي صراعاتي الداخلية وكثيراً ما أتمنى أن أكون أكثر تواصلاً مع الآخرين وأشارك نقاط ضعفي».

- قالت لابينيا: «المشكلة هي أنه ما يظهر على السطح مع هذا التدريب هو جو من الاكتفاء الذاتي يبعدنا بعضنا عن بعض. من الصعب جداً الارتباط بأشخاص مثاليين... أو بأشخاص يتصورون أنهم كذلك».

اقترب فيليبي وانحنى باتجاهها. ابتسم وداعب يدها.

- لكنك تعلمين أنني غير مثالي ولي عيوبي، أليس كذلك؟

- قالت: «لا يوجد شخص كامل لا عيب فيه وهذا ما أزعجني بالضبط. يزعجني هذا التظاهر بأنك دائماً متأكد من كل شيء ولا تبدو أنك تتردد أبداً، فلطالما تسدي إلي نصائحَ لم أطلبها قط» وكانت متجهمة. شعرت بالحاجة إلى التشكّي منه وإلى مضايقته. كانت تُخْرِجُ بطريقة ما ذلك الاستياء والغضب من عدم قدرتها على تشارك وضعها والنقلة النوعية في حياتها معه.

- قال فيليبي: «يمكن أن يكون قد حصل ما قلتِ. ربما لأنه كان علي دائماً أن أثبت وجودي وأفرض على الآخرين الاعتراف بما لي. ربما يكون ذلك أيضاً نتيجة تعودي على الاحتفاظ بسرية الكثير من الأشياء».

- فيليبي، على المرء ألا يعتد بنفسه في الحياة ويفترضُ أنكَ تعرف ذلك أفضل مني. يلعب الآخرون دوراً مهماً للغاية ويتركون تأثيرهم على المرء وثمة نماذج نحذو حذوهم.

- حسناً، صحيح أن للمرء أشخاصاً ينتهج نهجهم. بالمحصلة وكما قمتِ بالإشارة إليهِ بشكل جيد، إننا كائنات تعيش في مجتمع، أي أن ما أقصده هو أن الأزمات في حياتي هي أحداث أكثر مما هي تأملات وتفكير. لم تتح لي فرصة كبيرة للتأمل في الوجود. كان عليّ حل المشكلات التي تطرأ بطريقتي... وكانت بالأحرى مشاكل عملية.

- لكن ألم تسأل نفسكَ قط أو ألم تساورك مخاوف بشأن نفسكَ، بشأن ما تريده ومن أنتَ وما الذي تقوم به في الحياة؟

ظل فيليبي صامتاً. كانت لابينيا تراه وهو يبذل قصارى جهده للتذكر وللبحث في ذاكرته عن الأسئلة.

- قال أخيراً: «في الحقيقة، كلا». بدأ الواقع بفرض إجاباتٍ دون الحاجة إلى سؤالها. «إنني أعلم من أكون وأعرف أنني أريد أن أدرس ثم أدركت بتأثير من أوتي أنه يجب علي العودة والنضال من أجل تحسين الوضع في البلد... وهذا ما أحاول فعله في الحياة. لم يكن الأمر قط معقداً بالنسبة لي».

فكرت لابينيا «من الجائز أن ذلك يحصل لي فقط لأن لدي خيارات وبوسعي أن أختار».

- قالت له: «لكنه كان بإمكانكَ البقاء في ألمانيا». ألم تكن لديكَ شكوك حول ما إذا كان الأمر يستحق عناء العودة وحول جدوى القتال لتحسين الوضع في البلد؟ ألا يبدو هذا الأمر فكرة رومانسية خيالية؟ سألته ذلك باستفزاز.

- كانت الحياة في ألمانيا فظيعة بالنسبة لي. مع كل ما أتميز به ناهيك عن دراستي في الهندسة المعمارية، كان عليّ أن أعمل بستانياً. في تلك البلدان، كانت المنافسة على العمل قوية للغاية. الشيء الوحيد الذي كان من شأنه أن يجعلني أبقى هو علاقتي بأوتي، لكنها كانت مقتنعة بأنه من الأهم أن أعود إلى بلدي للعمل وللقيام بشيء ما. تعرَّفْتُ إلى رفاق من الحركة هناك. كانوا مسافرين عابرين وطلبوا الدعم والمال والاتصالات السياسية لنشر النضال. شاركتهم وجهات نظرهم. لم يكن صعباً أن أقتنع بالحركة. لقد عرفت من تجربتي الخاصة مدى سوء وضع البلد. لا أعرف إذا ما كان

الأمر سيبدو لكِ رومانسياً، لكن أحد الأسباب الأكثر إقناعاً لهذا القتال هو نوع من الإيمان يتأصّل في المرء. عند قراءة تاريخ نضال فاغواس، يشعر المرء بالطاقة المتراكمة وبالقدرة على المقاومة. فيقتنع المرء بوجود ذلك النضال وبأن المسألة تكمن في إيقاظه وفي قيادته بالشكل الصحيح.

– ألا تراه شبه مستحيل؟

– كلا. أرى أنه صعب ولكنه ليس مستحيلاً. إنني مقتنع تماماً بأن ما نقوم به هو الشيء الصحيح الذي ينبغي القيام به وما من سبيل آخر.

– بالنسبة لي، السخاء ليس من طبيعة البشر. كيف بوسعكَ أن تهب نفسكَ بهذه الدرجة من نكران الذات للقتال؟ ألم تفكر بنفسكَ قط؟

– كلا، لأنه ينبغي تقبُّل أن اندفاع المرء ليس فقط وليد إدراكه لعدالة المعركة، بل وليد قناعاته الشخصية. على سبيل المثال، ما ذكرتِه حول ما يفعله المرء في حياته. فالمرء يعلم أنه لا يستخدم كل طاقاته كي يحظى في يوم ما بالعيش في منزل وتكون له سيارة وعمل جيد وزوجة جميلة ويفكر «وماذا الآن؟». أعتقد أن مجرد حقيقة الوجود تنطوي على مسؤولية تجاه المستقبل وتجاه أولئك الذين سيكونون موجودين من بعدنا. إذا كنا قادرين على بناء طائرات وغواصات وأقمار صناعية فضائية، فعلينا أن نكون قادرين على تحويل العالم من حولنا على نحو نتمكن فيه جميعاً من العيش بكرامة على الأقل. يكاد يكون من غير المعقول أن يكون هنالك أناسٌ يتضورون جوعاً في عصر التكنولوجيا هذا، أناسٌ لم يرَهُم طبيبٌ قط.

– لكن، تعجبك فكرة أن تعيش حياةً طبيعيةً، أليس كذلك؟، ثم قالت على نحو قاطع «لا تقل لي ما حصل ذلك اليوم عندما حسدت الناس العاديين الذين ليس لديهم أي اهتمام آخر في الحياة سوى الوصول إلى المنزل والجلوس لمشاهدة التلفزيون؟».

– نعم. أشعر أحياناً أن طريقة العيش بمغازلة الموت والتآمر غير طبيعية. لكنها كذلك في الواقع. لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك، إذ لا ينبغي أن نضطر للموت أو للمخاطرة بالموت لمجرد أننا نريد أن يختفي البؤس وأن لا يكون هنالك دكتاتوريون. من غير الطبيعي أن تكون هنالك مثل هذه الأشياء، لكن

بما أنها موجودة، فلا خيار لنا سوى محاربتها. على المرء أن يصبح ذا طبيعة عنيفة وأن يلجأ للعنف لأن الحياة عنيفة باستمرار. لا تُتَّخَذ هذه القرارات لأن المرء يحب فكرة المعاناة أو الموت قبل الأوان.

– إذن، هل ستقول لي أن فكرة «الحالة الطبيعية» لا تستهويكَ؟

– لم أقل ذلك. في بعض الأحيان وعلى عكس ما كنت أقوله لكِ من قبل، كنت أود أن أتوهم أنه ليس لدي ما يدعو للقلق وأنني رجل عادي، لدي عمل وحياتي آمنة وسأتقدم في السن وأنا محاط بالأحفاد... لكن بعد ذلك، عندما يخرج المرء إلى الشارع وينظر حوله، سيعلم أنه يمكن لذلك أن يصبح ممكناً فقط إذا كان المرء مجرداً من أي مشاعر. لا أعتقد أن أي شخص لديه ولو الحد الأدنى من الإنسانية بإمكانه الاستمتاع بمأدبة مع مئات الأطفال الجياع الذين يتسولون من حوله وأن الأشخاص الذين فعلوا ذلك قد أقنعوا أنفسهم بأنهم لا يستطيعون فعل أي شيء ويعتبرون أنه «من الطبيعي» أن يكون هناك أطفال جياع. إنهم يقبلون هذا النوع من العنف ولا يمكن أن يفهموا أننا مجبرون على حمل السلاح وأننا لا نقبل العنف ولا نعتبره طبيعياً.

– قالت لابينيا: «لكن، لنعد إلى الحياة الطبيعية. ألا تعتقد أنه من الخطأ أنك فكرت بالاستمتاع بكلا العالمين؟ فأنت تعيش معي حياةً طبيعيةً، أما مع رفاقك، فبوسعك أن تشعر بالرضا عن القيام بشيء خاص...».

– قال فيليبي متفاجئاً حقاً من سؤالها: «لا أفهم وجه الخطأ في ذلك. إذا كنت محظوظاً بأن ألقاكِ وأن تربطني بكِ علاقة، فلا أرى سبباً يجبرني على الامتناع عن ذلك. كما أن الامر لا يتعلق بمهنة مازوشية. فكلنا كائنات طبيعية نحب الحياة ولدينا الحق في أن نَحِب ونُحَب... في النهاية. لا أفهم تماماً ما تقصدينه...»

– قالت لابينيا: «ربما ينبغي أن أعيد صياغة السؤال وأسألكَ بطريقة أخرى: إذا لم يكن يزعجك أن أكون، أنا التي أشاركك حياتَك، أحد هؤلاء الأشخاص العاديين الذين يقيمون المأدبات على ضفة الأطفال الجياع...»

– قال: «لكنني لا أعتقد أنكِ من هذا النوع من الأشخاص» وأظهر تعبيراً يدل على الحيرة برغبته في فهم اتجاه كلمات لابينيا دون نتيجة. «أعتقد أنكِ

تشاركينني مشاعري كرفيقة لي... لقد تحدثنا عن ذلك عدة مرات منذ أن تَعَرَّفنا بعضنا على بعض...»

– قالت «ربما أشاركك مشاعرك بطريقة معينة. لكنها مشاركة سلبية تماماً. ألا يزعجك ذلك؟»

– إذا لم تخنّي ذاكرتي، قلتِ لي منذ تلك المرة التي أحضرتُ فيها سيباستيان وكان مصاباً أنكِ تفهميننا ولكنكِ لا تريدين الالتزام ولم تشعري بالقدرة على الإقدام على ذلك، إذ تخيفكِ الفكرة. لم توافقي على «انتحارنا البطولي». هذا ما قلتِه إن لم تخنّي الذاكرة.

– وإذا كنتَ تريد تغيير الواقع بهذا القدر، ألا تعتقد أنه كان يفترض بكَ أن تحاول تغييري، أليس كذلك؟ فبدلاً من ذلك، قد كرست نفسك للاتفاق معي، بل وعززت من خوفي عندما سمعتني أعبر عن آرائي ومخاوفي المتعلقة بتصوري الخاص وبسلبيتي... ألا تعتقد أن ذلك ولربما دون وعي منكَ قد يتعلق برغبتكَ في الحفاظ على مساحة طبيعية في حياتكَ؟

– قال فيليبي ساخراً: «أعتقد يا لابينيا» وكما قال خواريث أن «احترام حقوق الآخرين هو السلام». إنكِ إنسانة ذكية ولديكِ الحق في التفكير على طريقتك. لا أستطيع أن أرغمكِ على الانضمام للحركة. لن يكون ذلك تصرفاً صحيحاً مني. ليس بوسعي أن أقول لكِ ألا تخافي لأن ما نفعله خطير وبالتأكيد يبعث على الخوف. لا يمكنني خداعك للانضمام إلينا بدعوتك كما لو كان الأمر حفلة. الحركة ليست لعبة... لا أعتقد أن احترامي لطريقة تفكيركِ لها أي علاقة بتلك الرغبة المفترضة بالحياة الطبيعية التي يبدو أنكِ ترينها بداخلي.

– لكن، هل تود أن أنضم إلى الحركة أم لا؟

– ما هذا السؤال الذي تسألينه!

– هل نسيتَ أنكَ أخبرتني أنني ضفة نهركَ وأننا إذا سبحنا معاً في النهر، فلن يكون هناك شاطئ لاستقبالكَ؟

– لكنني أخبرتكِ ذلك بطريقة ما كي لا تشعري بشعور سيئ حيال ترددكِ... كي تشعري أنكِ، بأي شكل من الأشكال وحتى بحبكِ لي، يمكنكِ أن تفعلي شيئاً مفيداً...

– كلا، فيليبي، لا تقل لي ذلك. لإنكَ تعلم أن الأمر ليس كذلك. في كل مرة أذكر فيها الاحتمال البعيد بالانضمام، رغم أنني قد قلت ذلك بترددٍ كبيرٍ، كنتَ تصبح عطوفاً وتقول لي عبارة ضفة النهر...»

– لكنني كنت أمزح يا امرأة كي لا تشعري أنك على غير ما يرام ولأنني أعرف مدى صعوبة فكرة الانضمام بالنسبة لكِ...

– قالت له «إنك على صواب، إنه أمر صعب» بينما كانت تتخذ وضعية تفكير وصمت بانتظار أن يحاول فيليبي إقناعها بالدخول للحركة، مما سيمكنها من أن تكشف له عن قرارها الأخير. إذا كان قد فكر في القيام بذلك، فستكون هذه اللحظةُ فرصةً لإخباره. كانت قد أعطته الفرصةَ عمداً على طبق من فضة. لن تكشف له عن انضمامها لحين تغلبه على نزعة المقاومة التي تمنعه من طرح الأمر عليها.

لكن فيليبي لم يقل أي شيء. اقترب منها وعانقها وداعب شعرها. أخبرها أن الوقت قد تأخر وأنه قد حان الوقت الذي يمارس فيه الأزواج العاديون الحب، ذلك ما قاله.

كتمت لابينيا خيبة أملها داخل نفسها. ثمة تناقض ملحوظ مؤخراً بين كلامه المعسول وتهربه من دعوتها للمشاركة في تغيير الحياة. فكرت بعدم اللجوء مستقبلاً إلى مثل هذه الحيل وشعرت بالإرهاق ثم خلدت إلى النوم بعد أن رفضت طلب فيليبي بحجة أنها متعبة.

قالت لنفسها إنها ستكشف الأمر له في الوقت المناسب. سيكون من الرائع رؤية المفاجأة على وجهه المغرور والمتظاهر بمعرفة كل شيء.

طارت لابينيا في أحلامها بعيداً عن فيليبي.

***

تنسج الحياة القماش بصمت. أشعر بصوت الخيوط وهي تنسج أقمشة غريبة الألوان. تقترب الأحداث وليس بمقدوري أن أفعل شيئاً سوى الحدس.

- 11 -

إنه يوم الإثنين. صممت لابينيا غرفة نوم فاخرة. اتخذ العمل طابعاً روتينياً. عندما جلست على المقعد ترسم بهدوء الغرفة وتبتكر النسج والألوان، بدا لها أنه من غير الواقعي أن تعرف جزءاً من الحياة السرية لمدينة مزدوجة من الداخل تعيش فيها كائنات تكون مرئية فقط لبعض العيون المفتوحة.

كانت التناقضات والشعور بعدم الواقعية يرهقانها في بعض الأحيان.

أمضت عطلة نهاية الأسبوع مع أصدقائها القدامى. لقد قامت يوم السبت بتناول الإفطار مع سارة، ثم ذهبت ليلاً إلى حفلة مع أنتونيو وشلة الأصدقاء. في لحظة ما، شعرت كأنها في مكان آخر. ابتعدت عن المجموعة متظاهرةً بأن عليها الذهاب إلى الحمام رغبةً منها في العودة إلى المنزل. غسلت يديها في الحمام وظلت تنظر باستمرار إلى البلاط الأبيض ذي الرسوم المعقدة ذات اللون الأصفر الغامق وإلى أوعية النباتات الغرنوقية على حافة الحوض المحفور في الأرضية والمرايا على الجدران. بينما كانت الموسيقى الصاخبة تعزف في الخارج، اعتقدت أن هذه الحقيقة تطفو فوق العالم الحقيقي، لكنها تساءلت أيضاً إن لم تكن هي داخل الحمام المغلق، بل كانت تسافر في منطاد بلا هدف بحثاً عن الوحوش والحيوانات المفترسة المهددة.

- قالت لها فلورينثيا: «منذ أن صاحبتِ فيليبي، تحولتِ إلى شخصٍ آخر».

تساءلت في قرارة نفسها عن الحال فيما لو لم تتحول إلى شخص آخر وفيما لو لم تتوقف ببطء عن كونها ما كانت عليه. كانت تشعر أن زمن عدم الاهتمام بعيد. لا شك بأنها ماضية فيما تفعله. تكمن المشكلة في تخمين ما

سيكون عليه الأمر. لذا، وجب عليها التعود على أن تكون ثلاثة أشخاص، شخص بالنسبة لأصدقائها ولعملها وشخص بالنسبة للحركة وشخص بالنسبة لفيليبي. المشكلة هي أن تعرف مَنْ مِنْ هؤلاء الأشخاص هي في الحقيقة. كانت لا تزال تحقق نجاحاً مهنياً على الأقل في المكتب. كثيراً ما كان روتين عملها يتغيّر بسبب ظهور زوجات العملاء اللاتي كان خوليان يؤيدهن كي يقنعهن بعدم استيراد قماش وسجاد سيئ الذوق من ميامي أو كي يكففن عن الإلحاح في التصاميم التي تخص الشاليهات السويسرية أكثر مما تخص المناخ الاستوائي.

كانت هؤلاء النسوة بالنسبة للابينيا يعنين العمل ووجع الرأس، إلا أنها لم تستطع أن تنكر أن إسرافهن كان يسليها أيضاً ويجلب لها طرائف كثيرة فيما يخص النكات والقصص والصور المؤثرة لتناقضات العصر.

وفي ذلك اليوم من شهر أيار، حضرت اثنتان من تلك النسوة إلى المكتب لكسر روتين لابينيا إلى الأبد.

أخبرت ميرثيدس لابينيا بقدومهما، ثم فتحت الباب ووقفت أمام مكتبها بوجه متعكر المزاج وقالت:

- المدير يطلبكِ. أود إخبارك أنه مع مومياءَين.

ثم خرجت بدون المزيد من التعليقات.

كانتا في الواقع امرأتين نحيفتين جداً ذواتي خدود حمراء ووجهين مسرحيين بمكياج صارخ. كانت الأساور تملأ أذرعهما النحيفة بطريقة توحي بأن عليهما بذل جهد للإيماء ولرفع أذرعهما حيث كان للذهب وزنه. تحدثت إحداهما دون توقف بينما أومأت الأخرى مبديةً موافقتها على ما تقوله الأولى.

عندما دخلت لابينيا، نظرتا إليها بتعبير عدم الاكتراث الذي تقوم به بعض النساء تجاه نماذج من نفس الجنس تعتبرنها من صنف المرؤوسين. قالت لابينيا لنفسها «سيعتقدن أنني السكرتيرة، فالسكرتيرات عدوات هذا النوع من النساء حيث يسلبن منهن أزواجهن».

قالت لهما: «صباح الخير».

ردت المرأتان على التحية.

التفت خوليان إلى الزائرتين وقدم لابينيا لهما.

– قال: «لابينيا هي أحد أفضل المهندسين المعماريين لدينا»، ثم عدد لهما مؤهلاتها واغتنم الفرصة بذكر أصلها.

تغير تعبير وجهيهما تماماً. ارتسمت على وجهيهما ابتسامة واسعة.

– أضاف خوليان قائلاً: «اسمحي لي أن أقدم لكِ السيدة بيلا واختها الآنسة مونتيس».

قامت لابينيا بمصافحتهما وقالت لهما العبارة التقليدية «تَشَرَّفْتُ بمعرفتكما». كانت أيديهما نحيفة وضعيفة وقد مدَّتا يديهما بمودة، بقليل من الحذق الاجتماعي الذي لم تستطع الأساور إخفاءه.

بالنسبة للابينيا، بدا لها لقب بيلا مألوفاً، لكنها لم تستطع تحديده في ذاكرتها.

أوضح خوليان أن عائلة بيلا تريد بناء منزل لها في أرض تم شراؤها مؤخراً، تقع في إحدى روابي جنوب المدينة.

– قال وهو يفتح المخطط الخاص بالأرض: «التضاريس غير مستوية للغاية، لكنها تتيح القيام ببعض التصاميم الجذابة جداً».

– قالت السيدة بيلا: «إنها تتمتع بإطلالة جميلة جداً. لا أستطيع تخيُّلَ وجود منزل هناك، لكن زوجي يفكر مثلك. كنت أتمنى أن يأتي، غير أنه يعيش حياة ملؤها الانشغال لذلك قد عهد إلي بالبحث عن الإمكانيات المتاحه بهذا الشأن»، ثم تنهدت المرأة خاضعة لرغبته.

– ابتسمت الآنسة مونتيس وهي تنظر إلى خوليان ولابينيا محاولة مداراة ما يجب اعتباره مطالبة رقيقة من الأخت قائلة «يفترض بها أن تكون سعيدة لأن زوجها قد أتاح لها هذه الحرية، أليس كذلك؟»

كانت لابينيا تنظر إليهما بتسلّ. كانت السيدة بيلا أصغر من أختها التي كانت تبدو عانساً متغنجة –من النوع الذي يبدي رأيه ويتدخل في كل شيء– . بالتأكيد أنها تتولى مسؤولية الأطفال أيضاً.

- سألت لابينيا: «كم عدد الأشخاص الذين سيعيشون في المنزل؟»

- أنا وزوجي وولدانا الاثنان وأختي... وكادر الخدمة بالطبع. لكننا نريد منزلاً كبيراً بمساحة كافية.

- قالت الآنسة مونتيس المصبَّغة بالألوان: «الجنرال بيلا يحب الحياة الاجتماعية».

- قالت لابينيا لنفسها «الجنرال بيلا!». لهذا السبب بدا الاسم مألوفاً لها! لم يكن سوى رئيس الأركان العامة للجيش الذي تمت ترقيته مؤخراً. كانت الصحيفة قد سلطت الضوء على ولائه غير المشروط للجنرال الكبير. قبل ترقيته، كان الجنرال بيلا قد شغل منصب رئيس الشرطة وهو تكريم قدمه الجنرال الكبير للموالين له قبل ترقيتهم في الرتب العسكرية كي يتيح لهم جمع مبالغ كبيرة في تجارة لوحات السيارات والغرامات والتراخيص.

فكرت «والآن جاء دورها لتصميم منزلها! الآن بالضبط!».

- قالت السيدة بيلا: «رأينا ضرورة أن تكون هنالك عدة صالات وعدة غرف طعام وعدة غرف إضافية، كما نريد أيضاً مسبحاً للأطفال ومنطقة للعب... كذلك، يرغب زوجي بأن تكون هنالك مساحة للعب البلياردو...

واصلت لابينيا طرح الأسئلة وهي تنظر إليهما في تلك اللحظة بفضول مختلف. كانت الأختان تتسارعان في ذكر الصفات المطلوبة في المنزل وعدد الغرف التي يريدونها. لم تتأخرا كثيراً حتى فتحتا حقيبتيهما وسحبتا قصاصات المجلات وذكرتا رغبتهما في الاعتماد على المواد المستوردة، حيث لم تكن هنالك في فاغواس تشطيبات ترضي طلبهما. انحنت لابينيا فوق المنضدة للنظر إلى قصاصات الأختين. كانت أقل قصاصة هي البيت الصيفي لراكيل ويلش ولم يكن كوخ أورسولا أندروس.

ظهرت الفنانة على أثاث أبيض ناصع وفي غرفة نوم فيها سرير دائري وغطاء من القماش المخطط والمرقط.

ذكرت السيدة بيلا حلمها بحوض استحمام بيضاوي وبتيارات ماء الجاكوزي. شرحت الآنسة مونتس هواية ابن بيلا المراهق المتعلقة بالطائرات والطيور وكل ما يطير. قالت: «يريد الجنرال بيلا وضع أحلام الفتى في مجراها وتشجيع ميوله لمهنة الطيار».

قالت السيدة بيلا: «زوجي قلق على الطفل الشديد التشتت. فكرنا بإمكانية تصميم غرفته بعناصر ديكورية تخص الطائرات الحربية».

ثم تطرقتا إلى النوافير في الحديقة وإلى الأكوام الصخرية التي تجري المياه من خلالها وإلى الجدران المغطاة بالمرايا في الحمامات...

كان خوليان ولابينيا ينظران بعضهما إلى بعض من وقت لآخر ويتظاهران أنهما يتابعان باهتمام الإسراف في أفكار الأختين.

أوضحت السيدة بيلا أنهما تعرفان أنه سيكون مكلفاً، لكن التكلفة لم تكن مهمة. لقد عمل الجنرال بجد طوال حياته وهو يستحق ذلك. إضافة إلى ذلك، سيكون المنزل ميراثاً لأبنائهما.

في نهاية المطاف، أعطاهما خوليان –الذي كان طوال الوقت مجاملاً ومبتسماً– موعداً في الأسبوع التالي. سيناقشان التصميم الأولي وسيستمران بمحادثاتهما.

ذهبت المرأتان وكانت تُسْمَعُ خشخشة أساورهما.

ارتمت لابينيا على الأريكة في مكتب خوليان. إن الحديث الطويل والمتواصل للسيدتين وسهولة وفوضى حديثهما المنطلق من كونهما امرأتين حديثتي الثراء قد جعلت لابينيا في حالة من الذهول. في الفترة الماضية من حياتها، لم تكن لتشعر بصراع أكثر من الصراع الاحترافي المجرد. أما الآن، بعد انضمامها إلى الحركة، تساءلت عمّا إذا كانت هذه الفرصة مناسبة للقيام بأول إظهار للوعي الذي اكتسبته حديثاً.

– قال خوليان وهو يغلق الباب: «الجنرال بيلا لا يقل عنهما بشيء».

– قالت لابينيا وهي جالسة على الكرسي: «إنه أمر لا يصدق».

– قال خوليان: «إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بالمال».

– قالت لابينيا وهي تجس نبضه بالحديث: «وهل سنعمل لمصلحتهم؟ هل سنقبل تلك الأموال المكتسبة بشكل غير صحيح؟»

– رد عليها خوليان وهو يلف خريطة الأرض: «لا تكوني رومانسية. معظم الأموال التي نتلقاها هي أموال مكتسبة بشكل غير صحيح. الفرق الوحيد في هذه الحالة هو أن الأمر أكثر وضوحاً. علاوة على ذلك، يبدو

أن الجنرال الكبير قد اعتزم إثراء الموالين له بشكل أكبر للتأكد من رضاهم ودفاعهم عنه. أتصور أن هذه هي طريقة تفكيره لمواجهة استياء الناس وتمردهم بشكل أفضل. من المحتمل أن يظهر لنا آخرون بعد هذا العمل.

- سألت لابينيا دون أن تقرر حتى الآن الموقف الذي ستتخذه: «إذن، أنت على استعداد للاستفادة؟».

- قال خوليان: «لا تجعلي مني في هذه اللحظة موعظاً في الأخلاق. إذا كانوا يريدون إنفاق أموالهم، فلنساعدهم. بغض النظر عن كل شيء، من الأفضل أن نربحه نحن. إننا الأكثر نزاهةً. في هذه الحالة، لن أطلب منكِ إقناعهما بتجنب ما هو غريب وتجنب الذوق السيئ. لا تكترثي للأمر».

- قالت لابينيا وهي جالسة: «ليس ذلك ما يقلقني. لا أعرف ما إذا كنتُ أرغب بمساعدتهما في التفكير في طرق إنفاق تلك الأموال».

- بكل الأحوال سيتم إنفاق الأموال. إذا لم نفعل نحن ذلك، سيكون هناك الكثيرون ممن يفعلونه ولن نمنع إنفاق تلك الأموال ناهيكِ عن أنه لا محل للمبادئ في العمل.

- قالت لابينيا: «لا أرتاح للفكرة»، ثم سألته: «ألا تفكر في إسناد الوظيفة إلى مهندس معماري آخر؟»، ونهضت للخروج معتقدة أن المبادئ قد بدأت بفعل فعلها بالنسبة لها.

- رد عليها خوليان وهو ينظر إليها بجدية: «كلا، يا لابينيا. لا أستطيع تعيين شخص آخر. لا يوجد أحد أفضل منك لهذا العمل. إذا سرنا وراء معايير المبادئ، فمن الأفضل أن نبقى في المنزل».

- قالت لابينيا ملتجئة إلى تكتيكٍ أكثر إقناعاً: «ألا تظن أنه لن يعجبهم أن أكون أنا المكلفة؟» يُفتَرَضُ أن يعرفوا من الاسم أن عائلتي خضراء... لا يمكن أن تكون أكثر خضرة من ذلك...»

قال خوليان: «على العكس من ذلك، سيكونون سعداء. هؤلاء الناس ينبهرون بالأسماء الأرستقراطية. لا يهمهم إذا كانوا معارضين أم لا. حلمهم أن يصبحوا مثلكم. في الحقيقة ولا أريد أن أزعجك، فإن المعارضة المحترمة الوحيدة بالنسبة لهم هي المحاربون...»

فتح خوليان ملفاً على مكتبه وبدأ بتقليب الأوراق ملوِّحاً بذلك إلى نهاية المحادثة. أخذت لابينيا دفتر ملاحظاتها وتأهبت للخروج.

كانت تمسك بمقبض الباب عندما رفع خوليان رأسه.

- قال: «سأشرف على هذا العمل شخصياً. سنعمل معاً أنا وأنتِ. لدى فيليبي الكثير من المشاريع على عاتقه».

فكرت أن خوليان على علم بفيليبي. لم يرد إجباره على الاختلاط بالجنرال بيلا. كانت تعرف أنه سيرفض إشراكه في الأمر. التقطت لابينيا داخل غرفتها الهاتف واتصلت بالرقم الداخلي لمكتب فيليبي. لم تكن تريد المخاطرة بأن يراها خوليان وهي تدخل إلى مكتبه ويفكر في أنها طائشة مفشية للأسرار.

- فيليبي؟

- نعم - إنني لابينيا.

- قال بلهجة ودية بعض الشيء تدل على أنه مشغول: «أعرف صوتك».

- قالت: «لقد قابلت للتو زوجة الجنرال بيلا. لقد كلفونا بتصميم منزلهما. يريد خوليان أن أقوم أنا بالأمر».

ساد الصمت.

فيليبي، أعتقد أنني لا يجب أن أقوم بذلك.

ثم سكتت.

- قال صوت الطرف الآخر: «إنني أفكر في أنه يجب عليك القيام بذلك. بالتأكيد، نعم» - وزادت نبرة التركيز.

- قالت: «لكن...»

- قال: «لماذا لا نتحدث عن الأمر لاحقاً؟ إنني مشغول الآن».

أغلقت لابينيا الهاتف وتأملت المناظر الطبيعية البعيدة. سيكون من دواعي سرورها أن تدخل إلى مكتب خوليان وتخبره أنها غير مستعدة لتصميم المنزل. تخيلت رد فعل المهندسين المعماريين الآخرين والرسامين والشائعات التي تنتشر في المكتب. سيدرك الشباب الذين انتقدوا الحكومة بشكل مستتر دون أن يملكوا الجرأة على مواجهة الفساد أو المطالب غير

العقلانية أن طريق التمرد مفتوح. كانت متأكدة من أن فيليبي سيفهم عندما ستوضح له الأمر لاحقاً. ولم يكن لديها شك في أن سيباستيان سوف يدعمها. نهضت وهي راضية عن نفسها وجلست على مقعد منضدة الرسم وواصلت عملها وهي تدندن بهدوء.

– سألت لابينيا فيليبي: «لكن لماذا أنت متأكد بهذا القدر من أن عَلَيَّ أن أقبل؟ إنني على يقين من أن سيباستيان سيوافقني الرأي».

– رد فيليبي: «لا تكوني ساذجة. سرعان ما سيتم سحق تمردك. ببساطة سيقومون بتكليف شخص آخر بالتصميم أو سيتم طردك. من الغريب أن خوليان قد أوكله إليكِ. إنه يعرف بنا».

– قالت لابينيا وهي تنظر إليه: «لا أفهم».

وصل فيليبي عندما كانت بالفعل في السرير. نزع ملابسه ودخل الفراش بين الشراشف. اعتذر عن تأخره، ثم طلب منها أن تخبره بكل ما يتعلق بما كُلِّفَت به فيما يخص السيدة بيلا وأختها.

قامت بإبلاغه وشرحت فكرتها حول الاحتجاج برفضها لأداء العمل. أصر فيليبي على أهمية قبولها.

– كرر قائلاً: «ألا تدركين أنه رئيس الأركان العامة للجيش؟»

– قالت لابينيا: «بالطبع أدرك ذلك ورفضي هو تحديداً بسبب ذلك».

– قال: «ألا تدركين أنه قد يمكنكِ الوصول إلى قدر كبير من المعلومات حول عاداتهم وتقاليدهم وعائلتهم؟ ألا تدركين أنك ستصممين منزله وغرفة نومه وحمامه...؟» وانتابه السخط في النهاية.

ظلت لابينيا صامتة. لقد بدأت تفهم.

تبادرت الصور إلى ذهنها كومضات، صور الاعتداءات وألدو مورو وقتلى في غرف النوم. شعرت على غير ما يرام.

– سألت دون أن تتمكن من صياغة السؤال بطريقة أخرى: «هل سيقتلونه؟»

– قال فيليبي: «لا يتعلق الأمر بذلك. لكن من المهم جداً الحصول على معلومات حول هؤلاء الأشخاص وكسب ثقتهم، ألا تدركين ذلك؟»

لقد أدركت الأمر، لكنه كان فهماً مضطرباً وتداخلت فيه صور مفزعة. فكرت في العانس، الأخت الوسيطة.

تخيلت القنبلة وهي تمزقها إرباً.

– قالت لابينيا: «إنني أدرك. أدرك أن هذه معلومات مفيدة للقضاء عليهم».

– قال: «لابينيا، لا نعتقد أن الموضوع يتعلق بقتل الناس. لو كان الأمر كذلك، لكنا قد تصدينا بالفعل للجنرال الكبير. ما نريده هو تغييرات أعمق من مجرد تغيير الأشخاص».

– لكن، ما فائدة كل هذه المعلومات إذن؟

– لأن إحدى القواعد الذهبية للحرب هي معرفة العدو وكيف يعيش وكيف يفكر. إن فائدة هذه المعلومات أمر لا يعنيكِ. ما عليك فعله هو الحصول عليها وكسب ثقة العائلة والتمكن من الدخول إلى دارها... الحصول خلسة على الوثائق.

– قالت مستقصيةً: «لكن ذلك خطير».

– قال: «قد يكون كذلك. إنه صحيح، لكنه مهم. سنتولى حمايتك».

– قالت لابينيا وهي تنظر إليه بثبات: «يتعين على أن أنضم إلى الحركة».

– قال فيليبي: «أو أن ترسلي لي كل المعلومات».

– إنه نفس الشيء تقريباً.

– قال: «ليس بالضرورة أن تنضمي. لن تكوني مسؤولة سوى عن نقل المعلومات إليّ».

– ماذا لو قلت لك إنني قد انضممت بالفعل إلى الحركة؟

– لن أصدقك.

– إذن، يؤسفني أن أبلغكَ بأنني قد انضممت.

انتظرت لابينيا رد فعل فيليبي. رأته وهو ينظر إليها غير مصدق لما تقوله. كان كل منهما يقيس نفسه مقابل الآخر في صمت. لم تنظر إلى الأسفل وظلت تنظر إليه.

– قال فيليبي أخيراً: «يؤلمني أنكِ أخفيت الأمر».

- كنت سأخبرك في وقت ما. لم أكن متأكدة متى.
- سألها فيليبي: «لكن متى حصل ومتى قررتِ وكيف؟»
قدمت لابينيا خطوطاً عريضة مقتضبة لتأملاتها والمحادثات مع سيباستيان وفلور.
- قال فيليبي محاججاً: «لماذا لم تخبريني بأي شيء؟»
قالت لابينيا: «حاولت ذلك، لكنكَ لم تكن تساعدني. كان لدي شعور بأنك لا تريدني أن أشارك وأنكَ ستقول لي دائماً إنني غير مهيَّأة».
- قال: «والأمر كذلك» وتغير بشكل واضح. كان يعتبرها أنها لم تنضج بعد للدخول رسمياً. كانت تساوره الكثير من الشكوك ولم يكن يعرف حقاً ما كان يريده.
تقبَّلَت لابينيا الشكوك، وسألت «لربما فقط من لا يشكون بوسعهم أن يكونوا أعضاءً في الحركة؟» يبدو أن فيليبي فقط هو من كان يظن ذلك. تناقض موقفه مع موقف سيباستيان وموقف فلور.
- قال رافعاً صوته: «لأنني أعرفك أفضل مما يعرفك أي شخص آخر!». ستخبرينني أنكِ لا تعتبريننا انتحاريّين وأنكِ الآن لا تشعرين بالرعب من فكرة نقل المعلومات حول الجنرال لأنها قد تعرض حياته للخطر. وكأن حياته أهم من حياة الكثير من الرفاق! وكأن حياتنا تهمهم!».
- قالت لابينيا: «ذلك ما يميزنا عنهم، أليس كذلك؟: بالنسبة لنا، لا يمكننا التخلص من أرواح الناس».
- قال فيليبي: «بالطبع» وربت على كتفها. «لكن الأمر لا يعني أيضاً حماية أشخاص مثل بيلا».
- قالت لابينيا وهي تحافظ على هدوئها ونبرتها الرقيقة في الحديث: «أعتقد أنك لا تتفهم مخاوفي ولا تفهمني حتى. أتساءل عما إذا كنت فكّرتَ ذات مرة بأنني *ناضجة* بالنسبة للحركة. لا يناسبكَ ذلك، فإنكَ تريد الحفاظ على ركنكَ الطبيعي، على ضفة نهركَ لقرون القرون، على امرأتكَ الصغيرة التي تتعاون تحت إشرافكَ دون أن تتطور. لحسن الحظ، لا يفكر سيباستيان وفلور كما تفكر».

فقدت لابينيا هدوء أعصابها أثناء الحديث. اتضح من خلال ذبذبات صوتها الاستياء المتراكم: ليالي الأرق وهي تنتظره والمواقف الأبوية والسامية.

– قال غاضباً: «لا يهمني تفكيرهما! بوسعهما التفكير فيما يريدان. إنهما لا يعيشان معكِ. ليس عليهما أن يتحملا هوسكِ كفتاة غنية! هذا ما أنتِ عليه: فتاة غنية تعتقد أنها تستطيع فعل أي شيء. إنكِ لا ترين حتى حدودك الخاصة بك».

– قالت لابينيا مغتاظة: «لم يسألني أحد أين أريد أن أولد! الذنب ليس ذنبي، أتسمعني؟»

– هل تريدين أن يسمعنا كل الجيران في الحي؟

– أنتَ من بدأتَ بالصراخ.

لقد تجنبته بهروبها شيئاً فشيئاً إلى أحد طرفي السرير وهي عارية وساقاها على الملاءات. التزمت الصمت وهي تنظر إلى قدميها. كانت تحدق في قدميها عندما لا تعرف ماذا تفعل حيال أمر ما. كان الأمر أشبه برؤية نفسها من مسافة بعيدة وهي ترى جزءاً غريباً وبعيداً عنها: الأصابع الطويلة وهي تنتهي تدريجياً في الإصبع الصغيرة، الخنصر. كانت قدماها تشبهان قدمي والدتها... ما ذنبها أنها ولدت من تلك الأم وأن قدميها هي من الأقدام الأرستقراطية... حتى في ميولها كفتاة غنية... قالت لنفسها «لم تكن لدي ميول الفتاة الغنية». الشيء الوحيد الذي لم تتحمله هو ركوب الحافلة أو التاكسي. كان يعجبها أن تكون لها سيارتها الخاصة. ومَنْ لا يعجبه ذلك؟

بغض النظر عن ذلك، لم تستطع التفكير في ميول أخرى. كانت لا تأكل تقريباً ولا يهمها أكل أي شيء... لم تكن تحب حفلات النوادي.

حركتْ قدميها ومدّتْ أصابع قدميها. كان الصمت المتوتر يخيم عليهما ويفصلهما ممتداً بينهما كأنه جسم مادي. كانت النمور تجثم عارية على الملاءات منتظرة من سيوجه الضربة التالية. لم تكن تريد أن ترفع عينيها، فلم تكن ترغب برؤيته. لن تقول أي شيء آخر، ستنتظر...

– قال فيليبي مخفضاً النبرة: «هل أصابك الخرس؟»

واصلت النظر إلى أصابعها وهي غارقة بالتفكير.

- ومن الذي أدخلك إلى الحركة، سيباستيان؟

- أجابته دون أن ترفع رأسها: «فلور».

- قال: «بالطبع»، ثم أضاف: «كان علي أن أتخيل ذلك».

كان الطلاء منكشطاً قليلاً في بعض الأصابع. كان عليها إعادة طلائها.

خيّم الصمت المطبق من جديد. في الخارج، بدأت الرياح تهب بقوة محركةً أغصان شجرة البرتقال التي كان ظلها يدخل عبر النافذة كأنه رسومات سوداء تتمايل على الجدران.

رفعت بصرها بشكل غير محسوس قليلاً فوق الإصبع الكبيرة لقدمها. كان فيليبي ممدداً على السرير وذراعاه تحت رأسه وهو ينظر مركزاً في السقف.

تساءلت لابينيا «كم من الوقت سيقضيان على هذا الحال؟ كم من الوقت سيستغرق فيليبي ليعترف بخطئه؟» فكرت أن لا تفعل أي شيء. ما من سبب يستدعيها لبدء الحوار مجدداً.

لن تتحدث إليه. هو من عليه التحدث إليها.

- قال كما لو كان يتحدث إلى نفسه: «إذن هو أمر واقع بالفعل».

- قالت: «نعم ولست مستعدة للعودة إلى الخلف، عدا هذه اللحظة».

- قال: «أتصور أنكِ على حق. لا يفترض أن يزعجني ذلك، بل على العكس تماماً، غير أنه ليس بوسعي تفاديه».

انحنى جانباً على السرير ونظر إليها. مد يده ولمس يدها بخجل.

- قالت: «يُفتَرَضُ بكَ أن تكون سعيداً. ألا تظن أن استياءك البالغ هو أمر غريب؟»

- قال «هذا ما كنت أفكر فيه. ما يزعجني ليس قرارك بالانضمام، بل قيامك بالأمر دون إخباري».

- قالت: «لكنني قد أخبرتك بالفعل...».

- قاطعها فيليبي: «نعم، بلى، قد تكونين على حق. ربما لم أرغب في إشراكك بسبب سيطرة إحساس الحماية علي وعدم الرغبة في تعريضك للخطر... وليس ما تكررينه كثيراً بأنني أتوق إلى الحياة الطبيعية...».

نظرت إليه دون أن تنبس ببنت شفة.

– قال: «حسناً. لقد فزتِ. سأحاول التعود على الأمر وأن أساعدكِ».

– قالت مستفزة إياه: «إذن لدي هوس فتاة غنية؟»

– قال: «الكثير من الهوس» وبالكاد رفع رأسه وكان مستلقياً بجانبها وينظر إلى عينيها نظرة مداعبةً.

لقد هدأت نفساهُما وتداعبا فيما بينهما. لم يتلاشَ التوتر تماماً، لكنه قد تم تمويهه بالقبلات وبكلمات الحب المرتابة.

عض فيليبي كتفها. كانت لابينيا، بين العضة والقبلة واليد بين ساقيها، تفكر كيف فعل فيليبي ما فعل وكيف تغير فجأة. قال إنه سيساعدها وتُفَضِّلُ تصديقَه. إنها تفضل الاستسلام واختيار التصالح وذلك الطريق من التأوهات والحلمات المنتصبة والجوانح التي تضرب المسامع.

اتفقا على أن تقوم بالتشاور مع فلور وسيباستيان وتبلغهما أنها ستصمم منزل الجنرال بيلا، هذا إذا كان *مسؤولها* سيوافق على ذلك.

- 12 -

في يوم الأربعاء، لم يوافق سيباستيان وفلور فحسب، بل وجهاها لأن تولي جل اهتمامها للمشروع وللدخول إلى تلك البيئة قدر المستطاع وللإبلاغ عن كل ما تراه وتكتشفه عن بيلا.

قالا لها «كل شيء». عليها ألا تنتقص من أهمية أي تفصيل. فكرا مثلما فكر فيليبي. لقد أقنعتها حججهم في النهاية ولم تجرؤ على الاستمرار في ترددها.

لقد أصرا أيضاً على ضرورة أن تستمر في مخالطة أصدقائهم، مجتمع النادي، الذين يحضرون للرقصة القادمة. أخبروها أن عليها ألا تنعزل. من الضروري أن تكون مرئية. عندما يستفسر الجنرال بيلا عنها، لا ينبغي أن يكون هناك شك في أنها كانت تمارس حياتها الاجتماعية وأنها معتادة على الرفقة التي تنتمي إليها بحكم الولادة.

فكرت لابينيا بعد الاجتماع أن الأمر متناقض من الناحية الظاهرية وأن عملها في الحركة، وهو ما اعتقدت أنه سيغير وجودها، سيكون بالضبط دور حياتها الخاصة.

عندما عادت إلى المنزل وجدته متسخاً تفوح منه رائحة الإغلاق والفوضى.

لم تأتِ لوكريثيا للقيام بالتنظيف. كانت فناجين قهوة الصباح ما تزال على الطاولة والسرير غير مرتب. دخل المطر عبر النوافذ شبه المفتوحة. كانت جزيئات الماء الصغيرة تلمع على الأرضية عندما أشعلت مصابيح الغرفة. كانت شجرة البرتقال تتأرجح من جانب لآخر وتخدش النوافذ.

- قالت لها: «مرحباً. لقد تنقعتِ الآن!»

كان من المعتاد بالفعل أن تتحدث إلى الشجرة. في الوقت الذي كانت تنظر فيه إلى خضارها وإلى البرتقال الذي كانت تحمله، كانت مقتنعة بأن أولئك الذين قالوا إنه من الجيد التحدث مع النباتات لم يخطئوا. على الأقل، كان يبدو أن هذه الشجرة تمتن للتحية التي كانت لابينيا تلقيها.

خلعت حذاءها ولبست خفاً ولملمت الأكواب الفارغة وقدح الماء على حافة السرير وبدأت بغسل الأطباق في المطبخ.

تساءلت «ما الذي كان سيحدث لبيلا؟» بينما كانت تدعك الأقداح والأكواب بالإسفنجة وتدخلها فيها وتخرجها منها. «وماذا حدث للوكريثيا، فلطالما كانت ملتزمة. قد تكون مريضة؟»

ظلت تعمل حتى أصبح المنزل مرتباً. لم تكن في حالة مزاجية تتقبل الفوضى. فكرت مع نفسها «آمل ألا تغيب لوكريثيا في اليوم التالي. قد يكون ثمة شيء منعها».

لم تأت لوكريثيا في اليوم التالي ولا في اليوم الذي تلاه.

- أخبرها فيليبي في الصباح في المكتب: «يجب أن تذهبي لمعرفة ما حلّ بها».

- قالت لابينيا: «قد فكرتُ بالفعل في الأمر. سأذهب عندما أغادر العمل».

كان لديها في حقيبتها قطعة من الورق كتبت فيها لوكريثيا العنوان الذي تعيش فيه. كان من الصعب فهم الحرف الريفي والابتدائي (بالكاد تمكنت من إكمال عامين دراسيين في المدرسة الابتدائية)، لكن لابينيا قد تمكنت من فك رموز اسم الحي والشارع. كانت تعتقد أنه سيكون كافياً وسيعرفها الجيران.

عندما اقتربت من الطريق الرئيسي، رأت من بعيد شوارع الحي غير النظامية والمنازل ذات الألواح الخشبية والخيال البعيد للكنيسة في المساء.

خرجت من الطريق ودخلت الطريق غير المعبد. كانت مصابيح الشارع موجودة لحد المنازل. كانت الأبواب المفتوحة للمنازل الفقيرة والمزدحمة

هي المصدر الوحيد لإنارة الشوارع الفرعية وكانت أشجار اللوز والموز تنمو في الأفنية.

وصلت إلى ساحة الكنيسة وهو المبنى الأسمنتي الوحيد في المنطقة المجاورة ودخلت إلى الشوارع الخلفية. كان الأطفال ينظرون إليها أثناء مرورها والسيارة تتمايل فوق التضاريس غير المستوية والخنازير والدجاجات تعبر الطريق الموحل. رأت من خلال أبواب المساكن المساحة الصغيرة وغير الصحية لداخل الدور، إذ كانت مساكن مكونة من غرفة واحدة. كان يعيش داخل هذه المُسَوَّرات المغلقة ما يصل إلى عشرة أشخاص من نفس العائلة متزاحمين. كثيراً ما كان الآباء ينتهكون عرض الابنات المراهقات. فكرت «كيف يرتبون أمرهم على العيش بهذه الطريقة؟» وكانت تشعر بعدم الارتياح وبالذنب.

بالكاد على بعد كيلومترات قليلة من منطقة البساتين والأحياء السكنية المريحة والمضيئة، يدخل المرء هذا العالم الريفي البائس والحزين. تخيلت لوكريثيا وهي تقطع تلك الشوارع غير المعبدة أثناء خروجها فجراً إلى الطريق الرئيسي لتركب الحافلة: كانت الحافلات قديمة ومزدحمة ويحصل فيها تحرش وعمليات نشل. فكرت مجدداً في ظلم الولادة. كان الموت أكثر ديمقراطية بكثير. الكل سواسية في الموت، سرداب أو أرض ويتحلل جميع الأشخاص. «لكن بما تفيد الديمقراطية إذن؟»

توقفت أمام مجموعة من الشباب كانوا يتحدثون في الركن. سألتهم عن الشارع الذي تعيش فيه لوكريثيا. لقد عرفوها. قالوا لها إن عليها أن تواصل السير إلى الأمام وأخبروها أنه المنزل المجاور للبيع، الموجود في النهاية تقريباً.

بالفعل، كان ضوء الشمس قد تلاشى كلياً. كان هنالك من بعيد امرأة بهيئة زيتونية اللون حافية القدمين تصعد بمشقة منحدر الطريق وهي تدفع عربة حطب وكان العديد من الأطفال يجلسون على حمولة العربة.

مرت بسيارتها من جانبها. نظر الأطفال إليها مستغربين. اعتقدت لابينيا، دونما شك، أنه في تلك الساعة كانت السيارات التي تمر من هناك قليلة.

وصلت إلى منزل لوكريثيا. رأت من بعيد أن المرأة التي كانت تدفع العربة تنظر إليها وهي تنزل من المركبة. شعرت على غير ما يرام، إذ كانت بدلتها ذات البنطلون من الكتان وتلبس حذاءً ذا كعبٍ عالٍ. طرقت لابينيا الباب.

قامت طفلة تبلغ من العمر حوالي اثني عشر عاماً بفتح الباب فتحاً جزئياً.

– سألتها لابينيا: «هل تعيش لوكريثيا فلوريس هنا؟»

– أجابتها الفتاة وهي مختبئة خلف الباب وتنظر إلى داخل المنزل كأنها تبحث عن حماية: نعم. أجل، إنها تعيش هنا. إنها خالتي».

– سألتها لابينيا: «وهل هي موجودة؟»

– صاحت الطفلة ملتفتةً لتنظر إلى الداخل: «خالتي، إنهم يبحثون عنكِ».

فُتِح الباب أكثر مما فُتِحَ في البداية بقليل. تمكنت لابينيا من رؤية سقف بدون سقف ثانوي وكانت الأسلاك الكهربائية تمر عبر الزنك وهنالك شمعة إشعال واحدة تتأرجح، قد تم ربطها بدعامة. كانت الفُرُشُ معلقة ومطوية فوق قضيب مستعرض. كانوا يأخذونها في وقت النوم. كما كان هناك كرسي متهالك في الزاوية.

– قالت امرأة كان صوتها هو صوت لوكريثيا: «من يبحث عني؟»

– قالت لابينيا من الباب: «أنا لوكريثيا، إنني لابينيا».

– سُمِعَ صوتها وهي تقول: «دعيها تتفضل، دعيها تتفضل».

تَنَحَّت الطفلة المطيعة جانباً. دخلت لابينيا الغرفة الصغيرة التي يبدو أنها تستخدم كغرفة معيشة وغرفة نوم في الوقت ذاته. من وراء حاجز خشبي وستارة متسخة مستلة الخيوط، سمعت لوكريثيا وهي تقول فلتتفضل بالدخول. تفوح من الغرفة رائحة قطع القماش المتسخة والمكان المغلق وقلة التهوية.

فتحت لابينيا الستارة ووجدت لوكريثيا مستلقية على سرير متحرك من القماش الخشن ورأسها مغطى بمنشفة تنبعث منها رائحة الكافور القوية.

– قالت المرأة: «آي، صغيرتي لابينيا. كم يؤسفني مجيئك للبحث عني. لم أستطع القدوم بسبب مرضي. انظري إلى الحمى التي أصابتني».

اقتربت لابينيا ورأت عينيها محمرتين. بدت لوكريثيا شاحبة وشفتاها زرقاء بشكل غريب.

– سألتها: «ممَّ تعانين لوكريثيا؟، تبدين بوضع سيئ للغاية». هل فحصك طبيبٌ؟»

غطت لوكريثيا وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء.

– قالت بينما كانت تتنهد: «كلا، لم يرني أحد. لا أريد أن يراني أحد»، وقالت للطفلة: «روسا، أحضري لها كرسياً، هيا»، بينما كانت تواصل البكاء.

جلست لابينيا بجوارها على الكرسي وهو نفس الكرسي الذي رأته عندما دخلت والوحيد الذي شوهد في المنزل كله.

– قالت لها: «ولكن كيف لا تريدين أن يراكِ أحد؟» وكانت لوكريثيا تتنهد في هذه الأثناء. ثم تابعت قائلة: «توقفي عن البكاء. متى بدأ مرضك؟

غطت الشابة التي كبرت بسبب الفقر نفسها بالملاءات بينما كانت تأمر الطفلة بالذهاب للبحث عن والدتها.

– أصرت لابينيا قائلة: «لوكريثيا، أخبريني ماذا حصل لكِ كي أتمكن من اصطحابكِ إلى الطبيب. لا تبكي أكثر. بوسع الطبيب معالجتكِ. يمكننا الذهاب إذا كنتِ تريدين...»

– قالت لوكريثيا: «آي، صغيرتي لابينيا! إنكِ طيبة جداً! لكن لا أريد أن يراني أحدٌ!»

– ثمة صوت خلف ظهر لابينيا لشخص يقول: «لا تريد أن يراها أحد وستموت من تلك الحمى».

التفتت ورأت بجوار الستارة امرأة سمينة ترتدي مئزراً مربوطاً حول خصرها: إنها شقيقة لوكريثيا، والدة الطفلة.

– تابعت المرأة: «تحدثي لها. قولي لها بحسم، لا يمكنكِ البقاء هكذا في ذلك السرير وأنتِ تبكين فقط وتحترقين من الحمى حتى تلقي حتفكِ. إن لم تخبريها، سأخبرها أنا بذلك».

زاد نحيب لوكريثيا.

– قالت الأخت: «أخبرتُها ألا تفعل ذلك، لكن ما من طريقة لإقناعها».

أخيراً، تحدثت لوكريثيا مع لابينيا وتقطّع الحديث بين حين وحين جراء بكائها وكانت تخبرها بتفاصيل الإجهاض. قالت: «لا أرغب بأن يكون عندي طفل». كان الرجل قد أخبرها بأنه لن يدخله في حساباته وهي لا تستطيع ترك العمل. لن يكون هنالك مَنْ يعتني به. فضلاً عن ذلك كانت ترغب بالدراسة. لم يكن بمقدورها إعالة طفل. لم تكن تريد أن يترك الطفل بمفرده أو أن تعتني به بشكل سيئ أو ألا يأكل جيداً. لقد فكرت في الأمر جيداً. لم يكن من السهل اتخاذ القرار. لكن في النهاية، نصحتْها إحدى الصديقات بممرضة كانت تتقاضى أجوراً زهيدة وقامت بذلك. المشكلة هي أنه لم يتم احتواء النزيف. قالت إن رائحتها كريهة ونتنة وكانت تعاني من تلك الحمى... قالت لوكريثيا إن ذلك عقاباً من الله وعليها الآن أن تموت. لم تكن تريد أن يراها أحد. إذا رآها طبيب، سيسألها من أجرى لها عملية الإجهاض والمرأة قد هددتها إذا اشتكت عليها. يعرف الأطباء أن ذلك ممنوع وأنهم سينتبهون لذلك. قالت قد يتم احتجازها حتى إذا ذهبت إلى المستشفى.

حاولت لابينيا ألا تكترث لرؤية النساء ذوات الوجوه المتوترة، انهمرت دموع لوكريثيا متبعثرة بين الملاءات والجهل والخوف والحجرة الصغيرة الخالية من التهوية ورائحة الكافور والطفلة التي تطل بوجهها الخائف من الستارة.

لقد نفد صبر الأم ودفعت الفتاة الصغيرة ورفعت يدها تهددها قائلة: «إذهبي للعب روسا، أخبرتك أن تذهبي للعب» فخرجت الطفلة راكضة.

قالت لابينيا لنفسها إن عليها أن تفكر فيما يمكن فعله إزاء الحالة. لم تكن تريد أن تشعر بعدم الارتياح في معدتها ولا بالرغبة في البكاء مع لوكريثيا التي كفت عن البكاء أخيراً وبالكاد كانت تتنهد.

- قالت لابينيا: «لدي صديقة ممرضة. سأذهب لإحضارها».

كانت تظن أنها ستحضر فلور. على الأقل، بإمكان فلور أن تخبرها بما يجب عليها فعله.

نهضت وتجاوزت رائحة الكافور والحمى والحزن والغضب الذي كان هذا الفقر يوحي به لها.

- قالت لوكريثيا: «شكراً لكِ يا صغيرتي لابينيا، شكراً» وأجهشت مجدداً بالبكاء.

عند الخروج إلى الشارع المظلم، أخذت لابينيا نفساً عميقاً من فمها. حل الليل على ألواح المنازل المجاورة. كانت السماء التي غسلتها الأمطار مليئة بالنجوم ولا يوجد ضوء ينافس روعة ضوء تلك النجوم. كانت شقيقة لوكريثيا تقف عند الباب وهي تعدل شعرها بيديها.

- قالت للمرأة: «سأعود الآن. سأرجع الآن» وركبت سيارتها التي كانت رائحتها جديدة.

توقفت لابينيا على الطريق لأنها كانت تبكي. كَوَّنَت الدموعُ في عينيها هالاتٍ قزحية اللون عندما كانت ترى ضوء المصابيح الأمامية للسيارات المارة في الطريق.

بعد ساعتين، اختفت فلور مع لوكريثيا خلف باب الطوارئ بالمستشفى. نظرت من خلال الزجاج ورأتهما تدخلان إلى الداخل ولم تتمكن من رؤية المزيد. انتقلت لابينيا إلى قاعة الانتظار وهي تجر رجليها على الأرض.

كان السقف عالياً وتنتشر أضواء مصابيح النيون المثبتة في السقف الثانوي. لولا رائحة الدواء والحزن المخيم، لاختلط الأمر فيما لو كانت قاعة الانتظار هي قاعة كنيسة بروتستانتية. احتلت صفوف من المقاعد الخشبية الريفية وسط القاعة وجوانبها المحيطة. كانت هنالك نساء برفقتهن أطفال مرضى وقذرون ونساء أخريات بمفردهن وقليل من الرجال ينتظرون بصمت. أسندت لابينيا ذراعها إلى زاوية المقعد الخشبي وفركت عينيها. كانت تعاني من الصداع وكانت تشعر بشَدٍّ في قفا عنقها.

من حسن الحظ أن فلور قد تولت أمر السيطرة على الموقف بهدوئها المعتاد. كان لديها أصدقاء في المستشفى من الأطباء المعتادين على حالات مثل حالة لوكريثيا. أخبرتها فلور: «هنالك آلاف من الحالات المماثلة».

أبقت عينيها مغمضتين لفترة لا بأس بها على أمل أن تتمكن من أن تغفو كي تقصر عليها مدة الانتظار، إلا أن النعاس قد جافاها. فتحت عينيها وبسطت نظرها إلى جميع أنحاء القاعة. لاحظت أن الأشخاص الآخرين في

القاعة كانوا ينظرون إليها وقد أبعدوا نظرهم عنها بمجرد أن رفعت عينيها، لكنهم كانوا ينظرون إليها ويراقبونها بنظراتهم كما لو كانت مسرحاً وثمة ضوء عمودي مسلط عليها من فوق.

شعرت إزاء ذلك بعدم الارتياح. لإلهاء نفسها، نظرت إلى الأرض ونظرت إلى صف الأقدام التي كانت أمامها. كانت الأوساخ متراكمة تحت المقاعد. تحركت أقدام امرأة مسنة: كانت عريضة وكانت عروق الدوالي واضحة فوق الجلد الأسود والخشن. تم قطع طرف الحذاء كي لا يضغط حجمه غير الكافي على أصابع قدم مالكته الجديدة. كانت أظافر الأصابع متكسرة وبنفسجية وأصابع القدم قبيحة المنظر. نظرت لابينيا إلى التي بجانبها. كانت امرأة أصغر سناً تبلغ من العمر على أكثر تقدير ثلاثين عاماً تلبس صندلاً كان في وقت ما أبيض اللون وقدماها سمراوان وخشنتان. كانت أظافرها مطلية بطلاء أظافر ذي لون أرجواني تقريباً وكان متقشراً وقديماً وكانت عروقها بارزة. كذلك، كانت تلبس نعلاً بالياً لحذاء رجالي وجوارب قصيرة وكان مطاط الجوارب متراخياً ومفتوقاً من الحافة. استمرت بالنظر وهي تستكشف صف الأقدام الحزينة، ثم رفعت عينيها. كانوا ينظرون إليها فخفضت بصرها مجدداً. كانت قدماها محط أنظار، حيث كانتا رقيقتين بيضاوين تظهران من صندل بني ذي كعب عالٍ ومصنوع من جلد إيطالي وكانت أظافرها مطلية بالطلاء الأحمر. كانت قدماها جميلتين تبينان أنها من طبقة أرستقراطية. أغلقت عينيها من جديد.

كانت تفكر أنها قد وعدت نفسها بالنضال من أجل أصحاب الأقدام الخشنة وأن تكون واحدة منهم وأن تشعر بنفسها بالظلم المرتكب ضدهم. هؤلاء هم *الشعب* الذي يتحدث عنه برنامج الحركة. مع ذلك، ثمة فجوة كانت تفصل بينها وبينهم وهي بجانبهم هناك في غرفة الطوارئ القذرة والمظلمة للمستشفى. لا يمكن أن تكون صورة القدمين أكثر بلاغة. كانت نظراتهم توحي بعدم الثقة. ظنت لابينيا أنهم لن يتقبلوها مطلقاً. كيف يمكن أن يتقبلوها يوماً ما ويعتقدوا أنها يمكن أن تتعاطف معهم وأن يثقوا ببشرتها الرقيقة وشعرها اللامع ويديها الرقيقتين وأظافرها ذات الطلاء الأحمر؟

أخرجتها فلور من تأملاتها. لقد ظهرت مع الطبيب. رجل في منتصف

العمر حسن المحيا وقوي. أخبرتها أن لوكريثيا بخير. كان عليهم أن يعطوها دماً ويجروا لها كشطاً. من حسن الحظ أنه قد تم نقلها إلى المستشفى في ذلك اليوم. لو كانت قد تأخرت يوماً آخر، لما كان أي جهد سينقذها.

دخلت مع فلور إلى جناح أمراض النساء. كانت الردهة «ز» وهي ردهة طويلة وضيقة وفيها صفوف من الأسرة على كلا الجانبين. تبعتها نساء ذوات وجوه كئيبة بينما كانت تمشي في المنتصف متوجهة إلى السرير الذي تنام عليه لوكريثيا. نظرن إلى ملابسها وحقيبتها نظرة تقييم، ثم نظرن إليها من أعلى إلى أسفل. سارت على رؤوس أصابعها وهي ترغب بأن تبتلعها الأرض وكانت تشعر بالخجل والاجتياح والذنب والتطفل على معاناة أولئك الغرباء.

الوحيدة التي ابتسمت هي فلور عندما شجعتها على الاقتراب لتنحني باتجاه لوكريثيا ولتمد يدها على جبينها. أبلغتها أنها ستُدَوِّنُ رقم السرير لإبلاغ أختها بالأمر. أبلغتها فلور أنها ستكون غداً أفضل بكثير وسيكون بوسعهم زيارتها من الساعة الثالثة إلى الساعة الخامسة مساءً.

عانت لابينيا بعد أيام من ذلك في المكتب من الاكتئاب والفتور وهي ترسم احتماليات ما يمكن أن يكون عليه منزل بيلا.

شعرت أن الحياة كانت متشابكة على نحو لا يمكن السيطرة عليه. كانت حياتاها المتوازيتان تصطدمان وتهزانها مهددتين بمحو كل بقايا الهوية.

لم تغِبْ عن ذاكرتها الليلة التي قضتها في غرفة الطوارئ. كانت تطاردها مثل زيارات المستشفى عند المساء على مدار الأيام الثلاثة التالية عندما كانت تجلس بجوار لوكريثيا مع أختها وابنة أختها في الردهة الكبرى ذات النوافذ العالية في جناح أمراض النساء. لم تستطع أن تنسى وجوه النساء المحاطة بالملاءات البيضاء وهن ينظرن إليها باستغراب ولا يشعرن بالراحة لرؤيتها هناك بينهن.

كان رهيباً أن يكون المرء حتى لو بنية حسنة موجوداً في عالم منقسم على نحو تعسفي، محملاً بالامتيازات إزاء الظلم وأن يشعر المرء بتميزه بالثروة التي هي أشبه بالوسم الذي يفصله عن أصحاب الأيدي والأقدام الخشنة

لأولئك النساء اللائي يرقدن في الأسِرَّة وتتمزق أحشاؤهن بسبب عمليات الإجهاض الفاشلة أو اللاتي يحتضن، كما هو حال لوكريثيا، أطفالاً لم يختاروا مكان ولادتهم بسبب قدر الولادة والتفاوتات الاجتماعية، فينشأون في غرف مظلمة تفوح منها رائحة قطع القماش المقصوصة المتسخة ومتزاحمين بجانب الإخوة والأعمام والآباء والأمهات.

توقف قلم لابينيا عن رسم الأقواس والأبواب. أخذت ترسم الأيادي والأقدام. رفعت رأسها وسمعت أزيز مصابيح الرسم ومحادثات المتدربين وطقطقة فناجين القهوة وصوت مكيف الهواء. ستعود لوكريثيا في ذلك الوقت إلى منزلها سعيدةً بنجاتها من الموت وستشرب طاساً من مرق الكبد وتغسل الكافور من الملاءات وستنتظر عودة أختها من كشكها في السوق لتعجن التورتيلا التي ستخرج الفتاةُ روسا لبيعها مساءً في الحي وهي تصيح بصوتها الضعيف: «تورتيلا، تورتيلا».

كانت لابينيا تتذكر طوال حياتها ومضات من هذا الواقع الآخر وهو يلمّح بمداراةٍ وبخجل: إنها صور غير متحركة ينظر من خلالها الألمُ إليها. لحظات متفرقة قد مضت لكنها منقوشة بصمت في الذاكرة حتى الآن وبدأت تطفو في ضميرها كالزجاجات التي ألقيت في البحر، كرسائل على ضفاف عقلها تهزها.

قالت لنفسها: «لو كنتُ أحدهم، فلن أصدق أي شيء عن شخصٍ مثلي، عن شخصٍ بمظهري، لا شيء جيد».

- 13 -

بينما كانت تنظر إلى حديقتها حيث نبات السرخس ودوار الشمس المكسيكي، تحدثت سارة بلا توقف عن الوقت الذي تقضيه في شراء الخضار وترتيب الغرف وتغطية الأثاث... قالت: «إنني زوجة صالحة وأحب أن أكون كذلك. إنها سعادة مثل أي سعادة: ترتيب المنزل واستقبال الزوج». قالت إن ما يثير الفضول هو أن تشعر بأنها حبيسة نوع من النعاس في وقت خاص كان فيه أدريانِ بالكاد يشارك. عندما يصل في المساء وبجعبته أخبار العمل والأحداث العالمية، كانت تجد صعوبة في تبديل الدور وإجراء محادثة «ممتعة». تابعت حديثها قائلةً إن الذهاب إلى الفراش وممارسة ألعاب الإغراء التي يحبها أدريان وتمزيق الشرنقة كل ليلة وتحطيم الملاذ الوديع للأعمال المنزلية والطير كفراشة، أي أن تصبح امرأة شهوانية كان يكلفها جهداً أكبر.

«أشعر تقريباً بأن عليَّ التظاهر. يجب أن أبذل جهداً لكسر النعاس وتسريع الوتيرة والاستماع إلى ما يقوله بوجه المهتمة». قالت إن الأمر كان أسهل عندما يغادر وتبقى هي داخل عالمها الصامت في الحديقة والأعمال المنزلية والهدوء الذي شعرت به في المهام اليومية التي تبدو بشكل واضح جداً أنها بسيطة وغير ذات صلة. لقد أحبت حقاً الحياة الممتعة البطيئة لمملكتها: إمبراطورية الحياة المنزلية.

أضافت إن أكثر ما يثير انتباهها هو ذلك الشعور الذي كان يبدو مألوفاً لدى النساء في مثل حالتها. إذ يقضين يومهن وهن يكرسن أنفسهن بشكل واضح لإسعاد الزوج، لكن أولئك الأزواج كانوا يحضرون في الليل ويغادرون في الصباح، فكانوا غرباء في تلك البيئة.

تساءلت سارة عن ربات البيوت وهي تنظر إلى لابينيا «ألم يَكُنَّ في وضع مُرْضٍ منذ قرون وهن قابعات في عالمهن الخاص ويتظاهرن بوجوههن الأنثوية أمام دخلاء الليل فقط من أجل العودة إلى مملكتهن الحرة أثناء النهار؟

قالت سارة «لا أعرف إن كنت قد أوصلتُ الفكرة. بالنسبة للأشخاص مثلكِ، الحياة المنزلية هي صحراء وهذا أيضاً ما يرتئيه الرجال بشأنها. المسألة هي أن المرء يبتكر واحة راحته ويستمتع بما يفعله. بالنسبة لي، أحب التحدث إلى الجزار وتسليني مناقشة الأسعار في السوق وترتيب الحديقة ورؤية نباتات البيغونيا وهي تنمو. إنني أستمتع بالحياة اليومية. ما يجعل المرء يبدأ بالشعور بالغرابة هو مشاركة السرير والحمام والاستحمام مع كائن يأتي ليلاً ويغادر صباحاً ويعيش حياةً مختلفةً جداً».

– قالت لابينيا: «حسناً، الأمر هو ذلك بالضبط. تُسنَد شؤون الحياة اليومية للنساء بينما يهتم الرجال بالأمور الكبرى...»

– قالت سارة: «ما أحاول إخبارك به لابينيا هو أنه على الرغم من أن الأمر قد لا يبدو كذلك، فإن الزوجات يتناسين أيضاً أزواجهن بطريقتهن الخاصة، فيصبح الأزواج دخلاء على العالم المنزلي...»

– قالت لابينيا: «لا تخدعي نفسكِ، سارة. لولا وجود الأزواج في الوسط، لما كانت هنالك ضرورة لربات بيوت، أما تلك الحياة التي تتحدثين عنها، فهي أمر آخر...»

– إنني لا أتحدثُ عن الأزواج الذين لم يعد لهم وجود كرجال، افهميني. الحقيقة هي أنهم موجودون. ما أقوله هو أننا كربات بيوت لدينا طرقنا الخاصة في العمل مثلما يتمتع الرجل بحياة مُرْضية في عمله...»

– قالت لابينيا: «لا أشك في ذلك: لا راتب ولا اعتراف اجتماعي...»

– قالت سارة: «كل من في الحي يحبني ويعرفني ويحترمني. لدي اعتراف اجتماعي وسط أصدقائي...»

– قالت لابينيا: «مثل أي ربة بيت».

– قالت سارة: «لا يزعجني ذلك. كوني ربة منزل هو حالة محترمة.

لا أحاول القول إنني لا أحب ما أفعله، بل أحاول الحديث عن مسألة اكتشاف...»

– قاطعتها لابينيا غاضبة: «الأمر الوحيد الذي اكتشفتِه هو تقسيم العمل».

– كلا، لابينيا. ستندهشين من سماع ربات البيوت عندما يتحدثن بعضهن مع بعض عن أزواجهن. إنهن يعاملنهم ككائنات غريبة وكأنهم لا يمتون إلينا بصلة: بالمناقشات حول البقع على مفارش المائدة وبوقت طهي اللحم وبالعناية بالحدائق... الغريب هو أن الرجال يعتقدون أنه عالم موجود لأجلهم وأعتقد بصراحة أنه لا يوجد مكان آخر يكونون فيه أقل أهمية رغم أن كل شيء يبدو كأنه يدور حولهم. تعود المساحة التي تحتلها ربات البيوت، على عكس ما يفترضه الجميع، إلى طبيعتها فقط عندما يذهب الرجال إلى العمل في الصباح، فهم من يتسبب في التوقف العَرَضي عن شغل تلك المساحة.

– قالت لابينيا: «وسبب وجود تلك المساحة. أي امرأة ذات نزعة نسوية تستمع إليكِ ستغضب...»

– «ألا ترين الأمر هو وسيلة للنساء لاحتواء بعض المناطق...؟»

– قالت لابينيا بشكل قاطع: «كلا. يبدو لي أن النعاس الذي تتحدثين عنه ورؤية الرجل على أنه دخيل هما انعكاسات تمردٍ غير واعٍ».

– لكن ألا تعتقدين أننا نحن النساء لدينا الأولوية على منطقة ذات أهمية كبرى بفضل سلطة حقيقية لا يمكن تصورها... إنها ما يسمى بـ«سلطة ما وراء العرش؟»

– «ذلك اختراع من الرجال...»

– ما يحدث هو أننا لم نمارس هذه السلطة قط كسلطة بل مارسناها كخضوع. ما أثّر فيَّ هو إدراكي أنه لإمبراطورية الحياة المنزلية هياكل صلبة تحت كل هالة خضوع. أخبركِ أن الرجال هم مجرد مراجع لا يمكن تفاديها.

– قالت لابينيا: «ذلك ممكن. ما أظنه هو أنكِ على تماس مع الواقع النسوي لربات البيوت ومع آلياتهن الدفاعية. كان ذلك هو الحال منذ الأزل والحقيقة أنه لم يتغير شيء لمصلحتهن في العالم...»

- قالت سارة: «لديكِ أفكاركِ ولدي أفكاري».

اختارت لابينيا عدم التجادل مع سارة بعد الآن. كان ذهنها مشغولاً بمخاوف أخرى. في فرصة أخرى، ستتعمق في المشكلة. ربما قد بدأت سارة تشعر بعدم السعادة مع أدريان وكانت خائفة من الاعتراف بذلك.

حلَّ وقت الغروب. اجتاح ضوء الشفق الحديقة والأغصان المنخفضة لشجرة الرنف الملكي وسط الفناء. صمتت الصديقتان وغرقت كل منهما في التفكير وهما يرتشفان الشاي المثلج في أقداح زجاجية طويلة.

- سألتها لابينيا في النهاية: «وماذا عن الحياة الاجتماعية؟»

- أجابت سارة: «هنالك الكثير من حفلات توديع العزوبية. يبدو أن جميع صديقاتنا سيتزوجن قريباً... وفي غضون أسبوعين سيقام الحفل السنوي للنادي الاجتماعي. هل قررت أخيراً الذهاب أم أنكِ ما زلت مصممة على عدم تخطي عتبة تلك القاعات والانسحاب من الضجيج الصاخب للتجمعات؟»

- ردت لابينيا: «من المحتمل أن أقوم بذلك. كنت أشعر مؤخراً بالوحدة. أظن أن معاودة ممارسة القليل من طقوس الحياة الاجتماعية لن تجعلني على غير ما يرام».

- قالت سارة: «بالطبع لن تجعلكِ الحياةُ الاجتماعية تشعرين بسوء. يقولون إن النادي سيقوم هذا العام بالإنفاق أكثر مماً اعتادت عليه وسيشارك أكثر من عشرين مبتدئاً. ستستمتعين. إنه مختلف عن نوادي الرقص، لكنه ممتع أيضاً».

- قالت لابينيا: «إنه مشهد عظيم. هذا ما لم يعجبني قط. الشعور بأنني في واجهة عرض متجر معروضة لمن يدفع سعراً أعلى».

- قالت سارة: «لم أشعر بذلك قط». إنها الطريقة المعتادة والطبيعية التي يلتقي فيها الشباب ويعثرون على نصفهم الآخر. لكنكِ الآن قد لا تشعرين بذلك. ستستمتعين بشكل أكبر. سيسأل الناس أين كنتِ.

فكرت لابينيا أنهم لو علموا بالأمر، سيموتون.

بعد تجربتها مع لوكريثيا: الغرفة الصغيرة والأقدام في المستشفى،

سيكون من الصعب الاستمتاع بالرقص. لكن الأمر لم يكن يستحق كي تخبر سارة به، لم يكن ذلك مناسباً حتى من أجل الصورة التي وجب عليها الحفاظ عليها وفقاً لسيباستيان. أصر سيباستيان على أهمية ترددها على مجتمع النادي المزدحم، ليس فقط لأن ذلك مفيد لتغطيتها الاجتماعية السليمة، بل كي تتمكن في تلك الحلقات الاجتماعية من الحصول على معلومات قيمة بالنسبة للحركة، حيث قال: «يهمنا أن نعرف ما يفكرون فيه وما هي خطط هؤلاء الأشخاص».

– قالت لسارة محاولةً أن يبدو الأمر مقنعاً: «قد أشعر بأنني أفضل الآن. بإمكاني الآن أن أكون بعيدة وألا أشعر بأنني موضوع العرض السنوي».

– قالت سارة: «يمكننا الذهاب للرقص معاً إن كانت لديك رغبة بذلك. إنني متأكدة من أن أدريان سيكون سعيداً بأخذنا معاً... وفيليبي، ألن ينزعج؟ لا أعتقد أنه يستطيع مرافقتنا...»

فكرت لابينيا: «كلا، بالطبع. لن يتم قبول فيليبي. إن القبول في النادي هو مسألة إجراء. لا يقتصر الأمر على ضرورة وجود المال لدفع المبلغ الكبير للانضمام، بل من الضروري اجتياز تدقيق مجلس إدارة النادي. لقد اجتمعوا وناقشوا باستفاضة نسب المتقدمين وصوتوا بالكرات السوداء والكرات البيضاء. لم تُقْبَل حتى القيادات العليا للجنرال الكبير. كان معظم الأرستقراطيين من الفريق الأخضر. اعتُبِرَ الفريق الأزرق الذي يتزعمه الجنرال الكبير وأعضاؤه «رعاعاً» و«حراساً غير متعلمين» و«أغنياء جداً». على الأقل في الحياة الاجتماعية، احتفظ التابعون للفريق الأخضر بالسلطة. بدا الأمر كافياً بالنسبة لهم. ابتسمت وهي تتذكر المعايير اللامعقولة للانتخاب. قالت لابينيا:

– «لا تفكري في ذلك حتى. لن يتلقى فيليبي سوى الكرات السوداء إذا طلب أن يتم قبوله. لكن، بالطبع بالنسبة له، لم يخطر بباله ذلك. لا أعتقد أنه مهتم على الإطلاق»، وابتسمت وهي تتخيل تعليقات فيليبي.

– قالت سارة: «مَنْ يعرف!». الأشخاص من ذوي الأصول المتواضعة مثل فيليبي والذين أصبحوا محترفين يقدمون بشكل عام أي شيء من أجل

أن يكونوا أعضاءً. بالطبع، لن يقبل هو ذلك لأنه يعلم أيضاً أنه ليست لديه ولا حتى الاحتمالية الضئيلة للقبول. سيكون الأمر مختلفاً لو تزوجتما...»

- قالت لابينيا دون التمكن من إخفاء انزعاجها من كلمات صديقتها: «إنك تعتقدين أنه لدى جميع السكان رغبة في الانتماء إلى النادي الاجتماعي، أليس كذلك، سارة؟»

- أجابت سارة: «لا أرى أن هنالك سبباً لعدم رغبتهم بذلك. في حالة فيليبي، هو شاب مهني وسيكون ذلك ميزة كبيرة لمسيرته. لا يجهل أحد أن كل الأشخاص المميزين في هذا البلد يذهبون إلى النادي».

- قالت لابينيا بسخرية: «ربما، إذا جعلته يفهم أنه من الممكن أن يُقْبَل في النادي إذا تزوج مني، سأقترح عليه الزواج».

- قالت سارة: «لا يمكنك إنكار أن الأمر يناسبه أكثر مما يناسبكِ».

فكرت لابينيا أنه ما من فائدة من مواصلة الحديث مع سارة بهكذا أفكار وإصرار ومن الاستماع إليها ورؤيتها وهي تصغر في عينيها.

- وقفت على قدميها وقالت: «إنها الساعة السادسة تقريباً وما زال علي أن أذهب للمتجر للتسوق. ليس لدي ما آكله في منزلي».

- سألت سارة: «هل اتفقنا على أن تذهبي معنا للرقص؟»

- قالت لابينيا ساخرة: «لا أعرف ما إذا كان عندي فستان مناسب. كل ما لدي معروف بالفعل...»

رافقتها سارة إلى الباب وأخبرتها ألا تشغل بالها بشأن الفستان دون أن تتهم لابينيا بالسخرية. كان ذلك أقل ما في الأمر. بوسعها أن تسمح بالأمر لأن الجميع سيكونون سعداء برؤيتها وأنهم لن ينتبهوا لذلك حتى.

- فكرت لابينيا وهي تدخل المتجر مكتئبة أنه بوسعها السماح بذلك. لقد فكرت في سارة وفلور، في الحياة المختلفة جداً لكل منهما عن الأخرى.

نظرت إلى الداخل النظيف والمشرق للمتجر. شَكَّل افتتاحه مؤخراً حدثاً اجتماعياً. لقد كُتِبَ عنه في الصحف «إنه الأكثر تنوعاً في العاصمة.»

«لا داعي لتمني التسوق من متجر *أميركي*». أخذت العربة الجديدة اللامعة ومشت وهي تدفعها عبر الممرات مستقبلةً موجة جاذبية الأشياء: العلب المكتوب عليها باللغتين الفرنسية والإنكليزية والهلام الملون في العبوات الزجاجية الرقيقة والمحار المدخن والحبار في حبره والكافيار الأحمر والكافيار الأسود.

اشترت خبزاً ولحم خنزير وجبناً. في تلك الساعة كان هنالك عدد قليل من الناس في المتجر.

كان عدد قليل من النساء يتناقشن حول أغذية الأطفال في ممر الأطفال.

فكرت في النساء اللائي تحدثت عنهن سارة وتذكرت نظريات صديقتها.

اهتمت بها أمينة الصندوق بسرعة وهي مبتسمة بينما كانت تعدد لها الحاجيات القليلة التي اشترتها. لم تقل شيئاً. تساءلت لابينيا في قرارة نفسها «هل كان من الممكن أن تخبرها بأنها متعبة ومكتئبة من شعورها بأنها كانت تبتعد بسرعة عن سارة وعما اعتادت أن تعتبره طبيعياً دون أن تعرف أين ستتوقف، ينتابها شعور بأن الأشخاص الذين تريد الآن القتال من أجلهم لا يتقبلونها أيضاً؟ بالطبع كلا». كانت المرأة تنظر إليها بعدم ارتياح وهي لا تعرف ماذا تقول لها معتبرة ثقتها في غير محلها، متزعزعة.

لقد غادرت المتجر. جاء صبي حافي القدمين يرتدي سروالاً مرقعاً راكضاً باتجاه سيارتها. قال لها: «لقد اعتنيت بالسيارة» ومد يده لها. أخرجت لابينيا بعض النقود المعدنية وسلمتها له. كانت للفتى عينان سوداوان مفعمتان بالحيوية. فكرت لابينيا بأنه لربما ستسنح له الفرصة ليكون طبيباً أو محامياً وهي تضع هذه الصورة إلى جانب الصور الأخرى. لم تفهم بوضوح ما الذي كان يحدث لها. كان الشارع كله يصرخ وتغير المشهد. كان كل ذلك، تلك الحالة من الأشياء موجودة هنالك منذ أن كانت طفلة وكانت دائماً تراها، حتى إنها تذكرت العمة إينيس وهي تشير إلى التناقضات بدءاً من الأعمال الخيرية المسيحية. لقد سارت في تلك الشوارع غير مبالية وسط صخب أصدقائها وهم قادمون وذاهبون إلى الحفلات وإلى التنزه. إذا كانت تترفع عن النوادي والصالونات الفاخرة فذلك نابع من موقف «فلتحيَ الفضيحة».

أما الآن، فالأحاسيس مختلفة وحادة ونفاذة. كان الأمر كما لو أنها قامت في المسرح الهائل بتغيير المقعد المريح للمشاهد بسبب هيكل الألواح الخاص بالممثلين وحرارة المصابيح والمسؤولية عن معرفة وجوب انتهاء المسرحية بنجاح، بالتصفيق.

ساد الظلامُ أشجارَ البلوط في الشارع. دخلت في كآبة البيت وهي تفكر في الأحاسيس الجديدة التي أحسّت بها منذ أن أصبحت جزءاً من النسيج الباطني وغير المرئي للرجال والنساء الذين لا تعرف ملامحهم، تلك الكائنات القابعة.

لقد فكرت كم سيكون مختلفاً حضورها للرقص الآن وكم سيكون متناقضاً أن يطلبوا منها الحضور وأن يتسللوا إلى حياتها الخاصة.

وضعت كيس المتجر على طاولة المطبخ. قبل حفظ المشتريات في الثلاجة، أخرجت الخبز ولحم الخنزير والجبن وأعدت شطيرة. خرجت إلى ممر الفناء لتناول الطعام وقراءة الصحيفة.

لن يأتي فيليبي اليوم. كانت تشعر به في الأوراق وفي الهواء. كانت تثق بحدسها وبقدرتها على قراءة البشائر في ثقل الجو والطريقة التي تتحرك بها الأزهار وفي اتجاه الرياح.

كانت تفكر «لن يأتي فيليبي اليوم وكان الأمر أفضل هكذا»، فهي متعبة.

كانت ومضات أضواء النجوم تُرى من بعيد كأنها عيون مهجورة، إنها ثقوب الكون. فكرت لابينيا «إنني وحدي، أنظر إلى الهاوية المعتمة الشاسعة. إنني وحدي وما من أحد بوسعه أن يخبرني على وجه اليقين ما إذا كانت أفعالي خاطئة أم صائبة. المخيف في تسيير الحياة الشخصية هو ذلك الجوهر الجلي - المعتم وهو يمضي عبر زمنٍ كانت مدته فرصة مثل كل الأمور الأخرى.

***

لن تغادرَ الأرض بعد الآن كالزهور التي ماتت بلا أثر. كانت تنظر إليّ متخفيةً في ظلمة الليل. ثمة نذر. كانت تتقدم مخرجة في النهاية سلاحها

الأبيض وحجر السج والبلوط. لم يبقَ سوى القليل من تلك المرأة النائمة التي أيقظتها رائحة أزهار البرتقال الخاصة بي من النوم الثقيل الذي يسببه الفراغ. أخذت لا بينيا تلامس ببطء قرارة نفسها لتصل إلى المكان الذي تنام فيه المشاعر النبيلة التي تهِبُها الآلهة للإنسان قبل أن ترسلنا للعيش على الأرض ولزرع الذرة. كان وجودي بمنزلة سكين يقطع دابر لامبالاتها، لكن داخلها كان بالفعل مفعماً بمشاعر خفية تجلّت الآن وستلحن يوماً ما الأناشيد التي ستخلدها لتعيش بلا موت.

- 14 -

وصلت السيدتان بيلا إلى المكتب في اليوم التالي.

مسحت لابينيا أنفها بالمنديل. كانت تعطس كثيراً في موسم الأمطار.

- سألتها الأخت العانس: «أتعانين من نزلة برد؟»

- أجابت لابينيا وهي تضع دفتر الملاحظات على المكتب: «إنها الحساسية».

- قالت السيدة بيلا: «يعاني زوجي أيضاً من الحساسية. يجب أن يتوخى المصابون بالحساسية الحذر في هذا الوقت من السنة. ثمة حبوب لقاح كثيرة تنتشر في الجو».

كان الجنرال بيلا يعاني من حساسية من حبوب اللقاح.

- سألت العانس واسمها أثوثينا: «كيف تسير أفكار الموضوع؟»

أخرجت لابينيا التصاميم الأولية.

- لقد عملتُ قليلاً منذ محادثة ذلك اليوم. هذه بعض الغرف الأساسية. إنها مجرد أفكار للبدء. سيكون للمنزل ثلاثة طوابق للاستفادة من منحدر الأرض وتقليل حركة الأرض. بالنسبة للطابق العلوي، فهو المنطقة الاجتماعية، تليها منطقة السكن ثم منطقة الخدمة.

كانت تشير إلى المدخل الرئيسي على الخريطة وإلى نظام السلالم للانتقال من طابق إلى آخر. ستطل كل الطوابق إطلالة جيدة على المنظر الطبيعي، بما في ذلك الطابق الخدمي.

كانت السيدة بيلا قد ارتدت نظارات ذات إطار سميك تتلألأ فيها الحجارات الصغيرة. عبست وهي تتبع خطوط التصميم بإصبع السبابة كما لو كانت تتخيل نفسها تتجول في المنزل.

كانت الآنسة أثوثينا تنظر باهتمام إلى الخريطة وإلى أختها بالتناوب. كانت ترفع رأسها بين حين وآخر وتبتسم.

كانت من هؤلاء الأشخاص الذين يسعون جاهدين ليكونوا لطفاء دوماً. يبدو أنه لم تكن لديها مصالح شخصية وتعيش لتلطيف حياة الآخرين ومن أجل تجنب المشاكل والاحتكاك.

ثمة مزيج من الشفقة والتعاطف كانت تُلْهِم لابينيا.

– قالت السيدة: «أراك تضعين مكتب زوجي بجوار غرفة المعيشة...».

– ردت لابينيا: «نعم، كي يحظى بمنظر جيد».

– «لكن يبدو لي أنه من الأفضل وضع غرفة الموسيقى التي تم وضعها في الخلف. لا يقرأ زوجي كثيراً، بل يحب الاستماع إلى الموسيقى أكثر. إذا ما قرأ كتاباً، فإنه يقرأه في السرير أو في غرفة المعيشة...»

– قالت الآنسة أثوثينا مستفيضة في الحديث: «إنه ليس من القراء المولعين بالقراءة...»

– سألت السيدة بيلا: «ألا يمكن أن يكون البلياردو إلى جانب المنظر أيضاً...؟»

– أجابت لابينيا: «حسناً، لم يعد هنالك من الناحية العملية مساحة تكفي بجوار المنظر».

– قالت السيدة بيلا: «لكن انظري إلى المنطقة الخدمية بأكملها: إنها تبديد. بما تحتاج الخادمات المناظر...»

– وضحت لابينيا: «إذا صممنا منطقة الخدمة في الداخل، سنواجه مشاكل في التهوية». ثم أضافت كي لا تبدو منشغلة بشأن التدبير المنزلي: «ولن تجف الملابس في الشتاء».

– قالت السيدة بيلا: «لا أعتقد ذلك. هناك نوافذ على الجانبين».

– أصرت لابينيا قائلة: «لكن الهواء لن يدور بشكل كافٍ».

– القليل من الحرارة ليس بمشكلة كبيرة... بإمكانهن نشر الملابس على حبل الغسيل وإدخالها داخل المنزل عندما يبدأ المطر.

- سألت أثوثينا: «ماذا لو تم نقل منطقة الخدمة إلى الجزء الخلفي من الطابق الثاني؟»

- وافقت لابينيا قائلة: «بوسعنا المحاولة. كما أخبرتكما، إن ذلك هو مجرد مخطط أولي...»

- قالت السيدة بيلا: «فَلْنُحاول».

أوضحت لابينيا أنه بالكاد تم التلميح إلى منطقة المعيشة، لأنها كانت بحاجة إلى معرفة المزيد عن عادات الأسرة.

في تلك اللحظة دخل خوليان.

جلست المرأتان على المقعدين وابتسمتا برفق. كانت أساور السيدة بيلا تصدر صوتاً بينما كانت تقوم بحركة ترتب فيها خصلة شعرها.

لقد أحبتا لابينيا، لكن خوليان كان رجلاً.

- سأل متلطفاً: «كيف حالكما؟»

- قالت أثوثينا: «إننا نبدأ ويبدو أن كل شيء سيسير على ما يرام. للآنسة ألاركون أفكارٌ مثيرة للاهتمام».

- قالت السيدة بيلا: «مثيرة جداً للاهتمام».

- ابتسم خوليان وهو يقترب من الخريطة وقال: «لا أشك في ذلك».

- قالت لابينيا: «كنت أشرح لهما فكرة الطوابق». لقد أرادتا أن أجِدَ طريقة لتحديد موقع غرفة البلياردو كي تكون لها نافذة تطل على المنظر الطبيعي. المشكلة تكمن في تهوية منطقة الخدمة...»

نظر خوليان باهتمام إلى الرسم التخطيطي بينما كانت لابينيا تشير إلى إمكانيات تحديد موقع غرفة الغسيل وغرفة الكي وغرفة التدبير المنزلي. كانت المرأتان مهتمتَّين بتعبير خوليان كما لو كان إلهاً يوشك أن يصدر حكماً. تذكرت لابينيا الحوار الذي دار مع سارة. كيف بإمكانها أن تصدق أن الرجال ليسوا مهمين لربات البيوت؟

- قالت أثوثينا: «الجنرال بيلا مولع جداً بالبلياردو منذ نعومة أظافره».

- قالت السيدة بيلا وكانت توافق اختها الرأي: «إنها طريقته في تسلية نفسه: بمجرد عودته إلى المنزل يقضي وقته بلعب البلياردو...»

تخيلته لابينيا رجلاً سميناً يرتدي قميصاً ويقوم بتحديد الكرات المتعددة الألوان متناسياً «مشاغل» اليوم: الغارات والهجمات والفصائل التي تطارد المحاربين في الجبال والقرى المحترقة بالنابالم. ما الذي يفكر به أثناء لعبه البلياردو؟

– قال خوليان: «أستوعب كونها فكرة جيدة أن يكون هنالك نافذة كبيرة تطل على المنظر الطبيعي. أعتقد أن الأمر لن يكون بهذه الصعوبة. يمكن وضع منطقة الخدمة في الطابق الأول أو الثاني أو يمكننا دراسة بديل آخر للتوزيع المكاني. كما أوضحت لكما لابينيا بالتأكيد، إنه مجرد رسم أولي. ما يهمنا أكثر في هذه المرحلة هو معرفة كيف يبدو لكما النمط المعماري، فكرة البناء بعدة طوابق».

– قالت السيدة بيلا: «بالنسبة لي، تبدو الفكرة جيدة. إنني متأكدة من أنها ستُعجِبُ زوجي».

– سألت لابينيا وهي تتوجه صوب الباب: «ألا تودون أن ترتشفوا القهوة؟»

– قالت أثوثينا: «كلا، لا شكراً. إننا نشرب القهوة فقط في الصباح. نذهب إلى الفراش مبكراً. لن ننام إذا شربنا القهوة في هذا الوقت. شكراً جزيلاً».

– قال خوليان: «بالنسبة لي، نعم. اطلبي لي القهوة من فضلك».

عادت لابينيا بعد أن طلبت من سيلبيا القهوة. أعدت قائمة مفصلة بالأسئلة المتعلقة بالعائلة لتحديد تصميم الغرف وحجمها.

– سألتها: «أخبَرْتِنِي أن الولد الأكبر يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، أليس كذلك؟ والبنت تسعة أعوام؟»

– أجابت السيدة بيلا: «نعم، إنه كذلك. تذكري ما قلته لكِ عن غرفة الفتى ذات الديكورات التي تحمل لمسة الطيران؟ ذلك مهم».

– قالت الآنسة أثوثينا: «إنه فتىً أثيري جداً وزوج أختي يائس من حبه للطيور. يقول إنه إذا جذب انتباهه شيء يطير، فسيفكر في الطائرات».

– قالت السيدة بيلا: «إنه يحب الطائرات، نعم يحبها، وشددت النبرة على «نعم» وهي تنظر نظرة عدم رضاً إلى شقيقتها. ثم تابعت حديثها: «ما تخيفه هي المروحيات».

- قامت الآنسة أثوثينا بالتصحيح: «أجل، نعم. ذلك صحيح. ستعجبه الغرفة ذات الديكورات المتعلقة بالطيران».

- قالت السيدة بيلا وهي تنهي النقاش الغريب حول الطيور والطائرات: «لا نريد أن تكون الفتاة والصبي قريبين جداً بعضهما من بعض، حيث إنهما يتشاجران كثيراً نظراً لفارق السن، كما أن الأمر غير مناسب في المستقبل عندما تصبح الفتاة شابة».

- عقبت أثوثينا قائلةً: «بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يكون لكل واحد حمام مستقل خاص به».

- سألت لابينيا: «بالنسبة لغرفة الفتاة، هل لديكم أي أفكار خاصة؟»

- قالت السيدة بيلا وهي تبتسم ابتسامة تآمرية: «أعتقد أنه يجب أن تكون أكبر بعض الشيء، فكما تعلمين، تستخدم النساء مساحة أكبر. سيكون التصميم الذي يعنى بالشكل الخارجي ملائماً».

- سألت لابينيا مبتسمة وأومأت برأسها: «وزوجك، ألا يريد رؤية الرسم التخطيطي؟»

نظر إليها خوليان نظرة خاطفة بطرف عينه ولم يقل شيئاً.

- قالت السيدة بيلا: «ليس الرسم التخطيطي، بل إنه يريد أن يرى مسودة المخطط الكامل».

أضافت أثوثينا: «يريد منا الاهتمام بالتفاصيل. إنه رجل مشغول جداً. يسافر كثيراً إلى جميع أنحاء البلد. من الأفضل أن نوفر عليه العمل».

واصلت لابينيا ابتسامتها بشكل غير محسوس أثناء عودتها إلى مكتبها بعد توديع الأختين بيلا. في الواقع، لم يكن يُصَدَّق كل ما كان بوسعها معرفته عن الأشخاص عندما صمَّمَت لهم المنزل.

كان عليها أن تأخذ سيباستيان عند الركن بالقرب من إحدى دور السينما في الحي.

- قالت فلور: «في تمام الساعة السادسة بالضبط، لا دقيقة أكثر ولا دقيقة أقل».

في راديو السيارة، قامت بضبط إذاعة مينوتو. كانت الإذاعة تشير دقيقة

بدقيقة إلى الوقت الذي يستخدمونه كتوقيت رسمي للحركة. في نهاية الموسيقى، كان هناك دقات متواصلة. كان الصوت الميكانيكي يعلن الوقت كل دقيقة.

اتّباعاً للتعليمات، تجولت لابينيا بلا هدف لبعض الوقت للتأكد من عدم اتباع أحد لها. كان من الصعب عليها أن تعتاد على النظر المستمر لمرآة الرؤية الخلفية. شعرت أن ذلك غير ضروري. من سيشك بها؟ لكن فلور كانت دائماً شديدة الإصرار على ضرورة الامتثال حرفياً للتدابير الأمنية وعلى عدم الثقة بأحد أبداً ولم تكن تريد أن تخفق. كانت تسعى جاهدة إلى عدم تجاوز أي دقيقة من دقائق الأمور بغية التأكد من أن السيارة الحمراء انعطفت عند الركن ولم تواصل السير خلفها.

لقد أخطأت في تقدير الوقت. وصلت إلى مكان الموعد قبل خمس دقائق من الوقت المقرر ولم ترَ سيباستيان، بل فقط عدد قليل من المارة أمام كشك بيع في الشارع.

في الإذاعة وتزامناً مع نهاية الدقات، كانت جانيس جوبلين تغني *أنا وبوبي ماك* جي. أضافت الدقات دقة طوارئ للموسيقى. عبرت العديد من الأركان والشوارع. بدأ الظلام يحل على المدينة: كانت النساء جالسات على الكراسي الهزازة على جانب الشارع يستنشقن الهواء النقي وكانت الحياة -كانت كلابهن وقططهن والأطفال يلعبون لعبة قفز المربعات المرسومة بالطباشير على الأرصفة- تواصل مجراها نهاراً وليلاً ولم تنته تلك الدقائق الخمس.

وأخيراً أعلن صوت المذيعة: «إنها الساعة السادسة مساء بالضبط». استدارت إلى الركن في شارع السينما. كان سيباستيان يرتدي قبعة سائق شاحنة وموجوداً في المكان المتفق عليه.

اقترب من السيارة حتى توقفت بجانبه. أخرجت رأسها من النافذة متظاهرةً بالتعرف على صديق وبإلقاء التحية عليه. اقترب سيباستيان متظاهراً أيضاً بلقاء قد حدث بالصدفة.

- سألته: «إلى أين أنت ذاهب؟»

ذكر لها مكاناً قد خطر له غير المكان المقصود.

- قالت: «بوسعي إيصالك لو أردت ذلك».

ركب سيباستيان السيارة وغادرا.

- سألها: «هل تأكدتِ من أمورك جيداً؟»

- لقد تأكدتُ جيداً وأكثر من اللزوم. منذ ما يقرب من خمس عشرة دقيقة وأنا أجوب الشوارع، إذ وصلتُ مبكرة جداً.

- قال: «هذا أفضل من التأخير. ستعتادين على حساب الوقت بشكل جيد. إن وصولك مبكرة أو متأخرة هو أمر ليس بجيد، كما أن لفك الشوارع هو أمر مريب. لذا، فإن أفضل شيء في حال وصولك مبكرة هو القيام بجولة طويلة خارج منطقة الاتصال والعودة قبل دقيقتين أو ثلاث دقائق من الوقت المتفق عليه. عليكِ أن تفهمي المعنى الحقيقي للكيلومترات في الساعة وأن تعرفي المدينة جيداً. لكنك ستتعلمين كل ذلك شيئاً فشيئاً. ما حصل في البداية هو أمر طبيعي. إسلكي الآن الطريق الجنوبي ولا تنسي التأكد من مرآة الرؤية الخلفية إن كان أحد يتتبعكِ. كيف تسير أمور منزل بيلا؟»

- «لقد قمنا بالفعل بتسليم الرسم التخطيطي. اقترحتُ على الزوجة أن تذهب إلى منزلها لتشرح الأمر للجنرال، لكنها قالت إنه من الأفضل الانتظار لحين الحصول على المخطط. على ما يبدو، إن بيلا في سفرة داخل البلد».

- قال سيباستيان: «إنه يقود أعمال مكافحة المتمردين. كم من الوقت يستغرق بناء المنزل؟»

- ردت لابينيا: «حسب الظروف. من لحظة الموافقة على المخططات. قد يستغرق الأمر ستة أشهر أو ثمانية أشهر، يعتمد ذلك على كفاءة المقاول».

- إذن، إذا تمت الموافقة على المخططات الشهر المقبل، قد يتم الانتهاء من المنزل في كانون الأول؟

- نعم.

التزم سيباستيان الصمت.

- قالت لابينيا مفتخرةً بالمعلومات التي تقدمها: «الجنرال بيلا يعاني من

حساسية من حبوب اللقاح. إنه يلعب البلياردو بعد العمل ولا يحب القراءة ويفضل الاستماع إلى الموسيقى. يبدو أن ابنه المراهق يحب الطيور وهذا الأمر يخيب أمله. يريد بيلا تغيير هواية الصبي إلى الطائرات، لكن الفتى يخاف من الطائرات المروحية... تأوي الأُسرة إلى الفراش مبكراً».

– قال سيباستيان مبتسماً «جيد جداً... جيد جداً». لا تقتربي كثيراً من السيارة التي أمامك. عليك دائما أن تحافظي على وجود مسافة هامشية للمناورة في حالات الطوارئ، لاسيما عندما يكون في سيارتك راكب متوارٍ عن الأنظار».

طبّقت لابينيا تعليماته. شعرت بموجة من الخوف، بالأدرينالين يزداد ويتناقص. من السهل جداً نسيان أن سيباستيان كان عضواً متوارياً عن الأنظار في الحركة والتفكير بأنها برفقة شخص مثلها ليست لديه مشاكل كبيرة. نظرت إلى مرآة الرؤية الخلفية مسترجعةً شعورها بالانتباه ومندهشةً من كونها هي مَنْ ينقل في سيارته هذا العضو المتواري عن الأنظار.

– استأنف سيباستيان الحديث قائلاً: «من الآن فصاعداً، ستكتبين تقريراً عن كل اجتماع من اجتماعاتك معهما. حاولي القيام بذلك في أقرب وقت ممكن بعد كل اجتماع. هناك تفاصيل مهمة قد يجوز نسيانها إذا تركت مرور وقت طويل. اكتبيه لنا بنسخة واحدة ولا تنسخيه ولا تذكري أسماءً فيه وسلميه لي أسبوعياً. وكما أخبرتكِ فلور، فإن لكل تفصيل من التفاصيل أهميته. عند تقدمكم بالمشروع، أصري على الالتقاء بالجنرال بيلا في منزله، كما يمكنكِ أيضاً محاولة الاقتراب من أخت زوجته، العانس، وطوري العلاقة معها.. اكسبي ثقتها.. هل أنتِ مستعدة للرقص؟»

– نعم، لكنني لست متأكدة مما يُفترض بي أن أفعله هناك.

– كوني لطيفة.

– آي، سيباستيان، لا تمزح...

– إنني لا أمزح. أقول لكِ ذلك بجدية. عليكِ أن تعطي انطباعاً بأنكِ سعيدة بالحضور للرقص وبالعودة لتلك المجتمعات. من المهم أن يظن معارفك أن افتراض التمرد بدون سبب قد ولّى. ذلك هو الأهم. بالنسبة

للباقين، عليكِ أن تكوني منتبهة بالاستماع إلى تعليقات الناس وأي شيء يبدو لكِ مفيداً. عليكِ قياس الأمر عندما تكونين هناك، كما عليكِ تعلم كيفية تطوير عقلية المؤامرة لديكِ والحصول على المعلومات».

تغير الطقس بمجرد صعودهما الطريق الجبلي. دخلت رياحٌ باردةٌ عبر النوافذ وهزت الأشجارَ المائلة على قارعة الطريق المظلم.

- سألها مُغَيِّراً لهجته وخلع قبعة سائق الشاحنة: «وما هو شعورك؟»

لقد فاجأها سيباستيان. كان في داخله مزيج ثابت من الصلابة والحنان. كانت نبرته فيما يخص الأمور المتعلقة بالحركة نبرة تنفيذية وحازمة ودقيقة. خَفَّت تلك النبرة بشكل ملحوظ عندما اتخذ الحديث منحى المواضيع الشخصية.

- أجابته: «إنني بخير».

- قال: «أعلم أنكِ بخير، يبدو ذلك عليكِ. لكن ما هو شعورك؟ كيف تسير التباساتك؟»

- قالت: «عادي»، وهي تفكر في سارة والرقص وتعليقات الأصدقاء والأقدام في المستشفى ولوكريثيا: الأمور التي كانت تبدو بالنسبة إليها تفاصيل غير ذات أهمية وأنها ستجعله يمل.

- وكيف كان رد فعل فيليبي عندما علم بارتباطك؟

- في البداية، لم تكن ردة فعله جيدة. قال إنني غير ناضجة وإنه كان يفترض بي أن استمر في التعاون من خلاله، لكنه في نهاية المطاف، قد تقَبَّل الأمر.

- سيكون من الجيد أن يَختَرِع «مقياساً للنضج». لربما يخرجوننا جميعاً من الحركة...

ثم ضحكا.

- ينبغي عليكِ الآن أن تحرصي على عدم الوقوع في إغراء استشارته بشأن مهامك. من الجيد أن يكون على علم بشكل عام بأمر منزل بيلا، لكن يجب عليكما الحفاظ على التقسيم. بهذه الطريقة سيتعلم احترامك وسيدرك ما إذا كنت ناضجة أم لا. نحن الرجال وبصورة عامة نجد صعوبة في قبول

مشاركة أشياء معينة مع النساء. تؤثر فينا الروح التنافسية. هناك درجة من الرضا في الشعور بالأهمية أمام المرأة التي يحبها الرجل. إنها الذكورية، إنكِ تعرفين...

– ابتسمت لابينيا وهي تنظر إليه وقالت: «إنك لا تبدو ذكورياً...»

– «بالطبع أنني ذكوري. ما يحدث هو أنني أخفي ذلك بشكل أفضل من فيليبي. فأنا أيضاً أود أن تكون زوجتي بانتظاري...»، قال لها ذلك بنبرة ساخرة بعض الشيء.

سألته لابينيا إن كانت لديه زوجة، إذ لا تعرف عنه أي شيء. بإمكانها فقط استنتاج أصله المتواضع من خلال التفاصيل: كان يلفظ الثاء سيناً وهي اللهجة الخاصة بالريفيين وبأشياء كان يقولها على الرغم من أنه لم يُجِبْ قط على الأسئلة الشخصية.

– إنك لا تعطيني هذا الانطباع. أخبرتني فلور كيف أدخلتها للحركة...

– جميعنا ذكوريون متحيزون لجنسنا، يا لابينيا، وحتى أنتن النساء متحيزات لجنسكن. المسألة هي أن ندرك أننا لا يجب أن نكون كذلك. لكن ثمة مسافة طويلة تفصل الأقوال عن الأفعال. إنني أحاول...»

– قاطعته لابينيا قائلة: «لا أوافقكَ الرأي على كون النساء متحيزات لجنسهن. ما يحدث هو أنكم تعودتم منا على نوع معين من السلوك...»

– إنها القضية الأزلية للدجاجة والبيضة. من هو الأول، البيضة أم الدجاجة؟ الأمر المؤكد هو أن المرأة تعلم أبناءها أن يكونوا ذكوريين وأقول لكِ ذلك من تجربتي الخاصة.

– إنني لا أنكر ذلك، لكننا كنساء غير متحيزات لجنسنا، لذا يتولى الرجال إصلاح العالم... وما زالوا يريدون إلقاء اللوم علينا... هل لكَ أن تغلقَ نافذتكَ قليلاً؟ أشعر بالبرد.

– قال سيباستيان وهو يغلق النافذة: «لا أعرف، لا أدري. لو كنتُ امرأة، أظن أنني كنت سأحاول غرس تصرف آخر في داخل أولادي حتى لو كان الأمر بدافع المصلحة الشخصية».

- أظن أنك كنت ستتصرف مثل والدتكَ تماماً...

- قال: «ذلك محتمل. هذه الأمور هي موضوع لنقاشات لا تنتهي. الأمر الوحيد الواضح بالنسبة لي هو وجوب بذل جهود لتغيير ذلك الوضع. تطرح الحركة في برنامجها تحرير المرأة. وعليه، أحاول تجنب التمييز تجاه الزملاء، لكن ذلك صعب. ما إن يجتمع الرجال والنساء معاً في منزل آمن، تتولى النساء الأعمال المنزلية دون أن يطلب منها أحد ذلك، إذ يتصرفن كما لو كان الأمر طبيعياً ويتجولن ويسألن رفاقهن إن كانت لديهم ملابس متسخة لغسلها...» أضاف قائلاً: «عليك أن تسلكي ذلك الطريق الذي ترينه هنالك على اليمين».

لقد مرا عبر طريق ضيق غير معبد يمر عبر مزارع البن واليوكا. غطت الرطوبة نوافذ السيارة كالضباب. كانت لابينيا تفكر «إلى أين نحن متجهون؟» وهي تتعرف على منطقة مزارع البن بالقرب من منزل جدها.

- دعيني أنزل هنا.

توقفت فجأة مندهشةً. لم تكن هناك منازل مجاورة، لا شيء.

- سألته وهي مربكة: «هل ستبقى هنا؟»

- لا تقلقي. سأذهب إلى مكان قريب من هنا. يمكنني إكمال باقي الطريق سيراً على الأقدام.

- ألا تريد أن آتي لأخذكَ؟

- كلا، سيتركونني هنا.

فكرت لابينيا «هنا» أرض قاحلة. ربما هنالك منزل عند المواصلة إلى الأمام. كانت غير مرتاحة لتركه بمفرده في هذا الطريق الضيق والبارد.

- قال سيباستيان: «يمكنكِ أن تستديري هناك. سأنزل لأرشدك» وأشار إلى توسيع الطريق.

نزل وأشار إلى كيفية الرجوع إلى الفضاء الضيق.

عندما كانت السيارة بالفعل في الاتجاه المعاكس، اقترب من النافذة.

- قال وهو يمسح براحة يده على رأسها: «أراكِ لاحقاً، شكراً جزيلاً. لا تنسي التقرير. سأخبركِ عن طريق فلور متى سنلتقي مجدداً».

– قالت لابينيا: «اعتنِ بنفسك، هذا المكان موحش للغاية».
ابتسم سيباستيان وبلغها بالذهاب ملوحاً بيده بإيماءة الوداع.
– تمكنت من سماعه وهو يقول لها: «ارقصي كثيراً في الحفلة».

في طريق العودة، زيّدت لابينيا السرعة. كانت المنحنيات تلي بعضها بعضاً. كانت تحب السياقة على الطريق السريع في الليل. كان ذلك يُشْعِرُها بإحساس بالحرية. شعرت بالسعادة وبالرضا عن نفسها. في النهاية شعرت بالفائدة. فكرت لابينيا فجأة «في ما الفائدة؟» بينما تذكرت وجه أثوثينا وعينيها المفعمتين بالحيوية اللتين كان يبدو عليهما الرضا والمنشغلتين بإصلاح علاقات أختها وتقريب المسافات بين عائلة بيلا والعالم.

تساءلت «ما الغرض من وراء تزويد الحركة بمعلومات حولهم؟ في الوقت الذي انتابها فيه شعور بعدم الارتياح وهي تستذكر سهولة بوح الأختين بالتفاصيل، تفصيلاً تلو الآخر، مما يكوّن صورة عن العائلة وعن عاداتها وميولها وردود أفعالها وصراعاتها مع ابنها المراهق الذي كانت ترغب في التعرّف عليه -كانت تفكر في ذلك- ودونت كل شيء في ذاكرتها لغرض إخباره.

وبخها فيليبي لقلقها على حياة الجنرال وعائلته. لكنها كانت تعتقد أنه أمر لا مفر منه. لم يكن العنف طبيعياً. كان من الصعب عليها تخيل سيباستيان أو فلور أو فيليبي وهما يطلقان النار. أشارت أن الأشجار لم تكن تتحرك ولم تستطع رؤيتهم. بالتأكيد ستغيّر رأيها عندما تتعرف على الجنرال بيلا. كان الموت يلوح في أفق حديث الحراس. كانوا يدربونهم على رؤية السكان ككتلة بلا شكل ولا ملامح. كيف يمكن أن ينسوا أنهم قد انحدروا من تلك الكتلة؟ لأن الغالبية كانت من أصل متواضع، من الفلاحين. حتى إن الجنرال بيلا لم يكن أرستقراطياً. كانت الزوجة وأخت الزوج بنتَيْ مدرس في مدرسة، أي موظف حكومي.

ربما اجتاز أشخاصٌ مثل عائلة بيلا المرحلة التي كانت تمر بها بشكل معاكس. لقد تنكروا لأصلهم وكرهوا كل ما كان يذكّرهم بالمنزل الذي قضوا فيه طفولتهم ويذكّرهم بكَرْب الضيق. بمجرد أن تنعموا بالثروة،

كرهوا ذكرياتهم وكانوا يشعرون بالحاجة إلى إظهار المسافة التي تفصلهم عن ذلك...

كان وميض أضواء المدينة يتلألأ من بعيد عندما وصلت إلى منحنى المنحدر الذي ينحدر مجدداً باتجاه الحرارة. شعرت بموجة من القلق. كانت تود العودة للتأكد من أن كل شيء كان هادئاً في الطريق الذي ودعت فيه سيباستيان. لم تكن تريد التفكير بتعكير الجنرال بيلا لصفو ابتسامتها وبتركه إياها هامدة دون حركة إلى الأبد.

***

أتخيل ذلك الرجل الذي تخافه. إنه كالقباطنة الغزاة. كان يريد أن يعمّد ويوسع نطاق الإيمان بالآلهة الأخرى.

كانت والدتي تروي كيف كان الكالاتشونيس[1] زعماء القبائل عندنا وهم زعماء قبائلنا، ينظمون في البداية القوافل للذهاب للتعرف على الإسبان. لقد أحضروا لهم هدايا من التاغيثتي[2] وهو الذهب الذي أذهلهم. لقد رافقَتْ والدي في إحدى تلك البعثات. قالت إنه كان مشهداً مميزاً. كان حوالي خمسمائة شخص يحملون طيوراً في أيديهم. كانوا يحملون عشرة أعلام من الريش الأبيض. كانت النساء البالغ عددهن سبعة عشر يسِرْنَ بزينتهن من التاغيثتي جنباً إلى جنب مع كالاتشونيس.

تذكرت والدتي القبطان. كان يقف في الخيمة التي يُوْدِعُون فيها القرابين. كان طويلاً وشعره مجعداً وذهبي اللون. تحدث مع أكبر زعماء القبائل عندنا وطلب منه المزيد من الذهب. قال له إنه يجب تعميدهم وأن ينبذوا الآلهة الوثنية. وعد زعماءُ قبائلنا بالعودة في غضون ثلاثة أيام.

نادى زعيمُ القبيلة الأكبر الرجالَ بمجرد مغادرتهم المعسكر الإسباني. كان الغزاة قليلي العدد وكانوا يبدون ضعفاء وعزّلاً عندما لم يكونوا يمتطون دوابهم ذات الأرجل الأربع.

1- تعني زعماء القبائل.

2- تعني الذهب.

بعد ثلاثة أيام، عاد زعماء القبائل ومعهم عدد من أربعة إلى خمسة آلاف محارب، ولكن ليس لكي يتم تعميدهم كما أراد الغزاة، بل لخوض معركة معهم. لقد انقضّوا عليهم وأحدثوا إرباكاً كبيراً وسقط العديد منهم بين قتلى وجرحى، فضلاً عن ملاحقتهم من قبل زعماء القبائل أيضاً عندما هربوا عبر أراضيهم لاسترجاع الهدايا التي أعطوها لهم، لأنهم لم يكونوا آلهة ولا يستحقون الولاء ولا العبادة.

فرّ الغزاة وبعد السير لمسافات طويلة حيث لقي الكثير منهم حتفهم تحت رشق سهامنا، تمكنوا من العودة إلى سفنهم التي كانت عبارة عن سفن ضخمة. لقد رحلوا. أخبرتني والدتي أنه كان هناك احتفال وشربوا شراب البوليكا[1] ورقصوا ولعبوا بالطائرات.

إلا أن الإسبان قد عادوا بعد شهور وجلبوا المزيد من السفن والمزيد من الرجال من ذوي اللحى والمزيد من الوحوش والعصي النارية.

أدرك زعماؤنا أن الفوز بمعركة واحدة فقط غير كافٍ.

***

أخرجت لابينيا فساتين الحفلة من الخزانة. تذكرتْ وجه والدتها المبتهج بينما كانت تهيؤها في أوروبا للعودة إلى فاغواس ولتقديمها للناس بما كانت ترتدي من ملابس قد غزت المتاجر الإسبانية والإنكليزية والإيطالية. بالنسبة للابينيا التي تخرجت مؤخراً، كان من المثير للاهتمام من وجهة النظر المهنية ملاحظة الأم التي كانت تأسرها بذهول المباني المليئة بالبضائع والأثاث الخاص بعرض الألبسة والذي يضم مئات الفساتين. كان ذلك هو المفهوم المعماري الأساسي في المتاجر والمراكز التجارية الحديثة: أينما تقع عين الشخص، ستجد عرض بدلات أكثر فأكثر وصفوفاً من الأحذية ومساحات لعرض مستحضرات التجميل الرائعة وبائعات يتجملنَ بمكياج لا تشوبه شائبة كأنهن دمى متنقلة لعرض الأزياء. تم التمعّن بعناية بما كان يحيط البصر من أشياء.

– قالت لوكريثيا بينما كانت تساعدها في وضع الفساتين على السرير:

1- يعني شراب البوليكا مشروب العرق.

«لديكِ الكثير من الفساتين الجميلة. يمكنكِ ارتداء أي من هذه الفساتين عند الذهاب إلى الرقص».

لم تعرف لابينيا الموضوع الذي جعلها تتذكر سكارليت أوهارا في إحدى المشاهد الأولى لـ «ذهب مع *الريح*». كانت لوكريثيا هي الخادمة السوداء التي تنشر فستان حفلة سكارليت على السرير.

لكن لوكريثيا لم تكن سمينة ولا سوداء. كانت بشرتها السمراء لا تزال شاحبة نتيجة النزف الذي كان قاب قوسين أو أدنى من قتلها. كان وركاها العريضان يخفيان نحافتها.

– قالت لابينيا: «أتذكر فيلماً رأيته».

– قالت لوكريثيا: «أنا أيضاً أتذكره. إنه فيلم يسمى سيسي تدور أحداثه حول أميرة تتزوج ملكاً. هذا ما ستبدين عليه عندما ترتدين أحد هذه الفساتين.

ضحكت كلتاهما. تذكرت لابينيا هذا الفيلم أيضاً، رواية من حكايات خيالية. لقد أثارت هذه الرواية موجة غضب عندما كانت في المدرسة، إذ كان الجميع في ذلك الوقت يريدون أن يشبهوا رومي شنايدر.

– قالت لوكريثيا وهي تنظر بإعجاب إلى الفستان الأحمر الفاتح ذي *الملمس الحريري* اللماع الذي أخرجته للتو من خزانة الملابس: «من الجميل أن تكوني أميرةً».

قالت لابينيا وهي تبتسم: «لا تظني ذلك. أعتقد أنهم قد قتلوا ملك هذا الفيلم في الحياة الحقيقية»...

– «لا تقولي ذلك!»

– «تذكري أيضاً أن هناك أشياء أكثر أهمية من الفساتين الجميلة».

– قالت لوكريثيا: «عندما يكون للمرء ملابس جميلة...» ثم أضافت وهي تتنقل لترتيب الملابس: «لكن لا ينبغي أن يشعر المرء بالحسد ولا بتمني ما لا يملكه».

– سألت لابينيا: «إنكِ تعتقدين أن كونكِ فقيرة أو غنية هو قدر كتبه الله، أليس كذلك؟».

- قالت لوكريثيا: «نعم. يولد بعضنا فقيراً والبعض الأخر غنياً. الحياة «وادٍ للدموع». إذا كان المرء فقيراً، لكنه مستقيم، فإنه يعلم أنه عندما يموت سيكون من الأكثر احتمالاً أن يذهب إلى الجنة».

جلست لابينيا على السرير تتحدث إلى لوكريثيا عن التأثير المطمئن للتوبة المسيحية، عن عدم العدالة في مسألة نجاة أي شخص، مهما كانت تصرفاته سيئة في الحياة، بمجرد أن يتوب في لحظة معينة. قالت لها إن المسألة لا تكمن في عدم احترامها لإيمانها بالله، بل أن الأديان هي من صنع الإنسان. ألا يبدو لكِ أنه من غير العادل أن يوصوا دائماً بالتوبة للفقراء؟

- سألت لابينيا: «ألا تعتقدين أنه ينبغي أن تكون هنالك فرصة لجميع الأشخاص وليس في الآخرة فحسب، بل في الحياة الدنيا بأن يعيشوا على نحو أفضل؟»

- قالت لوكريثيا وهي تفكر: «ذلك ممكن. إلا أن العالم هو على ما هو عليه وليس أمام المرء طريق آخر سوى الاستسلام والتفكير بأنه سيعيش في الآخرة على نحو أفضل...»

- قالت لابينيا: «لكن، بالإمكان القيام بشيء ما في الحياة الدنيا...».

- قالت لوكريثيا: «حسناً، نعم. الدراسة والعمل...».

- أضافت لابينيا بصوت منخفض وهي تشك فيما إذا كان يفترض بها قول ذلك وتنتظر ردة فعل لوكريثيا: «أو الصراع...».

- قالت لوكريثيا: «لماذا يقتلون الشخص؟ أفضّلُ الاستمرار بالعيش فقيرةً على أن أموت». أشارت للفستان قائلة وهي تريه للابينيا: «هذا الفستان قد أكلته الفئران من حافته».

- قالت لابينيا «لقد أخرجتُ فستاناً آخراً قد تعرض للقضم أيضاً» وشعرت ببعض السخرية من تلك المحادثة بين فساتين الحفلة.

- قالت لوكريثيا وهي تفحص الفستانين: «يمكنكِ قصها، قد تكون مفيدة حتى الآن».

وضعت لابينيا الفستان على السرير واقتربت من المرأة وهي تشعر بحاجة ملحة لجعل لوكريثيا تشعر أن شيئاً ما يمكن أن يتغيّر مهما كان صغيراً. إنها الرموز.

- قالت: «لوكريثيا، سأطلب منكِ معروفاً...»
- نظرت إليها بدهشة وقالت: «قولي، قولي، صغيرتي لابينيا...»
- «لا أريدكِ أن تقولي لي مرة أخرى «طفلتي لابينيا» ولا أن تتحدثي معي بصيغة رسمية وتستعملين كلمة «حضرتكِ»».
- أجابتها لوكريثيا وهي تخفض عينيها، خجلى مستحية: «لكنني دائماً أتحدثُ إليكِ بهذه الطريقة... لن أعتاد على ذلك، لا أستطيع، لا أستطيع النطقَ بذلك...».
- قالت لابينيا: «حتى لو لم تستطيعي نطقها، ابذلي جهداً لذلك، من فضلكِ... لا أحب أن تعامليني كما لو كنت سيدة ذات مقام كبير».
- أنتِ ربة عملي... كيف أخاطبكِ بـ لابينيا وأعاملكِ بصيغة «أنتِ»؟ فذلك غير لائق. من فضلكِ لا تطلبي مني ذلك...
- حسناً، إذا عاودتِ قول ذلك، سأعاملكِ بنفس الطريقة. سأقول لك «طفلتي لوكريثيا» وسأخاطبكِ بصيغة «حضرتِك».
نظرتا بعضهما إلى بعض وضحكتا. كانت لوكريثيا تضحك بانفعال.
- قالت: «لا أستطيع، لا أستطيع، كيف ستقولي حضرتكِ لي «طفلتي لوكريثيا»...»، ثم ضحكت مرة أخرى.
- سترين...
- آه، بالله عليك، ما الذي يجول في خاطرك!
- قالت لابينيا: «الآن سنكون صديقتين، أريد أن نكون صديقتين».
نظرت إليها لوكريثيا بعينين يشع منهما بريق حزين. صديقتان؟ كانت نظرة عينيها نظرة تساؤل للابينيا «صديقتان؟»
- أجابت لوكريثيا «القرار لكِ» ونظرت إلى الأسفل دون أن تعرف ماذا تفعل ومررت يديها ضاغطة على مئزرها الذي كانت ترتديه كما لو كانت يداها مبتلتين وتحتاج إلى تنشيفهما. ثم قالت «سأذهب لألملم الملابس المنشورة، قد تمطر» وغادرت الغرفة سريعاً وهي تنظر إلى الفناء.
فكرت لابينيا مع نفسها «لن يتقبلوني أبداً» وكانت تجلس على فساتين الحفلة وتنظر إلى ظلال المساء. فكرت مع نفسها «لم يكن يفترض بي أن أقول لها أي شيء. من أنا لأقول لها أي شيء؟»

كانت الرقصة بعد أسبوع عندما عُثِرَ على الطبيب العدلي وقد تم اغتياله. كان شاهداً رئيسياً في العملية ضد مأمور سجن لا كونكورديا. تذكرت لابينيا بوضوح الحكم الذي سمعته من الراديو عندما استقلت سيارة أجرة في اليوم الأول من عملها. كانت قد أعجِبَت حينها مثل آخرين كثيرين بشجاعة الطبيب العدلي. كما خشيت مثلما خشيت الأغلبية على حياته. في فاغواس، كان لا بد لمثل نموذج كهذا من النزاهة والشرف أن ينتهي به الأمر إلى المنفى أو الموت.

لقد حاسبوا النقيب فلوريس بسرعة كبيرة.

عثروا عليه مقتولاً وقد خرّمه الرصاص داخل سيارته على الطريق المؤدية إلى سان أنتونيو، وهي مدينة تقع في المحافظة التي ذهب إليها لزيارة أقاربه. لم تقدم السلطات السبب الذي دعا القاتل المزعوم للقيام بذلك رغم حقيقة أن الرائد لارا الذي قام هو بتوريطه كان مجازاً من السجن -لحسن السلوك- في نهاية هذا الأسبوع. لم يشك أحد في أنه هو القاتل. تمت الإشارة إليه في عنوان الطبعة الإضافية للنشرة الصباحية للمعارضة لا بيرداد، التي تم تمريرها من يد إلى يد عبر صالة الرسم.

غطى السخطُ المدينةَ بعباءة الغضب الذي تم احتواؤه. تضاعفت دوريات الشرطة وحالات التأهب في أركان الشوارع.

ستجري مراسم دفن الطبيب في صباح اليوم التالي وسوف يكون الدفن عارماً بالحشود. لن يستطيع الجنرال الكبير تجنب المئات من الأشخاص المستعدين للمشاركة في الدفن كدليل على الاحتجاج. كيف يمكنه أن يمنع الأمر وهو رجل عسكري؟ كما لا يمكن للمتوفى أن يمنع أن يتحوَّل دفنُه -كما كان كل شيء يبدو أنه يشير إلى ذلك- إلى أكبر مظاهرة منذ حملة الأحد الشهيرة *للبيرديس*[1] التي انتهت بمذبحة.

كان فيليبي يتحدث هاتفياً عندما دخلت لابينيا إلى مكتبه.

بعد أن اتفق على مقابلة شخص ما في مكان ما صباح اليوم التالي، أغلق الهاتف ونظر إليها.

1- تعني كلمة «البيردي» بمعناها الحرفي الأخضر وجمعها «بيرديس» وتعني هنا «الرجال المناصرين للتيار الأخضر».

– قالت لابينيا: «كلنا قد عرفنا الأمر من المحاكمة: علمنا أن النقيب فلوريس سيُقتل بمجرد خروج لارا من السجن».

– أجاب فيليبي: «لكن تجنبه لم يكن بمستطاع أولئك الذين نشك بأمرهم».

– سألت لابينيا: «هل ستذهب غداً؟»

– قال فيليبي: «نعم. سأذهب مع طلاب من كليتي».

– قالت وهي مصممة: «بالنسبة لي لا أعرف مع من سأذهب، لكنني سأذهب بكل الأحوال».

هذه المرة لم يكن عليها أن تراقب من بعيد المسيرة نحو المقبرة، فالأمر مختلف الآن، كما اعتقدت لابينيا، متذكّرة الصوت البطيء للطبيب الذي يدلي بشهادته. كان على الجنرال الكبير أن يتعامل مع الرفض الشعبي لهذه الجريمة المرتكبة دون أدنى شك بموافقته. ستشارك هي الآن بهذا الرفض.

كنت أتحدث مع سيباستيان على وجه التحديد. أخبرني: «لا تذهبي إلى مراسم الدفن بأي حال من الأحوال. عليك أن تحافظي على «*نظافة سجلك*» لا سيما الآن».

– قالت لابينيا بريبة: «لكن...».

– قال فيليبي: «لست أنا من يقول ذلك. لقد قال لي سيباستيان ذلك للتو وطلب مني أن أنقل إليكِ ما قاله».

– سألته وهي جالسة على مكتب فيليبي: «لكن... لمَ لا؟ لا أفهم».

– إنه سهل لابينيا. بوسعك فهم الأمر لو بذلت جهداً. ستكون وسائل الإعلام موجودة، فضلاً عن الكثير من العناصر الأمنية ودوريات الجيش... حتى إنه من المحتمل أن يكون بيلا موجوداً. لن يكون من المناسب أن يراك هو أو أي شخص قد يخبره بأنه قد رآك، كما لن يكون ملائماً أن تظهري في التلفزيون أو في صورة في الصحف.

أومأت برأسها. بات الأمر مفهوماً. قالت لنفسها كان عليَّ فهم الأمر، لكنه كان قاسياً. منذ أن كانت في الحركة، كانت تحاول استيعاب فكرة التخلي عن وضعها الراهن، أن تصبح شخصاً من نوعٍ آخرٍ وتتغلب على

الحياة الفردية المقيدة الخاصة بالأصل الذي تنحدر منه. كانت تتوق للحظة المشاركة بفاعلية أكبر وكسر طوق الخوف وقبول الالتزام الأولي وليس النظري لقرارها. إلا أن الأمور كانت تبدو أنها تسير في الاتجاه المعاكس. أمروها باستخدام منصبها للحصول على معلومات كمهندسة معمارية من بيلا، أي العودة للدوائر الاجتماعية المعتادة وحضور حفلات الرقص وعدم المشاركة في المسيرة. فكرت أنها لم تكن تتوقع ذلك على الإطلاق. لم تتخيل الأمر على هذا النحو. من الناحية الظاهرية، كان الشيء الوحيد الذي ستخدم به الحركة هو أن تكون كما هي عليه.

- قالت وهي تتمايل لتسترخي بجسدها على الكرسي «ذلك محبط. اعتقدت أن حياتي ستتغير جذرياً... بحيث يمكنني المشاركة وليس البقاء على الهامش كما هو الحال دائماً».

لقد بقيت على الهامش مع سارة وأدريان، ينتظرون في المنزل وهم جالسون في الممر يستمعون للأخبار، بجانب حديقة أشجار السرخس ودوار الشمس المكسيكي. سار في الشوارع حشد صامت باتجاه المقبرة وسط صف كبير من الجنود يرتدون الخوذ الخاصة بالقتال ويمسكون بالحراب الثاقبة متظاهرين بالحضور لمراسم الدفن.

خيّم الصمت على المدينة. أغلقت المكاتب والشركات أبوابها. لم يحضر أحدٌ للعمل مُتَحَدِّين وسائل الإعلام الرسمية التي أصرت على دعوة السكان للحضور للعمل وعلى عدم الوقوع ضحية لمحرضين يحاولون «استغلال الحادث المؤسف».

كان الانتشار العسكري جلياً منذ وقت مبكر. عندما كانت تقود سيارتها إلى منزل سارة وأدريان، رأت لابينيا شاحنات عسكرية ملأى بالجنود تتجه صوب الشارع الذي ستقام فيه مراسم الدفن. تواجدت الدبابات بطريقة محزنة في الأركان القريبة من المقبرة وكانت الدبابات مكللة بالزهور الجنائزية على الجزء العلوي المعدني منها.

كانت الطائرات تحلق منذ الصباح الباكر متظاهرةً بالتكريم العسكري للمتوفى.

نقلت المحطة الرسمية والتلفزيون الرسمي مراسم الدفن وحولتها إلى تكريم جنائزي مستحق لعسكري بارزٍ.

تجنبت كاميرات التلفزيون التركيز على الحشود من خلال التركيز على سيارة الجنازة وعلى الوجوه المحمرّة والباكية للزوجة والأطفال.

كانت تصطف على جانبي الشارع صفوف من الجنود في وضع تأهب وبيدهم حراب ثاقبة. كانوا يمنعون خروج تدفق زحام الناس عن الحد الذي كانوا يقفون فيه.

كان من شأن صرخة وحركة متمردة أن تتسبّبا في مجزرة ذات نتائج غير متوقعة. تم تطويق الحاضرين وإلزامهم بعدم الحركة وبالاحتجاج بصمت. من شأن أي شيء آخر أن يكون انتحاراً.

بهدوء وبدون حركة تقريباً، كان أدريان ولابينيا وسارة ينظرون إلى شاشة التلفاز ويجمعهم التوتر الذي كان ينتابهم.

كررت سارة كما لو كانت تكرر صلاةً: «آملُ ألا يقوم أحدٌ بشيءٍ. آملُ ألا يقوم أحدٌ بشيءٍ».

وكانت لابينيا تتخيل فيليبي وطلابه وهم يسيرون بصمت في المسيرة بانتظار الفرصة المناسبة.

- قال أدريان: «لا أحد سيفعل أي شيء». الجنرال الكبير قد خطط جيداً للأمر. ليس بوسع أحد أن يفعل أي شيء.

دخل موكب الجنازة إلى المقبرة.

- قال أدريان: «لابينيا، انظري، ذلك هو الجنرال بيلا».

كان يقف بالقرب من شاهد القبر. هو رجل فظ ذو بطن بارزة وشعر أسود ناعم ممشط بعناية. ركزت الكاميرا عليه أثناء مروره.

كان يحمل في يده جهاز اتصال لاسلكي. شعرَتْ بالاشمئزاز. إنه بالتأكيد من قاد تلك العملية.

تم إنزال التابوت في القبر. عزفت الأوركسترا العسكرية نوتات النشيد الوطني. وضع حفارو القبور شاهد القبر. بدأت الحشود تتفرق عندما ساد الصمت. كانت هناك صيحات وشعارات تصدر من خلف بقايا المقبرة: أيها

القتلة! حارس قاتل! لا للجنرال الكبير! حركة التحرير الوطني! وسمعت إطلاقات نارية في الهواء. تحرك الجنود وقاموا بالركض وقامت الحشود بالركض وتفرقوا. انطفأت إشارة التلفزيون. ظهر على الشاشة شريط به صورة القتيل وأعلن صوت المذيع: «نقلنا لكم مشاهدينا الكرام مراسم جنازة النقيب إيرنيستو فلوريس».

قام أدريان بإطفاء التلفاز. خرج الثلاثة إلى باب المنزل محاولين القيام بشيء. كانت هنالك إطلاقات نارية متفرقة تُسمَعُ من بعيد.

– صاحت سارة: «يا إلهي! ما الذي سيحدث الآن؟ من الأفضل أن نغلق الباب، أدريان».

عادوا إلى غرفة المعيشة.

ذهبت لابينيا إلى المطبخ لشرب قدح من الماء. كانت تتخيل وتتقلب في ذهنها صور الاضطهاد الدموي. حاولت من بعيد إرسال رسائل تحذير إلى فيليبي كي لا يخاطر، لكن الأمر لم يكن يستحق ذلك. كان هنالك الكثير من الجنود في الشارع مدججين بالسلاح. على الرغم من أن فيليبي قد لا يفكر كما تفكر هي، فإنهم لم يفكروا بهذه الطريقة. كان قياسهم للخطر بطريقة مختلفة.

خرجت إلى غرفة المعيشة وكان أدريان وسارة يجلسان على كرسيين هزازين وينظران إلى الحديقة سارحين كأنهما لا يريان شيئاً. كانا يبدوان كأنهما صورة غير متحركة بملابسهما الجميلة المقصوصة جيداً وسط الأثاث ومنافض السجائر والزخارف الموضوعة بشكل جيد والنباتات ذات الأوراق اللامعة والحديقة الداخلية الصغيرة التي تحتوي على أصص كبيرة لشجيرات البيغونيا. اعتقدت لابينيا أنه كان بإمكانها اختيار ذلك وهي تنظر إليهما كأنها منومة مغناطيسياً أو كأنها قد دخلت بعداً مناوباً، كان يمكن أن تكون هذه هي حياتها. تم تصميم كل شيء كي تنتهي هي أيضاً بمنزل كهذا مع زوج مثل أدريان، يدخن وهو شارد. في لحظة من الزمن، انشق الطريق وكانت على الجانب الآخر تنظر إليهما كما لو كانت تنظر من خلال مرآة لا تعكس الصور أبداً، أسيرة لآلام أخرى كان عليها

عدم الإفصاح عنها ولا يمكن أن تدخل ضمن إطار هذا العالم الآخر الذي يخلو من التحرك.

– قالت فجأةً: «أنا ذاهبة».

– كان أدريان يصرخ تقريباً وهو يقول: «كيف تذهبين؟ هل أنتِ مجنونة؟»

– قالت لابينيا بينما أخذت حقيبتها: «لن يصيبني مكروه. لا شيء يحدث بالقرب من منزلي».

– نهضت سارة مذعورة وقالت: «لكن لماذا تذهبين إلى المنزل بمفردك؟»

– قالت لابينيا: «لا أعرف. ما أعرفه فقط هو أنني لا أستطيع تحمل وجودي هنا لمزيد من الوقت دون أن أفعل شيئاً».

– قالت سارة: «لكنك معنا. إهدئي».

كانت تعلم أن الهدوء هو أكثر الأشياء حكمة، لكنها لم تستطِع ذلك. لم تستطع المواصلة هناك. اضطرت الى الخروج من ذلك المكان.

– قال أدريان: «الأمر ليس لعبة لابينيا. طالما أنني هنا، لن تغادري هذا المنزل».

– أجابت لابينيا: «لستَ بزوجي. ليس لديك الحق لتملي علي ما أفعله. إنني ذاهبة. دعني أخرج».

سُمِعَت المزيد من الإطلاقات النارية. حاولت لابينيا المحتدمة بجنون الخروج، لكن أدريان قد وقف بينها وبين الباب وكان قوياً رغم أنه لم يكن طويلاً جداً، إلا أن جسمه كان قوياً وذا عضلات.

– ناشدها أدريان قائلاً: «فلنفكر، لابينيا، من فضلك. لماذا تريدين الخروج؟»

لم يكن بوسعها إجابته. ببساطة، شعرت أنها بحاجة للخروج من هناك. كيف تفسر ذلك لهما؟ كيف توضح لهما أنها لا تريد أن تكون في ذلك العالم الذي كانت تشعر أنها لم تعد تنتمي إليه؟ شيئاً فشيئاً، استسلم الدافع للعقل. لماذا كانت تريد الخروج؟ لم تستطع الانضمام إلى المتظاهرين الذين كانوا في ذلك الوقت يسيرون في مسيرة في الشوارع وربما يحرقون الحافلات

للتعبير عن غضبهم لأنهم اضطروا إلى مرافقة الجثمان بصمت بين الجنود... لم تستطع فعل شيء سوى الانتظار مثلما يفعلان.

***

لماذا دفعتُها؟ ما الذي قادني إلى دفعها للخروج، هنالك حيث كانت أصوات المعركة مسموعة؟ أنا نفسي أجهل السبب. هل لأنني شعرتُ بالحاجة النابعة من الأعماق لقياس قوتي؟ أم لأن ذكريات العصي النارية كانت ترن في داخلي؟

ما كان يفترَض بالأمر أن يحدث. إنني حزينة في داخلها وفي أعماقها، لا أعرف هذه البيئة أو طريقة التعامل معها أو قوانينها، كما أنني لا أعرف قياس وتقدير هذه المخاطر المجهولة.

كنت أعتقد أنني بعيدة بالفعل عن الدوافع الحية، لكن الأمر لم يكن كذلك. عندما تكون رغبتي شديدة جداً، فإنها تشعر بها بنفس القوة التي أتخيلها.

يجب أن أتوخى الحذر، سأخمد في دمها.

***

قالت لابينيا لاحقاً: «لا أعرف ما الذي حصل لي».

- 15 -

خلال أيام قليلة، مهدَ الاضطرابُ في ذلك الحين الطريقَ لهدوء متوتر. هكذا كان الحال في فاغواس. تراكمت الطاقات، ثم تحررت فجأة واستعاد المشهد بعد ذلك ملامحه المعروفة -تماماً كالأرض عندما تهتز-.

لم يحدث شيء مذهل، فقط ثمة تعليقات حول الجانب المظلم من البلد، كان هنالك ثلاثة قتلى وعشرات الجرحى وسجناء وحافلات محترقة ومستودعات ذات واجهات عَرْض زجاجية مكسرة ووساطة المطران. «حافظ الحرس الوطني على النظام في جميع أرجاء الأراضي الوطنية».

عاد فيليبي وطلابه إلى دروسهم المسائية. لم يتعرض أي منهم للضرب أو السجن. لم ينضموا إلى الصفوف الأكثر ميلاً إلى المحاربة. بقَوْا هذه المرة عند الحد الأدنى من المخاطر.

قال فيليبي بينما كان يوضح للابينيا السبب لأول مرة: «كان يمكن أن يكون الأمر عملية انتحارية. مقابل كل واحد غير مسلح منّا، كان هناك عشرة جنود مدججين بكامل أسلحتهم على أهبة الاستعداد. أما الذين صرخوا، فكانوا محرِّضين».

استمرت الاستعدادات للرقص.

ذهبت لابينيا لاستلام فستانها من مكوى *التنظيف الجاف*. توجد في المكان لافتة مكتوب فيها «ستكون ملابسك جاهزة خلال ساعة واحدة فقط». كانت المؤسسة الوحيدة التي تقدّم خدمات سريعة. كان المالكون لطفاء وناجحين في عملهم. هم من المهاجرين الشقر من إحدى الدول المجاورة الصغيرة. كان فريق عمل مثالي يتألف من زوجين يتنقلان بنشاط

عبر صفوف طويلة من البدلات الموضوعة بدقة في أكياس بلاستيكية طويلة يمكن أن يُرى عليها تصميم زهرة حمراء عليها اسم المكوى مكرراً لمرات عديدة على عرض الكيس.

بينما كانت تنتظر، لاحظت من وراء منضدة الاستقبال وفرة الفساتين الليلية والبدلات الرجالية وذلك دليل على قرب الرقص ونسيان المظاهرات والموتى والطلقات.

بدت تلك الملابس الموضوعة على الشماعات الصلبة المصفوفة على القضبان المعدنية غريبة. عندما أخذت المالكة الإيصال بأصابعها واختفت في غابة البدلات بحثاً عن البدلة المقصودة، كانت تفكر سرعان ما ستلبس هذه الملابس أجسام ضعيفة وسمينة وستغطي هذه الملابس جلوداً تمت العناية بها على عجل باستخدام كريم اللوز وغيره من المواد الرقيقة، بعيداً عن الشمس لإظهار اللون الحليبي وعرق اللؤلؤ.

كانت تعتقد أنه سيكون من الممتع رؤية الرقص بعيون أخرى وأن تكون داخل المشهد وخارجه في نفس الوقت.

قالت السيدة وهي تخرجها من تأملاتها: «ها هو ذا».

عند وصولها إلى المنزل، رن جرس الهاتف. ركضت لتلتقط السماعة خوفاً من أنه كان يرن لفترة طويلة ومن احتمالية كونه فيليبي ولم يجدها.

- «لابينيا؟» - التبس عليها صوت والدتها الذي لا لبس فيه. «لابينيا؟»

- نعم. إنني لابينيا.

- «لقد قابلت سارة اليوم وأخبرتني أنكِ ستذهبين للرقص...»

- نعم؟

- لا، لا شيء، أردت فقط أن أعرف ما إذا كنتِ ستذهبين حقاً...

- نعم، سأذهب.

- آه، يا بُنَيّتي، لا تعلمين كم يسعدنا الأمر... لا تعلمين كم يسعدنا أنه يمكنك الذهاب معنا...

- لا أستطيع يا أمي، لقد تواعدت بالفعل مع سارة وأدريان.

- لكنهما لا يمانعان على ما أعتقد. ألا تعتقدين أنه من الأفضل أن

تذهبي معنا بدلاً من الذهاب مع المتزوجين حديثاً؟ ستكون رؤية الأمر أفضل.

- لقد تزوجا منذ أكثر من عام يا أمي...

- نعم، أعلم ذلك، لكن هذا الموضوع لا يشكل شيئاً، إنهما ما يزالان حديثَيْ الزواج. سيقول الناس إن كلاً منا قد وصل بمفرده. يكفي ما قيل عندما غادرت المنزل. ما زلت فتاة عزباء.

كان عليها أن تفترض حصول الأمر. لقد خطر في بالها في وقت ما، لكنها قد استبعدته. لم تكن تعتقد أن والدتها ستتصل بها رغم كل شيء، رغم علمها بأنها ستقلق على ظهور ابنتها بمفردها عند الرقص.

كان عليها أن تحذر سارة كي تمتنع عن الحديث عن ذلك. لا تكف أبداً عن اندهاشها من مخاوف والدتها. مكتبة سُر مَن قرأ

- لا تقلقي كثيراً يا أمي. إنني بالفعل بالغة لسن الرشد... ماذا بوسع الناس أن يقولوه ولم يقولوه؟

- نود كثيراً أنا ووالدك أن نأخذك. من غير الطبيعي أن تبعدنا المسافات جداً، يبدو الأمر سيئاً للغاية.

بعد عدة شهور من الابتعاد وحتى الآن وهي تظن أن الأمر غير طبيعي.

- لكن هذا هو الوضع يا أمي. لن يغيّر الرقص الوضعَ.

- ربما يمكنك الآن الاستماع إلينا. بالرغم من كل شيء، نحن والدَاك. لا يمكننا أن نكون على هذا الحال طوال العمر.

الرقص، ثم عودة الابن الضال. شيء يؤدي إلى شيء آخر.

- لا أستطيع الذهابَ معكِ يا أمي. لقد تواعدت بالفعل مع سارة. يمكننا أن نلتقي هناك. يمكنني الجلوس معكما لفترة من الوقت. لن يكون الجلوس معهما لبعض الوقت سيئاً، بل سيعزز ذلك من صلتكما.

- لن يكون الأمر نفسه، يابنتي...

- أمي، لا تُلِحِّي من فضلك...

- حسناً، حسناً، لكن هل من المؤكد أنكِ ستجلسين معنا لفترة من الوقت؟

- نعم يا أمي، بالتأكيد. كيف حال أبي؟

- إنه في العمل كالعادة. لم يأتِ من المكتب حتى الآن.
- بلغيهِ سلامي.
- حسناً يا ابنتي، سأبلغه ذلك. هل أنت متأكدة أنكِ لا تستطيعين الذهاب للرقص معنا؟ ألن تمانع سارة بالتأكيد...
- كلا يا أمي، سبق أن أبلغتكِ بأنني لا أستطيع ذلك. دعينا لا نعكر صفو الأمر.
- حسناً يا ابنتي، حسناً. هل ستجلسين معنا، إذن؟
- أجل يا أمي.
- حسناً، إنني سعيدة جداً لأنك ستذهبين للرقص.
- أراك هناك إذن.
- نعم يا أمي.
- حسناً، أراكِ قريباً.
- أراكِ قريباً يا أمي.

نظرَتْ إلى سماعة الهاتف دون أن تستطيع إعادته إلى مكانه. كان الصوت عالي النبرة ويدور كدوامات حلزونية طويلة في يدها.

كانت والدتها طويلة وجميلة. عندما كانت طفلة، كانت تجعلها تشعر بإحساس غامض بالدهشة والفخر معاً. في اجتماعات المدرسة، عندما كانت أمهات صديقاتها يجلسن في صفوف من المقاعد، كانت تفكر كم هو جميل أن تكون والدتُها بين الأمهات، كم ستكون أطول وكم ستكون أجمل. بيد أن الاجتماعات كانت تزعجها ولم تحضر قط أي اجتماع. كانت تقول: «لا فائدة من ورائها. إنها مضيعة للوقت».

كان الجمال يستهلك كل وقت فراغها، قبل وبعد لعب الورق مع صديقاتها واستقبال والدها وأصدقائه.

إن الوقت الذي كانت فيه أكثر قرباً منها هو عندما وصلت إلى أوروبا لتجهيزها بالملابس والأثاث المناسب للعودة إلى فاغواس. في تلك المناسبة، أخذتها في نزهات طويلة وخرجت معها للتسوق والتحدث بلا كلل عن الأزياء والعادات والفنادق والمطاعم.

كانت دائماً بالنسبة إلى لابينيا شخصية بعيدة لا يمكن الوصول إليها.

في صغرها، عندما كانت تبحث عن حنان ذراعي والدتها خائفة من قصة مرعبة ترويها المربية، كانت تلقى تعبيراً غير متسامح وعبارة «لا تكوني طفلةً بَكَّاءة».

شعرت منذ نعومة أظافرها بأن والدتها لا تحبها.

كانت تفكر بينما كانت تمسح دموعها التي ملأت عينيها وغيّرت ملامح الأثاث التي كانت تنظر إليه أنه من حسن الحظ أن هنالك العمة إينيس، إذ كان يعجب عمتها إينيس أن تعانقها وأن تحضر لها الحلوى. كانت تحب أن تضعها على سريرها وأن تحكي لها القصص وهي تداعب شعرها. كان لديها، مثل لابينيا، عطش شديد للعاطفة.

لقد حذرت والدتها العمة «إن دلالكِ لها سيفسد تربيتها»، فانتاب لابينيا الذعر خشية من أن يقرر والداها إبعاد العمة.

لكن والدها قد خرج دفاعاً عن أخته. «إنها تعاني من الوحدة الشديدة، إنها مسكينة. الطفلة هي الشيء الوحيد الذي كان يسعدها».

قالت ناتاليا، صديقتها الإسبانية: «عمتكِ أنقذتكِ من الهجر».

لكن لا أحد ينجو من غياب الأم.

وهذا هو حال والدتها: كان الغيابُ دائماً.

كان لا بد أن تتوقع اتصال والدتها بخصوص الرقص. من المستحيل ألا تهتم لما سيقوله أصدقاؤها.

إنه أمر لا يصدق، مع ذلك، فقد اتصلت بها من أجل ذلك.

فقط من أجل ذلك.

أدركت أنها لا تزال تحمل سماعة الهاتف في يدها. تبدّل الصوت الطويل للنغمة بصوت نابض متقطع. وضعت سماعة الهاتف في مكانها وظلت تبكي.

لقد بكت من كل ما يُبْكِيها.

استيقظت مكتئبة. أصبحت أكثر اكتئاباً بعد مرافقتها لسارة عندما ذهبت لتصفيف شعرها بعد الظهر. كان الشيء الوحيد الذي عوض الانتظار

ومشاهدة كل هؤلاء النساء ذوات الأقدام الرفيعة التي تمت العناية الجيدة بها وهُنَّ يتزاحمن في غرفة الاستقبال هو الفرصة السعيدة لمقابلة الأختين بيلا. دخلتا دخول كبار السيدات للاستعداد للرقص الذي كان الجنرال الكبير يقيمه في تلك الليلة في النادي الترفيهي للقوات المسلحة. قالت السيدة بيلا بصوت حذر من الناحية الأمنية كي لا يسمعها أحد بينما كانت سارة تنظر إليها بازدراء: «طلب زوجي بالفعل أن ينضم إلى النادي الاجتماعي، لكن نظراً لكون ما طلبه قد حصل مؤخراً، بالتأكيد لن يكون بوسعنا الذهاب إلى الرقص حتى العام المقبل». عبرت سارة عن رأيها قائلة «الجنرال الكبير» غير محسوب، ثم اقتربت وتحدثت إليها بصوت منخفض «نظراً لعدم قبول ضباطه في نادينا، تُجرى لهم الآن في نفس اليوم رقصات في الكازينو العسكري كي لا يشعروا بأنهم أقل...».

اعتقدت لابينيا أنه كان من المثالي أن تجد الأختين وأن تتمكن من إخبارهما أنها ذاهبة للرقص وأن تلتقي بهما في صالون الشعر الأغلى سعراً في المدينة.

عند عودتها إلى منزلها، جهزت لنفسها قدحاً طويلاً من عصير البرتقال مع مكعبات الثلج ودخلت غرفتها لتستريح لبعض الوقت قبل أن ترتدي ملابس الرقص. تمددت على السرير وشدت عضلاتها متخيلة نفسها على لوح من خشب البلسا يطفو على الماء تحت أشعة الشمس الرائعة. كانت بحاجة إلى الاسترخاء، إذ كانت متوترة ومتحمسة. رأت نفسها كما لو كانت قد ظهرت على الشاشة – مرتدية ملابس حمراء وهي تدخل صالات النادي والأنظار تتجه نحوها وصوت الأقداح والأوركسترا يُسمَعُ من الشرفة. كانت تنظر إليهم من بعيد. ستشعر بقوة كونها مختلفة. تخيلت أداءها وقدماها تُحرّكان حافة فستانها بقوةٍ دافعةٍ لراقصةِ فلامنكو والقماش الناعم وهو ينزلق على كعبيها على أرضية الألواح الرخامية اللامعة. كما تخيلت الأطفال في طفولتها الذين أصبحوا الآن رجالاً وهم يعانقونها على نحو غير مريح وتفوح منهم رائحة الكولونيا ومواد التنظيف الكيميائية من طيات صدر سترة بدلاتهم.

ستبتسم بتغنج وستعطي فكرة عن حياتها كمهندسة معمارية من خلال

إدخال جرعة الملل الضرورية في المحادثة لتجعلهم يظنون أن الفتاة قد استنفدت فتنة اللعبة الجديدة للتمرد والاستقلال.

استدارت على السرير. شعرت بجسمها فاقد الحماس ومتعرقاً. لم تكن للوحدة حدود في سريرها مساء ذلك اليوم. لا أحد بوسعه تفسير الإثارة النادرة التي أحدثتها فكرة ارتداء ذلك الفستان الأحمر ذي فتحة العنق العميقة مرة أخرى. سيكون الاستعراض أمراً مبهجاً. إن مسألة الاستعراض الآن دون أن يتمكن أحد من لمسها أو مضاجعتها أو تهديدها بالزواج الدائم أو بالعبودية المقنعة بالنجاح هو انتقام تقريباً. كان الشعور قوياً وفي نفس الوقت متناقضاً. لم تستطع إنكار أن فكرة رؤية بعض صديقاتها تسعدها. كان الأمر مجرد سرور خدّاع تقريباً. إنه نفس ما شعرت به وهي تتخيل وجوه الشباب المحترفين الذين يقومون أمامها بترك ادعاءات الكياسة والاحترام الذي يُبْدُونه تجاه العذارى الحكيمات جانباً ويسمحون لأنفسهم بأن تنتابهم الفتنة المحسوبة فقط كي يحسّوا في النهاية أنه ليس لديهم أمل وأنها كانت مجرد لعبة. لا شيء يجب أن يقال إزاء كل ذلك. لقد سبحوا في الاتجاه المعاكس، في مياه الاتجاهات والوجهات، فعلى الرغم من كون اليقين ممتعاً، فإنه محير أيضاً.

فكرت مع نفسها «هل تضحك على نفسها؟»، ثم فكرت «هل تصنع لنفسها وضعية بطلة رواية غبية جداً مثل تلك الوضعية التي تبدو عليها أي من صديقاتها اللائي يلعبن دور العذارى الحكيمات؟» لم يكن الأمر مماثلاً. بالنسبة لها، كان الذهاب إلى الرقص بمنزلة عودة نهائية وعودة للخروج من الداخل، أي الدخول إلى بيئة كغريبة كي تتخلى تماماً عن تلك البيئة وتَخُونها وتتآمر عليها كي ينتهي هذا العالم المبهرج.

وهكذا ينبغي أن تكون. لم يتوجب عليها أن تندم. لم تكن ترغب باستمراره، لكنها لم تستطِع حتى تلك اللحظة تجنب تذكر أصوات تلك الأوساط والبيئات التي كانت دائماً تحيط بحياتها والتي كان لا بد لها من أن تنفجر في وقت ما وتختفي... وعندما يحصل ذلك، ستكون هي في الجانب الآخر، بجانب الصندوق الأسود حيث يتم إحداث التفجير، حيث تقوم فيه الأيدي بإشعال الفتيل.

ولربما مثل فيليبي، مثل الناس الذين نشأوا بهوية معينة، من ذوي الجلد القوي الصعب التمزيق، فهي تحافظ على جلدها الأصلي الخفي والجاثم خلف الهوية الجديدة التي تريدها.

أغمضت عينيها وشعرت بموجة حزن تغمرها. كانت ترغب بالبكاء لشعورها بوحدة كبيرة وبضياع شديد في تلك الأرض التي لا تعود لأحد وبأن حالتها حتى الآن لا هي هذه ولا هي تلك وبأنها لا تعدو أن تكون محض رغبة وإرادة وحماسة مجردة قد مرت بها بيقين، اليقين بأن إبرة مجالها المغناطيسي تشير إلى شمال محدد. كانت تتقدم صوب ذلك المكان بتعثر وأصبحت واضحة ومدفوعة بقوة غامضة وغير عادية.

انتهت من ارتشاف آخر رشفة من عصير البرتقال.

كان مفتاح فيليبي يفتح الباب؟

- مرحباً... مرحباً... لابينيا؟ - سمعته وهو يبحث عنها في أرجاء المنزل.

- ها أنا هنا في الغرفة.

دخل فيليبي. كان محتراً وكانت بقع العرق على القميص. انحنى إليها ليقبلها، فشمت رائحة رقبته. أعجبتها الرائحة. كان هناك شيء فطري وحسّي في الجلد المتعرق والطعم المالح ورائحة مياه البحر.

- قال فيليبي وهو يمرر يده على رأسها وشعرها: «رائحة شعرك طيبة».

- قالت لابينيا مبتسمة: «إنه شامبو مصنوع من الأعشاب، ليس إلا». الشيء السيئ هو أن معظم النساء ستكون رائحتهن عند الرقص نفس الرائحة الليلة! إذا كنتَ جرواً وكنتَ تبحث عني اليوم في منتصف الليل عن طريق الرائحة، فبوسعكَ أن ينتهي بكَ الأمر متعثراً بشعر إحدى الأختين بيلا. لقد كانتا في نفس صالون التجميل. نظم الجنرال الكبير للعسكريين لهذا اليوم أيضاً رقصته الخاصة لأول مرة في النادي الترفيهي العسكري.

- قال فيليبي وهو جالس على حافة السرير: «إذن، سيقوم الجنرال الكبير بالرقص أيضاً...»

- نعم. وفقاً لسارة، فإن هذه هي طريقته في تعويضهم عن الازدراء التاريخي لتعليمات النادي الاجتماعي.

– إنها حركة جيدة... أن يتسلوا كي لا يشعروا بنبذ الأرستقراطيين لهم وأن تُخلَقَ لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة. الجنرال الكبير ليس أحمقاً. إنه يعرف متى يكون النشاط الصاخب ضرورياً.

– وسيكون نشاطاً صاخباً كاملاً، حسب المعلومات الواردة من الأختين بيلا.

– بالتأكيد سيكون ذلك موضوعاً شيقاً للمحادثة في حفلتكِ وهو ممتع أيضاً. سيكون من الجيد معرفة رأي الطبقة الأرستقراطية. لديكِ عمل.

– لن تتقبلهم الأرستقراطية أبداً. إنها تحتاجهم، لكنها تحتقرهم وهو أمر معلوم لأي شخص.

– لكن حتى الآن لم تتم قط إقامة مسابقة. كانت أراضيهم محددة بشكل جيد. بقدر ما كان الجنرال الكبير يشعر بالتهديد، إلا أنه كان يعزز من شأن أناسه بشكل أكبر. لقد منحهم مؤخراً أعمالاً تنافس الطبقة الأرستقراطية. يفترض ألا يعجب ذلك أصدقاءك بشيء. إنني مقتنع بأن الجنرال الكبير في محاولته لتعزيز طبقته العسكرية، فإنه يخلق تناقضات لا يستطيع هو نفسه تخيلها، تناقضات يتحتم علينا أن نعرف تقدير حجمها من أجل الاستفادة منها.

– وهل تعتقد أن الجنرال الكبير يشعر حقاً بالتهديد؟

– أظن أنه قلِق. اعتقدَ أن بوسعه أن يقضي على وجودنا في الجبال بسهولة كما فعل بالمحاولات العسكرية للبيرديس، لكن الأمر لم يكن كذلك، فأعدادنا تتزايد. كان عليه أن يرسل العديد من المفارز إلى الجبال. لقد تكبدوا إصابات خطيرة. ومظاهرة في ذلك اليوم... إنه عصبي.

– لكن ما زلتُ لا أعتقد أنه يشعر بالتهديد.

– لا، لحد الآن لا، لكن رجاله معرضون للخطر بشكل أكبر وهو يشعر بضرورة مكافأتهم عن ذلك. إن إبقاء الجيش سعيداً هو أمر يزداد أهمية بالنسبة له.

– قالت لابينيا: «أود التمكن من رؤية ذلك الرقص في ذلك الكازينو العسكري من الفتحة... أتساءل كيف سيكون الأمر بالنسبة للآنسة أثوثينا.

– قال فيليبي: «لا أعتقد أنها ستعاني كثيراً، إذ تبدو سعيدة بدورها كأخت للسيدة بيلا، على الأقل بناءً على ما تقولينه».

– نعم، إنها لا تبدو مهمومة، فهي تتمتع بمزايا الأخت دون خسارة.

– قال فيليبي: «ينبغي أن تقتربي منها... إن لم تكن سعيدة، فيمكننا أن نجد لها عريساً»، ثم غمز لها غمزة خبيثة.

– أضاف وهو يقترب من دولاب الملابس «هل هذا هو الفستان الذي سترتدينه؟» بينما كان يتفحصه من خلال الكيس البلاستيكي للمكوى.

– نعم. ويجب أن أبدأ في ارتداء الملابس الآن، إنها الساعة السادسة والنصف.

– لكن، أليست الساعة الثامنة هو الوقت الذي سيمرون فيه عليك لاصطحابك معهم؟

– نعم. لكنني سأستحم وأضع المكياج على مهل، فلا أحب أن أسرع.

اقتربت لابينيا منه بقوة عاطفية ووضعت رأسها على صدره. كانت تحتاج إلى هذا العناق من فيليبي.

– قالت تاركة نبرة المزاح «إنني متوترة».

– قال فيليبي وهو يبعدها وينظر إلى عينيها: «من ماذا؟»

– قالت لابينيا: «لا أعلم... من العودة للدخول إلى النادي. أشعر بشيء غريب. لا أعرف ما يحصل لي لحد الآن».

– قال فيليبي: «إنك رفيقة الحركة». ألم تقولي إنكِ متأكدة من ذلك؟»

– قالت لابينيا: «نعم، إنكَ على حق. إنه هراء مني» وابتعدت متجهة إلى الدولاب لأخذ منشفة نظيفة. كانت تظن أنها لا تستطيع التحدث إلى أي شخص حول ذلك. لن يفهمها أحد، لا هذا ولا ذاك. كان عليها أن تتحمل مخاوفها وحدها.

– سألت فيليبي: «في أية ساعة يفترضُ بكَ الذهاب؟».

– أجاب: «لاحقاً، بعد أن أراكِ وقد ارتديتِ ملابسكِ». أريد أن أراكِ مرتدية تلك الملابس التنكرية» وذهب إلى المطبخ قائلاً إنه سيقوم بتحضير شيء ليأكله لأنه جائع.

لم تبدُ له ملابس تنكرية عندما رآها مرتدية إياها ومرتبة عندما خرجت مع أدريان وسارة من البيت.

كان ينظر إليها وهي تضع المكياج ويمازحها طوال الوقت محاولاً إخفاء عدم ارتياحه بجو من عدم الاكتراث. ما إن ظهرت الصورة التي سيراها الحاضرون للرقص، حتى لاحظ صمتها ونظراتها المتشككة.

بدت صورة لابينيا رائعة في المرآة. لقد بدت أضعف وكان الفستان يبدو أكثر نعومة على جلدها، كان اللون الأحمر يتناغم مع لون بشرتها البيضاء وشعرها الغامق على كتفيها. ساعدت الأحذية ذات الكعب العالي في زيادة إضفاء مظهر إبراز قوامها الممشوق.

قال لها فيليبي بابتسامة: «إنكِ صورة حية للبرجوازية المزدهرة». ضحكت بلا رغبة. استشعرت في العبارة العداء الذي تولد داخل فيليبي نتيجة لرؤية قوامها الترف. اعتقدت أنه كانت له تناقضاته. كان ينظر إليها بنفس نظرة شاغلي المقاعد التي كانت تحيط بها في قاعة الانتظار في تلك الليلة عندما رافقت لوكريثيا إلى المستشفى. ربما كان لحجته بـ «أنها لم تنضج بعد» علاقة بكل ذلك.

كانت صامتة متكئة على المقعد الخلفي للسيارة في طريقها إلى الرقص وهي تعبر الطرق التي تحفها أشجار النخيل، تذكرت تعبير فيليبي الممتع عندما وصل أدريان وسارة لاصطحابها والطريقة التي نظر بها إليهما -إلى أدريان على وجه الخصوص، ببدلته- وتوديعه لهما بأدب. لقد شعرت بالمسافة في التوديع، إذ بدا لها كأنه كان يقف عند الجانب الآخر من الصدع الذي لا يمكن تجاوزه عندما قال لهم «أراكم لاحقاً»، كما لو كان مشهداً في فيلم تنفتح الأرضُ فيه ويحصل فيه صدع كبير يفصل بين رجل وامرأة يحبان بعضهما بعضاً.

- سأل أدريان: «هل أنتِ بخير هناك في الخلف؟ هل تريدين زيادة برودة التكييف؟»

- قالت لابينيا: «كلا، كلا، إنني في وضع جيد، لا تقلق بشأني».

كانوا يمرون بأحياء مهمشة، أحياء من بيوت مصنوعة من الورق المقوى

الكرتوني والألواح وشوارع غير معبدة ذات إنارة غير جيدة. ثمة أناس كانوا يسكنون بشكل مؤقت في مساكن متجاوزة على الأراضي المرتفعة التي وضعوا يدهم عليها. سيبقون هناك لحين تخصيص أراضٍ أخرى لهم تكون «أكثر ملاءمة» وأكثر خفيةً، أراضٍ لا يهتمون فيها للانتشار غير الملائم لفقرهم أو لحين بيع البلدية للأراضي وطردهم منها.

لقد وصلوا أخيراً إلى الطريق الواسع ذي الإنارة الذي لا توجد عشوائياتٌ على جانبيه. بعد قليل، سلكوا الطريق الخاص الذي يمهد للوصول إلى النادي. عند المدخل، كان هناك صف من السيارات بانتظار المرور من مقصورة السيطرة. كانت السيارات تتوقف وتُبرِز دعوتها، فيُرفَع الحاجز القضيبي -كالذي يتم استعماله لمرور القطارات عبر الطرقات- مما يؤكد عدم دخول السيارات التي لا تعود للعالم الخاص.

كانت ملاعب الغولف مضاءة بشكل مكثف بأضواء موضوعة على الأشجار وكذلك كانت ملاعب التنس التي كانت مصابيحها مضاءة للألعاب الليلية. سَلَّمَ أدريان على حارس البواب، ثم تم رفع الحاجز القضيبي. عند المنعطف وأمام مظلة المدخل، كان سائقو سيارات المرسيدس بنز اللامعة والجاكوار والفولفو والسيارات الأمريكية الضخمة والسيارات ذات الموديلات اليابانية الحديثة يفتحون الأبواب لنزول الأزواج الذين كانوا يلبسون الفساتين النسائية الطويلة والبدلات الرجالية.

في منطقة المسبح، كانت الأوركسترا تعزف *بوسا نوڤا*. نزلوا من السيارة. بدت سارة مليئة بالحيوية ومبتهجة وكان أدريان يرفع صدره أكثر من المعتاد. اعتقدت لابينيا أنهما متوتران مثلها ومررت يدها على شعرها وعدّلت فستانها. أخذهما أدريان من ذراعيهما ووقف بينهما في المنتصف وهو معتد بنفسه.

تساءلت لابينيا «ما الذي سيظنه أدريان؟» غالباً ما كان يوبخها على تمردها. كان مدافعاً مثيراً للاستغراب عن *الوضع الراهن* بغض النظر عن ذكره لشجاعة المحاربين. لم يكن يقبل رغبتها في الاستقلال الأنثوي وعلاقتها غير الرسمية بفيليبي. إنه أيضاً كوالدتها، اعتبر تواجدها على أرض الواقع، أي حضورها إلى الرقص، علامة على المصالحة.

كانت القاعة تتألق بلمعان الثريات الكرستالية الضخمة المزخرفة كأكاليل للزهور تسلط الضوء على تلك المجموعة المتعددة الألوان من فساتين السهرة وفتحات العنق والمجوهرات التي كانت تتنقّل كموجات من الحشود من جانب إلى آخر بانتظار البداية الرسمية للرقص. كان الضحك يمتزج عند الطاولات بصوت زجاج الأقداح والثلج والشمبانيا والويسكي.

تنفتح القاعة على شرفة بجوار مسبح ضخم من المياه السمائية اللون المضاءة بعاكسات مائية بُنِيَ عليها جسر لمرور المستعرضات. كانت أزهار اللوتس الطبيعية الضخمة التي تم جلبها خصيصاً من ميامي تطفو على الماء.

كان أدريـان قد حجز طاولة بجانب المسبح كي يتمكن من تقييم استعراض المستعرضات بشكل أفضل. في الطريق للجلوس قادهم حارس الباب الذي كان مسؤولاً عن جلوس الضيوف إلى الطاولة. وجدوا العديد من المعارف. رافقتها عبارات مثل: «مر وقت طويل وأنا لم أرك، هل أنتِ على خير ما يرام؟، أرجو أن تعطيني قطعة» وعبارات مثل: «لابينيا! وأخيراً ظهرتِ!».

- قالت سارة أثناء جلوسهم: «يبدو أنك أكثر شعبية من أي وقت مضى!»

قال أدريان مستمتعاً: «لقد بدأت أشك في أن عزلتَك كانت جزءاً من خطة لزيادة الطلب عليك ولاستسلام المعجبين إليك».

- قالت لابينيا مبتسمة بغموض: «لقد اخترت مكاناً جيداً» وتنفست هواء الليل المنعش أثناء النظر إلى زهور اللوتس في المسبح والجسر الذي تمر عليه المستعرضات.

بمجرد جلوسها، نظرت إلى القاعة بكل ما فيها: كانت الطاولات مغطاة بمفارش المائدة والزخارف الزهرية. كانت أغلب الطاولات مشغولة بالفعل، بينما كان بعضها الآخر موضوعة عليه قطعة دلالية تشير إلى أنها محجوزة. استكشفت بنظراتها من طاولة إلى أخرى تسريحات الشعر والفساتين. بدا الحضور الأنثوي منهمكاً في لعبة التظاهر بتحية بعضهن بعضاً من بعيد والتعرف على البدلات التي جرى الحديث عنها في المحادثات الهاتفية أو في تعليقات مصممي الأزياء المُشتَرَكين. لم ترَ والديها. لم يصلا بعد

أو وصلا واختفيا خلف الأعمدة السميكة المغطاة بالزهور والنباتات. ربما يمكنها إيجادهما عند بدء العرض وجلوس المدعوين.

تعرّفت لابينيا من بعيد على العديد من صديقات المدرسة وسلمت عليهن، كان الكثير منهن يمسكن بذراع أزواجهن الجدد. سلم عليها أنتونيو وفلورنثيا بحفاوة كبيرة مبالغ بها من الطاولة المجاورة التي كانت تتواجد عندها شلتُها القديمة. نهضت لتسلم عليهم برشاقة بثوبها الأحمر.

– قال أنتونيو بمكر عندما اقتربت منه: «يبدو أننا الآن سنراكِ فقط في هذه الأماكن التي لا قيمة لها...».

– قالت ساندرا: «لقد تركتِنا تماماً».

– أكدت لابينيا مبتسمة: «كلا. لا شيء من ذلك، إنني غارقة في موجة من الالتزامات...»

– سأل أنتونيو: «وماذا عن موجة فيليبي؟»

– قالت لابينيا بينما غمزت له: «لا تكنْ فضولياً».

عبر رئيس النادي القاعة متجهاً إلى المذياع.

قالت فلورنثيا بنبرة طفلة في مدرسة: «ستبدأ». عادت لابينيا إلى الطاولة مع سارة وأدريان. جلست عندما بدأ إلقاء الكلمة.

– طاب مساؤكم بكل خير أيها الأعضاء الأعزاء – كان صوت مكبرات الصوت يرن كالرعد مما دعا إلى تحرك عام للحضور باتجاه الطاولات. انخفضت التمتمة العامة لأصوات الحاضرين إزاء بدء المشهد وصولاً إلى الصمت الضروري للاستماع لكلمة رئيس النادي الذي واصل بنبرة مبتهجة مهيبة:

«كما هو الحال في كل عام في التقليد المحبب لنادينا، نلتقي اليوم في الرقص السنوي لتقديم الترحيب الحار بالآنسات الجميلات والمتميزات، بنات أعضائنا الكرام اللاتي سيتم تقديمهن اليوم في تجمُّعنا...»

أشاد الخطاب بصفات الشابات اللواتي تمت قراءة أسمائهن مع أسماء آبائهن وصاحب هذه القراءة حفاوة التصفيق.

قالت لابينيا لنفسها: «الآن سينادون بالأسماء واحدةً تلو الأخرى»

وتذكرت عندما كانت إحدى اللواتي نادوهن: كانت تنتظر في غرفة ملابس وزينة السيدات عند أعلى الدرج كي يتم الإعلان عن اسمها لتنزل بينما كانت الأوركسترا تعزف أغنية *لا بيدا إن روسا*. في ذلك الوقت، لم يكن هناك جسر على المسبح لحسن الحظ.

قام رئيس النادي الآن بجو مسرحي مدعوم بالضرب على الطبول في الأوركسترا بالإعلان عن أولى المستعرضات. عروس النادي: باتريثيا بيلون (تذكرت ضجيجها في أروقة المدرسة، بين الفتيات الأصغر منها). ظهرت الفتاة على المنصة مرتدية فستاناً أبيض مطرزاً بالخرز والترتر وكانت تضع وردة في شعرها البني وتمشي عبر الجسر كما لو كانت تشعر بأنها ملكة جمال الكون. انطلقت الأوركسترا مع مشية *آيدا* دي بيردي وسط تصفيق الحضور.

كان رئيس النادي ينتظر العروس بيدٍ ممدودة في نهاية جولتها. بابتسامة رضاً وأهمية، أخذها من ذراعها وأوقفها بجانبه في نصف دائرة شكّلها آباء الفتيات الأخريات.

صاحبت التمتمات والتصفيق ظهور تلك الرؤى البيضاء والبخارية والزهور في الشعر، التي كانوا يضعونها بجانب الرئيس والعروس.

صفقت سارة وأدريـان وكانا يعلقان وصفقت هي أيضاً وتذكرت تعليمات سيباستيان للتظاهر بأنها سعيدة، مثل السمكة في الماء. كانت تلك البيئة بيئتها، رغم كل شيء، على الرغم من شعورها الحالي بأن المكان ليس مكانها. كان شعور التفاهة يراودها فيحفز رغبتها في الضحك على طقوس بداية تلك الفتيات اللاتي كرسن أنفسهن للترف ولديمومة الصنف البشري.

كانت شديدة الارتياح لقرارها بالانضمام إلى الحركة والابتعاد عن ذلك المشهد. كان من المستحيل أن تكون هناك وأن تأخذ بعين الاعتبار تناقض ذلك البلد الذي يتعايش فيه الغنى مع أقصى درجات البؤس دون عقاب وبتجاهل، بتجاهل الفلاحين الذين يُلقَى بهم من الطائرات المروحية لمجرد تعاونهم مع المناضلين، ويتم التعايش مع صرخات المعذبين في أقبية القصر الرئاسي.

بدأت الرقصة. كان الرئيس يمسك بذراع عروس النادي ويتقدم نحو

قاعة الرقص ليبدأ دوران رقصة الفالس التي انضمت إليها المستعرضات الأخريات اللاتي جلبهن آباؤهن وسط تصفيق وابتسامات الشفاه الملونة بأحمر الشفاه وتمتمات الرضا وتعليقات حول مَنْ كانت الأجمل ومن كانت ترتدي أكثر الفساتين أناقة.

نهض المدعوون من على طاولاتهم وشكلوا نصف دائرة حول المكان الذي كانت ترقص فيه بطلات الحدث الاجتماعي الأكثر تميزاً للسنة.

اقترب أدريان وسارة ولابينيا مع الآخرين.

- قالت له سارة وهي تقف بجانبه: «هل تتذكر عندما جاء دورنا. أعتقد أنه فقط في يوم زواجي قد شعرت بالتوتر الشديد».

كانت تتذكر بالكامل كل شيء. كانت تعاود من وقت لآخر مشاهدة ألبوم الصور وتخجل من كونها هي التي كان والدُها يتأبط ذراعها، بنفس التعبير الذي تراه الآن لدى الفتيات اللاتي يؤدين الرقصة.

- قال أدريان: «أتذكرهن عند الساعة الثانية: كانت وجوههن كالغزلان الخائفة. أحمدُ الله أنني لست امرأة».

- أشارت سارة فجأة بتعبير جدي: «والدتكِ هناك. إنها تلوّح لنا».

لمحت والدتها عبر القاعة وهي تقف في دائرة المتفرجين. رفعت ذراعها لتحيّيهم. خلع والدها نظارته كي يراها على نحو أفضل.

- قالت لابينيا وهي ترفع ذراعها لرد التحية: «لقد تَقَدّم في السن».

كانت تراقبهما من بين رؤوس وخصال شعر الحشود. كانت والدتها قد سمنت قليلاً وبدت كأنها مربية ذات شعر رمادي بينما بدا والدها أنحف من ذي قبل. لم يختلف كثيراً عمّا كان عليه في المرة الأخيرة.

تم كسر تشكيل دائرة المتفرجين عندما انضموا إلى الرقص بإشارة من رئيس النادي. تعانق والدها ووالدتها ورقصا باتجاه الجهة التي كانت تجلس فيها.

كانت تلك هي اللحظة الرائعة التي نهض فيها العديد من الأشخاص من الطاولات المجاورة للمشاركة وحضور اللقاء، ذلك اللقاء في الساحة العامة على إيقاع رقصة وموسيقى ميرينغي الشعبية.

- قالت والدتها بينما كانت تقبلها من خدها كما لو كانتا قد خرجتا من المنزل معاً: «كيف حالك يا بُنَيَّتي؟» ثم سألت سارة وأدريان اللذين انحنيا لإلقاء التحية عليها.

- قال والدها وهو ينظر إليها من الأعلى إلى الأسفل: «كيف حالك؟ تبدين بخير»، ثم عانقها بقوة.

أفلتت لابينيا نفسها من عناق والدها إذ تخيلت «القطع» في فيلم مكسيكي سيئ للأبناء الضالين والآباء التائبين. كان من المستحيل عليه في تلك البيئة أن يكون هنالك محل للعواطف وأن ترد على محاولة والدها لإظهار المودة لها. شعرت بالأسف من أجله. على الأقل خلال تلك الأشهر، اتصل بها من وقت لآخر على الهاتف وسألها عما إذا كانت بحاجة إلى المال وإذا ما كانت بخير.

لكسر طوق الصمت الذي ساد بعد التحية ولإنقاذهم من المشهد المضجِر والمتوتر الذي كان الرقصُ والموسيقى الشعبية الصاخبة للأوركسترا تهدده بالسخرية، اقترح أدريان قائلاً: «لماذا لا يأتي والداكِ إلى طاولتنا؟ سنقوم أنا وسارة بالرقص».

أخذ زوجته مطوقاً إياها من الخصر وتوجه إلى مكان الرقص. رأت لابينيا سارة وهي تهمس في أذنه. تخيَّلَتْ أنها ستلوم أدريان لاختياره الرقص فقط عندما كان من شأن وجودهما أن يخفف من توتر لقائها بوالديها.

- قالت الأم بعد جلوسهما على الطاولة: «إنكِ على خير ما يرام يا ابنتي. لا يزال الفستان يبدو جديداً. هل تتذكرين أنني أخبرتك أن الأشياء ذات العلامات التجارية تستحق الشراء؟ ها قد رأيت أنني كنت على حق».

- قال الأب: «تبدين جميلة جداً».

- سألت لابينيا: «وكيف حالكما؟»

- قال الأب الذي من الواضح أنه كان ينوي بذل جهود لاحتكار الحديث ولتجنب تدخل الأم: «إننا بخير».

- قاطعته الأم: «لقد تركتِ انطباعاً عندما رقصت. سألتني جميع صديقاتي إن كنتِ ستعودين إلى المنزل».

– قالت لابينيا: «آمل أن تكوني قد أوضحتِ لهم أن الأمر ليس كذلك» وبدأت تشعر برد الفعل النموذجي الذي أثارته والدتها فيها.

– سأل الأب متدخلاً بسرعة: «كيف حالكِ في العمل؟»

– قالت لابينيا: «جيد، جيد، وكيف هو حال المصنع؟»

– الأمور تسير بشكل اعتيادي. أحتاج لمدير جيد ليحمل عني العمل بشكل كلي تقريباً. لقد تقدمت بالسن كثيراً وتعبت، لكن العمل مستمر في الإنتاج على الرغم من أنني لا أعرف كيف ستتغير الأمور الآن بعد أن افتتحوا المصنع الجديد الذي يقوم العديد من ضباط الجنرال الكبير بإنشائه.

– هل يقومون بإنشاء مصنع؟

– نعم. إنهم يدخلون في مختلف قطاعات الصناعة والأعمال المصرفية وتجارة العقارات. هل سمعت عن المصرف المتحد؟ حسناً، إنهم ينشئونه بتمويل من الجنرال الكبير ومن العديد من قادته. إنهم ينافسوننا بكل ما أوتوا من قوة وهي منافسة غير شريفة لأنهم يحصلون على إعفاءات ضريبية، الإعفاءات المجانية المعروفة أو أنهم يبنون المباني بآليات الدولة. يريدون تدميرنا.

– قالت والدتها: «متى ستذهبين إلى المنزل، يا ابنتي؟». «بوسعنا الترتيب لغداء مع الصديقات...»

– سأل الأب تساوره نفس مخاوف الأم: «بماذا تفكرين، ماذا ستفعلين في حياتك؟»

– قالت لابينيا: «حياتي هادئة ومنظمة: لدي عمل وأدير منزلي. ليس ثمة ما يدعو للقلق»، ثم ابتسمت دون إعطاء مزيد من التفاصيل بتعبير يوحي بإغلاق الموضوع.

– سألتها والدتها: «وهذا المهندس المعماري المجهول الذي ترافقينه وتسيرين معه...؟»

– قالت لابينيا: «إنه مجرد زميل في العمل. أراه من وقت لآخر. ليس هنالك شيء جاد معه... ألن تفعلوا شيئاً للحيلولة دون منافسة الجنرال الكبير؟» وحاولت العودة إلى ما كان والدها يتحدث عنه.

- لقد عقدنا اجتماعاً، لكن لم يكن بوسعنا إيجاد أي حل.

بعد فترة من الجلوس ومن مشاهدة أولئك الذين كانوا يرقصون، علّقَت الأمُّ على الفساتين وتكلمتْ عن آخر القيل والقال وتكلم الأب عن لقاءاته ونهض قائلاً إنه لا يمكن التحدث بسبب الضوضاء. كان من الأفضل أن تذهب لابينيا لزيارتهما في المنزل.

نهض الثلاثة. من الواضح أنهم ارتاحوا لنهاية الاجتماع واحتفظ كلٌّ واحد بما كان يريد أن يقوله، لكنه قد أخفاه وراء التقاليد والوداع والقبلة على الخد وعبارة «سنرى بعضنا بعضاً قريباً». نظرت إليهما وهما يبتعدان: الأب والأم، بعيداً بين أولئك الذين يرقصون، كانا زوجين، كائنين بشريين حسني المظهر، كان الأب منتصب الجسم، ما يزال شعره كثيفاً وأشيب وملامحه بارزة وعيناه كبيرتين. كان يتحرك بحزن ويبتسم على مضض لمن يسلم عليه عند المرور. أما الأم، فكانت تبدو من كبار السيدات، ذات شعر كثيف وبراق ويدين طويلتين قد ورثتهما منها وذات تعبير مصطنع ومسرور.

بينما كانت تنظر إليهما، اكتسبت المصابيح الزجاجية والأضواء شكلاً منتشراً وذا بريقٍ يجعل العينين تدمعان. كانت تشعر بأنها قد وضعت منظاراً ثنائياً مقلوباً. لقد رأتهما بعيدين بعينيها الدامعتين وسيطرت عليها لحظة انبهار، أدركت أنها كانت بالفعل على الجانب الآخر وأنها تمكنت أخيراً من السباحة عكس التيار وأن تكون على الضفة الأخرى. كان يفصلهما عن بعض فقط البكاء، الماء، الماء الذي يمحو كل شيء.

- ألا تريدين أن ترقصي؟ أنتِ وحيدة هنا...

أخافتها اليدُ التي أمسكت بكتفها العاري. عادت الطاولات والراقصون وصوت الأوركسترا إلى الدخول في نطاق تركيزها مرة أخرى. رفعت رأسها ورأت بابلو خيمينيث، صديق من الأيام التي كانت فيها مستعرضة، وهو ينظر إليها مرتدياً البدلة الرسمية وربطة العنق السوداء حول رقبته.

كان رجلاً هادئاً وخجولاً. كانت بشرته وشعره وعيناه تبدو كأنها قد ذابت في ماء نار بطن أمه التي نقشت ملامحه. كانت امرأة مسيطرة وصاخبة. كان الجميع ينادونه ببابليتو. تقول الفتياتُ عنه إنه مُسَالِم.

– ردت عليه: «مرحباً، بابليتو».

– قال وهو يمد يده ليأخذها للرقص «مرحباً، هيا لنرقص... تعالي، لا تبقَي جالسة هناك...»

نهضت وهي تفكر أنه لا يمكنها اختيار شريك أفضل من هذا الرجل اللطيف والشفاف والمسالم لرقصتها الأولى.

خفّت موسيقى ورقصة بوليروس الشعبية أيضاً عند الدخول إلى مكان الرقص. فُسِحَ مجال صغير. كانت الثنائيات تتحرك متعانقة ومستغلة الموسيقى لاحتكاك الأجسام بعضها ببعض ولهمس الأشياء في أذن الشريك.

كانت تفوح من بابليتو رائحة الكولونيا. أمسكها برفق من خصرها وبدآ في التأرجح حسب الإيقاع.

– قال لها: «لقد عَلِمْتُ بعملكِ مع خوليان سوليرا، هل تسير الأمور بشكل جيد؟»

– نعم، نعم، كل شيء على ما يرام. إنه عملٌ ممتع.

– لكنك اختفيت... شوهدتِ فقط في النوادي الليلية.

– بعد عام من الاستعراض، مللتُ قليلاً هذا النوع من الحفلات. أما الآن، فقد انتهى الملل...

إقتربت قليلاً منه وكانت تتمنى أن يتوقف عن الكلام كي تستمتع بالموسيقى والرقص. كانت تحب الرقص. كان بابليتو يرقص جيداً.

لقد فكرت أنه لا ينبغي عليها أن تفعل ذلك، بل عليها أن تتحدث وتسأل عن الأشياء. لكنها كانت مشوَّشة. كان التركيز ونسيان والديها يكلفانها جهداً. تمنتْ لو كانت الذراعان اللتان تمسكان بها هما ذراعي فيليبي. كان بوسعها عندئذ إغماض عينيها وأن تنسى على إيقاع الموسيقى تأثير العلاقة المضطربة مع والديها.

– سألت محاولة استعادة وضعها: «وأنتَ، ماذا فعلت، ما أخباركَ؟»

– إنني أعمل في المصرف المركزي، في مكتب الأبحاث الذي تم افتتاحه للتو. نقوم بدراسات اجتماعية – اقتصادية مستقلة يُفتَرَض أنها غير سياسية. على ما يبدو، أَقْنَعَ رئيسُ المصرف الجنرالَ الكبير بالحاجة إلى أن

يكون هنالك فريق لتقديم معلومات غير مغلوطة. الحكومة منشغلة أكثر بمعرفة ما يجري في البلد. لا أعتقد أن الأمر سيكون ذا فائدة كبيرة، لكن على الأقل يشعر المرء أنه ربما سيتقرر تحسين بعض الأشياء حتى لو كان ذلك بدافع الخوف...»

– لكن ألا تشعر بأنك على غير ما يرام لعملك هناك...

– كلا. أعتقد أن الشيء الوحيد الذي يمكن للمرء أن يفعله في هذا البلد هو محاولة العمل من داخل النظام وبما أن ذلك سيطول أكثر لسنوات عديدة أخرى، فإن الشيء الأكثر عملية هو معرفة ما يمكن فعله كي تسير بعض الأشياء على الأقل بشكل أفضل. فضلاً عن ذلك، نحن مجموعة مستقلة كما قلت لكِ ولا نَمُتُّ بِصِلَةَ للسياسة. إننا فَنِيُّون...

كانت لابينيا قاب قوسين أو أدنى من أن تقول إن كون المرء غير سياسي هو طريقة مريحة للتواطؤ، إلا أنها تذكرت أنها هناك للقيام بتغطية صفة تمردها وليس لإظهارها، فضلاً عن أن تعليقها لن يكون ذا فائدة. في ذلك الجو، كانت الأغلبية من المعارضين. كان الأمر الطبيعي هو انتقاد النظام والشكوى منه حتى عندما يعرف كل منهما الآخر ضمنياً بأنهم حلفاء. كان الشعار: فلننتقده، لكن لا نغيره.

كان هذا شعارها حتى وقت قريب.

انتهت رقصة وموسيقى بوليروس الشعبية وغيرت الأوركسترا إيقاعها وبدأت رقصة كومبيا الشعبية التي أنهت المحادثة.

– قال بابليتو: «دعيني أوصلك إلى الطاولة. هذا الإيقاع ليس من النوع الذي أفضّلُه».

عاد أيضاً كل من سارة وأدريان. كانا يحركان المناديل للحصول على هبات الهواء.

– كان مكان الرقص ذلك عبارة عن فرن... كيف حالك بابليتو؟

– على خير ما يرام، شكراً لسؤالك. أنتما أيضاً تبدوان على خير ما يرام...

– قال أدريان: «بالتمرين الذي قمنا به...».

مهّد الرقصُ مع بابليتو الطريقَ لتقارب الأصدقاء والصديقات عند الطاولة في فترات الاستراحة القصيرة للأوركسترا.

تم تبادل أطراف الحديث بمعلومات موجزة حول الوظائف والاتجاهات الأخرى وتواصلت الأحاديث في الليل في جو من الكياسة والمجاملة. كان من المستحيل معرفة حقيقة ما يدور في العقول خلف تلك الوجوه اللطيفة والمبتسمة التي كانت تراها.

لقد رقصت مع معارفها من الشلة: مع أنتونيو الذي سأل بإلحاح عن فيليبي وخورخي ونكاته. لقد استمتعت بوقتها معهم. لم يكن صعباً عليها أن ترمّش برموشها وتتغنج بلطافة.

كانت أحياناً تعود إلى الاستغراب. كان عقلها يصوّر لها صورَ سيباستيان وفلور وفيليبي ودفن الطبيب الذي يبدو أن الجميع قد نَسِيَهُ. علّق هذا وذاك على الحظ بعدم إلغاء الرقصة وعلى الخوف الذي مروا به من إحاطة الكارثة بهم.

تحدثت صديقاتُها القدامى في المدرسة عن خطط عرسهن وخطّابهن وأزيائهن وأحدث وسائل منع الحمل.

كانت تشاهد صدفةً نظرة أدريان من وقت لآخر وهو ينظر إليها بتهكم وفضول.

كانت متأكدة من أن أدريان قد لاحظ أنها تمثّل، لكنه لم يعرف قط سبب قيامها بذلك.

حاول إقناعها بالرقص، لكن لابينيا التي كانت تدرك أنه سيُخضِعها للاستجواب، تظاهرت بعدم قدرتها على التوفيق بين طلبه والطلبات المتعددة.

– قالت أخيراً: «علينا الانصراف، لا يمكنني الرقص أكثر من ذلك. لقد تأذّت قدماي المسكينتان...»

أيدت سارة التي كانت قد بدأت بالتثاؤب الفكرةَ.

– قالت: «أجل، دعونا نذهب. سأموت من النعاس».

استداروا عند الخروج من شرفة المسبح كي يتفادوا قطع الطريق في قاعة

الرقص بتجمعهم. في موقف السيارات، رأت والديها من مسافة بعيدة وهما يركبان سيارتهما للخروج. كانا ينظران إليها عندما كانت ترقص بالقرب من طاولتهما. كانت نظراتها غير المفهومة ونظراتهما غير المفهومة تتقاطع.

– قال أدريان في طريق العودة: «لقد كنتِ فاتنة».

– قالت وهي تمثل دور البلهاء: «لقد تصرفتُ بلطافة، أليس كذلك؟»

– قال أدريان: «إنكِ لطيفة عندما تكونين على ما أنتِ عليه ولا تحاولين التظاهر بأنك امرأة متحررة ومستقلة...»

– قالت لابينيا: «إنني متحررة ومستقلة، أتمنى ألا يلتبس عليكَ الأمر».

أجاب أدريان: «لن أفهم النساء أبداً».

صمتا وهما يستمعان إلى التنفس المنتظم لسارة التي كانت نائمة في المقعد الأمامي.

***

هل ما تشعر به هو الحنين؟ غالباً ما شعرتُ بالحنين إلى حياة قبيلتي، غير أنه لم تكن ثمة عودة ممكنة في حالتي. ما تركتُه قد ذاب مثلما تتفتت قطعة قماش متهتكة. لم تعد الأفراحُ الهادئة قط إلى البيوت المصطفة بعضها جنب بعض التي علّمنا فيها مدرسونا فنون الرقص والنسيج. لن أتزيّن أبداً من جديد في الاحتفالات المقدسة التي كنا نتلقى فيها عودة الشمس بعد الأيام الأخيرة من السنة: الأيام المشؤومة التي كنا جميعاً نعتزل فيها الناسَ ونصوم ولا يُسمح للشباب بالاستحمام في النهر أو الاستمتاع بصيد الأسماك في البحيرة.

غريبة هي مشاعر لابينيا الحادة كالسهام، التي هي مزيج من السم والعسل. كلها على بعضها هي لوحة محيرة، ذراع تقول وداعاً وهي تحب وتكره في الوقت ذاته. من المؤكد أنه لمربك ذلك الزمن الذي تحدث فيه أحداث متباينة كما لو كانت عالمين أحدهما جنب الآخر دون أن يتقاطعا فيما بينهما. قليل من هم مثلها ومثلي وأنا أسكن هذا الدم.

***

خلعت فستانها الأحمر. ألقت به على الكرسي. رأته وهو يصبح كتلةً عديمة الشكل من الطيات واللمعان تحت شعاع الضوء القادم من الحمام. غسلت وجهها ومكياج عيونها الأسود.

من الممتع لها أن ترى فيليبي في سريرها ينتظرها ويتظاهر بالنوم.

كانت متأكدة من أنه كان ينظر إليها بعيونٍ شبه مغمضة. هذا ما دعاها لأن تمنح حركاتها تحرّكاً مسرحياً. لقد وقفت عارية أمام مرآة الحمام وقد أزالت آثار الحفلة قبل أن تسير حافية القدمين إلى الفراش. تذكرت جزءاً من رواية لمؤلفها كورتاثار التي ينظر فيها الرجلُ إلى المرأة وهي ترى نفسها وحيدة أمام المرآة وعارية.

- سألها فيليبي بصوتٍ غليظ كأنه قد استيقظ بمجرد أن رفعت الملاءات لتدخل السرير: «كيف سارت الأمور معكِ؟»

- أجابته وهي تستلقي بجانبه وتقبله قبلةً على خده: «جيدة، على خير ما يرام».

- هل هذا كل شيء؟ ألن تخبريني كيف كانت الحفلة...

- دعني أفكر بطريقة لتلخيص الأمر لكَ... كان هناك الكثير من الناس والكثير من الفساتين اللماعة ذات الترتر والخرز وجسر فوق المسبح تمر من عليه المستعرضات وزهور اللوتس التي تم جلبها من ميامي تطفو في المياه والكثير من المحادثات غير المهمة وفرقتان من الأوركسترا وقاعة رقص مكتظة... لقد رقصتُ كثيراً. تصرفتُ بلطف مثلما أراد سيباستيان. التقيتُ بوالدي.

- وعمّ كان الناس يتحدثون؟

- عن أي شيء...

فكرت لابينيا أنه لطالما كان لديها انطباع بأن هؤلاء الأشخاص يتحدثون كي يصغي إليهم الآخرون. كما لاحظت قبل أن يجعلها وعيُها الجديد ترى أشياء مثل تلك بوضوح أكبر أنهم يتحدثون باستمرار كما لو كانوا بحاجة إلى سماع بعضهم بعضاً كثيراً لحماية أنفسهم من وحدتهم. يبدو أنهم لا يعرفون كيف يستمعون إلى أصوات الآخرين، كانوا يسمعونها فقط كآلات صغيرة

في سيمفونية رضاهم الذاتي. قالت في قرارة نفسها ربما كان الأمر يتعلق بالتعليم وبالطبقة. لقد تربوا جميعاً -وهي من ضمنهم- على التفكير في مركز العالم وبداية الكون.

قال فيليبي وهو يرفع نفسه على مرفقه مبتسماً لها: «ذلك مبهم جداً، ماذا كانوا يقولون؟»

- ما تريد أن تعرفه هو إذا كنتُ قد حصلت على أي معلومات مفيدة، أليس كذلك؟ إذا بدأت بإخبارك ما قالوه، سنستمر بالحديث حتى الغد.

- بَلى. إنك على صواب. ما الأمر المفيد الذي قالوه؟

أخبرتْهُ بما قاله والدُها وبابليتو وتعليقات فردية لأشخاص حول عدم امتلاك الجنرال الكبير للذوق السليم في إقامة حفل للعسكريين في النادي الترفيهي للقوات المسلحة في نفس اليوم.

- قال فيليبي: «لذلك هم مستاؤون، لأنهم بدأوا بإدخالهم إلى أراضيهم... إنه لأمر مثير للاهتمام. لقد شعرنا بذلك».

رأته وهو مستغرق في تأمل إيجابي وسعيد بالتحقق من الأمور. بالمقابل، أرادت تحليل الحفلة من منظور مختلف. لم تسمع أي شيء غير عادي فيما يخص القضايا السياسية. ما اعتبرته مثيراً للاهتمام هو تمكنها من رؤية كل ذلك بقدرة على الملاحظة أكسبها إياها وقع التكيُّف التام لمرور الزمن مع حياتها الآن وأن تضع نصب أعينها تصميم الحركة لأيامها وأن تجد معنىً للأشياء وسبباً للكينونة. كانت تريد أن تشارك أفكارها مع فيليبي وأن تخبره عن مدى شعورها بالتغير منذ عدم استيقاظها في الصباح وهي تشعر بأنها أمام حفرة لا شكل لها، أمام كتلة من الطين تنتظر الإنجاب لتمتلئ بالأسماك أو أن تصبح شجرة أو تفاحة. الآن قد عرفت سبب التزاماتها. ها قد سيطرت الآن على الساعات وتظن أنها قد بلغت أخيراً مرحلة البلوغ وأنها قادرة على النظر إلى ما حولها وإلى اكتشاف الجانب الآخر والآخرين تحت ضوء مختلف دون الحاجة الطفولية لجعل العالم يدور حولها.

- قالت لابينيا بينما كانت تفكر: «من المثير للاهتمام أن نرى كيف يتصرف الأشخاص الذين ينحدرون من الأصل الذي أنتمي إليه. جميعُهم

يريدون لفت الانتباه إليهم. إنها منافسة شرسة، إذ يستخدمون أي مورد للفوز بالمركز وللاستئثار بالتركيز والاستحواذ على الأضواء. بالطبع، إنهم مستمتعون. لقد ضحكتُ كثيراً، لكن انظر، على سبيل المثال، إنهم لم يَرَوني منذ وقت طويل. وجهوا لي فقط أسئلة سطحية، ما هو معتاد... كيف حالكِ؟ ماذا فعلتِ؟ لم يسألني أحدٌ عن أي شيء آخر. لم يكونوا مهتمين بي. الشيء الوحيد الذي كانوا يهتمون به هو التباهي والظرافة وسرد حكاياتهم إلى ما لا نهاية. بالنسبة لي، من الأفضل أن يكون الأمر كذلك، لكنه لا يتوقف عن عكس ما هم عليه.

رفع فيليبي كتفيه. من الواضح أنه بالنسبة له لم تكن تكتشف أي شيء جديد.

- سألها: «ومع من رقصتِ؟»

أخبرَتْهُ عن الرجال الذين جاؤوا إلى طاولتها ليسألوها إن كان لديها صديق.

كان من الممتع مشاهدة رد فعله. بالنسبة له، لا يبدو أنه يهتم كثيراً بما كانت تفكر فيه، حتى إنه لم يسألها عن والديها. بعيداً عن الاهتمام السياسي، كان لديه فضول ذكوري لمعرفة من اقترب منها. كان يعكس عدم الأمان من اللامبالاة الواضحة التي استعاد به وجهه الشهوانية الرقيقة للنعاس لإغرائها ولممارسة الحب الجنوني والعنيف معها الذي يشعر من خلاله أنه يمتلكها، فينتقم بذلك من رقصة البوليروس الشعبية ومن الإيقاعات الأخرى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- 16 -

ذكّرتها فلور بالعمة إينيس. لقد كانتا مختلفتين للغاية، ومع ذلك كانت هناك أوقات لم تستطع فيها لابينيا الكف عن الشعور بأن ثمة شيئاً مشتركاً يربطهما: طريقة جادة للحديث عن الحياة ولإدراك الثنايا الداخلية للأشياء.

قالت فلور: «إنك تقلقين كثيراً بشأن مسألة القبول أو الهوية... كل منا مسؤول عما يخصه حتى نهاية الأيام، لكنه يبني أيضاً. كمهندسة معمارية، عليكِ أن تعرفي ذلك. الأرض هي ما يعطونك إياه منذ الولادة، لكن البناء مسؤوليتك.

- ابتسمت لابينيا قائلة: «بالضبط كمهندسة معمارية، أعرف كيف تؤثر التضاريس...، لكن ما تقولينه صحيح، لا أعرف سبب قلقي الكبير.

- هكذا هو الأمر. لا تقلقي كثيراً. اهتمي أفضل بتقديم أقصى ما يمكنك تقديمه. أما التقبل، فسيأتي شيئاً فشيئاً. المهم أن تكوني صادقة مع نفسكِ. هذا ما يتعلم الآخرون احترامه.

إن فلور هكذا، دون زيادة أو تطرف. لم تكف عن مفاجأة لابينيا التي كانت تكتشف في فلور كلما تعرفت عليها أكثر العمق ورِقَّة القلب اللذين كانت تخفيهما وراء مظهرها الهادئ والرصين والصارم في بعض الأحيان.

لقد تطورت بينهما، بين جلسات الدراسة والليالي الطويلة التي قضتاها في خياطة «الدنتيلا» -المواد والمراسلات التي كانت تُرسَل إلى الجبال، مخبأة في أشياء عديمة الفائدة- صداقة مخلصة وأخوية. تحدثتا عن الأحلام والتطلعات وتشاركتا القراءات النسوية وأشكال العلاقات الجديدة بين الرجل والمرأة.

الآن، أثناء جلوسها على المقعد الثلاثي الأرجل المرتفع، رسمت تصاميم مقترحة لدار عائلة بيلا، افتقدت لابينيا فلور. مضت أسابيع لم تَرَها فيها إلا قليلاً. كانت تبدو مشغولة للغاية وكذلك سيباستيان وفيليبي.

من جانبها، أمضت معظم وقتها للانتهاء من مسودة المخططات. كان خوليان قد أعفاها من التزامات أخرى وطلب منها تركيز موهبتها وطاقتها على تحقيق أقصى استفادة من هذيان العظمة الجنوني لدى الجنرال وعائلته.

قامت من على المنضدة وذهبت إلى المكتب. كان مليئاً بالمجلات الأمريكية. رأت بجوار الهاتف البطاقات البريدية لمنزل ويليام هيرست في كاليفورنيا: حمام السباحة اليوناني المرصع باللازورد والصالات التي تشبه قصور العصور الوسطى وأربعين غرفة... كان من المفيد معرفة أذواق العقول المحبة للفخفخة. بعد أن تم تصغيرها، بدت مماثلة.

جلست متكئة على الكرسي ذي المساند وأخذت قسطاً من الراحة. لقد استنفدها جهد التصميم وهي تنتهك باستمرار مبادئ البساطة وحتى مبادئ الجماليّات لإرضاء الذوق الشره للسيدة بيلا. أخرجت سيكارة واستنشقت الدخان وأخرجت زفيراً من دوائر بيضاء من الدخان الذي انحل مثل السحب المكسورة على ضوء النيون المنبعث من المصابيح السقفية. رأت من خلال النافذة أمطار أيار الخفيفة تلطّف وضح النهار.

رن الهاتف. إنها السيدة بيلا. بعد أول تحفظ يتعلق بنوع الأرضية التي اختارها زوجها، فاض حماسها عند فهم إمكانيات البناء المتعدد المستويات. كانت تتصل كل يوم تقريباً وبجعبتها أفكار للمنزل.

في ذلك اليوم، جاء في بالها أن تتخلى عن غرفة الخياطة الخاصة بها والمجاورة لغرفة الموسيقى لتفاجئ زوجها.

- قالت السيدة بيلا: «لديه مجموعة من الأسلحة، أتعلمين؟ خطر لي أن وضعها على جدران تلك الغرفة لعرضها سيكون أمراً رائعاً، ألا تعتقدين ذلك؟»

- قالت لابينيا: «لكنكِ ستبقين بدون غرفة الخياطة الخاصة بكِ». تذكري أن لديه بالفعل غرفة الموسيقى مع البار (طاولة الوجبات الخفيفة وخانة المشروبات الكحولية) والبلياردو.

– قالت السيدة بيلا: «لا يهم، لا يهم. الحقيقة هي أنني لم أخيط قط. يمكن الخياطة في أي مكان.

أثناء التحدث مع السيدة بيلا، خلطت لابينيا البطاقات البريدية لمنزل هيرست. تذكرت رؤية مستودع الأسلحة في إحدى الغرف. وجدت صورة متعددة الألوان. مكتوباً على ظهر البطاقة البريدية *الغرفة السرية*. لا تزال تستمع إلى الحديث الطويل والمتواصل للزوجة. بدأ عقلها بإيجاد الاحتمالات.

قالت لابينيا: «يمكن أن يكون ذلك. يمكن أن يكون. أنتِ على حق. سيحب الجنرال الفكرة بلا شك. سأعمل على مخطط مقترح وسنراه الأسبوع المقبل، أيناسبك ذلك؟

أغلقت السماعة وظلت تفكر. سيسهل تصميم الرفوف الوصول إلى الجنرال بيلا. ستحتاج إلى تفاصيل حول الأسلحة لتحديد أحجام الرفوف وأوزانها ومخطط توزيع الرفوف. سيكون من المنطقي النقاش حول أهمية إجراء لقاء عمل معه.

قلبت يميناً ويساراً عدة مرات البطاقة البريدية لمنزل هيرست. لا يمكن لغرفة سرية للأسلحة أن تفشل في إغواء الجنرال بيلا. نهضت بحماس إلى منضدة الرسم.

قبل وقت قصير من موعد المغادرة، ظهرت ميرثيدس عند عتبة الباب لتسألها إذا كانت تريد شرب فنجان من القهوة. وصل إلى المنضدة وأخذت تنظر من فوق كتفها.

– سألتها: «لماذا ترسمين بنادق ومسدسات؟»

– أجابتها: «لأن السيدة بيلا تريد مخزن أسلحة، غرفة لعرض مجموعة من الأسلحة التي جمعها الزوج منذ التحاقه بالجيش».

– «كل يوم تريد شيئاً جديداً، أليس كذلك؟ لذلك، كانت المكالمة...»

– «نعم».

التزمت ميرثيدس الصمت. سارت حول المنضدة وهي تلمس بهدوء على الفرش وأقلام الرصاص بذهن شارد.

- «تحبين هذا العمل، أليس كذلك؟»

- «نعم، إنه جميل».

- «بالنسبة لي، يعجبني عملي أيضاً، لكنني اليوم أشعر بالاكتئاب».

- «ما الذي حصل لكِ؟»

- «إنني في ورطة».

- «مرة أخرى؟» قالت لابينيا دون أن تتمكن من تفادي الأمر. تودعها ميرثيدس الأسرار من وقت لآخر. كان كل من في المكتب يعرف مانويل الذي زارها وأجرت معه محادثات هاتفية لا نهاية لها. كان متزوجاً. لقد وعد باستمرار بالتخلي عن زوجته. كان يعدها بذلك منذ عامين حسب ما قالته ميرثيدس.

- «اتضح أن زوجة مانويل حامل. قال لي إنه كان يعيش معها بسبب الأطفال. من المفترض أنهما بالكاد كانا يتحدثان. اتصلت بي اليوم صديقة لي وأخبرتني أن الزوجة حامل».

- «حسناً، لقد أخبرتك بالفعل أن تلك القصة بدت لي مترهلة...»

- «ولي أيضاً بدت كذلك» قالت ذلك وهي تنظر من النافذة إلى المنظر الطبيعي الملبد بالغيوم، ثم تابعت: «لكنني أردتُ أن أصدقك». توصلت إلى الاعتقاد بأنه يقوم بذلك حقاً من أجل أولاده... إنني مقتنعة بأنه يحبهم حباً كبيراً، إلا أنني الآن لا أعلم ما العمل...»

- «إنك امرأة شابة، ميرثيدس، وجميلة وذكية. تستحقين أفضل من أن تكوني زوجة ثانية. لماذا لا تتركينه نهائياً؟ سترين أنه ليس الرجل الوحيد في العالم».

- «كل الرجال متشابهون».

- «ربما، لكن بعضهم عزّاب على الأقل».

- «لكني قد تلطخت بالفعل. يحب العزّاب الزواج من العذارى. الشيء الوحيد الذي بوسعي التطلع إليه هو حبيب آخر... لهذا السبب يلاحقني الرجال المتزوجون دائماً».

بطريقة ما، اعتقدت لابينيا أنها كانت على حق. هذا النوع من الرجال

الذين كانت ميرثيدس مرتبطة بهم كانوا يتطلعون إلى الصعود في المجال الاجتماعي. لهذا السبب كانوا يتخذون بحيطة القيم التي تعتبر مقبولة في دوائر المجتمع الأكثر تعقيداً. تعاني المرأة بعد أن تقيم علاقة مع رجل متزوج من صعوبات في سوق الزواج هذا. سيبحثون عنها كعشيقة، أما بالنسبة للزوجة، فإنهم يفضلون مخلوقةً بريئة وسهلة التقولب والانقياد. تعتبر المرأة السليمة ضرورية لتقديمها في دوائر معينة. قد يكون ماضي ميرثيدس محرجاً لهم. مع ذلك...»

– قالت لابينيا: «تذكري أن العذارى من الأنواع المهددة بالانقراض».

– قالت ميرثيدس مبتسمة: «لكن لا يزال هناك ما يكفي...»

– «إذن، فلْتبقي وحيدة، ميرثيدس. من الأفضل أن تكوني وحيدة على أن تكوني برفقة سيئة. إذا كنتِ تشعرين بأنك غير سعيدة مع مانويل، لا أجد سبباً لاستمرارك معه».

كانت ميرثيدس تنظر إلى المجلات على المكتب بتعبير غائب. يبدو أنها كانت تبحث عن حل لمشكلتها، لكنها في قرارة نفسها كانت حسب ما تعتقده لابينيا واقعة في شرك العشق.

رأتها تبدأ بالتوجه إلى الباب.

– قالت ميرثيدس: «المشكلة هي أنني أحبه. سأذهب الآن. إنني أؤخركِ.»

ثم غادرت على عجل.

نظرت لابينيا شاردة إلى غيوم المساء من النافذة. كانت الغيوم تغطي السماء الرمادية الممزوجة باللون الوردي والبنفسجي.

شعرت بالأسف لميرثيدس. كانت تعتقد أن التمسك بالحب على هذا النحو هو أشبه باللعنة تقريباً وهو أنثوي للغاية. تساءلت كيف للرجال أن يضعوا هذه المخاوف جانباً في حياتهم اليومية. على الأقل وكي لا يفقدوا التركيز ولا يشعروا أن الأرض تتحرك تحت أقدامهم عندما لم تسِر العواطف على ما يرام. يبدو أن لديهم القدرة على تجزئة الحياة الحميمة وحبسها وراء حواجز صلبة لا تتزعزع تحول دون تلوث بقية الوجود. بالمقابل، بالنسبة

للنساء، يبدو أن الحب هو محور النظام الشمسي. كان من شأن أي انحراف أن يذيب الجليد ويطلق العنان للفيضان والعواصف والفوضى.

استمعت إلى أصوات وقت المغادرة وأزرار إطفاء مصابيح الرسم والمفاتيح وعبارات الوداع «حتى يوم غد». كانت قد لطخت أوراقاً، وأوراق أكثر قد تلطخت بشكل ميكانيكي دون أن تفكر في ما كانت تفعله. كانت شاردة الذهن تفكر في الكهوف الرطبة للحياة. فحصت الأوراق قبل رميها في سلة المهملات: أسلحة نارية ومسدسات وبنادق والغريب أنه كان هنالك رسم لأسلحة نارية قديمة لا تحصى قد أُشْهِرَت ورُسِوَم بشكل مبسط وأقواس وسهام.

***

تفكر لابينيا بلون العضو التناسلي ذي اللون الأحمر الزعروري وتتساءل عن الحب.

الوقت لا يمر: بوسعنا نحن الاثنتين، هي وأنا، أن نتحاور عن بعد وأن نفهم بعضنا بعضاً في ليلة مقمرة حول شعلة النار. أسئلة لا تعد ولا تحصى بلا أجوبة. يهربُ الرجلُ منا، ينزلق من بين أصابعنا مثل سمكة في نهر وديع، قمنا نحن بنحته وبلمسه وبتشجيعه وبتثبيته بين أرجلنا ولا يزال بعيداً كما لو كان قلبُه مصنوعاً من مادة أخرى. قال يارينثي إنني أريد روحها وأن رغبتي الأشد عمقاً تكمن في أن تُنْفَخَ في جسده روح المرأة. قال ذلك عندما كنت أشرح له حاجتي للمداعبات وعندما طلبت منه أن يداعب وجهي وجسدي بأيدٍ ناعمة على وجهي أو جسدي، إنه يتفهم الأيام التي كان الدم يتدفق فيها من عضوي التناسلي وكنت حزينةً ورقيقةً وحساسةً مثل نبات حديث الولادة.

بالنسبة له، كان الحب شراب البولكي والفأس والإعصار. كنتُ أرضيه كي لا أضرم النار في فكره. كنت أخشاه. بالمقابل، بالنسبة لي، الحب قوة ذات حدّين: حدّ من نار وشرر وآخر من قطن ونسيم.

كانت والدتي تقول إن الحب قد أعطيَ فقط للمرأة. بالكاد كان الرجل يعرف ما هو ضروري. لم ترغب الآلهة في تشتيت قوته. لكنني قد رأيت

رجالاً مجنونين بالحب وبوسعي أن أقول إنه حتى يارينثي قد تعرض لتوبيخ الكهنة والحكماء بإبقائي إلى جانبه. لم يكن بوسعي، مثل أمي، أن أتقبّل أن يحملوا في داخلهم فقط حجر السبج الضروري للحروب. كان الرجالُ يبدون لي أنهم يضمرون الحب خشيةً من أن يبدوا كالنساء.

***

اتفقوا على الاجتماع في متنزه ثَيْبوس. منذ بضعة أسابيع، لم تَزُرْ لابينيا منزل فلور نظراً للانشغال البالغ للجميع. نادراً ما كانت تراها في الأماكن العامة: المتنزهات أوالمطاعم أو أثناء توصيلها من مكان إلى آخر في سيارتها. كانت فلور تتردد أيضاً على طريق إسباديّوس.

في المتنزه، اعتادتا على الجلوس تحت شجرة قابوق ضخمة. كانتا تجلسان عند الطرف البعيد، على مصطبة خرسانية. كانتا تبدوان كطالبتين مع الكتب والدفاتر. كانت لابينيا تحب أن تلتقيها هناك. شكلت الأغصان الممتدة للشجرة دائرة من الظل من التخريمة الخضراء ذات الحدود الزرقاء. كان يمكنهما من ذلك المكان مشاهدة الأطفال يلعبون في قاطرة قطار قديم مهجور وتستمعان أثناء سكون ما بعد الظهر للضحكات البعيدة للأطفال.

وصلت في الوقت المتفق عليه. لم تكن فلور قد جاءت بعد. أوقفت السيارة في موقف السيارات، أحضرت الكتب والدفاتر اللازمة للقيام بالتغطية التمويهية بأنها طالبة وسارت على مهل إلى المصطبة. كان الجو حاراً. قد تكون الأيام التي تخلو من الأمطار في فصل الشتاء شديدة الحرارة والرطوبة.

في مساء ذلك اليوم، كان عدد قليل فقط من الأطفال يلعبون في القطار القديم. كانوا جميعهم صغاراً وملابسهم قديمة وباهتة ومرقعة مرات عديدة. كانوا يبذلون جهداً للصعود بأرجلهم الصغيرة إلى أعلى القاطرة. من جهة، كانت هنالك على العشب سلال وأواني الحلويات والسجائر والتشيكلتس التي أرسلتها أمهاتهم لبيعها في المنتزه متروكة أمام نقر طائر أو آخر.

عندما يصل الأطفال الأغنياء في وقت لاحق ومعهم جليسات الأطفال

وهن يرتدين زياً نظيفاً مرتباً ومآزر بيضاء، لن يكون بإمكانهم اللعب في القطار. ينبغي عليهم الاكتفاء بالنظر إلى الألعاب من أرصفة المتنزه بينما تتأرجح بضائعهم في أيديهم وسيعلنون بصوتهم العالي الصارخ: «العلب، العلب...»، «يوجد تشيكلتس، سجائر...».

بعد دقائق، اقتربت فلور من الطريق. كانت تحمل حقيبة الظهر التي احتفظت فيها بملابسها كممرضة عند مغادرتها المستشفى. ما يزال بوسعهما رؤية الجوارب البيضاء السميكة والأحذية البسيطة الخاصة بالعمل تحت حاشية الجينز الأزرق الباهت على عكس البلوزة ذات الأزهار. كانت تبدو متعبة وهالات الإرهاق بائنة حول عينيها. بعد أيام، بدا للابينيا أن فلور قد فقدت وزناً. أما الآن، فلم يترك الوجه الضعيف الذي بانت عظامه مجالاً للشك. مع ذلك، لقد كانت عيناها برّاقتين وحركاتها متوترة وكان إيقاع جسمها المتغير يدل على السرعة.

قالت لها وهي تنحني لتقبلها من خدها وراحة يدها على كتف لابينيا: «مرحباً. اعذريني لأنني قد تأخرت قليلاً، إذ لم أجد حافلة. لقد تعطلت سيارتي مرة أخرى. أعتقد أن هذه هي المرة الأخيرة.

كانت سيارة فلور تشيتشو، كما يسمونها، لقد دخلت مرحلة قدم متدهور ومتداعٍ بحيث كانت تقوم بصيانتها في مركز تصليح السيارات باستمرار.

- «هل أخذتها إلى مركز التصليح؟»

- «أعتقد أنني لن آخذها بعد الآن. لا يستحق الأمر كل هذا العناء. يقومون بإصلاحها وبعد أيام قليلة، تعاود التعطل. ربما يمكنهم بيعها كخردة. يحزنني الأمر لأنني أحبها، لكن الحقيقة هي أنها قد أصبحت بالفعل سيارة قديمة».

- قالت لابينيا: «على أي حال، لا يزال بإمكاننا استخدام سيارتي».

- قالت فلور وهي تُخرِج سيكارة وتحرك داخل حقيبتها بحثاً عن الولاعة: «سنتحدث عن ذلك».

انتظرت لابينيا في صمت وتوتر أن تجد فلور الولاعة الماسة وأن تنفخَ أخيراً نفخةً كبيرة من الدخان.

قالت فلور بلهجة شخص يبدأ حواراً هاماً: «حسناً. أتصوّر أنك لاحظتِ أننا مشغولون أكثر من المعتاد؟»

أومأت لابينيا برأسها بحركة موافقة على ما قالته فلور. دون أن تعرف ما هو الموضوع، شعرت بالنشاط المتزايد من حولها. كانت حزينة لعدم مشاركتها، لكنها كانت تدرك أن للحركة قواعدها غير المكتوبة وطقوسها ومدد التجربة والتمرين الخاصة بها.

قالت فلور: «الأشياء تحدث...». رفعت رأسها فجأة وكانت تنظر إليها بنظرة ثابتة وسألتها «هل سبق لكِ أن أديتِ القسم؟»

قالت لابينيا: «كلا» في الوقت الذي كانت تتذكر فيه أنها قد قرأت في الكتيبات تلك اللغة الجميلة والبلاغية في آن واحد والميثاق الرمزي والالتزام الرسمي بالانضمام إلى الحركة.

بحثت فلور مجدداً في حقيبتها (بدت كأنها إحدى تلك الرزم الطفولية المليئة بالكنوز التي غالباً ما يحتفظ بها الأطفال تحت أسرتهم) وأخرجت كتيب اللوائح الداخلية الذي تعرفت عليه لابينيا. جعلها الخوف تحرك رأسها من جانب إلى آخر في المتنزه. فقط الأطفال كانوا يواصلون اللعب. لقد هدأت.

– قالت فلور «ضعي يدكِ هنا على الكتيب» ومدت يدها فوق الكتاب الذي تظاهرتا أنهما تدرسان فيه.

همست لها بابتسامة «ارفعي يدكِ الأخرى... حتى لو كان قليلاً ورددي معي...»

كررت بصوت منخفض الكلمات الخاصة بالقسم التي كانت فلور تحفظها عن ظهر قلب. همست الاثنتان دون أن تدركا تلك العبارات الجميلة والفصيحة. تحول المتنزه والشجرة إلى كاتدرائية احتفال. شعرت لابينيا بمزيج مشتبك من العاطفة والخوف وعدم الواقعية. حدث كل ذلك بسرعة. حاولت أن تركز على معاني الكلمات وأن تفهم معنى القسم بأن يضع حياتها في خط النار كي يتوقف الفجر عن إغوائها ويكف الرجال عن أن يكونوا ذئاباً للإنسان وكي يصبح الجميع متساوين كما خُلِقُوا ولهم حقوق

متساوية في التمتع بثمار عملهم... من أجل مستقبل سلام، بلا دكتاتوريين، يكون فيه الشعب هو مالك وسيد مصيره... أقسمت على الإخلاص للحركة وعلى الحفاظ على أسرارها بحماية هذه الأسرار وحتى بحياتها عندما قبلت أن يكون عقاب الخونة هو العار والموت...

لقد تأثرت بالتفكير في نفسها كما لو كانت شخصاً آخر، مصاباً بالنبرة الحازمة والعاطفية لهمس فلور الذي كان قد انتهى وبالكاد رفعت صوتها في عبارة «الوطن الحر أو الموت».

– رددت لابينيا «الوطن الحر أو الموت» بينما عانقتها فلور بسرعة، ثم حفظت المنشور في حقيبتها وتراقب بيقظة (كما كانت تفعل أثناء القراءة) هدوء المتنزه.

إن العناق السريع والمحكم جزء من الطقوس وختم للميثاق، لكن ثمة شيء لم تستطع تحديده في السلوك المتوتر لفلور قد تسبب لها بحزن غريب.

– ما إن قالت لها: «حسناً، ها قد تم تحليفك. أردت أن أقوم أنا بذلك» حتى خفضت بصرها منتبهةً لحزن لابينيا الغامض.

– قالت لابينيا وهي تريد معاودة معانقتها وربما حتى البكاء: «إنني سعيدة لقيامكِ أنتِ بذلك».

مررت فلور يديها على شعرها تلم الخصل التي أفلتت على جانب وجهها وأعادت ترتيبها مرة أخرى باتجاه الخلف مع تسريحة ذيل الحصان المربوطة بمنديل.

– واصلت فلور الحديث متغلبة بشكل واضح على مشاعرها ومتبنية النبرة التنفيذية للاجتماعات: «كما أخبرتك، ثمة أشياء مهمة تحدث: عقدنا في الأيام الأخيرة اجتماعات مشتركة لقيادات الجبل والمدينة. تم اتخاذ قرارات بالغة الأهمية بالنسبة لحركتنا...»، ثم أضافت بشكل توضيحي: «كنا مشغولين بذلك».

ظنت لابينيا أنه لا بد أنها قد أحست بالبداهة أنني قد شعرت بالعزلة وساورتها مرة أخرى رغبة في عناقها.

– لا أستطيع أن أعطيك تفاصيل كثيرة، لكن تم الاتفاق على ضرورة

إعطاء الرفاق أمثالكم استعدادات عسكرية معينة. يتعلق ذلك بالأمور التي ستتعرفين عليها في وقتها. في الوقت الحالي، نظراً لأهمية عملك على منزل الجنرال بيلا -الذي يعتبرونه بالتأكيد أولوياً في حالتك- فقد تقرر النظر في إمكانية إعداد الحد الأدنى في عطلة نهاية الأسبوع.

أومأت برأسها ملوحة بالموافقة وهي متأثرة. بنادق ومسدسات ورشاشات وبنادق قديمة الطراز وأقواس وسهام.

– واصلت فلور: «جاءت الحركة كما تعلمين في عملية أطلقنا عليها «تراكم القوى في صمت»، أي الحفاظ على المقاومة أثناء انتظار ظروف أفضل. تقترب هذه المرحلة من نهايتها. يجب أن نبدأ بالاستعداد لتخفيف الضغط عن زملائنا في الجبل. نحتاج أيضاً إلى خلق وعي وتعبئة أكبر في المدن... يعني كل هذا أنه ستكون هناك سلسلة من التغييرات وإعادة التنظيم التي تتضمن تحسين إعداد وقدرة جميع الأعضاء... فهمتِ، أليس كذلك؟»

لقد فهمت. بالتأكيد توقعاً لما من شأنه أن يحدث، خصص سيباستيان رحلاته الأخيرة إلى طريق إسباديّوس ليشرح لها كيف كان الوضع وليلمح لها بضرورة عمل الحركة. لقد شددت على أهمية القيام بشيء، إذ قالت له بنفسها: «لماذا لا نفعل شيئاً؟»، الأمر الذي جعله يبتسم ابتسامةً طويلة.

– قال «أجَل».

– أضافت فلور: «أردت أيضاً أن أبلغكِ بمواصلة العمل مع سيباستيان. عليَّ القيام برحلة...»

فكرت لابينيا انه التواري عن الأنظار. كانت تعرف من تعبيرات فيليبي أن «القيام برحلة» في الحركة يعني التواري عن الأنظار.

– سألت: «أين؟» وهي تعلم أنه لا يُفترَض بها أن تسأل، لكنها تريد أن تعرف ما إذا كانت الرحلة هذه المرة رحلة حقيقية.

– قالت فلور وهي تبتسم وتلمس ذراعها بمودة وتعترف لها: «لا أستطيع إخبارك لكن... حسناً، إنك تعرفين الأمر.»

التزمتا في صمت. كانت لابينيا تفكر فيما إذا كان عليها أن تقول ما كان يخطر ببالها ويجول في قلبها أم لا. قاطعت فلور تأملاتها.

– قالت «هذه الأوقات صعبة دائماً». كان الأمر بطريقة ما أشبه بالوداع، لأننا لا نملك دائماً التفاؤل اللازم لهذا العمل. لا ينبغي أن نقول وداعاً، لا أنتِ ولا أنا، وتراودنا فكرة أننا ربما لن نرى بعضنا بعضاً مرة أخرى، ولكن هذا ما نشعر به... فضلاً عن ذلك، إنه احتمال حقيقي على الرغم من أن احتمالية معاودة رؤية بعضنا بعضاً هي أيضا حقيقية.

تحدثت كما لو كانت تتحدث لنفسها وهي تنظر إلى الطيور محلقةً فوق المناظر الطبيعية الممتدة من رابية المتنزه: «هل تتذكرين عندما أخبرتِني عن خوفك؟ عندما أخبروني أنه يجب عليّ التواري عن الأنظار كنت خائفة. تذكرت الأشياء التي قلتها لكِ والأشياء التي قلتها للعديد من الزملاء الذين بدأوا والأشياء التي قالها لي سيباستيان. لكنني أدرك أن هذه خطوة أخرى وكل خطوة تجلب معها جرعة الخوف الذي يجب التغلب عليه. لكن ما يحدث هو أنه مع زيادة المسؤولية، تقل احتمالية مشاركة الخوف. يواجه الشخص نقاط الضعف هذه أكثر فأكثر بمفرده رغم أن الخوف هو نفسه. أردت ذلك. إنه انتصار بالنسبة لي. ليس هناك الكثير من النساء المتواريات عن الأنظار، أتعلمين؟ إنه اعتراف بأنه يمكننا مشاركة وتحمل المسؤولية، مثلنا مثل أي شخص آخر. لكن كامرأة، عندما تواجه المرأة مهام جديدة، فإنها تعلم أنه يجب عليها أيضاً مواجهة صراع، صراع لإقناع نفسها داخلياً بقدراتها الخاصة. من الناحية النظرية، يعرف المرء أنه يجب عليه أن يناضل من أجل مناصب متساوية من المسؤولية. تكمن المسألة في أنه عندما تكون لديك بالفعل مسؤولية، ستتخلصين من الخوف من ممارسة هذه المسؤولية... وفضلاً عن ذلك، إحرصي غاية الحرص على عدم إظهار الخوف الآخر لنفس سبب كونك امرأة.»

قالت لابينيا: «إنني متأكدة من أن الأمور ستكون على ما يرام» وكانت تشعر بالتفاهة لكنها أدركت أنها لا تستطيع إعادة شحن عاطفتها وخوفها، في خوف فلور.

قالت هي: «آمل ذلك».

– قالت لابينيا، لمجرد أن تقول شيئاً: «في ذلك اليوم، كنت أفكر بالتحديد

في أننا نحن الرجال والنساء متخصصون في مختلف الاختصاصات. نحن النساء، على سبيل المثال، لدينا قدرات عاطفية أكبر. أما الرجال، فإنهم أكثر محدودية في ذلك. يحتاجون إلى التعلم منا مثلما نحتاج إلى أن نتعلم منهم تلك الممارسة الأكثر مرونة للسلطة والمسؤولية. نحتاج إلى تبادل.»

- قالت فلور وهي تفكر: «لا أعرف، في هذه اللحظة يبدو لي أنه من الأجدر إخفاء ما هو أنثوي ومحاولة التنافس على أرضهن وبأسلحتهن. ربما ستتمكن لاحقاً من السماح لأنفسنا بالمكالبة بقيمة صفاتنا...»

- أصرّت لابينيا قائلة: «لكن يجب أن يكون المرء قادراً على تأنيث البيئة، لا سيما إذا كنا نتحدث عن بيئات قاسية مثل القتال...»

- قالت فلور بهدوء: «بالنسبة لي، إن بيئة القتال مؤنثة بما يكفي كما تقولين. نحتاج بعضنا البعض ونخلق من أجل الشيء ذاته روابط قوية وعاطفية مع الآخرين... بالنسبة لي، يبدو لي أن رجالنا حساسون. إن الموت والخطر والخوف أمور تجبر المرء على خلق الدفاعات... الدفاعات اللازمة. لا أعلم كيف يمكننا المضي قدماً بدون الدفاعات».

بدت كأنها تسبر أغوار نفسها. اعتقدت لابينيا أن كلماتها كانت مجرد الخطوط الرقيقة لقمة الجبل الجليدي العائم في المياه الباردة. كانت تطفو في عينيها الذكريات والتجارب التي بالكاد تلمحها، ثم تأخذها بعيداً.

قالت لابينيا: «سأفتقدك كثيراً».

قالت فلور: «سأفتقدك أنا أيضاً، لكنني أشعر بالسعادة لأنكِ ما زلت تعملين مع سيباستيان». ثم قالت مبتسمة: «إنه يتأنث، لكن لا تفكري حتى في إخباره بذلك لأنه سيعتقد أن الأمر هو شيء آخر...! سيساعدك فيليبي أيضاً، حتى لو كان بالغ الذكورية... أعتقد أنه من الأفضل أن يكون معك من أن يكون مع امرأة أخرى لن تواجهه أبداً. يسعدني التفكير في كيفية قلبك لخططه. لقد كانت النتائج عكسية!»

- قالت لابينيا: «أحيانًا أعتقد أنه يتمتع بذكورية متناقضة. بالحكم بناءً على النساء اللائي كان يبحث عنهن، ثمة شيء في داخله، ربما بلا وعي منه، يضعه في هذا النوع من المواقف.»

- «إنه لأمر عجيب، أليس كذلك؟ لم أفكر في ذلك، لكن الآن ما تقولينه... بالتأكيد، لم تكن الألمانية وديعة جداً... نعم. يستحق فيليبي كل التقدير ولديه رغبة بالتغيير، إنني متأكدة من ذلك. من الناحية النظرية، هو واضح. أما من الناحية العملية، فهو شديد العصبية والغضب...

- قالت لابينيا «يقاتل مثل يارينثي» وكانت مشتتة الذهن وغير قادرة على التركيز في الحوار. كانت تفكر وتعاود التفكير في انتقال فلور إلى التواري عن الأنظار.

سألت فلور يساورها الفضول: «ومن هو يارينثي؟».

- قالت لابينيا: «ماذا؟ ماذا قلتُ؟»

- قلتِ إنه يقاتل مثل يارينثي...

- لا أعرف من هو يارينثي. لا أعلم من أين خطر لي...

- سألتها فلور: «ألم تقرأي عن الغزو الإسباني؟» هزت لابينيا رأسها ملوحة بالنفي. قالت فلور: «كان هناك رجل من السكان الأصليين اسمه يارينثي وهو رئيس بواكوس والكاريبي الذي قاتل لأكثر من خمسة عشر سنة ضد الإسبان. إنها قصة جميلة جداً. تكاد المقاومة هنا أن تكون غير معروفة. لقد جعلونا نعتقد أن الاستعمار هو فترة جميلة، لكن لا يوجد شيء أكثر خطأً من ذلك. بالمناسبة، على الرغم من ذلك لا يعرف ما إذا كان الأمر أسطورة أم حقيقة. كانت للارينثي امرأة قد قاتلت معه. كانت ممن رفض الولادة كي لا تعطي الإسبانَ المزيد من العبيد... عليكِ أن تقرأي عن ذلك. ربما قد سمعت عنها في مكان ما وعلق الاسم في ذهنك. يحدث ذلك في بعض الأحيان. هناك مصطلح طبي، بما في ذلك «اختلال الذاكرة»... ما يتم حفظه بلا وعي مثلما عندما تصلين إلى مكان ما ويبدو لك كأنك كنتِ هناك من قبل...»

قالت لابينيا: «يفترض ذلك، لا تعرفين الأشياء الغريبة التي تحدث لي، الأشياء التي تحصل لي... إنني لا أعطيها أهمية، لكن ما قلتِهِ الآن له دائماً علاقة بالهنود... بالأقواس والسهام والأشياء من هذا القبيل... إنه أمر غريب، أليس كذلك؟»

- «إنني لا أراه غريباً جداً. ربما شيء ما قد ترك انطباعاً لديكِ عندما

كنتِ صغيرة... بغض النظر عن كل شيء، فإن الأمور المتعلقة بالسكان الأصليين تجري في دمائنا.»

- «ذلك أمر جائز. يحتمل أن يكون جدي قد تحدث معي عن ذلك عندما كنتُ طفلة...»

حاولت أن تتذكر، لكن دون جدوى. لم تستطع التركيز وكانت فلور تعيدها إلى أحدث التعليمات الخاصة بمنزل الجنرال بيلا.

بقيتا فترة طويلة في المتنزه. كان الأطفال المرتبون النظيفون والمربيات المهذبات يتجولون بالفعل في الطرق المحفوفة بأشجار الحور وكانت المراجيح البعيدة تتأرجح مثل رقّاص الساعة مما يذكّر بوقت الوداع.

- قالت فلور أخيراً: «حان وقت الذهاب. سُرِرْتُ بالتحدث معكِ. أشعر بأنني أكثر هدوءاً. شكراً لكِ».

- قالت لابينيا وهي تشعر مرة أخرى برغبة مكبوتة بالبكاء: «أنا من علي أن أشكرك. لا تعرفين ماذا يعني بالنسبة لي أن يكون لي شخص مثلك».

- قالت فلور مبتسمة: «حسناً، لا تتكلمي على هذا النحو. يبدو لي أنك تتحدثين كما لو كنتُ سألقى حتفي. سأكون معك باستمرار. سأكون معك باستمرار طالما أنتِ مع الحركة، سأكون معك باستمرار، بذلك سيكون الأمر لفترة طويلة...»

- «لا أستطيع أن أستوعب أنني لن أراك مرة أخرى ومن يدري إلى متى...»

- قالت فلور بحماسة: «الحياة جدلية، كل شيء يتغير، كل شيء يتبدل. ربما سنعاود رؤية بعضنا بعضاً عن قريب. علينا أن نكون متفائلتين.»

- قالت لابينيا: «شكراً لك على القسم. إنني سعيدة بكونك أنتِ من حلّفني اليمين.»

- قالت فلور: «أنا أيضاً والآن سأذهب بالفعل. لقد تأخّر الوقت.»

- قالت: «ألا تودين أن آخذك؟»

- «كلا، شكراً، لقد رتبت اتصالاً بالقرب من هنا. أعطني خمس عشرة دقيقة قبل أن ترحلي.»

تعانقتا تحت شجرة القابوق الباسقة في تلك الزاوية المنعزلة من المتنزه عناقاً قصيراً يبدو كما يبدو أي وداع طبيعي، مع قبلة على الخد.

كانت تنظر إليها وهي تغادر وظلت وحدها، تجلس على المصطبة، تسمع لعب الأطفال وتتأمل التلاشي الندي والضبابي للنهار حتى انقضت الخمس عشرة دقيقة.

- 17 -

لقد جمّدتُ داخل لابينيا تعليق صديقتها الحكيمة ذات الشعر الأسود والعينين المستديرتين. لا أريدك أن تدرسي ماضيي. أريد أن أتذكره معها على وتيرتي الخاصة وأريد ربطها بهذا الحبل السري للجذور والأرض.

أخشى أيضاً أن أفكر في موت ياريتشي الذي حدث بعدي بوقت قصير. رأيته من بيتي على الأرض كأنه حلم...

كانت تلك الفترة الأخيرة رهيبة. لقد كنا منهكين بعد سنوات عديدة من القتال وكانت المحاصرة تزداد إحكاماً. لقد قضى أفضل المحاربين نحبهم. كنا نموت واحداً تلو الآخر دون أن نتقبل احتمالية الهزيمة. لقد دفنا رماح القتلى في أعماق الجبل، على أمل أن يقوم الآخرون يوماً ما برفعها ضد الغزاة. لكن، لم يكن ممكناً تعويض كل حالة وفاة، حيث كان يمزق جلدنا مثل سكين الصوان. كنا نفقد مع كل وفاة جزءاً من حياتنا. كنا نموت شيئاً فشيئاً حتى أصبحنا، عند نهايتي، أشبه بجيش من الأشباح. كان بالإمكان قراءة التصميم الغاضب فقط في أعيننا. تمكنا من التنقل مثل الحيوانات لكثرة العيش في الأدغال وأصبحت الحيوانات حلفاء لنا تحذرنا من الخطر. كانت الحيوانات تشم غضبهم في عرقنا.

كيف أتذكر تلك الأيام من التخفّي والجوع!

***

كان المنزل الذي كان يعيش فيه بيلا يقع في مكان كان يشكل حينها إحدى المناطق الراقية للمدينة وقد أُزيحَ الآن بسبب التقسيمات السكنية عند

الرابية والأماكن المرتفعة التي كانت حديث وموضة العيش الكريم وحيث سيتم بناء المنزل الجديد.

بعد فتح الباب لها وهي تأخذها إلى الداخل، أوضحت الآنسة مونتيس للابينيا أن هذا المنزل قد تم بيعه بالفعل لزوج وزوجة أمريكيين، هما أستاذان في معهد الدراسات العليا لإدارة المؤسسات، هما الآن غير موجودين، في إجازة سنوية للتفرغ العلمي.

– قالت لها: «لذلك فإن المنزل الجديد ضروري للغاية: في نهاية العام، يعود المالكون الجدد للدار».

كانت أشعة شمس منتصف النهار تسقط بلا رحمة على الحديقة التي كانت بجانبها غرفة واسعة ذات هواء مكيف كانت بمنزلة غرفة معيشة.

لم يكن الجنرال بيلا قد وصل بعد، لكنهم كانوا يتوقعون وصوله في أي لحظة.

كان صوت جلجلة الأساور العديدة للآنسة مونتيس يحدث ضجيجاً بينما كانت تتقدم لفتح الباب الخشبي للغرفة والباب الزجاجي للصالة وهي تمسك بها للسماح للابينيا بالدخول، وكانت لابينيا تحمل تحت ذراعها الورق المقوى الملفوف بشكل أسطواني ويحتوي على مخططات المسودة الأولية.

تطابق مسكن بيلا مع الديكور الذي تخيلته. لقد كان مزيجاً من الأساليب التي كانت منمقة وغير معقولة بشكل أكبر مما تصورته وكذلك أكثر إشراقاً وفخفخةً: مرايا بإطارات مذهبة وحلزونية وطاولات متناسقة مسندة إلى الحائط وأثاث ثقيل ذي أغطية دمشقية لامعة وكراس وطاولات من الكروم ومزهريات ضخمة مزوقة وسجاد ذي ألوان باستيل غريبة ولوحات مناظر طبيعية على الجدران ولوحات أمواج عملاقة واصطناعية.

في غرفة المعيشة، كان أحد الجدران مغطى بلوحة جدارية لصورة غابة في فصل الخريف.

قالت الآنسة مونتيس: «تفضلي بالجلوس، لن تتأخر أختي، إنها تنهي ارتداء فستان لقياسه. اليوم هو اليوم الذي تأتي فيه الخياطة... وتعلمين كيف ذلك... ألا تريدين تناول شيء؟

- شراب كوكا كولا، من فضلك...

نهضت المرأة وسارت نحو الستارة. ما إن سحبت الستارة حتى ظهرت قطعة أثاث مدمجة داخل الحائط. قامت الآنسة مونتيس باستخدام مجموعة من المفاتيح التي كانت معلقة حول خصرها بفتح الورقة التي كانت بمثابة غطاء، مما تسبب في إطلاق شرر أنابيب النيون التي اشتعلت وأضاءت داخل المرآة والأواني الزجاجية وقناني المشروبات. أخرجت قدحاً وانحنت لفتح الثلاجة الصغيرة المدمجة أيضاً داخل الحائط وأخرجت منها الثلج وكوكا كولا.

- قالت بينما كانت تقترب منها بعد أن أغلقت كل شيء مرة أخرى بالمفتاح ووضعت الكوكا كولا والقدح المحتوي على الثلج أمامها: «يحب الجنرالُ الأثاثَ المدمج في الحائط».

قالت لابينيا وهي تفكر في مدى تدهور هذا البار السيئ الذوق: «إنها توفر مساحة».

- قالت: «هذا ما يقوله الجنرال. إنه اقتصادي جداً. فضلاً عن ذلك، لا يعجبه أن يلمس طاقم الخدمة ما لا ينبغي لمسه. تَعْلَمين... إن ترك الخمر في متناول الخادمات يشبه الاستغناء عنه. فهن يسرقنه، إذ لهن دائماً صديق أو قريب يعطينه إياه. لذا، قد أمر بإنشاء هذا البار مع الثلاجة في نفس ذلك المكان وكله مقفل. إنها الطريقة الوحيدة. في البداية، كان من الصعب بالنسبة لي التعود على فتح أقفال الأثاث في كل مرة أحتاج فيها إلى شيء ما... لا يوجد في بيتي شيء مقفل، لكن، بالطبع، الأمر مختلف...»

- سألت لابينيا: «منذ متى وأنتِ تعيشين معهم؟»

- «أوه! منذ أن وُلِدَ الطفل... ثلاثة عشر عاماً. نعم، ثلاثة عشر عاماً. إن مرور الزمن أمر مخيف، أليس كذلك؟»

- «وعائلتك من أين هي؟»

- «من سان جورج. كان والدي هو المسؤول عن شركة لا فورتونا. تعرفينها، أليس كذلك؟ إنها مزرعة التبغ التابعة للجنرال الكبير، حيث التقت أختي وزوجها هنالك... كان حينها مجرد حارس للجنرال الكبير.

كانوا يأتون بشكل متكرر إلى المزرعة. أحب الجنرال الكبير أن يأخذ الضيوف في عطلة نهاية الأسبوع لركوب الخيل والسباحة في النهر... كان سعيداً جداً عند وصولهم. وكانت تُنظَم احتفالات كبيرة وتُذبَح الماشية والخنازير وبالطبع كانت أختي صغيرة وجميلة... وقع فلورينثيو في حبها، ثم تزوجا. كان الجنرال الكبير هو الأب الروحي. قام بترقية فلورينثيو كهدية زفاف، بذلك كسب ثقة أكبر فأكبر حتى أصبح الآن جنرالاً.. من كان يقول إنه سيصبح كذلك في ذلك الوقت!». توقفت عن الحديث كما لو كانت تتذكر شيئاً، ثم قالت: «لأنني لم أتزوج قط، عندما رزقا بالطفل طلبا مني أن آتيَ معهما وأن أساعدهما في رعايته... لم تكن لأختي قط ميول تجاه الأطفال... كنت وحيدة. مات أبي، لقد مات المسكين بسبب الربو. أما أمي، فتوفيت عندما ولدت... لذلك فإنني سعيدة بقدومي. في الحقيقة، كان حلمي أن أدرس لأكون راهبة، لكن على أي حال، إنه نفس الشيء، فأنا أخدم الله في هذا المنزل... بالنهاية، حياة الراهبات صعبة جداً وأنا أحب بعض الأشياء في الحياة... أحب الملابس، على سبيل المثال» قالت ذلك وهي تشير إلى أساورها وتبتسم بمزاح. ثم واصلت: «وأحب الذهاب للرقص ورؤية الأناس الأنيقين، حَسِنِي المظهر. إنني لا أرقص، لكني أحب مشاهدة الرقص... بالمناسبة، كيف سارت الأمور معكِ عند الرقص؟»

أكملت لابينيا شرب الكوكا كولا. لم تكن تتخيل قط كم كانت الآنسة مونتيس ثرثارة.

– قالت: «أه! لقد سارت بشكل جيد للغاية. كانت رقصة مذهلة. تلك الرقصات هي الأفضل كل عام وهي أكثر وضوحاً، مع زينة أكثر. إنني أيضاً أحب رؤية الناس، لا سيما في تلك المناسبات... رقصتُ طوال الليل...» وابتسمت مستمتعة بسخريتها.

– قالت هي: «إنه لأمر مؤسف أننا لم نتمكن من الذهاب، لكننا بالتأكيد سنذهب في العام المقبل...»

سألت لابينيا: «ورقص الكازينو؟»

– «أه! لقد كان جميلاً أيضاً، لكنكِ تعلمين أنه شيء مختلف. أشهره

هو رقص النادي الاجتماعي، أما الآخر، فليس له تقليد. أعتقد أن الجنرال الكبير قد نجح في تقديمه وكان جيداً. كان الطعام لذيذاً جداً والشمبانيا مجانية وكانت هنالك ثلاث فرق أوركسترا وعرض وكل شيء، لكن كانت هنالك فقط خمس فتيات قدمن الاستعراض ولم يكن جميلات جداً... كنّ سمراوات وذوات شعر سبط لا جمال فيه...»

فكرت لابينيا أن هذه هي نهاية أوهام الفتية وتذكرت التخمينات التي خُمِّنَت حول الأخت العانس لأنها كانت ساكتة ويبدو أنها كانت تخفي شيئاً وراء خجلها. بالتأكيد أنها قد صمتت فقط أمام أختها وزوج أختها. الآن بعد أن أصبحتا بمفردهما للمرة الأولى، كانت تتحدث بلا توقف عن ذوقها تجاه الحفلات والحياة المشرقة للمدينة.

- سألت لابينيا: «هل واجه الجنرال أي عوائق؟» ونظرت إلى ساعتها، لقد قضت وقتاً لا بأس به.

- أجابت الآنسة مونتيس: «لا أعتقد ذلك. اتصل ليقول إنه تأخر قليلاً». كان من المفترض أن يمر بمكتب الجنرال الكبير لبعض الوقت، لكنه أكد لي أنه قادم. كان تقريباً لا يفوت الغداء قط. أتعلمين؟ كان يود أن يكون شيئاً استثنائياً... أو عندما يستمر في المهمات. إذا لم يكن الأمر كذلك، فإنه يتناول الغداء دائماً هنا في المنزل. الطباخة جيدة جداً وهي تعرف ذوقه، كما أنه لا يفوّت القيلولة.

كان صوت العديد من السيارات التي تقف في الشارع وصوت صفق باب يغلق بصوت عال قد تجاوز عازل التكييف.

- قالت الآنسة مونتيس وهي تنهض كأنها تتحرك بفعل مغناطيس يجذبها في الاتجاه المعاكس للجاذبية: «ها قد وصل. معذرةً، سأخبره أنكِ هنا وسأنادي أختي»، ثم خرجت بسرعة من الصالة.

كانت ستقابل في غضون لحظات قليلة الجنرال بيلا. مررت يدها على شعرها بتوتر. جعلتها فكرة مقابلته تشعر بالتخوّف وعدم الرغبة في رؤيته. في ذلك المساء الذي كانت فيه مع فلور في المتنزه، كانت فلور قد أطلعتها على مسيرته العسكرية المشرّفة. في الليلة السابقة، قام فيليبي وسيباستيان بتوثيق

بيانات لها حول شخصيته. كان العديد من المتعاونين مع الحركة يعرفونه أثناء وجودهم في السجن من استجواباته الطويلة. كان يؤدي دور الرجل الطيب الذي يأتي بعد التعذيب ليطلب عدم إجبارهم على إساءة معاملتهم أكثر. في الجبال، كان يُعرف باسم «المُحَلِّق». تُعزى إليه فكرة رمي الفلاحين وهم أحياء من الطائرات المروحية إذا لم يوافقوا على التعاون مع الحرس أو على إدانة المحاربين. كما تُحسَب له السجون الموحلة في الشمال: حفر ذات جدران خرسانية وأرضيات طينية مغلقة ببلاطة خرسانية أيضاً حيث بالكاد كانت هناك فتحة صغيرة للتهوية وحيث تم حبس الفلاحين لأيام وأيام حتى أغمي عليهم من رائحة فضلاتهم أو حتى فقدوا عقولهم.

لقد كان اليد اليمنى للجنرال الكبير، سواء لفاعليته في إرهاب الفلاحين وقتال المحاربين أو لقدرته على الحفاظ على النظام بين مرؤوسيه. افتخر به الجنرال الكبير كرجل بسيط تمكن من تجاوز نفسه. اعتاد القول: «إنه صنيعتي».

كما عُرفت الوظائف التي أداها بيلا لجلب النساء الشابات الجميلات للجنرال الكبير من أجل مغامراته («الحفلات»، كما كانت تسميها الآنسة مونتيس).

كان سيباستيان قد قال لها: «يجب أن تطبقي نمط طبقتك الاجتماعية، أن تتصرفي بجدية وبتهذيب، لكن دعيه يشعر أنك تعتبرين نفسك أعلى منه دون أن تعطيه حجة عليك. كوني لطيفة وأميرة بأسلوبك... ألهميه الثقة المهنية، لا الثقة الشخصية...»

ولّدت فكرة الاضطرار إلى التظاهر بالرضا عن الذات ومراعاة مشاعر الآخرين إزاء هذه الشخصية الرفض لديها. تذكرت المحادثة مع فلور في المتنزه. كانت هذه مهمتها الأولى. لا ينبغي أن تخاف. يجب أن تتصرف على ما يرام.

فُتِح الباب بحركة فظة وقوية، إنه الجنرال بيلا مع زوجته وأخت زوجته. اقترب منها لإلقاء التحية عليها ونظر إليها من أعلى إلى أسفل بنظرة سيد إقطاعي.

قال لها بمكر وإطراء في آن واحد: «إذن أنتِ هي المهندسة المعمارية الشهيرة؟»

أومأت لابينيا برأسها لترد عليه بالإيجاب وهي تبتسم أفضل ابتسامة غامضة.

صافحها الجنرال بقوة. كانت يده كبيرة وخشنة كشكله عموماً. كان إنساناً ينطبق عليه لقب الغوريلا كالحلقة في الإصبع. كانت ملامحه هجينة شبه منحوتة وكان جسده سيكون جميلاً، بل وحتى رائعاً لو لم تشوهه السمنة والتعبير الأبيض المتحذلق. بعد أن تنكر لماضيه وأصله، كانت تفوح من الجنرال بيلا رائحة الكولونيا الباهظة الثمن التي يضعها بكثرة وكان يرتدي زياً عسكرياً خاكياً لا تشوبه شائبة - اللون الذي يستخدمه كبار المسؤولين العسكريين. تمت بعناية بالغة محاولة ترتيب الشعر المجعد باستخدام الزيت والملمع وقَصّة قوية كانت تميزه من أمام رأسه. كان متوسط القامة وبطنه بارزة، مما يدل على ولعه الكبير بالطبيخ.

طلب منها أن تجلس وجلس بدوره بينما ابتسمت الأختان والتزمتا الصمت في حضرة سيدهما. كانتا تبتسمان كما لو كانتا تريدان تشجيعها أو كانتا تفكران في مشاركة التأثير القوي لشخصية الجنرال بهذه الطريقة.

قال الجنرال بنفس اللهجة المتسلطة التي حيّاها بها؛ الصوت المعتاد على إعطاء الأوامر: «دعينا نرى الخرائط».

حرصاً على سهولة حركتها، نهضت لابينيا محاولةً تجاهل نظرة الرجل الخبيثة والفاسقة. أخذت الورق المقوى الملفوف بشكل أسطواني وأخرجت مجموعة الخرائط وفتحتها على طاولة مستديرة كانت جنب الكراسي ذات المساند اليديوية التي كانت تجلس عليها السيدتان بيلا.

- قالت برباطة جأش: «أعتقد أنه من الأفضل أن نراها هنا».

وافق الجنرال قائلاً «نعم، بالطبع» ونهض دون بذل أي جهد وتبعته الأختان.

كانت لابينيا تنشر الخرائط والتصاميم المختلفة وتقدم توضيحاتها: الواجهة والجوانب والداخل والسقوف والأثاث والأجواء. كان الجنرال

يقاطعها باستمرار بالأسئلة والتعليقات، لكن لابينيا طلبت منه بأدب أن يحتفظ بما يشغله حتى النهاية، إذ سيتم الرد على العديد من أسئلته أثناء عرضها للخرائط وتوضيحها للحالة.

- قال الجنرال: «لا أحب هذه الطريقة، قد أنسى الأسئلة إذا تركتها حتى النهاية».

واستمر في توجيه الأسئلة. كانت أسئلة لا تمت بصلة للموضوع، فقط لجعلها تشعر بالتوتر أكثر من إرضاء فضوله: الأحجام والمواد والألوان والراحة في جمع البلياردو والموسيقى والبار في غرفة واحدة بحيث يتم شغلها في نفس الوقت. مع ذلك، يبدو أنه لا يهتم كثيراً بتغيير تقسيم المكان من قبل الزوجة. على الرغم من النبرة الحادة للأسئلة، لم يقترح سوى تغييرات طفيفة. استمر بتصرفه الماكر والمتعالي حتى فتحت لابينيا خريطة مستودع الأسلحة. تغير حينها تعبيره وأظهر اهتماماً واضحاً.

من الواضح أنه لم يتوقع أي شيء مماثل لتفاصيل التفنن التي أدخلتها لابينيا بدقة -كانت الأختان تنظران بعضهما إلى بعض وتبتسمان برضا مشترك-. لاحظت عندما شرحت الفكرة الخيالية للجدار المتحرك في مستودع الأسلحة استهواء الرجل للفكرة. يتكون الجدار من ثلاثة ألواح خشبية، يحتوي كل لوح على هيكل حديدي يستند إلى مفاصل محورية دوارة فردية مثبتة على سكة حديدية. تسمح آلية متصلة بالجدار بتثبيتها أو تحريرها لتدويرها. ستظهر اللوحات، من جانب واحد، مجموعة الأسلحة مثبتة بحوامل على السطح ومن جهة أخرى، ستظهر ببساطة كجدار خشب الزان مع حجر اليشب الجميل. بهذه الطريقة، يمكن للجنرال، حسب رغبته، أن يقوم ببساطة وبمجرد إطلاق الآلية على الحائط، بعرض الأسلحة أو إخفائها خلف الخشب الرصين والأنيق.

نظراً لمنطقة دوران الألواح التي كانت مطلوبة لهذه الخدعة، سيكون للجنرال أيضاً مساحة خلف الحائط، نوع من «الغرف السرية» التي يمكن أن يستخدمها كمخزن لحفظ أسلحة أخرى أو الأجهزة اللازمة لتنظيفها...

قالت لابينيا في النهاية: «أو ما تريده». لقد تعبتْ في البحث في البطاقات

البريدية لمنزل هيرست، محاولة منها لمعرفة كيفية رسم عمل الغرفة السرية. لم تتشاور بشأن ذلك ولا حتى مع خوليان. كانت خريطتها وفكرتها لتكسب الجنرال وكانت تعمل. كان بوسعها قراءته بوضوح في التعبير الذي أصبح ينظر به إليها.

– قال بيلا وهو يخفض صوته بشكل ملحوظ: «إنكِ ذكية جداً يا آنسة. يجب أن أعترف أنها فكرة ممتازة وجديدة...» ثم التفت إلى زوجته وأضاف قائلاً: «أخيراً فعلت شيئاً جيداً...»

ابتسمت لابينيا كأميرة وهي تحتقره في أعماقها. قالت: «أحتاج أن أستفسر من حضرتك حول بعض الأمور المتعلقة بالأسلحة التي ستوضع على الرفوف».

وافق قائلاً: «بالتأكيد، بالتأكيد، لكن لماذا لا تبقين لتناول الغداء معنا؟ وبذلك يمكننا المواصلة بعد الغداء...»

عندما غادرت منزل الجنرال بيلا، كان احتدام حر الساعة الثالثة بعد الظهر يخيم بثقله على المدينة في جو كثيف من القيلولة والمشي الذي يصاحبه نعاس نهاري شديد.

ودعها أفراد عائلة بيلا عند الباب وكان يحرسها رجال أمن يرتدون قمصاناً خفيفة ونظارات داكنة وكانوا ينظرون إليها وهي تمر من جانبهم وتغادر بتعبير ودي.

أشار الجنرال بيلا في وقت ما أثناء الغداء وبشكل خبيث إلى انتماء عائلته إلى حزب البيرديس. قال «لمهندستنا المعمارية دم أخضر». أجابت لابينيا: «إنه تقليد عائلي. لا أؤمن بالسياسة وأفضل ألا أتدخل فيها». أكد الجنرال قناعته بأن ما تفعله هو أمر جيد. على أي حال، السياسة هي شأن يخص الرجل.

نظر إليها رجال الجنرال بنفس القناعة.

فتح أحدهم لها باب سيارتها. شكرتهم بابتسامة أنثوية وودعت عائلة بيلا الذين كانوا يتحدثون بحماس على الرصيف وهي تلوح بيدها، ثم أسرعت مبتعدة.

شعرت في الطريق بالغثيان وبالرغبة الحتمية بالاستحمام. قررت المرور

بمنزلها قبل الذهاب إلى المكتب حيث كان خوليان ينتظر الأخبار. لم يكن من السهل تجاوز الغداء اللذيذ والطعام المفرط الدهنية وحديث الجنرال الذي كان الطعام يملأ خديه.

لم يكن سهلاً الاستماع إلى تفسيراته حول الخصائص القتالية للأسلحة المختلفة التي أظهرها لها وهو يفتخر بحجم نيران كل سلاح منها وبقدرته على القتل.

لكنها أدت مهمتها على أتم وجه. كان الجنرال مسروراً. وافق على مخططات مسودة المشروع بعد إجراء تعديلات طفيفة عليها وأمر بالمضي قدماً في تنفيذ المخططات النهائية. كما كلفها أيضاً بالتعاقد مع شركة البناء لأنها، وفقاً لتقديرها، كانت توحي له بالثقة، كما كان يقول. كذلك قدم المعدات لبدء أعمال الحفر دون تأخير. أراد أن ينتهي المنزل بحلول كانون الأول على أبعد تقدير. كان على استعداد لدفع أي تكلفة إضافية.

توقفت لابينيا عند إشارة المرور ومررت يدها على معدتها للسيطرة على غثيانها. اقتنع الجنرال بفكرة مستودع الأسلحة -الذي يسمونه دراسته الخاصة-، دون أن يكف عن التخلي عن طريقته الخبيثة ولا عن النظر إليها أحياناً بنظرات شهوانية. كانت لابينيا تقول في قرارة نفسها إنه جزء من اللعبة. لا يمكن أن تتوقع من هذا الرجل أي سلوك آخر. المهم هو أن خدعة هيرست قد نجحت. فكرت بينها وبين نفسها «لم يستطع المليونير الكاليفورني تخيل الخدمة التي قدمها لحركة المحاربين في أمريكا اللاتينية». كانت نقطة لباتريثيا.

أثناء الغداء، التزمت الأختان صمتاً شبه كلي. كانتا تكسران طوق الصمت فقط لتؤيدا رأي الجنرال أو لتعطيا الأوامر لعاملة الخدمة المنزلية المسؤولة عن الاهتمام بالمائدة. كانت النظرات الشيء الوحيد الذي يعكس سعادة وامتنان الأختين. لم تستطع التعرف على الأطفال، إذ كانوا يتناولون الغداء في ذلك اليوم في المدرسة.

عامت يدا الجنرال الممتلئتين ذات الأصابع القصيرة والمفاصل المتينة في ذاكرتها. كان عليها أن تبذل جهداً كبيراً أثناء فترة الطعام لتفادي النظر،

كما لو كانت لديها إرادة خاصة بها، عن تلك الأصابع التي كانت تفصل بدقة قطعاً كبيرة من الدجاج عن العظام.

تفادت النظر كي لا تشعر بالغثيان وهو يقلب معدتها بقدر أكبر.

فتحت لوكريثيا الباب بتعبير متباهٍ. في الفترة الأخيرة، كانت سعيدة وتدندن الأغاني وهي تتنقل من جانب إلى آخر ومعها المكنسة والممسحة. كان جهاز الراديو في المطبخ بأعلى صوته يوزع موسيقى ماتانثيرا الرنانة في جميع أنحاء المنزل.

- قالت: «عجبي أن تأتي في هذا الوقت!»، ثم أضافت وهي تنظر إليها بقلق: «هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبة جداً...»

- ردت عليها بينما كانت تركض تقريباً للوصول إلى غرفتها: «نعم، أجل، لا تقلقي، إنه مجرد شعور بالقليل من عسر الهضم والحر الذي أعاني منه. أحتاج أن أستحم».

رمت حقيبتها والمخططات على السرير ودخلت الحمام. لم تكن قادرة على كبح القيء لفترة أطول.

كانت تكره التقيؤ، إذا يتحول عنده الجسد إلى كيانٍ عدواني يمسك بالرقبة. يتصرف الآن العقل والجسد بتوافق ويرفضان بغضب الروائح والطعم والأيادي الممتلئة والأساور المجلجلة والمزاح والأسلحة الباردة واللامعة والأسنان التي تهرس لحم الدجاج والنظرات والفلاحين وسجون الطين والبراز وأقبية التعذيب...

اختلطت حركات التهوع المتتالية في المعدة بحركات النحيب والغضب. لم ترغب بالبكاء. لا ينبغي أن تبكي، بل تمنت ألا يتركها هذا الغضب الصفراوي والمر. كانت تحتاجه ضد الشكوك وضد النظرات الوجِلة للأختين بيلا وضد هذا العالم البائس الذي ولدت فيه.

إنها القوة للتخلص من التقزز.

غسلت وجهها عند المغسلة. سمعت لوكريثيا من وراء الباب المغلق تقول: «صغيرتي لابينيا، صغيرتي لابينيا، هل أنتِ بخير؟ افتحي الباب لي، أتسمحين لي بمساعدتك؟»

نشفت وجهها بالمنشفة وأخذت نفساً عميقاً، ثم فتحت الباب بعد أن هدأت واستفرغت.

- قالت: «لقد انتهى الأمر لوكريثيا. لم يعجبني الطعام، وانتهى الأمر. سأستلقي لبعض الوقت لأنني يجب أن أعود إلى المكتب. في لحظة ما، سأكون بخير».

ارتمت على السرير. أغمضت عينيها بينما ذهبت لوكريثيا لتحضر لها عصير ليمون. كانت تسترخي تاركة جسدها ليهدأ وتنفسها يستأنف إيقاعه البطيء من أجل النهوض والذهاب لرؤية خوليان وإبلاغه بالموافقة على المخططات وبدء الخطوات كي تتمكن من إنهاء البناء في كانون الأول، كما أراد الجنرال.

- «إذن هل وافق على كل شيء؟»

سار خوليان بخطوات واسعة من هذا الحد إلى ذلك الحد في المكتب وفرك يديه باقتناع.

- قال: «عرفت أنكِ ستقنعينه. أرأيتِ؟ كنت محقاً في أن أعهد إليكِ بالتصميم. أرأيت؟»

- «إنه على استعداد لدفع تكاليف إضافية كي نسلمه البناء في كانون الأول. طلب أن نبدأ في أعمال الحفر بأسرع وقت ممكن. من فضلك خوليان، توقف عن السير بهذه الطريقة كي لا أشعر بالدوار. لا أعرف سبب تحمسك البالغ...»

- «تبدو لي موافقتهم على كل الأشياء الزائدة عن اللزوم التي أدرجناها لهم أمراً لا يُصدق تقريباً... الساونا وصالة الرياضة والحمامات الغريبة والصالات الأربع... لم أجد قط عميلاً أسهل من ذلك...»

- ابتسمت لابينيا وهي جالسة بهدوء على الأريكة وقالت: «لكنني لم أخبركَ عن ابتكاري العظيم...»

- سألها خوليان وجلس أخيراً على كرسي دوار خلف المكتب: «أي اختراع؟»

- «صممتُ له مستودع أسلحة قلعة من القرون الوسطى وغرفة سرية وكل ذلك... مستوحى من بطاقات هيرست البريدية التي أعطيتها لي».

- «لكنني قد راجعت المخططات...»

- قالت لابينيا وهي تنظر إليه بمزاح ماكر: «كان ذلك منذ أسبوع».

- «نعم، لأنه لم يكن هناك سوى تفاصيل صغيرة...»

- «حسناً، منذ حوالي خمسة أيام، اتصلت السيدة بيلا وجاءت بهذه الفكرة عن مستودع الأسلحة... هل تتذكر أنه كان هناك مساحة لها، نوع من غرفة الخياطة مع غرفة المعيشة؟»

كان خوليان يهز رأسه ملوحاً بأنه متفق مع ما تقوله وكان ينصت إليها باهتمام وفضول كما لو كان يستمع إلى قصة بوليسية.

- «حسناً، أخبرتني أنها تخلت عن الأمر المتعلق بغرفة الخياطة وأن لديها فكرة إعطاء هذه الغرفة لزوجها لمفاجأته. لقد خطر ببالها ذلك أثناء رؤيتها لما موجود بإحدى المجلات».

- قالت دون الخوض في مزيد من التفاصيل: «في البداية حاولت ثنيها عن رأيها، لكنها أصرت كثيراً، لذلك صممتُ مستودع الأسلحة... كان الجنرال مسروراً».

- قال خوليان مبتسماً ابتسامةً عريضة: «أتخيل ذلك».

- «سيظهر مستودع الأسلحة في المخططات الرسمية كمكتب خاص به. سيكون التصميم الفعلي في مخطط «سري». التصرف التآمري جزء من الروعة. اقترحته لجعل الأمر أكثر جاذبية. بدا بيلا كالقرد الذي أهدوه للتو ساعة. إلا إن هذا الأمر سر بيني وبينكَ لا أحد غيرنا يعرفه. لا تفشِه لأحد».

- قال خوليان وهو يغمز مستمتعاً بما يسمعه: «لا تقلقي». لم تُرِدْ لابينيا أن يعلمَ فيليبي بذلك. لم تكن متأكدة من أنها قد حصلت على موافقته.

- قالت لابينيا منتهزةً مزاجه الجيد: «خوليان. تعلم أنني لم أشرف قط على مشروع. أود منك أن تكلفني بالإشراف على هذا المشروع. أعتقد أنني أستحق ذلك».

نظر إليها وهو يفكر.

- أجاب: «لا أعرف، لا أعرف. من الصعب التعامل مع المهندسين وأساتذة البناء. في حالة المرأة، يفترض أن يكون الأمر شبه مستحيل».

– سألت دون أن تبدل طريقة َحديثها وحافظت على نبرة صوتها ناعمة: «كيف يمكنك أن تكون واثقاً بهذا الشكل إذا لم تجرب الأمر؟»

– أجاب: «لأنني أعرف الوسط الذي تتحدثين عنه...»

– «حسناً، أؤكد لك أن الجنرال سيستحسن ذلك. كان مقتنعا بأنني ممتازة. بقي قليل ليخبرني أنني أبدو رجلاً» قالت ذلك ساخرة. «لم أرَ قط امرأة بهذا الذكاء!»

– «لا أشك في ذلك، لكن الجنرال لن يضطر لتلقي تعليماتك».

– قالت لابينيا رافعة صوتها: «لكنني قد صممت المنزل اللعين! لماذا يجب أن يشرف عليه مهندس معماري آخر؟ الأمر يخصني! يبدو لي ظلماً أن يكون بطريقة أخرى، فقط لأنني امرأة! يجب أن تتغير الأشياء في هذا البلد كما يحدث في جميع أنحاء العالم. صحيح أنه قد يكون صعباً، لكن عندما يدركون أنني أعرف ما أفعله سيتعلمون احترامي».

– قال خوليان «لا أعتقد أن الأمر بهذه السهولة. ما يمكنني فعله هو أن أعيّنك مشرفاً مساعداً».

– قالت لابينيا مستعدة لمواصلة الحديث الشديد اللهجة: «لكن...».

– قال خوليان: «لكن، اهدأي ولا تكوني مثالية. بوسعي أن أترك لك كل العمل تقريباً وأن أصل فقط بين حين وآخر وذلك ما يهم، أليس كذلك؟ ما تبقى هو أمر نظري».

– قالت لابينيا: «ما من أمر نظري. تلك ذكورية متمردة. تعتقد أنه يمكنني القيام بالعمل، لكنك لا تجرؤ على تعييني لأنني امرأة وسيشعر الرجال الآخرون بعدم الارتياح. إنني قادرة أو أكثر قدرة على ذلك من أي من مهندسيك المعماريين هنا».

– ابتسم خوليان قائلاً: «بما في ذلك فيليبي؟»

– قالت لابينيا: «بما في ذلك فيليبي. فضلاً عن ذلك، أعلم أنك لن تجعل فيليبي يشرف على هذا المنزل!»

نظر أحدهما للآخر بنظرة تحدٍ توحي بما يعرفه كل منهما، دون أن ينبسا ببنت شفة.

قال خوليان دون أن يفهم الأمر: «لن تقنعيني، لذا دعينا لا نرهق أنفسنا ولا نُفَوِّت النجاح المتحقق. إذا قبلت التسوية التي اقترحتها، سنتوصل إلى اتفاق. إذا لم يكن الأمر كذلك، سينبغي علي أن أبحث عن مهندس معماري آخر».

كانت تود إخباره بأن يبحث عن مهندس معماري آخر وتقدم استقالتها وترمي المخططات في وجهه، لكنها لم تستطع. لم يكن لديها مخرج سوى قبول التسوية. كانت هذه المواقف التي يكون فيها على المرء أن يدوس على كبريائه أمراً مروّعاً. إنها أشياء يجب القيام بها من أجل البلد!

– قالت لتهدئة النار المتقدة في داخلها «دعني أفكر في الأمر» ونهضت للخروج.

– قال خوليان: «فكري بالأمر وبلغيني بقرارك. سأوجه غداً دعوة للاجتماع بالمهندسين. اتركي لي المخططات ولا تتصرفي على هذا النحو. تعلمين أنني أثق بإمكانيتكِ المهنية. ليس من أجلك، بل من أجل البنائين».

غادرت مكتب خوليان والاستياء مرتسِم على وجهها.

كانت تفكر مع نفسها أنه من السهل جداً إلقاء اللوم على البنائين.

رأت سيباستيان يوم الخميس. أخذته إلى طريق إسباديّوس مع دخول الليل. تحدّثا عن زيارة منزل الجنرال.

– قال سيباستيان وهو ينظر مشتت الذهن إلى الطريق: «إذن يريدون تدشين المنزل في كانون الأول».

– قالت لابينيا: «نعم وخوليان مستعد لإرضائه. لم أتمكن من جعله يكلفني بالإشراف على أعمال البناء، لكنه قد عيّنني كمساعدة».

التزما الصمت لبعض الوقت. أكدت مرافقة صوت صراصير الليل وبقوة الهدوء الذي كان يحيط بهما. كانت حركة المرور قليلة في ذلك الوقت. فقط الشاحنات الكبيرة المحملة بالبضائع كانت تجبرهما بين حين وآخر على إبطاء السرعة.

– سألت لابينيا: «وكيف حال فلور؟»

– على خير ما يرام. إنها تعمل كثيراً. فلور رفيقة ممتازة.

– قالت: «إنني أحتاجها».

– قال: «لقد أصبحتما صديقتين حميمتين. إنني أيضاً أحتاجها».

– لكنكَ تراها، أليس كذلك؟

– قال بمودة: «لا تكوني فضولية كثيرة الأسئلة. تحبين أن تسألي».

– قالت لابينيا: «إنكَ على حق، لكن بعض الأشياء لا تبدو لي أنها بالغة السرية».

– يمكن عن طريق الأشياء التي تبدو أنها غير ذات صلة الاستدلال على الأمور الأكثر أهمية.

– «ولمن سأقوله؟»

– إنه ليس عدم ثقة. لكننا لا نستطيع أبداً استبعاد احتمالية أن يأسرونا ويمكن أثناء التعذيب قول أشياء. قبل ذلك كنا غير مرنين. كنا نعتبر من يعطي أي معلومات لأمن الدكتاتور خائناً. أما الآن، فنظراً لأن أساليب التعذيب أصبحت أكثر قسوة وبطشاً، فإننا نطلب من رفاقنا فقط المقاومة لمدة أسبوع لإتاحة الوقت لتعبئة أولئك الذين قد يكونون متورطين. بعد أسبوع، يمكن البوح بأقل ما يمكن لتجنب المزيد من القسوة.

شعرت لابينيا بقشعريرة جلدها من البرد. حاولت ألا تفكر في هذا الاحتمال.

– قالت: «لا بد أن التعذيب أمر مروع».

– قال سيباستيان: «أُفضِّلُ الموت على أن يُقبَض عليّ حياً على يد هؤلاء، أبناء العاهرات...»

– عندما كنت أتناول الغداء في منزل الجنرال، بقيت أنظر إلى يديه وأنا أفكر في ما قد يفعله بهما.

– «في الآونة الأخيرة، لم يعد يفعل ذلك بنفسه، بل يوجّه فقط. لكن هناك رفيق على الجبل قام بنفسه بتعذيبه. دفنه في مكان تحت أشعة الشمس الحارقة لمدة أسبوع وترك فقط رأسه خارج التراب. كان بيلا يصل ومعه دلو من الماء ويسكبه على رأسه. تمكن الرفيق فقط من شرب القليل من الماء الذي انهمر على شفتيه. إنها لمعجزة أن يكون على قيد الحياة. تمكن من الفرار في رحلة واضطررنا إلى إرساله إلى الجبل لأنه كان يعاني كلياً من

رهاب الأماكن المغلقة». أضاف بعد صمت وجيز: «عليك العمل بمثابرة للحصول على معلومات منه ولإكمال البيت في كانون الأول».

– ألا تعتقد أنه سيكون من الأفضل أن يتأخر اكتمال البيت؟ تلك هي خطتي، لذا طلبت أن يسمحوا لي بالإشراف عليه...

قال سيباستيان بنبرة بالغة الجدية: «لابينيا، يجب أن تتعلمي أنه في هذه الأمور لا يعود إليكِ وضع الخطط، بل عليكِ رسم المخططات الهندسية فحسب» وبالكاد قد ابتسم. ثم تابع: «أفكارك مرحبٌ بها، لكن يجب أن تحظى بموافقة القيادات. إنكِ معتادة على التصرف بمفردك في الحياة وعليك أن تبدأي في تعلم التصرف ضمن مجموعة وأن تكوني منضبطة. لا أريد أن أقطع عليكِ مبادرتكِ، لكن في الحركة لا يمكننا أن ننطلق للقيام بكل ما يمكن أن يخطر في بالنا حتى لو اعتقدنا أنه إيجابي. إنك جزء من مسننة وعليك التفكير في القطع الأخرى. لذلك، يجب التشاور بشأن الأمور مع المسؤولين الذين لديهم معرفة أكثر شمولية بالوضع. فيما يتعلق بتأخير البناء، لا تفكري في الأمر حتى مجرد تفكير. بالنسبة لنا، نريد أن يكون لدى الجنرال ثقة كبيرة بكِ، لذا عليكِ أن تكوني بالغة الكفاءة في العمل وأن يكون المنزل جاهزاً بحلول كانون الأول».

– قالت لابينيا: «حسناً» وكانت تشعر بالضيق وعدم الارتياح.

قال سيباستيان: «بالمناسبة. تحدثتْ لكِ فلور عن التدريب العسكري، أليس كذلك؟ –أومأت برأسها إيماءة إيجابية–. سنقوم بذلك في نهاية هذا الأسبوع. سيكون فيليبي هو المسؤول عن إيصالك إلى النقطة».

لقد وصلا بالفعل إلى المكان الذي كان سيباستيان ينزل فيه. توقفت لابينيا، لكن محرك السيارة كان مشتغلاً. هبت رياح باردة قوية في الليل كانت تحرك الصورة الجانبية الحادة لإسباديّوس. قبل المغادرة، التفت إليها سيباستيان. بدا وجهه في الظلام نحيفاً وهادئاً وكان القلق بائناً عليه.

قال: «لدينا خطط كبيرة لك يا لابينيا. تدخل الحركةُ حالياً مرحلة مهمة للغاية. ما عليك هو القيام بالجزء الذي يخصك. لا أحد منا كامل. ذلك مجرد تدريب، ونحن نعلم أنه ليس بالأمر السهل وهو يشملنا جميعاً. واجبنا

هو مساعدتك في التدريب وفي تعليمك ما تعلمناه. لذلك يجب أن يكون هناك تواضع وثقة من جانبك وتفهم وحزم من جانبنا... أراكِ قريباً».

قبل أن تتمكن لابينيا من الإجابة، غادر سيباستيان مبتعداً يسير في الطريق الضيق بسرعة واستقامة ونحافة وسط الرياح الشديدة.

عصفت الرياح بالطريق ودخل الهواء من نافذة السيارة نصف المغلقة. لم تعرف كيف تصف الثقل الذي جعلها تشعر بالوهن وهي في مقعد السائق. أوحى لها سيباستيان بالاحترام الكبير الذي يُكِنَّهُ لها، إلا أن لَفْتِهِ لانتِباهها جعلها غير مرتاحة. كان تذكيراً إلى أي مدى كانت ما تزال بعيدة عن أن تكون مثله ومثل فلور وحتى مثل فيليبي. ربما لم يكن ممكناً تجاوز المسافات. متى ستتوقف عن التصرف كأن العالم ملك لها؟ متى ستتعلم ما يبدو أنهم يعرفونه منذ الأزل؟ كم تفتقد فلور!

كانت في الآونة الأخيرة تشعر بالتمرد على العالم، ليس فقط بسبب الاندماج في الحركة، بل لأن الوعي الأكثر صلابة لكينونتها يجعلها تواجه حقائق أخرى أكثر دقة: مناقشات مع فيليبي ومع خوليان والنظرة الساخرة لأدريان والجنرال ولفت سيباستيان لانتباهها... عالم الرجال...

قالت في قرارة نفسها: «لا تخلطي ما بين سيباستيان وذلك الأمر».

- 18 -

وسارت السيارة *الجيب* القديمة منطلقة عبر الطريق الموحل بسبب الأمطار التي تساقطت حديثاً. يتمتع السائق وهو رجل في منتصف العمر بملامح لطيفة ودمثة، سماه فيليبي «تونييتو» كان يضغط على المقود الذي يتحرك على نطاق واسع كأنه غير مرتبط بعجلات المركبة.

خرجوا في الساعات الأولى من الفجر. بالكاد مع شروق الشمس، سلكوا الطريق باتجاه الشمال متوجهين إلى مكان ما إلى داخل الوادي المحاط بالجبال. كان المنظر الطبيعي الذي انعكس الضوء عليه يكتسب لون الباستيل والوردي والأخضر ويعكس الرطوبة والغيوم.

كان فيليبي ولابينيا يسافران في الجزء الأمامي من سيارة *الجيب*. أما المقاعد الخلفية، فكان هنالك رجلان وامرأة يتنقلان في أجزاء مختلفة من المدينة وبالكاد جعلوا الآخرين يشعرون بهم من خلال أجزاء من محادثة همسهم.

التزمت لابينيا الصمت خشية من قول شيء غير لائق، شيء قد يعرض الفريق للخطر. كانت هذه هي المرة الأولى التي كان فيها على اتصال بأشخاص آخرين من الحركة واختارت الصمت لأنها تجهل قواعد اللعبة في تلك المواقف.

كان فيليبي يغفو. فقط السائق هو من بدا مرتاحاً وربما قديماً في المهنة. كان يدندن الأغاني العصرية أو القديمة لأغوستين لارا.

تضيء الشمس، عندما ينقشع الضباب، مساحات مزروعة من الذرة والبصل. كانوا في منطقة ريفية لم يصل إليها ضوء الكهرباء. لم تُرَ الأعمدة

التي تشبه الصلبان على الطريق أو العصافير التي اعتادت الوقوف على قابلات الضغط العالي الممدودة في المدينة.

كانت رائحتها جيدة ونظيفة وكانت هنالك رائحة أبقار بعيدة وخيول.

- قال فيليبي عند استيقاظه بعد حركة فجائية للمركبة: «كم بقي لنصل؟»

- أجاب تونييتو: «إننا قريبون»، ثم التزم الاثنان الصمت من جديد.

فكرت لابينيا وهي تقول في داخلها «إننا قريبون». كانت تأمل ألا تكون مقصرة في التدريب. شرح لها فيليبي عن التمارين والتدريب والتسليح ونزع السلاح ودروس الرماية «أشياء يتم تعلمها في مدرسة في عطلة نهاية الأسبوع». على الرغم من أنها لم تكن قط مميزة في الرياضة أو في الألعاب الرياضية وكان الشيء الوحيد الذي يحسب لها هو دروس الجمباز الإيقاعي والباليه في سن المراهقة. لم تكن تعتقد أن عليها أن تنشغل بما يكفي بالتدريبات لأنها كانت مشّاءة جيدة وكان جسمها ثابتاً بشكل طبيعي. كانت تقلقها دروس الرماية. لم تحمل قط سلاحاً في يدها حتى يوم الغداء مع بيلا. بالكاد لمستها أمام الجنرال وكانت تبدي رعب الإناث من الأسلحة النارية - الرعب الذي شعرت به أيضاً أمام تلك الأدوات الصامتة التي مَنْ يعرف عدد الاغتيالات التي استخدمت فيها.

ذات مرة، أوضحت لها عمتها إينيس التي كانت ملمة بالبنادق لأنها اعتادت في طفولتها على مرافقة الجد في صيد الغزلان، آلية مسدس قديم كانت تحتفظ به في درج الأشياء المقدسة مع كتب القداس ومسبحات ورسائل من أصدقائها أيام الشباب. لقد تأثرت بالكفاءة الدقيقة النابعة بداخلها وتطبيق الفيزياء على علم القذائف والآليات المتزامنة بدقة. كانت المرة الأولى التي تنظر فيها عن كثب إلى إحدى تلك الأشياء التي كانت والدتها تشعر بالرعب الشديد منها. كانت تقول في كل مرة يُخرِج الأبُ فيها مسدساً قديماً عندما يسمع أصوات اللصوص: «ممنوع اللمس، يمنع منعاً باتاً حتى الاقتراب». أما الآن، فهي في طريقها إلى دروس الرماية والتسليح ونزع السلاح! كانت ستتعلم التعامل مع الأسلحة النارية. ربما تحتفظ بالبنادق في منزلها. لا يمكنها تخيل نفسها تطلق النار. ما الذي

ستشعر به عند الضغط على الزناد؟ كانت تفكر كم كان والداها بعيدَيْن عن الشك في اتجاهات حياتها هذه». منذ يوم الرقصة زارتهما مرتين في المساء كما لو كانت بعيدة من المعارف. شربوا القهوة وأكلوا البسكويت في غرفة المعيشة في المنزل. كانوا يتحدثون من وقت لآخر عبر الهاتف. استفسر والداها عن حياتها الاجتماعية، لكنهما لم يطرحا الكثير من الأسئلة. كانت هنالك مسافة واسعة بينهم، وبالكاد كانت تظهر العاطفة التي تجلت بشكل إيماءات وكلمات مشفرة وهذا ما أرادته لابينيا. كان من الأفضل جعل التباعد المهذب موجوداً. لم تستطع المخاطرة بالعلاقات الحميمة والزيارات غير المتوقعة من والديها.

***

إنها تفكر في ما يخصها. رغم رغبتها بتجاهلها، فإن الصور تظهر في أكثر اللحظات غير المتوقعة. في الخطر، شعرتْ بشوقها إلى حضن والدتها وحضن تلك المرأة الأخرى التي تظهر في ذكرياتها مع مرور الوقت. يبدو أن هناك أموراً لم تلقَ حلاً في حياتها. ثمة افتقاد عميق لبعض الأمور، إذ تفتقد المداعبات. تتدلى الطفولة من خيالها كمنطقة من الضباب والوحدة وتحاصرها أحياناً في عالم مشوش من الأرواح الصامتة والزمن المنصرم الذي لم تودعه قط. لم يباركها والداها. لم يرياها وهي ترحل في المسافات البعيدة كما ينظر الرامي إلى سهم تم إطلاقه بعيداً. لم يتركاها بحريتها.

***

دفع تونييتو فيليبي بكوعه ليوقظه.

قال وهو يوقف المركبة: «ها قد وصلنا».

كانوا في نهاية الطريق الترابية. انتهى فجأة في سياج مزرعة. كان الغطاء النباتي حول المنطقة كثيفاً. كانت مساحات كثيفة مزروعة بأشجار الموز التي ترتفع على كلا الجانبين.

أخبر فيليبي الجميع بأن ينزلوا. لقد نزلوا في صمت ونظروا بشكل غير مفهوم إلى ذلك المكان الذي لا يقع وسط شيء. لم يكن هناك شيء يمكن

رؤيته سوى الموز. طلب من لابينيا والآخرين انتظاره بالقرب من السياج المصنوع من الأسلاك الشائكة بينما كان يتحدث مع السائق.

بدأت سيارة *الجيب* القديمة بالتراجع عبر الطريق. عند الاستدارة، رفع تونييتو يده إشارة للوداع وابتعد وسط العجاج.

– قال فيليبي: «لنسلك هذا الطريق» مشيراً إلى مكان في السياج المصنوع من الأسلاك الشائكة.

تناوبوا على رفع الأسلاك الشائكة للمرور من تحت السياج.

ساروا متقاربين وصامتين في مكان لا شيئ فيه لمدة نصف ساعة تقريباً. وصلوا أخيراً إلى مكان بلا أشجار وسط الغابة حيث بيت مزرعة قديم.

لقد كان وضح النهار، إلا أنه لم تكن هناك علامات تدل على وجود نشاط في المنزل.

يبدو أن المنزل كان مهجوراً ومع ذلك فأشجار الموز...

اقترب فيليبي من الدار وطرق أحد الأبـواب: ثلاث طرقات قوية ومتواصلة، تلتها طرقتان أخريان سريعتان.

كانت هذه هي الإشارة. فُتح الباب وخرج رجلان شابان من المنزل يرتديان *الجينز الأزرق*، حافيا القدمين وبدون قميص.

عانقا فيليبي بالتناوب بينما كانا ينظران إلى المجموعة الصغيرة التي ترافقه.

– سأل الأطول بينهما: «هؤلاء هم التلاميذ؟» وكان فتىً وسيماً ذا أطراف طويلة ورفيعة، أبيض البشرة وذا شعر بني ناعم غير مجعد.

– قال فيليبي: «أجل، هؤلاء هم التلاميذ»، ثم قدمهم: «إينيس» و«رامون» و«بيدرو» و«كليمينثيا».

نظر الفتى الآخر الكبير والقوي إليهم نظرة مزاح معينة في عينيه.

– سأل: «هل أنتم جاهزون للتعب؟» وابتسموا جميعاً بعدم راحة.

– قال «رينيه» الأطول بين الاثنين: «سنبدأ فوراً».

دخلوا منزل المزرعة حيث أخبروهم بمكان ترك أغراضهم. باستثناء عدة أراجيح شبكية كانت معلقة بالداخل، لم يروا سوى حفرة مؤقتة لإيقاد النار في الزاوية وأكياس عديدة.

بدأ التدريب في الفناء. لم تفهم لابينيا ذلك المكان.

كانت تفكر مع نفسها «أين هم الفلاحون؟ من يعيش هنالك؟» بينما أمرهم رينيه بإعطاء أنفسهم رقماً وأبلغهم أن ينادي بعضهم بعضاً بالأرقام خلال فترة وجودهم هناك.

حصلت لابينيا بعد تقسيم الأرقام على الرقم ستة، كان آخر رقم.

كان فيليبي جالساً في الممر القديم المتهالك. كان يراقبها من هناك.

- قال رينيه بنبرة مهنية: «سنقسم الدروس. سأعطيكم فقرات التدريب المغلق والتكتيك العسكري وسيقوم فيليبي بإعطاء درس التسلح ونزع السلاح. سيقوم لورينثو بالمراقبة خلال النهار، أما في الليل فستتناوب. لا أريد ضحكاً ولا محادثات لحين أخذنا للاستراحة. مفهوم؟»

قال الرجلان والمرأة: «مفهوم» بينما هزت لابينيا رأسها بالإيجاب وكانت تظن أن الآخرين بدوا أكثر دراية منها.

قضوا الصباح كله في ذلك الفناء يتعلمون أصوات الأمر والحركات المقابلة لـ: ثابت، يمين، يسار، استدر (نصف دورة)، سِرْ، التعداد من الأمام إلى الخلف. صاح رينيه «استدر»، فاستداروا جميعاً معاً بكعوبهم.

لم تستطع فهم فائدة تعلم ذلك الذي يبدو مخصصاً للجنود أكثر منه للمحاربين، إلا أنها طبّقته بدقة وكان العرق يتصبب منها عندما بدأوا بالتمارين البدنية حتى سمعت لحسن الحظ صوت رينيه قائلاً: «ارتاحوا».

رأت فيليبي يلوح لها بيديه ويبتعد عن المجموعة. تبعته عبر بساتين أشجار الموز إلى جدول يجري في مكان قريب.

- قال وهو يبعد شعرها برفق عن وجهها: «يمكنك هنا أن ترشي نفسك بالماء لتبردي نفسك. لقد اتسختِ بشكل كبير».

- سألت لابينيا: «وماذا عن الآخرين؟ لماذا لا نناديهم؟ إنهم بالتأكيد يريدون غسل وجوههم ورش الماء أيضاً».

قال فيليبي: «سيأتون، لا تقلقي. سيحضرهم رينيه. أردت فقط أن أسرق القليل من الوقت معكِ. لم نكن قط على هذا النحو، في الريف».

- ولمن تعود هذه المزرعة؟

- «كان البيت مهجوراً كما رأيتِ. إنه جزء من مزرعة تعود لبعض المتعاونين. قاموا ببناء منزل مزرعة جديد وما من أحد منهم يأتي إلى هنا، إذ يقول الفلاحون إن الرعب ينتابهم في المنزل. يمرون من هنا فقط عندما يكون الأمر ضرورياً للغاية في وقت الحصاد، لكنهم قطعوا للتو المحصول الجديد من الموز... بالإضافة إلى ذلك، فإن الغالبية تتعاون معنا. هذا المكان آمن نسبياً». أضاف: «أحب أن أراكِ متسخة وتفوح منكِ رائحة العرق...»

ابتسمت لابينيا. كان الماء منعشاً وبارداً تقريباً. كانت مياه الجدول تتدفق من بين نباتات القصب الطويلة حاملة معها الحجر الصغير وكانت تلامس مجرى الجدول بلحنها المائي. بينما كانت لابينيا تفرك ذراعيها المتعرقتين ووجهها تساءلت كيف يعمل عقل فيليبي، كيف يفكر. بالأمس فقط كان يبدو أنه يختلف مع سيباستيان بصمت حول جدوى تدريبها العسكري وعندما يكون معها على انفراد، يعرب عن عدم موافقته ويصرّ على أنها حديثة العهد جداً في الحركة وفضلاً عن ذلك، لا تتطلب أي من مهامها مثل هذا النوع من الاستعداد.

كانت عاقدة العزم على ألا يستفزها أحد بينما كانت تنصت إلى فيليبي. كانت تنصت إليه مثلما يستمع شخصٌ إلى المطر وهي تدرك أنه على فيليبي اتباع الأوامر رغماً عنه. مع ذلك، نظراً لأنها تراه دائماً يعود إلى تلك المواقف، لم تستطع التغلب على الطابع الحزين لتعليقاته، حيث لم تستطع الآن تجنب التفاجؤ من رؤية سعادته البالغة، كما لو لم يحدث بينهما شيءٌ.

- قال فجأة وهو يستشعر ما كانت تفكر به: «لقد تصرفتُ بشكل سيئ معك. لا أعرف لمَ أصبح عدوانياً جداً، لا أعرف لماذا يصعب علي قبول مشاركتك...»

أجابت لابينيا وهي ترش الماء على شعرها: «لا فائدة من الاعتذار دائماً»، ثم قالت: «يصبح الندم عندما يتكرر أمراً مملاً» وقالت كلمة مملاً مشددة على حروف الكلمة. لم تكن تشعر بالرغبة في التعارك معه. فضلت أن تبتسم بتفهّم.

سمعا ضجيج الآخرين وهم يقتربون منهما. جاؤوا يضحكون بهدوء

وهم يمزحون حول الروماتيزم وآلام العظام وتصلب العضلات... مزاح خجول لغرباء رأوا أنفسهم متحدين أثناء غرق سفينة أو في مغامرة تنتظر الحياةُ جاثمة أو الموتُ جاثماً في نهايتها.

نظرت لابينيا و«كليمنثيا»، التي تحمل الرقم ثلاثة، بعضهما إلى بعض نظرة تفاهم وتقارب بين الجنسين. كانت امرأة ذات بشرة زيتونية وشعر قصير وملامح جذابة. لم يكن جسمها سميناً، لكنه كان ذا بنية قوية ووركين عريضين تحركهما بشكل جميل عند المشي.

كانت لابينيا قد لاحظت كيف كان لورينثو ينظر إليها بشكل متكرر من موقعه الخاص بالمراقبة. كانوا يمزحون معاً حول الأشباح التي ستلمس أقدامهم في تلك الليلة وعادوا إلى المنزل لتسخين الغداء على نار حطب خفيفة.

كان التفاهم الذي نشأ بين الأشخاص الذين لا يعرف بعضهم بعضاً في هذه الظروف عجيباً. لم يكن ممكناً تبادل أي معلومات شخصية، لكنهم كانوا يتشاركون نفس معنى الحياة ونفس العزيمة والإصرار الصامتين. نتيجة لذلك، لم يشعروا بأنهم غرباء عن بعض، بل على العكس، عند جلوسهم في الممر القديم للمنزل وتناولهم الغداء بدوا كأنهم يعرفون بعضهم بعضاً منذ زمن بعيد.

بدت لابينيا في ملابسها من *الجينز الأزرق* وأحذية التنس والقميص وشعرها المربوط على شكل ذيل حصان وبدون مكياج مختلفة فقط بسبب الملامح الدقيقة لوجهها، لكن رينيه كان أيضاً أبيض البشرة وشاحباً ورقيقاً. أما في السلوك، فكان الجميع متشابهين.

كانت الوجبة مكونة من عجة بالأرز والفاصوليا وفنجان قهوة. كان لورينثو ورينيه وحتى فيليبي يأكلون بأيديهم بمهارة كبيرة دون النظر. حاولت لابينيا إخفاء ارتباكها المتعلق بصعوبة تناول الأرز والفاصوليا بشكل منظم دون استخدام أدوات المائدة، فقط بمساعدة العجة دون التمكن من منع تناثر الحبوب الأرجوانية والبيضاء. نظرت بطرف عينها إلى الاثنين الآخرين واطمأنت لأن الأكل بدون شوكة ولا سكين لم يكن أمراً غير معتاد بالنسبة لها فقط.

- قال رينيه: «من الضروري أن تهتموا من الآن فصاعداً بإجراء المزيد من التمارين. لا يستطيع أي منكم الركض لمدة نصف ساعة، ناهيكم عن المشي في الجبال...»

بعد الغداء دخلوا المنزل وأغلقوا الأبواب.

كان ضوء المساء يتسلل عبر النوافذ ليضيء المكان ذي الجدران السميكة بضوء شاحب. كان الجو بارداً داخل المنزل ذي السقف العالي. عرفت لابينيا هذا النوع من الإنشاءات الإسبانية النموذجية. كانت الجدران السميكة معزولة عن الحرارة. أما السقف المرتفع، فيسمح للحر بالارتفاع فوق رؤوسهم لترك مساحة باردة صالحة للسكن. في البيوت الاستعمارية في المدن، تُفتَح المساكن المغلقة على نفسها فقط نحو فناء داخلي وممرات. يخضع منزل المزرعة المصمم للحياة الريفية إلى مفهوم تصميم آخر: تصميم داخلي للراحة فقط والممر مواجه للريف حيث كان النشاط اليومي يجري وحيث كانت السيدات والسادة يتأرجحون في الماضي على كراس هزازة مصنوعة من القصب في المساء ويتأملون المزارع.

كان الزمن وعدم الاستخدام واضحين في الجدران المتتالية. التصق نسيج العنكبوت الذي فقد شفافيته الأصلية بفعل التراب على الجدران مكوناً تصاميم وسط الأشياء المتداعية.

حمل فيليبي حقيبة قماشية بنية اللون إلى وسط الغرفة. بدأ هنالك بإخراج الترسانة المتواضعة: بندقية أم.16 أمريكية الصنع ومسدس بي.38، عيار 9 ملم. كان ذلك كل شيء. أخذ الأسلحة بلطف كما لو كانت ساقَيْن أو ذراعَيْن عزيزتين وبدأ يتحدث: «هذه بندقية آلية أم. - 16 أوتوماتيكية» في الوقت الذي كان يقوم فيه بإظهارها ونفخها وإزاحة الغبار برفق عنها. وضح خصائصها القتالية ومداها وبياناتها الفنية الأخرى وبدأ ببطء بفصل قطع السلاح بعضها عن بعض وهو يواصل حديثه ويبين تسمية الأجزاء المختلفة: الزناد وزر الإطلاق والقادح والماسورة.

راقبوه بصمت وهو يضع القطع بشكل منظم بعضها بجانب بعض باحترام.

كانت لابينيا تفكر وهي تنظر نظرة ثابتة للقطع المعدنية الحساسة

والمعقدة: «إن الأمر يشبه معرفة الموت». على الرغم من كل شيء وعلى الرغم من أنها فهمت العنف بشكل مختلف الآن، فإن فكرة صنع الإنسان لتلك الآلات للقضاء على أناس آخرين لا تزال بالنسبة للابينيا غير مفهومة، المصانع الكبيرة التي تنتج القنابل اليدوية (الرمانات) والبنادق والدبابات والمدافع وكل ما يستخدم لغرض التدمير المتبادل. الأمر كذلك منذ الأزمنة البعيدة: كان الإنسان يجرّد الآخرين مما لديهم بالقوة ويطاردهم ويدافع عن نفسه من الآخرين وكل ذلك من أجل الرغبة في الهيمنة ومفهوم الملكية: ما أمتلكه وما تمتلكه... حتى بات الأمر طبيعياً، إذ تم إدراجه في الأنظمة، في الحياة اليومية: الأقوى ضد الأضعف. لا تزال ممارسات البدو الرحل في القرن العشرين: انتزاع السلاح بالقوة. ما يزال الإنسان لم يجتز المرحلة الهمجية التي لا يمكن التغلب عليها على ما يبدو. إنهم يتعلمون هناك استخدام الأسلحة النارية دون أي بديل سوى لمسها والتعرف عليها عن كثب ومعرفة كيفية التعامل معها، مثلما عرف الآخرون القيام بذلك.

لقد شعرت بالكراهية تجاه الجنرال الكبير وضد بيلا وضد الثروة وضد الهيمنة الأجنبية... ضد كل ما أجبرهم على التواجد في ذلك المنزل المهجور، شباب في ربيع العمر راكعين أمام البنادق، ينظرون بهدوء إلى فيليبي، يسمعونه وهو يشرح حجم الإطلاقات وتتابع خروج المقذوفات من السلاح الأوتوماتيكي وإطلاق العيارات المتعددة بالضغط اليدوي المتعدد على زر الإطلاق. كانت تنتظر اللحظة التي يشير فيها إلى أهداف الإطلاقات، لحظة سماع دوِيّ السلاح، ذلك الصوت الجاف والأجوف.

قال فيليبي: «سنقوم الآن بالتثليث والرماية الجافة».

وهذا ما فعلوه. لم يتم إطلاق ولا رصاصة واحدة. «الرماية الجافة» هي ما يتم تعلّمه في مدارس كهذه، رمي إطلاقات، رشقات نارية افتراضية. تم رسم الأوراق بالإطلاقة التي كانوا يتخيلون إطلاقها. فكرت لابينيا مع نفسها «كان علي افتراضه». كان صوت إطلاق العيارات يجذب الانتباه. لكن كان من الرائع جداً تخيل ذلك.

كانوا ينامون في الليل في أراجيح شبكية مستندة إلى عِصِي المنزل وكانوا

يرتدون كامل ملابسهم. كان الناس ينامون في بيوت الأمن والمدارس والجبال وهم يرتدون ملابسهم وكان يُسمَحُ لهم أحياناً بخلع أحذيتهم.

قبل النوم، سمعت لابينيا فيليبي يتحدث إلى لورينثو ورينيه.

كان رينيه في الجبال وكان يتحدث عن الأماكن الموحلة والقراد الأحمر (حشرات تورّم لسعتُها الجلدَ وتسبب احتراقاً مستمراً) وجوع المحاربين. قال: «قضينا كل الوقت في الحديث عن الطعام، عما سنأكله عندما نذهب إلى المدينة عندما ننتصر»، ثم قال إنه يشعر بالغربة خارج الأدغال. كان من الصعب عليه السير في المدينة. لم يصبح متعوداً على الأرصفة بعد الكثير من الأماكن الموحلة ومن المشي وهو يصعد التضاريس المنحدرة مثل القرد.

نامت بينما كانت تستمع إليهم. حلمت أنها ترتدي ثياباً ذات ورود كبيرة بيضاء وصفراء اللون في مكان ما أشبه بالقلعة وأنها كانت تمسك بمسدس غريب يشبه المدفع المصغر وأن هنالك امراةً ذات ضفائر تقف خلفها تأمرها بإطلاق النار.

استيقظت عندما هزها لورينثو برفق.

– قال: «أيتها الرفيقة، أيتها الرفيقة، حان دورك في الحراسة».

نهضت ورافقت لورينثو في الظلام متجهين إلى رابية صغيرة بالقرب من المنزل بين أشجار الموز. كان الجو بارداً وكان الهلال بالكاد يلقي بضوئه على أشكال الموز.

سلمها لورينثو المسدس وأخبرها أن تكون متيقظة لأصوات الخطى أو لهيئة البشر بين الشجيرات. علمها كيفية الصفير في حالة الاشتباه في أي حركة غير طبيعية.

لا يجب أن تطلق النار إلا إذا كانت متأكدة تماما من وجود مشكلة خطيرة. إذا رأت ظل فلاح، عليها أن تصرخ «من يعيش؟» إذا أجابوا «باسكوال»، فكل شيء على ما يرام. كانت تلك هي كلمة السر.

ابتعد الفتى. في البداية لم تشعر بالخوف، بل شعرت بأهميّة وبأنها محاربة تقريباً. مع ذلك، ما إن مر الوقت، حتى بدأت أصوات الليل تبدو

عدائية ومريبة. «من يعيش؟» كانت تتمتم من حين لآخر دون أن تكون هنالك إجابة. كانت الريح أو الحشرات أو حيوانات الأدغال.

كانت تشعر بالبرد. لم يمض وقت طويل حتى كانت أسنانها تصطك والرعشة تسري في جسدها. فكرت في فلور كي تشجع نفسها وفي لوكريثيا وسيباستيان. كانت تتذكر من حين لآخر الجنرال بيلا كي لا تنسى الغضب والاشمئزاز.

فكرت أخيراً في عمتها إينيس، ثم صلت للرب الذي نسيته منذ أن كانت طفلة كي لا يأتي أحد وكي لا تضطر إلى استخدام ذلك المسدس الثقيل الذي تعلمت للتو كيفية عمله بشكل نظري.

كانت تعلم أن لورينثو كان يحرس أيضاً في مكان قريب. كانوا يتناوبون هو ورينيه وفيليبي ويرافقون المبتدئين في الحراسة، لكن لم يُشاهد شيء، كان عليها أن تكتفي بمعرفة أنهم في مكان ما.

بعد ساعتين، وصل لورينثو مع الرقم أربعة لإجراء التبادل كي ترتاح.

عادت إلى الأرجوحة متنملة من البرد وترتجف. تلاقت مع فيليبي على عتبة المنزل وهو في طريقه إلى الخروج ليحل محل لورينثو. عانقها بصمت وبسرعة وطلب منها أن تأخذ بطانيته لتتدفأ. كان الفجر قد طلع.

لم تكن تعرف سبب الرغبة بالضحك عندما عادت الحرارة إلى جسمها. بدأت تبتسم وحدها لأنها نجت من أول حراسة لها، ثم ضحكت بهدوء وهي تفكر هناك في الأرجوحة الشبكية وقد تحولت إلى شخص آخر: امرأة في وسط الأراضي الوطنية في مزرعة ضائعة وقد تم تركها للأشباح، أما بالنسبة لهم، فهم حالمون مستعدون لتغيير حالة الأشياء، إنهم شباب سريعو الغضب كيخوتيون متأهبون برماحهم. أو لربما ضحكت من التوتر والخوف الذي شعرت به وهي جالسة بين الأوراق الكبيرة للشجيرات والخوف من الثعابين وضجيج البوكوياس وهو يقوم بطيرانه الليلي. تشعر الآن بالحرارة وهي تجتاحها على نحو تشعر فيه بالراحة والتعب والإحساس الغريب بالقوة والشعور بأنها لا تُهزَم بينما كان الفتية متيقظين في الخارج.

في اليوم التالي، تضمنت التدريبات اتخاذ منزل المزرعة القديم على أنه

ثكنة في وسط الجبل. انتهى بهم الأمر منهكين حوالي الساعة الرابعة مساءً، بعد مسافات طويلة من السحب والكمائن والصولات والانسحابات.

ظهر تونييتو مجدداً بحدود الساعة الخامسة والنصف على الطريق في سيارته القديمة نوع جيب. انتظروه مختبئين على الجانب الآخر من سياج الأسلاك الشائكة. ودّعوا رينيه ولورينثو وركبوا سيارة *الجيب* مرة أخرى. في هذه المرة وهم في طريق العودة، سادت الحوارات والتعليقات حول أداء كل واحد منهم والنكات حول من كان أفضل استراتيجي والطريقة التي بقيت فيها لابينيا ملتصقة بالأسلاك الشائكة، مما يعطي الوقت للعدو ليقبض عليها.

عند الدخول إلى المدينة، ساد الصمت ولم يكن هنالك تعليقات. نزل ركاب المركبة من جديد في أركان مختلفة.

ودّع بعضهم بعضاً (ربما لن يروا بعضهم بعضاً بعد الآن) وأخيراً ترك تونييتو لابينيا وفيليبي على بعد بضعة مربعات سكنية من المنزل.

– قال فيليبي بينما كانا يسيران على الرصيف: «لقد كنتِ محظوظة. كان تدريبكِ هادئاً في ظروف جيدة. لا تظني أن الأشياء دائماً على هذا النحو. قبل عام، اكتشف الحرس مدرسة تابعة لنا ولقي جميع الرفاق تقريباً حتفهم. تم انقاذ اثنين فقط».

– هزت لابينيا رأسها بالإيجاب وقالت: «نعم، لقد كنتُ محظوظة». كانت تظن أن الأمر لم يكن صعباً على الرغم من الطريقة التي يؤلمها بها جسدها.

– قال فيليبي: «سيباستيان يعتني بك».

– قالت برقة: «أتعتقد ذلك؟» وهي تلاحظ حتى ذلك الحين الحضور الخفي لسيباستيان في التخطيط للتدريب.

بعد برهة من الزمن، قالت كما لو أنها كانت تحدّث نفسها:

– يقول سيباستيان دائماً أن للحركة توقعات كبيرة بالنسبة لي. أعتقد أنه يقول ذلك ليجعلني أشعر أنني بخير، لكن يقلقني خذلانه. لا أعرف مدى الفائدة التي بوسعي تحقيقها.

– قال فيليبي: «يعتمد الأمرُ عليك» وكان ينظر إليها بجدية وهما يدخلان المنزل ويضيئان أنوار الصالة.

- 19 -

كان شهر تموز على وشك الانتهاء. مزقت لابينيا ورقة هذا الشهر من التقويم وراجعت جدول عملها لليوم التالي. كانت ميرثيدس قد حددت موعداً للاجتماع بخوليان والمهندسين في الساعة الحادية عشرة صباحاً واجتماعاً آخر مع الأختين بيلا في الساعة الرابعة مساءً.

قامت بتدوين مهام أخرى ينبغي عليها مراجعتها في منتصف الاجتماعات وبعد إلقاء نظرة أخيرة على مكتبها، رتبت أقلام الرصاص والأوراق وأغلقت الدرج بالمفتاح.

كانت سارة تنتظرها في الخامسة والنصف وقد كانت الساعة الخامسة.

أطفأت الأنوار وغادرت المكتب.

سارت بخطى سريعة إلى موقف السيارات وسرعان ما استدارت من الركن للانضمام إلى سير المركبات في الشارع المركزي. كان عدد كبير من السيارات يتقدم ببطء ويقف عندما يتحول ضوء إشارة المرور إلى اللون الأحمر.

كانت مشتتة ومتعبة قليلاً، تفكر في الاجتماع مع المهندسين. يجب أن يكون منزل الجنرال بيلا جاهزاً في الوقت المحدد وعليها أن تضمن سير عمل البنائين.

كانت ترى من خلال النافذة سائقي المركبات الأخرى منتبهين بانتظار تجاوز أو عبور إشارة المرور الحمراء.

فجأة وفي سيارة على بعد مسافة منها رأت فلور. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ للتعرف عليها بشعرها القصير المصبوغ ذي اللون البني الفاتح، الأشقر

تقريباً. شعرت باندفاع الدم وهو يغمر قلبها. فلور، صديقتها، هنالك على مقربة كبيرة منها. تمكنت من رؤيتها وهي تقوم بإيماءات أثناء الحديث مع سائق السيارة وتبتسم له. كان السائق رجلاً ذا ملامح غير دقيقة. سرعان ما فكرت فيما عليها فعله لجذب انتباهها، هل عليها القيام بالضغط على بوق السيارة أم أن تسبقهما؟ كلا. لا يمكنها القيام بأي شيء. لا شيء أكثر من محاولة أن تكون بجانب السيارة محاولةً أن تجعل فلور تراها، لكن ذلك كان شبه مستحيل. في المسارات الأربعة الصاعدة للطريق، كان صف من السيارات يتوسّط بين سيارتها وتلك السيارة التي تُقِل فلور. لكي تكون بجانب سيارتها، عليها القيام بمناورات غير قانونية قد تكون ممكنة ربما على الطريق السريع، لكنها خطرة في مثل حركة مرور كثيفة كهذه.

تحولت إشارة المرور إلى اللون الأخضر وتقدمت السيارة التي كانت فلور تواصل حديثها فيها دون أن تراها بشكل أسرع على الممر الأيسر.

حاولت أن تزيد من السرعة لكن السيارات التي كانت أمامها كانت تتحرك ببطء. عند الوصول إلى إشارة المرور التالية، كانت قد فقدت أثرهما. تمكنت من رؤية مؤخرة السيارة الحمراء وهي تنعطف في أحد الأركان.

جعلها الإحباط تخرج صوتاً أصمّ من صدرها وضربت بيدها على مقود السيارة. كانت مثل رؤية: صديقتها المقربة جداً والبعيدة جداً في نفس الوقت والتي يتعذر عليها الوصول إليها. شعرت بحزن كبير يثقل صدرها، إنه إحساس بالفقدان مرة أخرى. حدث لها ذلك بشكل متكرر. كان الجزء الكبير من عواطفها الأكثر قرباً قد غابت عن حياتها وابتعدت لمسافات. على الرغم من أن فقدان عمتها إينيس كان أمراً لا يمكن تداركه، فإن تذكر فلور وصديقتها الإسبانية ناتاليا وخيرومي يؤجج في داخلها حنيناً مراً.

كانت للغياب آثار لا تمحى. تلاشت ملامح الوجوه في جوهر الذكريات المشوش. كانت تتساءل أحياناً ما إذا كان هؤلاء الأشخاص موجودين بالفعل. تمكن الحنين من تغطيتهم بملابس أسطورية وغريبة. أخفى الوقتُ الغشاشُ الماضيَ وراء ضبابه كأنه غير موجودٍ وربطه، في العقل، بالخيال أو الأحلام. كانت المساحة التي شغلتها فلور في فترة ما مليئة بالصور الأخرى

والتجارب الحياتية الأخرى. توقفت عن مشاركة ما هو يومي، المادة الخام للحياة. كان ضياعاً وفجوة وثقباً أسوداً يبتلع النجمة-فلور، آلية مظلمة للعقل تسعى لحماية القلب المخلص دائما لألم الغياب.

لا شيء من شأنه أن يحول دون افتقاد فلور. كانت تشعر بأثرها. في الذكرى التي كانت في نفس الوقت تبددها، ثمة محادثات وتعاطف وتعاون قد نشأ بين الاثنتين. التعاون الوحيد الخاص بجنسها كامرأة وبهدفها، وهو ما لم تشعر به لا مع فيليبي ولا مع سارة.

إن رؤيتها والشعور بها على بعد أمتار قليلة منها دون أن تتمكن من مناداتها بصوت عالٍ ولا حتى التمكن من الشعور بالرضا لابتسامة بعيدة أو ليد مرفوعة تلوح بالتحية أجّج بداخلها حزناً صاحبه غليان فوار من قرارة ماء عينيها.

كان كل ذلك صعباً. كانت تفكر أنه صعب جداً. من الذي يحسب هذه الصراعات، هذه التنازلات الفردية الصغيرة والكبيرة عند كتابة التاريخ؟ ما يُحسَب هو المعاناة والتعذيب والموت، لكن من يهتم بحساب عدم اللقاءات كجزء من المعركة؟

أوقفت السيارة أمام منزل سارة. كان الأمر نفسه مع سارة. بالنسبة لسارة، صديقتها منذ نعومة أظافرها، كان الابتعاد عنها يزداد كل يوم أكثر لدرجة التفكير في أنهما كانتا في برج غير مرئي في بابل حيث تختلط اللغات.

- قالت سارة: «تفضلي، تفضلي لابينيا، لقد أعددت فنجان قهوة مع البسكويت».

قالت لابينيا: «يبدو أنك بحاجة إليه أكثر مني. هل أنت بخير؟ أراكِ شاحبة».

قالت سارة بتعبير ينم عن عدم الراحة والسلوك الممزوج بالسعادة على نحو متناقض: «لقد شعرت بالغثيان الشديد».

نظرت لابينيا إليها متسائلةً.

- هل أنتِ حامل؟ هل جاءتك الدورة الشهرية أخيراً؟

- قالت سارة: «لا، لم تأتِ ولن تأتي. قمت هذا الصباح بأخذ الفحص

إلى المختبر وأنا حامل!» وكانت تتحدث بنبرة متصاعدة وهي تجمّع الكلمات ببطء حتى انتهت ببهجة بعبارة «أنا حامل».

– قالت لابينيا بسعادة حقيقية: «كم هو أمر سار!» ثم عانقتها وقالت لها «تهانينا!».

– قالت سارة: «سألد في شباط» وعاودت معانقتها وقادتها من ذراعها إلى الطاولة حيث تم تقديم القهوة.

– وهل أخبرت أدريان؟

– تنهدت سارة وارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة: «آي! لا يملك أدريان حساً رومانسياً. كان يقول لي إنني حامل منذ أيام وكرر قائلاً: «لم تأتِ الدورة الشهرية، إنك حامل. يكاد الأمر أن يكون مسألة رياضيات». اتصلتُ به لإبلاغه بنتيجة الفحص وكل ما قاله هو أنه كان يعرف بالأمر وإذا لم أتذكر كيف كان يكرر ذلك لي لعدة أيام. الحدث هو عندما ترين النتيجة إيجابية على الورقة، فالأمر مختلف وليس كالحدس. وإنني تخيلت مشهداً رومانسياً نتيجة لكثرة مشاهدة الأفلام بالتأكيد، فقد تخيلت أنه سيأتي مسرعاً إلى المنزل ويعانقني عناقاً من نوع خاص ويهديني باقة من الزهور... لا أعرف! إنه أمر سخيف، لكن مسألة «كنت أعرف بالأمر» جعلتني حزينة...»

– قالت لابينيا: «إنكِ على حق» وأجرت مقارنة ذهنية سريعة بما كانت تتوقعه في مثل هكذا موقف. كانت متفاجئة بأنه لم يكن لديها أي تصور مسبق. عادت دون أن تعرف السبب إلى تذكر صورة فلور في السيارة. هل سيكون لديهما هي وفلور أطفال؟

– قالت سارة: «حسناً، كما تقول لي صديقتي، الحقيقة هي أن الحمل هو أمر يخص النساء، فالرجل لا يشعر بنفس العاطفة»، ثم أضافت: «أتريدين سكراً؟» بينما كانت تصب القهوة في الفناجين البيضاء.

– أجابت لابينيا: «كلا. لا، شكراً. لا أعرف ماذا أقول عما يشعر به الرجال. بالنسبة لهم، هو شيء غامض يحدث لنا نحن النساء. إنهم مجرد مراقبين للعملية. قد يمرون بالبعد والقرب في آن واحد. لابد أن الأمر غريب بالنسبة لهم. إسألي أدريان».

– سأسأله رغم أنني لا أعتقد أنه سيقول الكثير. سيقول ما هو عادي، أنه سعيد وكل ما عدا ذلك هو مجرد افتراضات أفترضها.

– أشعر بالاستغراب عندما أفكر بأنك ستنجبين طفلاً. إن مرور الوقت بهذه السرعة أمر لا يصدق. أليس كذلك؟ أتذكر عندما تحدثنا عن كل هذه الأشياء في غرفتي المقفلة بالمفتاح – أغمضت عينيها ووضعت رأسها مرة أخرى على الأريكة. رأت في مخيلتها الطفلتين الشغوفتين تنظران إلى صور كتاب للعمة إينيس عنوانه *معجزة الحياة*.

قالت سارة بنفس نبرة الحنين: «نعم، لقد كبرنا... قريباً سنكون عجائز، سيكون لدينا أحفاد وسيبدو لنا الأمر كذبةً».

فكرت لابينيا «سيكون لدي أحفاد؟» وكان الحنين يجتاحها نتيجة لاستحالة تصور أن يكون مستقبلها آمناً كمستقبل سارة. ربما لن تنجب أولاداً حتى. فتحت عينيها ونظرت، مثلما فعلت مرات عديدة، إلى المنزل والحديقة وصديقتها التي كانت تجلس بهدوء وهي تحتسي القهوة. لطالما أقلقها الشعور بالتفكير في أنه كان من الممكن أن تكون تلك هي حياتها. في البدء، وجب ملاحظة تشعب الطرق والخيارات. كانت حياتها مختلفة، إذ إنها من النمط الذي يبعدها أكثر فأكثر عن قضاء تلك الأماسي أمام أصص البيغونيا والورود والأواني البيضاء الجميلة لسارة الموضوعة على الطاولة بجوار الفناء الداخلي الأخضر والأحفاد والشيخوخة المحتملة بضفائرها البيضاء. إلا أن اختيارها قد أبعدها أيضاً عن اللامبالاة وعن هذا الزمن المنعزل والمحمي وغير الواقعي. كانت متأكدة أنها لن تكون سعيدة بهذه الطريقة من الحياة رغم أنها كانت تود أن تفكر في إنجاب الأطفال وفي عالم مرحِّب...

– سألت سارة: «وما زلتِ لا تفكرين في الزواج وإنجاب الأطفال؟»

– أجابتها: «كلا. حتى الآن لا».

– إنني دائماً أقلق عليكِ. لا أعرف لماذا أخاف دائماً من أن تتورطي في أمر ما وأن تسمحي لنفسكِ بأن تنجرفي بتلك الدوافع الخاصة بك. على الرغم من أنك كنتِ تصفينني دائماً بالحساسة، فإنني أعتقد أنك

الأكثر رومانسية ومثالية من بيننا نحن الاثنتين. تواجهين صعوبة في تقبّل العالم كما هو.

– سارة، الأمر لا يتعلق بالعالم بأي حال من الأحوال. نحن من نقوم بذلك بطريقة أو بأخرى.

– لا. لا أوافقك على ذلك. لسنا من يقرر الأمور. إنهم أشخاص آخرون. نحن مجرد حشد متكدس من الأشخاص، أي أناس. أترغبين ببسكوتة أخرى؟ – ثم مدت يدها وهي تحمل طبق بسكويت جوز الهند.

– قالت لابينيا وهي تأخذ البسكوتة وتنظر إلى الفناء بتعبير غائب: «تلك رؤية مريحة». غالباً ما كانت تدخل في هكذا نقاشات مع سارة. لم تكن تعرف ما إذا كانت هذه المحادثات تستحق الاستمرار. عادةً ما كانت تخمد الحديث وتنهيه لدرجة فقدان الرغبة بالشيء.

– لكن ما الذي يمكن عمله؟ قولي لي، هنا، على سبيل المثال، ما الذي يمكننا فعله؟

– أجابت لابينيا: «لا أعرف، لا أعرف، لكن ثمة شيء بالإمكان فعله».

– إنك لا تريدين تقبّل الأمر، غير أن الحقيقة هي أنه لا يمكن فعل أي شيء وكما ترين، رغم كل شيء ورغم كل أفكارك، جعلوكِ تصممين منزل ذلك الجنرال.

– نعم، حسناً ومن يدري، ربما سأقنع الجنرال بضرورة الاهتمام بفقر الناس –واتخذت لهجة المزاح لإنهاء الحوار–. سارة، دعينا نتحدث عن طفلك المستقبلي. لن نصل إلى أي نتيجة بهذا الموضوع.

ظلت لفترة من الوقت تتحدث مع صديقتها. تمت دعوتهم يوم الأحد للتنزه في مزرعة معارف لهم. كان عيد ميلاد المضيف. كانت المزرعة تضم حمام سباحة وكان من شأن التنزه أن يكون ممتعاً للغاية. اتفقوا على الذهاب معاً.

– سألت سارة: «ألن تأخذي فيليبي؟»

– أجابت لابينيا: «لا. إنكِ تعلمين أن فيليبي لا يحب الحفلات».

– قالت سارة: «لم أقابل قط كائناً غير اجتماعي مثل صديقك، لكن على أي حال، ذلك أفضل. هكذا، سنتحدث أكثر فيما بيننا».

عندما غادرت لابينيا، التقت بأدريان في طريق عودته من المكتب. لقد هنأته وقبل التهنئة بتمنّع وبموقف طفل مضحك. ابتسمت في داخلها مؤكدة نظريتها بأنه بالتأكيد سعيد، لكنها لا تستطيع القيام بمشاركته في الحدث بشكل جيد جداً. لم تعلّق أي تعليق ساخر أو ماكر، كان ذلك خير دليل على عواطفها. مع ذلك، لم تستطع سارة أن تتخيله منتظراً كما انتظرت منه العناق المبهج الذي تراه في الأفلام.

كانت تحب ممارسة الحب مع سماع الموسيقى. كانت تترك نفسها مندمجةً في موجة القبلات مع الموسيقى العميقة، الموسيقى الهادئة مثل الجسد المتعرج الذي تراه في السرير. كانت تظن أن الأمر استثنائياً، إذ كيف يمكن للجسد أن يكون مرناً فعلاً ومتغيراً. في النهار، يسير كجندي مصنوع من المعدن بشكل عسكري في الشوارع ويتنقل من مكتب إلى مكتب ويجلس منتصباً على كراس صلبة وغير مريحة. أما في الليل، فبمجرد سماعه للموسيقى وشعوره باللمسة والقبلات، يصبح ناعماً وشبقاً ويسترخي في خيال اللذة، فيتطلع للاحتكاك بجلد آخر ويصدر أصواتاً كأصوات الهرر.

لم تتصور أنها قد تفقد الإحساس بالإعجاب والدهشة في كل مرة تلتقي فيها الأجساد العارية. كانت هناك دائماً لحظة من التوقع المتوتر، من البداية والغبطة، عندما تسقط آخر بقايا من القماش والملابس على جانب السرير ويظهر الجلد الناعم الوردي والشفاف بين الملاءات ويضيء الليل بنوره. كانت دائماً لحظة بدائية ورمزية عندما تكون عارية وضعيفة ومساماتها مفتوحة أمام كائن بشري آخر ذي جلد ممتد. إنها النظرات الجديدة في تقادمها: الاقتراب والتلامس والأيدي التي تكتشف المناطق والامتدادات الجلدية المعروفة التي يتكرر التعرف عليها في كل مرة. كان يعجبها أن يدخل فيليبي في الإيقاع البطيء لبعض الوقت بلا استعجال. كان عليها أن تعلمه أن يستمتع بالحركة البطيئة للمداعبات واللعب الضعيف حتى يصل إلى الاحتدام، حتى يتسبب في كسر حدود الصبر ويغير وقت الإثارة والمغازلة نتيجة الشغف، كفرسان نهاية العالم الذين أطلق لهم العنان لنهاية سعيدة.

كانت تعتقد أن جسديهما يتفاهمان بشكل أفضل بكثير من تفاهمهما شخصياً بينما كانت تشعر بوزن فيليبي وهو يتكئ على ساقيها، منهكاً.

لقد اكتشفا منذ البداية أنهما عاشقان غير مقيدين، يتصرفان بتلقائية وأدركا سن الحلم في السرير. لقد أحبا الاستكشاف وتسلق الجبال والصيد تحت الماء والكون ذا النجوم المستعرة والنيازك. كانا ماركو بولوس بجوهرهما وبلون الزعفران. كان جسداهما وكل وظائفهما طبيعية وممتعة لهما.

- قال لها في الصباح وهو يشدها من شعرها بمحبة: «لا تكفّين عن مفاجأتي. لقد جعلتني مدمناً على هذا العمل، على تأوهاتك تلك».

- أجابته: «أنتَ كذلك».

كان السرير هو مؤتمر الأمم، الغرفة التي تتم فيها تسوية الخلافات ولُحْمَة الانفصالات. بالنسبة للابينيا، كانت غامضةً مسألةُ أن تكون قادرة على التواصل بعمق بالغ على مستوى البشرة عندما يتم الالتباس في كثير من الأحيان في مجال الكلمات. لم يبدُ لها الأمر منطقياً، لكنها الطريقة التي كان يسير بها. في ذلك المجال، حققا المساواة والعدالة، الضعف والثقة، كانا يتمتعان بنفس القوة بعضهما أمام بعض.

كان فيليبي يقول: «يجعلنا الحديثُ في كثير من الأحيان نقع في الفخ»، لكنها كانت تخبره أن الأمر ليس كذلك. فضلاً عن ذلك، كانت مقتنعة بأن الأمر لم يكن هكذا، فبالحديث يتفاهم البشر فيما بينهم. أما ما يتعلق بالأجساد، فهو أمر آخر، إنه دافع أساسي قوي للغاية، لكنه لا يصلح الخلافات، حتى عندما يسمح بالمصالحات الناعمة والمداعبات المجددة. وقالت إن التفكير في حل النزاعات بهذه الطريقة هو حقاً أمر خطير، إذ قد تتراكم تحت الجلد وتقبع بين الأسنان وتنخر تلك المنطقة التي تبدو محايدة وتخلق شرخاً في مؤتمر الأمم.

من العجيب أنه لم يحدث حتى الآن، مع الأخذ بعين الاعتبار التصادمات المتكررة. ربما يعزى ذلك إلى أنه عند جدالهما، كانت لابينيا تفصل في أعماقها فيليبي الذي تحبه عن فيليبي الآخر الذي كانت تعتبره لا يتحدث عن نفسه إلا بلهجة تجسيد لخطاب قديم مؤسف، إنه صبيها الشرير الذي أرادت أن تخلص فيليبي الذي أحبّته منه وتطرده عنه.

اعتادت فلور أن تقول لها إنها متفائلة أكثر من اللزوم عندما تظن أن بإمكانها تحرير فيليبي من فيليبي الآخر، لكنها أعطتها الأمل بذلك.

ربما كان الأمل هو المورد الذي يتيح لها الاحتفاظ بالموسيقى عند ممارستهما للحب رغم أنه قد يكون مجرد آلية دفاع ابتكرتها ضد خيبة الأمل والتشاؤم من التفكير في استحالة التغيير. كيف نؤمن بشدة بإمكانية تغيير المجتمع في الوقت الذي نرفض فيه الإيمان بتغيير الإنسان؟ قالت فلور مبدية رأيها: «الأمر أكثر تعقيداً»، لكنها لم تكن تقتنع بتلك النظريات. لم تنكر تعقيد المشكلة ولم تكن متوهمة بتفكيرها بحلول سهلة. بدا لها أن جوهر الأمر هو مشكلة الطريقة. كيف تم إحداث التغيير؟ كيف كانت المرأة تتصرف أمام الرجل وما الذي كانت تفعله لإنقاذ الآخر؟

عانقت فيليبي من الخلف، من ظهره، بينما كان نائماً وتحاشت تلك الشكوك باستسلامها للنوم.

- 20 -

أعطاها الجنرال بيلا موعداً في مكتبه. قبل الموعد المحدد بعشر دقائق، استدارت وانحرفت عن الطريق السريع باتجاه بوابة المجمع العسكري.

أطلق الحارس صافرته بإيماءة سلطوية بينما أشار لها بعدم إمكانية المرور وهو يرفع ذراعه ليأمرها بالعودة إلى مسار السيارات.

توقفت وأخرجت رأسها من النافذة وأخبرته بصوت مرتفع أن الجنرال بيلا بانتظارها.

توقف الحارس -ذو البدلة الخضراء الزيتونية والخوذة القتالية- عن حركات التأشير ومشى ببطء وحذر واقترب من السيارة.

- سألها بينما كان يمشي وينظر إليها بريبة وإلى ما بداخل السيارة بنظرات سريعة: «ماذا قلتِ؟».

- قلت إن لدي موعداً مع الجنرال بيلا. ينتظرني أن أصل إليه بعد خمس دقائق.

- هل لديك هوية؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- رخصتي.

- أعطني إياها.

أخذت حقيبتها. رجع الحارس إلى الوراء قليلاً كأنه يخشى أن تخرج له سلاحاً. أخذت رخصتها وأعطتها له.

- قال لها: «انتظري هنا. لا تتحركي» ورجع إلى غرفة التحكم.

لاحظت لابينيا برضاً عن نفسها أنها لم تكن متوترة، بل العكس، كانت واثقة من نفسها يشجعها تفوق دوافعها. لقد جربت تمجيد اختراق ذلك

المكان المنيع، في عُقر سور العدو، مثل الكوندور[1] الواثق من رحلته والذي ينظر إلى صغر الخصوم.

لم تستطع رؤية أي شيء من المُجَمَّع العسكري. كان مخفياً عن المارة خلف جدار عالٍ ومتين. كانت تفصلها فقط البوابة السوداء والمعدنية التي كانت تقف أمامها.

نقرت بأطراف أصابعها بنفاد صبر على مقود السيارة. إذا لم يعد الحارس قريباً، ستغادر. ستخبر الجنرال أنه لم يُسمح لها بالدخول وأنه يجب أن يعطيهم تعليمات أكثر دقة. لا شك أن الجنرال سيثور ضد مرؤوسيه وسيعاقبهم. لن يوقفوها في المرة القادمة وسيدعونها تمر بسرعة.

كان من الصعب في البداية إدراك قوة التمثيل برباطة جأش وبثقة شخص مسيطر يستحق الاحترام. كانت الأكثر تأثيراً في جميع الحالات، لا سيما لأنها امرأة. لقد ثبت ذلك في الاجتماعات مع المهندسين والجنرال بيلا. إذا أصبحت لطيفة وتبتسم، يصبح التعامل قائماً على أساس الجنس، ثم يصبح ازدرائياً على نحو متطور. كانت فلور محقة في الأمور المهنية: كان من الضروري التعلم من الرجال وكانت تراقبهم حتى استشعرت الآلية.

نظرت إلى ساعتها. لقد مر ما يقرب من خمس دقائق. قررت عدم الانتظار أكثر من خمس دقائق.

بعد ثوان، فُتِحَت البوابة واقترب حارس آخر كان يضع هذه المرة شارة نقيب.

- قال وهو يقترب من نافذة السيارة: «آنسة ألاركون. لو سمحتِ، دعيني أركب سيارتك لأرافقك إلى مكتب الجنرال بيلا».

- أليس موجوداً هنا؟

- أجل، لكن سيتوجب عليك القيادة في المجمّع. سأذهب معكِ كي لا تواجهي أي مشاكل» وفتح الباب الجانبي وركب بجانبها.

فُتِحَت البوابة.

خلف الجدار، كانت المباني والثكنات المختلفة عبارة عن قلعة متصلٌ بعضها بشوارع كانت تمر عبرها أو تقف فيها المركباتُ العسكرية وكان جنودٌ يرتدون الزي الرسمي يسيرون على الأرصفة.

1- النسر الأمريكي.

لقد عبرا حاجزين آخرين من النوع الذي يوضع للسكك الحديدية حتى وصلا إلى كتلة من المباني الخرسانية. كانت لها بدرجة أقل نفس الهندسة المعمارية الثقيلة والفخمة الخاصة بمباني روما الحديثة لموسوليني، الجدران الناعمة والرمادية ذات الأحجام الهندسية والمستطيلة. من الناحية الذهنية، كانت لابينيا تخزن تفاصيل الإنشاءات وتصميم الشوارع. فضلت القيادة في صمت كي لا تفقد التركيز وكي تحتفظ بإشارات المكان.

- قال النقيب دون أن يفقد ولا للحظة واحدة تعبير الطالب العسكري: «إنه هنا، ها هي هيئة الأركان العامة. يمكنك الوقوف هنالك».

نزلا من السيارة وبعد عبور فناء مزخرف بزخارف محفورة دخلا المبنى المركزي. كانت هنالك صورة عملاقة لوالد الجنرال الكبير، مؤسس السلالة، تتصدر القاعة.

ألقت السكرتيرة التي كانت ترتدي الزي الأزرق التحية على النقيب بتحريك رأسها.

صعدا سلالم رخامية واسعة ووصلا إلى قاعة أخرى أكبر مساحةً فيها أبواب العديد من المكاتب يحرس كل منها حارس يرتدي زيه الرسمي. في الوسط، كان في صالة الانتظار أثاث من الجلد فاقد لرونقه بسبب زخارف الزهور البلاستيكية للمنضدات.

عرض مكتب الجنرال بيلا نفس المزيج من التفاصيل الرديئة الذوق وذات البرودة المعمارية الشديدة. كانت اللمسة المهيمنة صورة ملونة على جدار للجنرال الكبير مبتسمة ابتسامة عريضة. كانت الصورة المأخوذة من زاوية سفلية تهدف إلى منح العظمة لهذا الرجل البدين والقصير. أما باقي الأثاث، فيوشك أن يكون حديثاً: من الفينيل والكروم. أضافت منافض السجائر والزخارف الصدفية والحلزونات لمسة *مبتذلة* إلى الديكور. كانت السكرتيرة تجمع فوق الأرشيف علب الثقاب في كأس زجاجي كبير.

كانت شقراء بفضل صبغ الشعر ونحيفة وعصبية وكانت في منتصف العمر ولديها رغبات مراهقة. كانت تبتسم بتصنع وطلبت منها أن تجلس لحين مناداتها. انسحب النقيب المهذب الذي يبدو كأنه طالب عسكري والمساعد في مكتب الجنرال بهدوء.

لم تكد تستقر على المقعد حتى رن جرس الاتصال الداخلي. أجابت السكرتيرة مع قفزة صغيرة قائلة «نعم، جنرال» بنبرة طائر مريض ثم تحركت مثل وقواق الساعات الخشبية الجدارية وفتحت باب مكتب بيلا مشيرةً إليها بالدخول.

ألقى عليها الجنرال وهو يقف خلف مكتبه المصنوع من الخشب المتين التحية قائلاً «مساء الخير آنسة ألاركون» وكان محاطاً بصور للجنرال الكبير وهو يحتضنه ويقلده وساماً ويصطاد معه وفي الطائرة المروحية وأثناء امتطائه لصهوة الجواد.

– أجابت لابينيا «مساء الخير جنرال» واقتربت لتصافحه من وراء المنضدة.

– قال لها بمجاملة «تفضلي بالجلوس، تفضلي بالجلوس. أترغبين بشرب القهوة؟»

– قالت بابتسامة لطيفة: «بكل سرور».

– قال الجنرال بنظرة شبقة: «إنك كل يوم أجمل من الذي قبله».

– قالت: «شكراً. ما الأمر الذي أردتَ إخباري به؟ ما الجديد؟ بماذا يمكنني أن أخدمك؟»

– قال الجنرال عائداً من بعض الأفكار السيئة التي كانت تراوده: «أه، نعم! لقد أمرتها بأن تتصل بكِ لأنني وبينما كنت أراجع المخططات في منزلي، كنت أفكر الليلة الماضية برغبة ببناء مرفق للشواء في الشرفة أمام الصالة إضافة إلى العريشة».

– «لكن لدينا بالفعل مرفق شواء بجانب المسبح...»

– نعم، نعم، أعلم ذلك، لكن انظري، إن مرفق الشواء المتعلق بالمسبح جيد بالنسبة للصيف. أما في الشتاء مع هطول الأمطار، فأحتاج مكاناً ذا سقف للشواء. أحقاً لم أشرح لكِ أنه من الأمور التي تشتت انتباهي هو عندما يصل الأصدقاء؟

أخرجت لابينيا مفكرتها وكتبت بسرعة وقد أومأت برأسها بالموافقة.

– هل تريد أن يكون إنشاؤه مشابهاً لإنشاء مرفق الشواء الخاص بالمسبح؟

– أعتقد أنه يجب أن يكون أصغر قليلاً، ألا ترين ذلك؟

– حسناً، في كلتا الحالتين سنضطر إلى مد العريشة.

– هذا ما فكرت به، لكن ربما يمكن تصغير مرفق الشواء قليلاً.

– نعم، إذا صغر حجمه قليلاً، سيكون أفضل، وكانت لابينيا تدون الملاحظات متسائلةً عن سبب أمر الجنرال بيلا بالاتصال بها من أجل شيء كان يمكن ترتيبه على أتم وجه عبر الهاتف.

– سألت: «هل هذا كل شيء؟».

– نعم، نعم. هذا كل شيء، لكن اشربي قهوتك على مهل. قد وصلت للتو. أخبريني كيف تسير أمور المنزل.

كانت متأكدة من أن الجنرال كان لديه شيء ليقوله. بدأت بالتفكير في ما ستقوله له إذا ما ادعى أنه قد وقع في غرامها. كيف تكون مهذبة وحازمة في نفس الوقت.

شرحت له بالتفصيل الاتفاقات المبرمة مع المهندسين بشأن أعمال الحفر والمواد والتأسيسات الكهربائية والصرف الصحي ولم ترغب في إعطائه الفرصة للخوض في موضوع آخر للحديث.

– سأل الجنرال: «وهل تعتقدين أن المنزل سيكون جاهزاً في كانون الأول، بشكل مؤكد؟»

– قالت: «سنبذل كل ما في وسعنا. أعتقد ذلك».

– نرغب بإقامة حفل افتتاح يتصادف مع نهاية العام وبدعوة جميع الأصدقاء وبدعوتك طبعاً.

– قالت لابينيا: «شكراً، شكراً».

– أيعجبك الرقص؟

– قالت لابينيا وهي تفكر، هنا مربط الفرس: «ليس كثيراً».

– يالالأسف! كنت أفكر في دعوتكِ إلى حفلة صغيرة ينظمها بعض ضباطنا... كما تعلمين، أمر بسيط كي نلهو. لدينا الكثير من العمل ولا نكاد نحظى بالتسلية. يبدو لي أنكِ أيضاً من النوع الذي يعمل بجد ولديه القليل ليتسلى به على الرغم من كونكِ في ريعان الشباب. إنكِ جادة للغاية.

- لا أبداً؟ إنها أفكارك. إنهم يدعونني باستمرار إلى الحفلات والتنزه.
- قال الجنرال وهو يعلم السبب: «لكن الأمور لا تسير على ما يرام».
- حسناً. إنك تعلم أن الاستيقاظ في الصباح ليس سهلاً بعد قضاء الليل بلا نوم.

بدأت تشعر بعدم الارتياح. شعرت دون أن تفهم اتجاه أسئلة الجنرال بفضول لأنها لا تعرف ما إذا كان ما تشعر به هو بسبب محاولته إغواءها أو بسبب أمر أكثر خطورة.

- وهل لديكِ صديق؟
- حسناً... يمكنني من الناحية العملية أن أقول نعم. إنني أخرج مع مهندس معماري آخر هو زميل لي في العمل...

فكرت لابينيا «هل يدري بفيليبي؟» وكانت تشعر بعدم ارتياح متزايد. اختارت قول الحقيقة. ارتأت أنه أقل ريبة من إنكارها. إذا كان يحقق معها، فمن المؤكد أنه كان يعرف بالفعل بعلاقتها بفيليبي.

- قال الجنرال بتعبير بريء: «أه... لهذا السبب لم يستطع الحضور إلى حفلتنا... يا للأسف! كنت أخبر أصدقائي بمدى كفاءتك. اعذريني، لكن من النادر مقابلة نساء يتمتعن بالذكاء والكفاءة فضلاً عن جمالهن. وددت لو تعرفوا عليكِ.»
- قالت وهي تحاول أن تُهَدّئ نفسها قليلاً: «شكراً لكَ».
- لكن ماذا تقولين؟ أتستطيعين أم لا تستطيعين؟
- سألته: «متى؟»
- أجاب: «الأحد المقبل».
- قالت لابينيا وفي داخلها شعور بالامتنان لكون الأمر صحيحاً: «لدي التزام... نزهة».
- لكن النزهة في النهار والحفلة في الليل.
- إنكَ محق، لكننا سنعود في وقت متأخر وإنكَ تعلم أنه عند الرجوع من هذه الأشياء، يكون الشخص منهكاً. لماذا لا نترك الأمر لوقت آخر؟
- قال الجنرال بابتسامة مرغمة متصنعة: «حسناً، إذا لم يكن هناك خيار

آخر... فسيكون في مرة أخرى!» من الواضح أنه قد أزعجه عدم الحصول على مراده.

وقف مشيراً إلى إنهائه للمقابلة.

– على أي حال فكري في الأمر واعذريني على إلحاحي. ربما لن تكوني متعبة جداً عند عودتك. إذا قررت، يمكنكِ الاتصال بالمكتب هنا. سأعطي تعليمات لإرسال مركبة لتقلك. أخبري صديقكِ أن لديكِ اجتماع عمل.

– قالت لابينيا وهي تحاول ألا تقول له اتركني بسلام: «إنكَ رجل ذو إصرار».

– قال الجنرال وهو يرجع لها الابتسامة بإغواء تهديدي: «إنني دائماً أحقق ما أصمم عليه».

من جديد، كان النقيب – الطالب المؤدب والمهذب ينتظرها ليصطحبها عند الخروج من المجمع العسكري.

خرجت لابينيا من المكتب بصمت وهي تحاول كبح جماح غضبها والسيطرة على شعور بالتحرش بها وكانت تثبِّتُ نفسها على كعبها العالي في مشيتها.

بدا للابينيا كأنها لاحظت تعبير الشفقة في عيني السكرتيرة.

كان فيليبي يقول وهو يخطو خطوات واسعة ويستشيط غضباً في المكتب: «كان يفترض بكِ أن تقولي له كلا فقط».

– أجابت لابينيا: «هذا ما قلته له بالفعل. إنك تعلم أنني لا أستطيع أن أخبره ما أفكر به. كان عليّ أن أمثل دور البلهاء! لا أرى سبباً لغضبك على هذا النحو!»

– لأنني أرى بالفعل من أين دخل... وتفصلنا عدة أشهر عن إنهاء ذلك المنزل! يجب أن توضحي له في أقرب وقت ممكن عدم استعدادك لأن يقوم أحد بإغوائك.

– فيليبي، من فضلك، إهدأ. لماذا لا نفكر في كيفية مواجهة الأمر دون أن تنزعج؟ ألا تدرك أن الأمر بالنسبة لي أسوأ بكثير مما هو بالنسبة لكَ؟ لا يمكنكَ أن تتخيل ما هو شعوري وأنا أرى تلك العيون الشهوانية...»

– أرأيتِ؟ أرأيتِ لماذا لم أرغب في إقحامكِ في هذه المسألة؟

– قالت لابينيا بعد أن فقدت هدوءها: «لا أستطيع أن أصدق ما تقوله. اتفق الجميع وأنت أولهم على أهمية موضوع منزل بيلا. لا تخبرني الآن أنه لم يكن يُفترَضُ إقحامي في الأمر!

–... يدعوكِ إلى حفلة! تلك الحفلات الصغيرة للضباط أمر معروف! من كان سيصدق أن ابن العاهرة هذا سيقوم بذلك معكِ.

– ردت عليه: «إنني امرأة. بالنسبة له، كل النساء متساويات»، ثم خفضت صوتها وأضافت: «ماذا تعتقد أن يقول سيباستيان؟ أتظن أنه سيخبرني بأن أذهب؟»

– قال بتعبير غاضب مسيطر: «كلا. لن تذهبي».

– قالت لابينيا في محاولة لترتيب أفكارها: «فيليبي، إنك لست مسؤولي. مسؤولي هو سيباستيان. اهدأ. تذكر كم مرة قلت لي إن الحركة هي في المرتبة الأولى وكل ما عداها ثانوي. ردة فعلك هي ردة فعل زوج تمت إهانته».

– قال لها بلهجة اتهام: «وأنتِ هادئة جداً. ألا يكون الأمر أنكِ قد تودين الذهاب؟»

– قالت لابينيا أثناء نهوضها: «إنني ذاهبة، لن أسمح لك بالتجرؤ حتى على التلميح إلى رغبتي في الذهاب إلى تلك الحفلة. عليك أن تتعلم السيطرة على نفسك».

غادرت مكتب فيليبي وأغلقت الباب بقوة دون أن تكترث لنظرات الرسامين وكانت الرؤوس قد رُفِعَت في نفس الوقت وأنظار الأشخاص الجالسين على مناضد الرسم تتبعها حتى أغلقت باب مقصورة مكتبها.

مر أسبوع تقريباً دون أن تراه. كانا يريان بعضهما بعضاً في المكتب دون أن يتفوها بكلمة واحدة. كانا غارقين في عبثية صمتهما.

في يوم الحفلة الذي صادف الأحد، حضرت لابينيا إلى المتنزه المقصود مع سارة وأدريان. عادت إلى المنزل يساورها الخوف من أن تجد رسائل أو سيارات تنتظرها، كمجاملة من الجنرال بيلا. لكنها لم تجد شيئاً غير العادي من نباتاتها وكتبها وصمت البيئة التي تحيطها بدون فيليبي.

كانت تستغرب بغضب تصرفه. لم تستطع فهمه أو ربما لا تريد أن تفهمه. كان الفهم سلاحاً ذا حدين. إزاء تصرف فيليبي، كان من الصعب عليها ببساطة تطبيق نظريتها حول فيليبي الآخر وإعفائه من المسؤولية باسم تراث الأجداد. استمر على نفس الموقف لعدة أيام بتجنبه إياها في المكتب وتغيّبه ولومه إياها بصمت على رغبتها التي افترض وجودها في مخيلته بالحضور لحفلة بيلا. كان من المزري والسخيف والمهين بشكل لا يصدق أن يعتقد للحظة أنه قد يكون لديها بعض الاهتمام الخاص بالذهاب إلى الحفلة.

- قال سيباستيان: «إنها الغيرة، لا تقلقي. الغيرة غير عقلانية».

سألت لابينيا -خوفاً من الرد بالإيجاب- عما إذا كان موقف فيليبي قد أثر على قرار عدم حضور حفلة بيلا. أوضح سيباستيان أنه لم يؤثر. لم تكن الحركة مهتمة بإخضاعها إلى تجربة صعبة وسيئة. بدلاً من ذلك، أرادوا أن تكون علاقتها بالجنرال مبنية بالكامل على أساس مهني. لم يتم التفكير في أي وقت في تشجيع المحاولات المتوقعة لإغواء العسكري على الرغم من علمهم بإمكانية حصولها. كرر لها، لم يكن لموضوع فيليبي أي علاقة بالأمر. لهذا السبب أوصوكِ بالحفاظ على موقفكِ بأن تكوني بعيدة عن ذلك.

كرر أن ما حدث لفيليبي لا علاقة له به.

فتحت لابينيا التي كانت غارقة في أفكارها الشبابيكَ لتهوية المنزل وللتخفيف من حرارة يوم الأحد. كان صمت وهدوء الفناء يتناقض مع الاضطراب الداخلي الذي تعيشه.

كان أسوأ شيء هو أن تعرف أن ذلك ليس نهاية العلاقة وهي على يقين بينها وبين نفسها بأنها ستقبل أعذار فيليبي عند سماعها. اعتقدت أن فيليبي كان يراهن على المسافة كي يحصل عندما يقرر الاعتذار على استسلام أكثر أماناً. أثارت هذه الفكرة حنقها، لكن ما كان يغضبها أكثر هو التأكد مما كانت تأمله بأن يكون ذلك وليس شيئاً آخر أكثر شؤماً وغموضاً هو ما أخّر اعتذاره.

- قالت بصوت عالٍ «ما الذي يمكنني فعله؟» بينما كانت تنظر إلى شجرة البرتقال وتتحدث إليها كما كانت تفعل مراراً.

بدا لها كأنها سمعت عمتها إينيس ورأت عينيها العميقتين ذاتَيْ اللون البني

الفاتح وهي تقول لها: «عليكِ أن تتعلمي أن تكوني رفيقة جيدة لنفسك». تذكرت محادثتها مع ميرثيدس في المكتب والتعليقات التي علّقتها لسارة. كان من الصعب جداً أن تكون متماسكة في داخلها وأن تتصرف بناءً على حبها لنفسها.

لقد تحدت سيباستيان بسؤاله عمّا إذا كان سيلفت انتباه فيليبي بسبب سلوكه معها. قالت له إنها تعتقد أن على الحركة أن تهتم بتلك المواقف الثورية بعض الشيء لأعضائها.

ابتسم سيباستيان بحزن قائلاً: «الثورة يا لابينيا هي من صنع البشر وليس الرجال الخارقين. ما زال رجل المستقبل مجرد حلم».

وأضافت بينها وبين نفسها على ما قاله سيباستيان وكذلك المرأة بالتأكيد.

***

نظرت إليّ لابينيا المسكينة وهي منهمكة في التفكير في حبها حتى إنها لم تلاحظ إزهار الأزهار والرائحة التي كانت تصدرُها أزهاري البيضاء.

كانت تتنقل في أرجاء المنزل مثل أولئك الأشخاص الذين يمشون عند النوم، كانت شاردة الذهن وحزينة.

لقد اخترقني حزنها بشقه أخاديد في أغصاني. الحنين مُعْدٍ! كثيراً ما أفكر بالوحدة. نحن البشر في غاية الوحدة، في الحياة والموت. إننا سجناء ارتباكنا، نخاف من أن تظهر نحافة جلدنا الرقيق واليانع بدمنا.

الحب مجرد مقاربة غير مكتملة من القرب.

لم أستطع مرافقة يارينثي في خيبة أمله في كل مرة خسرنا فيها معركة وأصبحنا أكثر عزلة وفي كل مرة سيطر فيها الغزاة على مدننا الأخرى، على مدن قبائلنا.

كان من المروّع أن أعود في الليل إلى الأماكن التي كان فيها بيبيليس[1] أو تشوروتيغاس يطعموننا، حيث نراهم وهم يرتدون قطع قماش طويلة مثل الإسبان، متنكرين بزي أبيض، يميلون إلى مواقف العبودية. قلة هم الذين

1- السكان الأمريكيون اللاتينيون ما قبل الكولمبيين.

تجرأوا على الرد على رسائلنا المشفرة -تقليد طائر بوكويا أو طائر غيس-. في بلدات معينة، لم يعد أحد يرد. ربما ما كنا نسمعه في الليل هو العويل فقط، فذلك من أجل علاجنا، إذ لم يكونوا يستطيعون مساعدتنا ولا فعل أي شيء.

كنا نعود من تلك الأحزان إلى الجلوس بعيداً عن بعض تاركين أنفسنا فريسة لأفكارنا المظلمة.

لم يكن هناك شيء يمكن أن نقوله فيما بيننا. لا شيء يمكن أن يريحنا.

علمنا إذّاك أننا كنا نكافح بلا أمل، إلا أنه لم يكن لدينا خيار سوى المضي قدماً.

كنا شباباً. لم نكن نريد أن نموت، لكن في نفس الوقت لم نكن لنقبل بالعبودية كخلاص من الموت. في الجبال نموت كمحاربين وترحب بنا الآلهة بشرف ومهابة. من ناحية أخرى، لو استسلمنا لليأس من أجل الحفاظ على الحياة، سنعطي فرصة للكلاب أو للنيران لتنهش أو تلفح أجسادنا ولن يكون بوسعنا ولا حتى التطلع إلى الموت المزهر.

للدفاع عن أنفسنا من الهزيمة واليأس، اجتمعنا حول النار ليلاً لنحكي أحلامنا، لكن الحنين قد أمرضنا.

غالباً ما كنا صامتين وفي عزلة. كان كل واحد منا يكافح ضد الخوف والحزن بطريقته الخاصة. لم تكن لدينا القوة لمواجهة أشباح أكثر مما تستدعيه الحالة.

لقد أصبحنا وحيدين.

***

كانت الجرارات والجرافات تتنقل ظهراً في أرض الجنرال بيلا وهي تحرك وتدك الأرض. كان هنالك غبار ناعم بلون الطين يتطاير ويغطي ملابس العمال الحمراء. قامت الشركة الهندسية بتركيب مصابيح كبيرة وقوية للعمل الليلي المطلوب من أجل تسليم المنزل في الوقت المتفق عليه.

نزلت لابينيا من السيارة وتوجهت إلى الكوخ حيث كان كبير العمال مع رئيس المهندسين. لاحظت عيون العمال ترتفع متجهة صوبها بخلسة.

في السقيفة، كانت هناك طاولة خشبية خشنة في المنتصف وعدة كراس

وطاولة صغيرة كانت عليها ماكنة صنع قهوة وكان هنالك رجلان، أحدهما شاب والآخر في الخمسينيات من عمره كانا يرتشفان القهوة.

- قالت: «صباح الخير» وتوجهت نحو كبير العمال وسألته: «هل أنت هو السيد رومانو؟»

- قال الرجل الذي كان يرتدي قميصاً قصيراً وبنطالاً من الجينز ومعه قلم رصاص موضوع خلف أذنه: «نعم إنني رومانو. ماذا تريدين؟»

- قالت باسطة إليه يدها لتُحَيِّيه: «إنني لابينيا، المهندسة المعمارية المساعدة في الإشراف على المشروع».

- قال رومانو «حقاً؟» وهو ينظر إليها بفضول. كان لطيف الوجه، ذا خدود مستديرة وعينين صافيتين وحواجب عريضة وكثيفة يبرز من بينها الشيب.

- قالت لابينيا: «نعم. أرى أنهم يتقدمون في إزاحة التراب...»

- قال رومانو: «سننهي العمل هذا الأسبوع. أقدم لك المهندس المساعد السيد ريثو».

- قالت لابينيا لإثارة اشتراكهما بالأمر: «بذلك، سنرى بعضنا بعضاً هنا».

- قال المهندس المساعد: «يبدو الأمر كذلك». كان رجلاً شاباً نحيفاً وخجولاً خمنت لابينيا أن يكون في سنها.

- لقد تصرفت بسلاسة. أرادت التأكد من عدم إثارتها لرفض البنّائين الذي تحدث عنه خوليان بكثرة.

طلبت من رومانو أن يشرح لها الخطوات التي اتبعوها لإزاحة التربة وأشارت إلى أهمية ارتفاع المستويات المختلفة التي ستُبنى عليها أساسات المنزل كي لا تَدَع مجالاً للشك بشأن إتقانها للمفهوم المعماري.

تحدث رومانو بهدوء وأجاب على أسئلتها واستفساراتها. لاحظت أنه كان ينظر إليها بتركيز، بل وبفضول تقريباً، لكنها لم تشعر بالعداء أو الرفض من أي منهما.

كان المهندس المساعد هادئاً استمر بالنظر إلى المخططات وكان يتابع حوار لابينيا ورومانو بإيماءات حركات رأسه.

حدّثت نفسها: «كم أنني محظوظة لمصادفتي لرجل خجول».

ساروا فيما بعد عبر موقع البناء وفي النهاية قامت لابينيا بتوديعهم.
رافقها رومانو إلى السيارة.
سألها: «هل ستعودين غداً؟»
- قالت لابينيا «نعم» ثم عّقّبت قائلة «ستراني كل يوم».
- قال رومانو: «أتعلمين؟ لدي ابنة كانت تريد أن تصبح مهندسة معمارية، لكنها تزوجت وماتت أثناء الولادة. في الحقيقة، لم أظن قط أنه من المناسب لها دراسة ذلك، لكن عندما رأيتك...»

لم تعرف لابينيا ماذا تقول، فقد أثار الرجل العجوز عطفها. ربت على كتفها عدة مرات. إنها الحياة. غادرت مستقلة سيارتها. أعادت ثقة رومانو العفوية والمفاجئة في داخلها الحنين إلى الماضي. أمضت يومها مشتتة لتفادي التفكير في فيليبي، غير أن أشياء من هذا القبيل كانت تذكرها بأنها ما زالت رقيقة القلب.

عند عودتها إلى المكتب، وجدَتْ ملاحظة قصيرة من فيليبي على مكتبها مفادها «عرّجي على مكتبي عند وصولكِ». أخذ قلبها بالخفقان الشديد. قررت الانتظار لبعض الوقت. لا يبدو لها من اللائق الهرع عند أول إشارة. اتصلت بميرثيدس وطلبت قهوة وسألتها عما إذا كانت قد تلقت أي مكالمات هاتفية في غيابها.

قالت ميرثيدس بسرعة وهي تخرج لإحضار القهوة: «انظري إلى مكتبك». عادت على الفور تقريباً وعندما وضعت القهوة على الطاولة وأخذت وقتها لترتيب المنديل بعناية، قالت: «هل رأيت الملاحظة التي تركها لكِ فيليبي؟»

- قالت «نعم» وهي تخفي انزعاجها من فضول ميرثيدس. من الناحية العملية، كان من المستحيل أن يخفى عليها أي شيء يحدث في المكتب. كانت لديها طرق غامضة لاكتشاف كل شيء. في هذه الحالة، من الواضح وبدون أي غموض أنها قد تفحصت المكتب.

- ثم أضافت معقِّبَة: «يجب أن تتخلصي من تلك العادة السيئة المتمثلة في النظر إلى ما هو موجود على المكاتب».

- قالت ميرثيدس وهي تمثل دور البريئة: «نعم لقد جئت لترك بريد

ورأيتها بالصدفة. لم يترك الملاحظة مطوية أو أي شيء غير ذلك. إنني لا أسجل الأشياء إذا كان هذا ما تقصدينه».

أشارت لابينيا بيدها إلى عدم رغبتها في التشاجر مع ميرثيدس التي غادرت المكتب وهي تهز وركها وتبدو مستاءة.

قالت لابينيا بينها وبين نفسها «مسكينة»، إذ ساورها شعور بالامتعاض لمعاملتها بخشونة، لكن الجميع كانت لديه نفس الشكوى بشأن ميرثيدس. لم يعرف فضولها حدوداً. كانت طريقتها في التعويض عن نكبات علاقاتها الرومانسية هو قيامها بالقوادة واهتمامها بالحياة الغرامية للآخرين. لقد عادت لعلاقتها مع مانويل، لكن هذه المرة، بجرعة واضحة جلية من المرارة كما لو كانت تستسلم لمصير مظلم لا مفر منه.

لم تستطع أن تتفادى ذلك الشعور في داخلها عندما اعتقدت أنها على وشك إعادة علاقتها مع فيليبي رغم المسافات ورغم كل شيء.

جلست على الكرسي وأشعلت سيجارة. كان صوت التكييف عالياً في هدوء المساء. كانت ساعة النعاس. على الرغم من المناخ الاصطناعي البارد، يمكن رؤية ضباب الحرارة من النوافذ يرتفع مثل حجاب أبيض يُخْفِي المناظر الطبيعية.

لم تخدع نفسها بشأن اقتراب استسلامها، إلا أنه كان عليها أن تخطط لتسوية بعض الأمور مع فيليبي. لم تكن على استعداد لتفويت الفرصة لتجعله يرى مدى سخافة وقلة احترام موقفه. لن تمنحه نشوة انتصار التصالح السهل.

كانت تتدرب على ما ستقوله عندما ظهر فيليبي عند الباب وأذهلها.

– قال لها وهو يشعل السيجارة: «إذا لم يأتِ الجبل إلى محمد، فليذهب محمد إلى الجبل».

لاحظت لابينيا أنه قد جاءها بخطة الفاتن اللطيف وكانت تحاول استعادة رباطة جأشها بينما عاودت الاتكاء على كرسيها دون أن تقول أي شيء. قررت من جديد ألا تسهل له الاعتذار.

– قال فيليبي: «كما تعرفين، فإن الاعتذار ليس من اختصاصي».

واصلت لابينيا النظر إليه.

– قال: «لم يكن الأمر بهذه الدرجة، لا تتصرفي بهذه الطريقة...»

– قالت لابينيا: «إذا لم يكن الأمر بهذه الدرجة كما تَدَّعي، فما الذي أخرك كل هذا الوقت في المجيء للاعتذار...؟»

– السبب هو كما أخبرتك، أنني لا أجيد أبداً طلب الاعتذار... خاصة عندما يتعلق الأمر بمثل هذا الغباء الواضح. كيف بي ألا أعتذر بسبب غبائي؟ عليكِ أن تعترفي أنه من الصعب تقبُّل المرء لإخفاقاته.

– وهل تعتقد أنه علي قبول ذلك؟

– كلا. بالطبع لا. لكن، كما تقولين أنت نفسك، يجب اللجوء إلى التفاهم. بعيداً عن كل شيء، فهي أمور تسري داخل المرء تقريباً بشكل لا إرادي... عدم الثقة، انعدام الأمان... وفي نهاية الأمر، السلطة الذكورية.

– أسوأ ما بالأمر هو أن أسمعك تستخدم كلماتي لإعفائك من المسؤولية. لا يمكن إصلاحك! إنك سيد الندم!

– ذلك لأنك تريدين نتائج سحرية. تعتقدين أنه بمجرد الحديث عن هذه المشاكل والاعتراف بها، يجب أن يتغير كل شيء. الأمر ليس بهذه السهولة. للمرء ردود فعل شبه بدائية تجاه أمور معينة. في ذلك اليوم، على سبيل المثال، هل تعتقدين أنني لم أدرك أنني كنت أتصرف بغباء وأن ما قلته لم يكن منصفاً...؟ لكنني لم أستطع تفادي الأمر. خرج الكلام من فمي قبل أن تكون لإرادتي دور بالأمر وقد أغلقتِ بابك في وجهي ولم تعطني الوقت الكافي لتعديل الوضع مع الوقت. لقد حولتِ الأمر إلى موضوع معقد وإلى تقديم اعتذار خاص مثلما أفعل الآن. من غير المريح ومن الصعب التغلب على الكبرياء، لكن كما ترين، فإنني أطلب أن تعذريني.

– لا أستطيع أن أقضي حياتي بالتماس الأعذار لكَ لأنكَ غير مسؤول عن تلك الدوافع البدائية. أكرر ما قلته بنفسي. لقد توقفتُ عن استيعاب الأمور، إذ يقودني التفهُّم في نهاية المطاف إلى تبرير كل أفعالك.

– إنني لا أبرر لنفسي ما فعلته. أخبرتكِ أنني أعترف بأنني قد تصرفتُ بغباء. ماذا تريدين مني أن أقول أكثر من ذلك؟

- لا أعرف لماذا يساورني شعور بأن ما ينقصني هو فقط ثوب قسيس كي أصبح كاهناً في كرسي الاعتراف وأطلب منكَ أن تصلي خمس مرات باستخدام المسبحات كتكفير عن ذنبك.

- قال فيليبي وهو يجثو على ركبتيه بجانب كرسيها بوضع التائب: «سأصلي لابينيا. إذا طلبتِ مني ذلك، سأصلي».

لم تستطع تجنب الابتسامة ولا العناق ولا المصالحة التي أفضت إليها روح الدعابة وإصراره على مراضاتها. كان يعرف آلية ذلك الإرضاء وكانت هي من سمح له باستخدامها. لم تكن هناك علاجات سحرية لحاجتها لحبه التي كانت أقل بكثير في تلك الظروف التي بدا فيها الكون بأكمله معلقاً بخيوط دقيقة وكان كل يوم يعيش فيه هو يوم قد تم كسبه إزاء الاحتمال المستمر للانفصال أو الموت.

- قالت لابينيا قبل أن يخرج فيليبي من الباب: «ليكن بعلمك أن ذلك هو آخر دافع بدائي أتفهمه».

– 21 –

قالت لوكريثيا بينما كانت تلتقط الملابس المتسخة من السلة في الحمام: «إنك في ركض دائم لا تتوقفين».

كانت لابينيا ترتب نفسها بسرعة للعودة إلى العمل. كان إنجازها الوحيد مع لوكريثيا هو مناداة لوكريثيا لها الآن بلابينيا بدلاً من الطفلة لابينيا وأنها تأتمنها بالتحدث إليها بين حين وآخر عن الحب الجديد الذي جعلها تغني أثناء أدائها للأعمال المنزلية: كان حبيبها كهربائياً في سن الخمسين وقد عاد لتوه لمغامرات الشباب وعرض عليها الزواج والعيش في بيت صغير. سيقام حفل الزفاف في الشهر المقبل.

ستكون لابينيا العرابة. أخبرتها لوكريثيا «إن ذلك هو لأنكِ صديقتي». كانت لابينيا قد تأقلمت بالفعل مع هذه الصداقة، إذ كان من المستحيل بالنسبة إليها كسر نمط علاقة الخدمة التقليدية.

بالنسبة لكلتيهما، قد تتغير الأمور في المستقبل ربما في وقت آخر ومع نوع آخر من المجتمع. اعتقدت لابينيا أنها لربما تتقبلها بعد ذلك على نفس الشاكلة.

انتهت من وضع أحمر الشفاه وأوصت لوكريثيا بشراء الخبز من بقال قريب، ثم خرجت من جديد إلى العمل.

في الواقع، كانت في الأشهر الأخيرة الماضية، منذ بدء بناء منزل الجنرال بيلا، تمضي أوقاتاً في حالة من الفوضى. كان لديها الكثير من الأشياء لتفعلها لأن الأربع والعشرين ساعة اليومية لم تكن كافية بالنسبة لها. كانت القيود مطلقة لكل شيء من حولها. لم يقتصر الأمر على خوليان

والمهندسين ومجهّزي المواد والنجّارين ومصممي الديكور الداخلي الذين كانوا متحمسين للموعد النهائي الذي حدده بيلا، بل كانت الحركة أيضاً قد دخلت في نشاط ملتهب. فقد ظهرت فجأة وجوه جديدة، رجال ونساء صامتون ترتسم البسمة على شفاههم كان عليها أن تقلهم عند الفجر والمساء إلى طريق إسباديّوس.

كان سيباستيان يرسلها للبحث عن أشياء غريبة: على سبيل المثال، خمس عشرة ساعةً تعمل بشكل مثالي ومتزامن وفساتين حفلات وآنية للماء...

كان فيليبي مشغولاً بمن يعرف ما هي الأنشطة غير العادية وكان يتغيب في نهاية الأسبوع ويعود منهكاً في ليالي الأحد.

كانت تشك في حضوره لتدريبات عسكرية لأنه عاد وكانت الأتربة على شعره وتملأ أظافره وجلب في حقيبة ملابس متسخة بالوحل جعلت لوكريثيا ينتابها اليأس.

هكذا مضت الأشهر والأحداث *تتصاعد*. لوّح الصيف عن حلوله برياح تشرين الثاني وفسح المطر، منذ تشرين الأول، المجال للأيام الصافية، مما سمح لهم بالتقدّم السريع في تشييد منزل بيلا.

واصَلَ الجنرال إصراره على دعوتها إلى حفلات صغيرة، إلا أن لابينيا بينت وجوب بقاء اقتصار العلاقة على الجانب المهني. أسدى سيباستيان النصح لها بأسلوب ودي ودبلوماسي منبهاً إياها من أن ما عليها فعله هو إما أن تتقبل العلاقة مهنياً أو أن تطلب من مهندس معماري آخر أن يتولى المسؤولية. كانت لحظة عصيبة من التوتر ومن عدم الارتياح، لكن في النهاية، بدأ بيلا بالتراجع وبإبطاء وتيرة محاصرته لها. إنهما الآن عند مستوى يمكن التحكم فيه.

لقد وصلَت إلى المكتب وتحدثت بسرعة مع خوليان حول ضرورة حل بعض المشاكل لضمان توفير خشب التعشيق الخاص بالأسقف الذي كان من المقرر أن يبدأ تركيبه الأسبوع المقبل.

جلست بالفعل على مكتبها تستعرض العقود مع مجهزي الستائر والسجاد وخطرت لها من جديد المهمة التي كان عليها أن تؤديها تلك

الليلة، ألا وهي الأسلوب الذي كان عليها أن تنتهجه لإقناع أدريان بالتعاون مع الحركة.

كادت تنسى أنها في وقت ما -يبدو لها الآن بعيداً جداً- كان أدريان كثيراً ما يتحدث عن الحركة ويصفها باحترام وبإعجاب صامت. كان هو مَنْ قدم لها التوضيحات الأولى حول أهدافها في أيام محاكمة مأمور سجن لا كونكورديا عندما وصفت الحركة بالانتحار البطولي.

كان سيباستيان يتذكر ذلك.

أخبرها قائلاً: «كانت هناك عدة محاولات للتقرّب منا في الجامعة، لكن ذلك قد تم تنفيذه فقط بطريقة أولية للغاية. ثم أنهى دراسته وفقدنا التواصل معه».

في دوامة الأحداث التي دفعتها للانضمام، نسيت لابينيا ببساطة تعليقات أدريان. كانت ترى أنه من الغريب نسيانه، لا سيما الآن بعد أن استطاعت أن تتذكر المحادثات التي كان فيها أدريان يروي طرائف الجامعة بشأن «الصِبية». من المؤكد أنها كانت بعيدة عن ذلك في ذلك الوقت، حتى إنها لم تكن تستمع إليه باهتمام كافٍ.

في اليوم الذي ذكرت فيه اسم أدريان لسيباستيان، بشأن تعليق حول حمل صديقتها سارة، إذ سألها عن اللقب وعندما قالت لابينيا «ليناريس»، تمتم سيباستيان «أه، حقاً؟». في الأسبوع الماضي فقط، سألها سيباستيان عما فعله أدريان وكيف يعيش وماذا يعتقد. حاولت أن تكون عادلة في حكمها. فيما يتعلق بميوله السياسية، أشارت إلى التعليقات الإيجابية التي اعتاد أن يدلي بها حول الحركة رغم أنه من الناحية العملية كان يبدو مصراً على البقاء بعيداً عنها للحفاظ على ما هو *عليه*. لاحظت لابينيا «أنه مثل خوليان، ليس لديه أمل». قال إنه كان يتجنب الحديث سواء معه أو مع سارة عن مواضيع من شأنها إقحامهما في مجال السياسة. رغم كل شيء، كانت تلك المواضيع تشكل صلتها بالعالم الاجتماعي. كان من الصعب عليها الحفاظ على التوافق بين شخصيتها الاجتماعية ومظهر وعيها الجديد الذي سيتجلى بلا شك في التحيز أثناء المناقشات.

كان أدريان قلقاً بشأن عدم استقرارها. كانت مخاوفه مفهومةً، لقد تقبّل

لابينيا. لقد رآها تخرج من التمرد عندما غادرت منزل والدها والنوادي وما إلى ذلك ليراها تعود إلى الدائرة الاجتماعية للحفلات والالتزامات. ظل التغيير يثير اهتمامه. لم يقنعه الأمرُ.

بخصوص دهشته لأمرها، أخبرها سيباستيان أن عليها أن تطلب من أدريان، دون لف ودوران، أن يتعاون مع الحركة. قال لها «إنه على دراية بالأمور»، في إشارة إلى الجامعة.

لم تفهم بوضوح ما كان يعنيه بقوله بلا لف ودوران وكانت لابينيا تفكر بذلك وهي ترتب الأوراق على مكتبها. تخيلت دهشة أدريان عندما تطرح الموضوع عليه بما هي عليه من عدم الاستقرار وهو ما يولّد لديها شعوراً قوياً بالرضا. مع ذلك، كانت قلقة بشأن ردة فعله. كان أدريان يتسم بقوة غريبة تجعلها تشعر بعدم الأمان وبعدم كونها على ما يرام حتى مع نفسها. لم تكن قط قادرة على التعامل بلباقة مع سخريته واستهزائه. كانت تخشى أن تسمعه يسخر من الحركة التي تجند أشخاصاً مثلها أو تعليقات ساخرة على هذا المنوال من شأنها أن تلامس مخاوفها، أن تلامس الجانب الرقيق الهش لتلك الهوية التي وُلِدَت فيها والتي ما زالت تسلّم بأنها مشوشة. على الرغم من القبول الذي منحته الحركةُ لها، فإنها لم تتوقف عن الشعور بالعبء الثقيل لطبقتها تسعى لأن تتحرر منه إلى الأبد. كان الأمر بالنسبة لها يبدو ذنباً لا يغتفر، حدوداً ربما لا تتلاشى تماماً إلا بالموت.

لقد وجدت في الحفلات والتجمعات الاجتماعية التي قد حضرتها بانصياع في الأشهر الأخيرة أكثر من مجرد سبب لوجود تلك الحدود. كان مقيتاً ومثيراً للغضب ذلك السلوك التحكمي القائم على الرعاية لمجتمع الأثرياء والمتنفذين غير المبالين بالظلم اليومي الذي يحيط بهم بينما كانوا يعيشون امتيازاتهم غير مكترثين. كانت في كثير من الأحيان تشعر بأنها تكرههم وربما حتى أكثر من كره رفاقها لهم، خصوصاً أنها تعرفهم عن كثب ولأنها قد خمنت دوافعهم كما لو كانت مكتوبة بوضوح. لم يخفَ عليها شيء، حتى عند أولئك الذين كانوا يدّعون الصدق والاهتمام بالظروف التي أحاطت بهم، إذ كان بإمكانها قراءة لهجة الشفقة والازدراء لأولئك الذين لا ينتمون إلى دوائر تلك الأبهة.

الفظيعُ هو عدم قدرتها على فصل نفسها تماماً عن ذلك، عن السنوات التي كانت فيها الأمور تسير بالنسبة لها بشكل طبيعي على هذا النحو أيضاً، حيث اضطرت إلى تحمل عبء الهوية الملوثة. كانت تخشى أن ترى تجلي موروث أسلافها المشهورين برعبه وأن تواجه نفس المواقف البغيضة.

انشغلت طوال اليوم بعملها وهي منغمسة في هذه الأفكار التي حتمت عليها الاكتئاب، ثم توجهت في المساء إلى منزل أدريان وسارة. لقد جابت الشوارع محاولةً منها لرفع معنوياتها الخائرة الهمة. استذكرت، في مؤاساة منها لنفسها، قصة رجال ونساء من أوساط متميزة تمكنوا من تحقيق قفزة ناجحة وحازمة في البُعد المستقبلي. كانت تظن أن قلقها من تقبّل ذلك يعزى لطفولتها وأنه لا علاقة له بالحركة. ربما كانت الحركة تمثل الآن الأم والأب اللذين تحاول دائماً كسب محبتهما واللذين كان قبولهما ضرورياً جداً بالنسبة لها ربما لغيابهما بشكل مؤلم. لولا العمة إينيس، كان سيتم رفض أي قبول أو ربما كانت رغبة العمة إينيس، من باب المفارقة، بالتكفّل بها كابنة من شأنها أن تولد شرخاً واستياءً هادئاً لوالديها. من كان سيدري؟ لم يكن هناك شيء يمكن فعله سوى محاربة الأشباح الماضية واللاواعية! حياتها الآن هي ملكها تتحكم بها. من غير المجدي العثور على الجناة في محكمة المساء التي كانت تتحول إلى ظلال.

لقد بدأوا بفتح أضواء الإنارة العامة في شارع سارة وأدريان. أوقفت السيارة على منحدر المرأب، خلف سيارة أدريان، ثم سارت ببطء إلى الباب وهي لا تزال غير متأكدة من كيفية طرح الموضوع. عندما قرعت جرس الباب، رنّ داخل المنزل. لقد أذهلت عندما أدركت أنها لم تنتبه لوجود سارة.

وجدتهما يتناولان عشاءهما. منذ حملها، كانت ترتسم على وجه سارة تعابير السعادة كأنها وجدت في الجنين الذي ينمو بداخلها مصدراً إعجازياً للسلام والسكينة. كان حجم جسدها آخذ بالزيادة متخذاً شكل انحناءات ناعمة. لم تستطع لابينيا تفادي الشعور بدفء عميق في بطنها في كل مرة كانت تراها فيها وبرغبة شبه غريزية بالحمل وبموجة من الحنان.

- قالت وهي تربت على بطن سارة وتقبل خدها: «كيف حال هذه البطن؟»

- قالت سارة وهي تظهر بطنها بفخر وتشد فستانها بإحكام فوق المنطقة المرتفعة: «إنها تكبر... كما ترينها».

في الواقع، كانت بطنها قد كبرت بشكل ملحوظ. كان حملها في الشهر الخامس بائناً.

سلمت لابينيا على أدريان وجلست إلى المائدة.

أكل الثلاثة بين لحظات صمت قد قطعتها تعليقاتٌ حول اقتراب شهر كانون الأول وعيد الميلاد وحالة سارة. كان حديثاً عادياً بين الأصدقاء. كانت لابينيا تواجه صعوبة في التركيز ومنشغلة بايجاد طريقة للانفراد بأدريان.

- قالت وقد ساورها إلهام مفاجئ «أدريان أحتاج بعد العشاء أن استشيرك حول المشروع الذي أعمل عليه».

- قال أدريان بابتسامة ساخرة: «منزل الجنرال؟»

- نعم منزل الجنرال.

- بكل سرور.

- هل لديك أوراق تصميم هنا؟ (إذا تمكنت من إدخال أدريان إلى مكتب الرسم، ستكون قد حلت المشكلة).

- نعم بالطبع. في مكتب الرسم.

- سارة، أتمانعين لو عملنا في غرفة الرسم لبعض الوقت؟

- كلا، لا أمانع، لا تشغلا نفسيكما. سأذهب إلى الفراش إن لم يكن لديكما مانع. أشعر بالنعاس. مع ما أحمله بداخلي، أشعر دوماً بالنعاس... - قالت سارة ذلك وهي تقمع تثاؤبها.

- قال أدريان بمودة: «لقد أصبح الطفل مرموطاً. ما يجب أن يفعله الطفل هو أن يجد كهفاً في سبات مثل الدب كي يولد».

ضحكوا جميعاً بمرح. شعرت لابينيا بالارتياح لأنها وجدت بسهولة حلاً للمكان وعادت إلى قلقها بشأن الكيفية.

بعد لحظات انتهوا من العشاء. أخبرت سارة الخادمة أن تقدم قهوة لابينيا وأدريان في مكتب الرسم وودعتهما بقبلة.

كان سيباستيان قد قال لها «بلا لف ولا دوران». كانت كلماته تتكرر مراراً وتكراراً في ذهنها.

دخلا مكتب الرسم. كانت غرفة صغيرة ومريحة قد رتبتها سارة بكل حب بالطبع. احتلت دبلومات وشهادات أدريان الهندسية أحد الجدران. في الجزء الآخر، كانت هناك نسخ من المخططات القديمة التي استخدمها الإسبان أثناء الاستعمار لبناء مدنهم. خلف طاولة رسم أدريان، كان ثمة رف به كتب وصور لحفل الزفاف وفي وسط الغرفة أريكتان مريحتان وطاولة صغيرة حيث وضعت الخادمة صينية القهوة قبل خروجها من الباب.

قام أدريان بتشغيل مكيف الهواء بينما قدمت لابينيا القهوة بشكل متواضع في أكواب البورسلين.

- قالت لابينيا مازحة: «تتمتع بترتيب جيد مع هذا الزواج».

- قال أدريان: «نعم. أليس كذلك؟ لا يوجد شيء أفضل من أن يكون المرء سيد منزله وأن تكون لديه زوجة صالحة...»

- ها قد بدأت بحكاياتك...

- قال أدريان مبتسماً: «حسناً، إنك تعلمين أن الحوار بيننا يشبه المحادثة الإجبارية. على أي حال، بما أننا نتوجّه دوماً إلى صلب الموضوع، فلا حرج في طرحه في البداية».

- قالت لابينيا: «لا أعتقد أننا سنتحدث عن ذلك هذه المرة».

- نعم، أعلم ذلك. أعلم أننا سنتحدث عن منزل الجنرال بيلا... أعدك ألا أكون ساخراً على الرغم من أنك تعرفين بالفعل ما أفكر به بشأن هذا الأمر.

- إنني أفكر في نفس ما تفكر فيه. كان رد فعلي الأول هو رفض تصميم المنزل.

- إذن، لماذا فعلت ذلك؟

- قالت لابينيا وهي تلقي بغطاء من الغموض على الأمر ظناً منها أن طرح الموضوع سيكون أسهل مما تخيلتْه وهي تستمتع بما تفعل: «لأن هناك من يرون أن ما أفعله هو أمر مهم».

- بالطبع. من المؤكد أن خوليان يعتبر الأمر في غاية الأهمية!

- لا أقصد خوليان. إنني أقصد حركة التحرير الوطني.
- قال أدريان وقد تفاجأ تماماً: «وما علاقتكِ بالحركة؟»
- تحدثت لابينيا بجدية: «إنني أعمل معهم منذ شهور».
- قال أدريان: «أه! أيتها الفتاة... كنت أعرف بالفعل أنكِ ستتورطين!»
- ردّت عليه بشيء من السخرية: «أدريان، إنهم ليسوا بورطة. لقد قلتَ إنهم كانوا الأناس الجادين الوحيدين، المخلصين الوحيدين...».
- وما زلت أفكر كذلك، لكنكِ لم تُخْلَقي لهذا النوع من الأمور. إنكِ رومانسية جداً وعلى سليقتك لا تقيسين حجم الخطر. إنني متأكد من أن الأمر يبدو بالنسبة لكِ مغامرة رائعة...
- «ربما كان الأمر كذلك في البداية، لكنه الآن مختلف. لا يمكنكَ إنكار أن الحياة تُعَلِّمُنا».
- لا، لا أنكر ذلك. إنك امرأة حساسة، لكنك... لا أعرف.
- حسناً، دعنا من مسألة القلق عليّ الآن. طلب مني زملائي أن أطلب تعاونكَ. يقولون إن هنالك تقارباً بينك وبينهم في الجامعة وعلى الرغم من أنه لم يكن ممكناً تحديد أي موقف حينها، فهم الآن يودون أن يعرفوا ما إذا كنت لا تزال على استعداد لأن تقدم شيئاً.

أرجع أدريان رأسه للخلف متكئاً على الكرسي والتزم الصمت. أخرجت لابينيا سيجارة وأشعلتها وأخرجت دخاناً كثيفاً دون أن تنظر إليه مما أتاح له الوقت للتفكير.

- قال أخيراً وهو ينحني ليرتشف القهوة وينظر إليها: «أقالوا لك ذلك عن الجامعة؟».
- أجابته: «نعم».
- قال وهو يتكئ ويسند رأسه إلى الكرسي: «كانت تلك مجرد نشاطات سطحية، مجرد تقارب. في ذلك الوقت تعاونا جميعاً في طباعة بطاقات الاقتراع السرية وتوزيعها... وبعد تخرجنا من الجامعة، كان على المرء أن يفكر كيف سيأكل... في كسب المال في الاستقرار الجيد والزواج... على المرء أن يترك الأحلام وراءه وأن يصبح أكثر واقعية...»، ثم نظر إليها بثبات.

- قالت بهدوء: «لكن يجب أن نؤمن بالأحلام يا أدريان. لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بأن يتغلب علينا رعب الواقع. هل تريد أن يكبر طفلكَ ويعيش في هذه البيئة؟ ألا تريد التغيير له؟ هل تريده أن يكون مثلنا ويشكو أيضاً لوالديه عدم فعلهم لأي شيء لتغيير هذا الوضع؟»

- ما لا أريده يا لابينيا هو أن يصبح ابني يتيماً. أريد أن أكون بجانب سارة لتربيته ولإعطائه كل ما يحتاجه...

- كلنا نحب ذلك، أدريان. هل تعتقد أنني لا أرغب في إنجاب طفل أيضاً؟

- لكن ليس لديكِ طفل.

- لكنني أرغب في أن يكون لدي طفل يوماً ما في ظروف أخرى.

- أهنئكِ على تخطيطك. الواقع هو أن سارة حامل.

- لكن ذلك لا يمكن أن يشكل عائقاً يا أدريان، بل على العكس من ذلك ولأسباب أكثر، يتحتم عليك أن تمد يد العون...

نهض أدريان وسار إلى طاولة الرسم وبدأ بتوتر في إعادة ترتيب أقلام الرصاص والممحاة والمساطر.

- قال: «وماذا تريدين مني أن أفعل؟»

- أجابت لابينيا: «المسألة ليست بكبيرة، يحتاجون منك فقط أن تقرضهم سيارتك لعدة ليالٍ في الأسبوع في الشهر المقبل».

- قال أدريان بعصبية وهو يقترب منها: «أتعلمين ما الذي يعنيه ذلك؟: إذا قبضوا على شخص ما بسيارتي، فهذه هي نهايتي. سأذهب إلى السجن على الفور».

- طلبوا مني أن أخبرك أن الأشخاص القانونيين فقط هم من سيقودون سيارتك، وليس الأشخاص المحترقة والمعروفة أسماؤهم وأرادوا أيضاً معرفة ما إذا كان بإمكانهم أن يخفوا بعض الأسلحة في منزلك...

- قال أدريان: «بالنسبة لهذا الأمر بالطبع كلا. يمكنني أن أفترض أي شيء يتعلق بي، لكن مسألة الاحتفاظ بالأسلحة هنا في المنزل تعني إشراك سارة وهذا أمر مرفوض تماماً. لا أريد حتى التفكير فيما يمكن أن يحدث... أتَعِين ذلك؟» ثم أضاف معظِّماً الأمر: «هذه هي المشكلة مع حضراتكم.

بعد أن تبدأي بالتعاون وقبل أن تتمكني من الندم، فإنهم يُلزِمونكِ بأمور أكثر حساسية وخطورة».

- قالت لابينيا وهي تشكره على «حضراتكم» بينها وبين نفسها: «حسناً، حسناً، إهدأ. نظراً لنظافتهم، فكّرنا أن المنزل قد يكون مكاناً جيداً للاختباء... ولأكون صادقة معكَ، أنا من فكّرتُ بذلك».

- هذه هي مشكلتك. إنك لا تفكرين بما فيه الكفاية. إنك لا تدركين مَنْ يوجهون. لم تشعري قط بالقمع حتى بالقرب منك. تعتقدين أن الأمر هو مثل الفيلم. أما عني، فلقد رأيت في الجامعة كيف أخذوا زملاء الدراسة بسبب أمور أبسط من ذلك بكثير ولم نرَ أولئك الزملاء قط بعد ذلك. لقد اختفوا! كأنهم لم يكونوا موجودين من الأصل!

- قالت لابينيا محاوِلة أن تتفادى الغضب وأن لا تدخل في نقاش شخصي وأن تحاول ألا تدع كلماته تؤثر عليها أو تؤذيها: «لا تعكر مزاجك. إنسَ موضوع الأسلحة. فقط أخبرني إن كنتَ تستطيع إعارة السيارة».

- كيف سيكون أمر أن من سيقودها هم القانونيون فقط؟

- *ذلك* يعني أن سيارتك لن تستخدم في أشياء خطيرة. سيستقلونها لنقل الناس وخطر ذلك قليل. علينا فقط الحصول على نسخة من مفتاحك. سأعطيها لشخص ما ثلاث مرات في الأسبوع. ستتركها مركونة في مكان معين وسيقوم أحد الأشخاص بأخذها من هناك وسيتركها هنا في منزلك لاحقاً.

- وكيف أشرح الأمر لسارة؟

- قالت لابينيا بارتياح: «إذا أردت، سأقوم بتوضيح الأمر لها». من سير الحديث، ظنت أن أدريان سيرفض.

- كلا، لن نقول لها أي شيء. أُفَضِّلُ أن لا تعرف شيئاً. ذلك أكثر أماناً بالنسبة لها.

- من الناحية الشخصية، أعتقد أنه سيكون من الأفضل إخبارها بالأمر، لكن عليكَ أن تقرر ذلك.

- لن أخبرها بشيء. لن أخبرها بأي شيء على الإطلاق. ليس من الملائم مع وضعها كحامل أن أجعلها تتوتر. سأبحث عن عذر حول السيارة.

هذه المرة جاء دور لابينيا بالاتكاء على الأريكة. أشعلت سيجارة أخرى بصمت ونظرت الى ساعتها. كانت الساعة التاسعة ليلاً.

– قالت لابينيا: «سأذهب، لقد تأخرنا قليلاً. لابد أن سارة قلقة، إذا إنها لم تَنَم... أشكرك نيابة عن الحركة».

– لا تكوني رسمية جداً...

– إنها ليست رسميّات. لا يمكنك في هذه الأيام أن تتخيل مدى صعوبة الحصول على سيارات ومتعاونين...

نهضت وهي متعبة للغاية ومنهكة من جهد التفكير في الصراع الداخلي لأدريان وبالشعور بضعفه وبتفهم حالته في نفس الوقت.

– قال أدريان وهو يرافقها إلى الباب ويضع يده على كتفها: «أراك ولا يزال من المذهل بالنسبة لي أن أتصور أنكِ متورطة في مثل هذه الأمور. أرجوك أن تعتني بنفسك. ذلك خطير جداً».

– قالت لابينيا: «أعلمُ ذلك، لا تقلق، فأنا أدركُ ذلك».

– قال «الجنرال الكبير غاضب ممّا يحدث في الجبال. إن الكفاح من أجل احتكار الأعمال التجارية في المدينة يكلفه عداء الشركات الخاصة. لا أعتقد أنه يستطيع قياس تكلفة نبضاته بشكل صحيح. لكن يجب أن يكون لديه بعض الحدس. هل لاحظتِ زيادة المراقبة؟»

– نعم، نعم. بالتأكيد لاحظتُ ذلك، لكن لدي تغطية جيدة من الموارد. على الأقل أن الجنرال بيلا لا يشك بي.

– لا تكوني واثقة جداً. على أي حال، إذا شك بك، لا تهتمي. إنه خبير في مكافحة المتمردين.

ودعت أدريان. كان الليل مظلماً بلا ضوء قمر ولم تكن النجوم المرئية كافية لإلقاء الضوء على الظلال. انطفأت أضواء النيون واحتفظ الشارع المظلم بهواء كثيف. كانت السيارات غريبة ومهجورة تشبه الحيوانات ما قبل الطوفان. انتابها الخوف. مضى وقت طويل منذ أن عانت من الرعب الحاد في الأيام الأولى، لكن يبدو أن المحادثة مع أدريان قد أحيت فيها المخاوف القديمة. في الأشهر الأخيرة، عند الاستماع إلى سيباستيان

وفيليبي بشأن تقارير عن قمع الفلاحين، كان الشعور السائد هو الغضب، الشجاعة التي دفعتها في مهامها اليومية. من منظور الحصار الذي عانى منه الرفاق في الجبل، بدت المخاطر التي يتعرضون إليها في المدينة بسيطة وليست بذات أهمية. بالإضافة إلى ذلك، تقلص في تلك الأيام النشاط السياسي في العاصمة. بدا أن الحركة قد انكمشت. شيئاً فشيئاً، تراكم لدى لابينيا اليقين بشأن الاستعداد لانقلاب كبير. يمكن لهذا الأمر وحده أن يفسر النشاط السري وغير المقيد الذي كانت تشهده: نشاط غير محسوس لأولئك الذين قضوا حياتهم خارج عالم التواري عن الأنظار والكتمان.

على الرغم من تهرب سيباستيان من أسئلتها حول هذا الموضوع، فإنه كان يستفسر منها باستمرار ويطلب رأيها حول رد الفعل المحتمل للجيش والسلطة في مواجهة أي نشاط جريء من قبل الحركة. من قصاصات التعليقات والتلميحات التي جمعتها في ذهنها، كانت تشتبه بحدوث اختطاف، لكن فيليبي كان ينفي هذا الاحتمال مراراً وتكراراً. كان يقول: «بعملية الاختطاف، يتركز النشاط على الأفراد، أما ما نريده فهو تعميم القتال».

مهما كان العمل الجريء، فإنه سيطلق وبلا شك موجة خانقة من القمع. لا بد أن يكون الخمول ذاته وصمت الحركة في الأشهر الأخيرة قد أثار قلق الجيش حتى عندما كان من الممكن الاعتقاد بأن تحركها الرئيسي كان يتركز في الجبال حيث كان يشتد القتال. كان سيباستيان يقول: «يبذل الرفاق جهداً بطولياً. إنهم يبقون الجيش مشغولاً، تقريباً بدون أسلحة ولا ذخيرة، من أجل تضحية كبرى».

لكن تصريح أدريان كان صحيحاً: لقد زادت المراقبة. كانت سيارات الجيب الخضراء الزيتونية تحمل جنوداً يرتدون خوذة ومدافع رشاشة تجوب المدينة عدة مرات في النهار وأثناء الليل. كانت من طراز فلاتFLAT الشهير. كان السكان، من جانبهم، يبدون أنهم ينتظرون وهم يخزنون الطاقة للانطلاق مجدداً وبتحدٍ في الشوارع لحرق الإطارات وقلب الحافلات.

اكتسب توتر البيئة قوة ملموسة تقريباً عندما كانت تقود السيارة في الشوارع الصامتة والمظلمة وهي غارقة في التفكير.

عادة ما تكون مشغولة بالأعمال اليومية ولم تكن تدري بالأجواء المشحونة من حولها. لم تكن تشعر بالخوف ولم تكن تشعر بما تشعر به الآن من برودة في ظهرها بينما كانت تجمع أجزاء المعلومات المخزونة في داخلها وتوحد أجزاء اللغز وتستخلص النتائج.

كان الخطر قائماً على الرغم من آليات الدفاع التي حالت دون شعورها بالوضوح المتجلي لما هو آت وقد سمحت لها بأن تعيش أيامها كاليعسوب الحريص، دون مجال للخوف.

لم يستطع الخوف أن يشلّها على الرغم من أنها اعتقدت أنها لا تزال تمتلك أفكاراً لا واعية تعود لزمن الطفولة بأن مخلوقة مثلها هي مخلوقة تتمتع بحماية خاصة في العالم ولا علاقة للسجن أو الموت بها وحدثت نفسها مجدداً بتمتعها بامتيازات.

كما قالت فلور ذات مرة، إن درجة معينة من الذعر لن تؤذي. «درجة معينة من الذعر هي صحية.»

قامت بالزفير محاولةً الاسترخاء. كانت سعيدة بنتيجة لقائها مع أدريان. عندما ودّعا بعضهما بعضاً، عانقها بعطف واهتمام. لم يكن شخصاً سيئاً. ربما بوسعهما الآن أن يكونا بالفعل صديقين.

وجدت فيليبي في غرفتها وكانت حقيبته موضوعة على السرير. حزم الملابس والكتب.

– سألته وهي تضع حقيبتها على الكرسي وتشعر بجفلة الهاجس الذي خالجها: «إلى أين أنت ذاهب؟»

– قال فيليبي وهو يلاحظ شحوبها المفاجئ: «لا تخافي. لن أذهب إلى أي مكان».

– لكن... ماذا عن تلك الحقيبة؟ ماذا يعني ذلك؟

– حسناً، بطريقة ما، سأرحل جزئياً.

– قالت لابينيا بعصبية وهي تبحث عن سيجارة: «لا تستمر بألغازك».

– قال فيليبي: «أصبحتِ تدخنين كثيراً في الفترة الأخيرة وذلك مضر بصحتك».

- قالت وهي تقترب لترى ما بداخل الحقيبة: «دعني أقلق على صحتي بنفسي، أليس كذلك؟ إشرح لي ما تقصده بالمغادرة الجزئية».

- ما أعنيه هو أن نعتبر أنه من غير الملائم أن أعيش عملياً في منزلك وذلك لسلامتك ولسلامتي. من الأفضل أن نبتعد عن بعض قليلاً من الناحية الظاهرية. كان يُفترض بنا أن نقوم بذلك منذ وقت طويل رغم أن اسمي غير محترق ولا نظيف. ازدادت المراقبة في الآونة الأخيرة. لقد اعتمدنا على تغطيتك. عادةً ما لا يتم البحث وراء الأشخاص مثلك كثيراً، لكن لا يمكننا المجازفة في هذه المرحلة. الحقيقة هي أننا كنا نتحرك بتهور بعض الشيء وذلك غير صحيح. علينا زيادة التدابير الأمنية، فمن الممكن أن يذهب كل ما فعلناه سدىً.

- ولماذا الآن، ما الذي سيذهب سدىً؟

- رجاءً لابينيا، ألا تدركي أننا ندبر لأمر ما...

- نعم بالطبع لقد لاحظت ذلك، لكن... ما هو هذا الأمر فيليبي؟ أخبرني ما هو. أعتقد أن من حقي أن أعرف.

- إنها ليست مسألة حق. إنها قضية أمنية. كان لا بد لكِ أن تدركي أن شيئاً ما سيحدث. لكن كلما قل علمك بالأمر، كان ذلك أفضل لكِ، أفضل لكِ وأفضل للجميع. لا ينبغي لأي منا أن يعرف أكثر مما يحتمه عليه ارتباطه بالعمل الذي يؤديه.

- قالت لابينيا بعناد وإصرار: «الأمر متعلق ببيلا، أليس كذلك؟ هل ستخطفون بيلا؟»

- قال فيليبي: «كلا، ليس للأمر علاقة ببيلا، أقسم بذلك. كان بيلا مشروعاً مبكراً، لكننا قد استبعدناه بالفعل».

- «إذن، لماذا يستمر سيباستيان في الإصرار على أن المنزل يجب أن يكون جاهزاً في كانون الأول؟»

- قال فيليبي: «لتضليلك ولا ينبغي أن أقول لك ذلك. أفعل ذلك لأنني أحبك، بسبب العلاقة التي تربطنا، لكن لا ينبغي أن أفعل ذلك. لا تفكري حتى في مناقشة الأمر مع سيباستيان. عليك مواصلة العمل واتباع

إرشاداتهم. ما قلته هو بيني وبينك كي تطمئني. أكرر لك، لم يكن يجب أن أخبرك بأي شيء، لكنني لا أريدكِ أن تستمري في القلق بلا جدوى».

جلست لابينيا على الكرسي وأطفأت سيجارتها بنعل حذائها.

– قالت لابينيا بعد أن استسلمت للواقع وهزمتها الثقة التي منحها فيليبي لها: «إذن، لن أراك بعد الآن».

– نعم، نعم، سترينني. سترينني في المكتب وسأتمكن من المجيء إلى هنا من وقت لآخر. يمكننا أيضاً رؤية بعضنا بعضاً في مكان آخر ونتخذ الإجراءات الأمنية المناسبة. لكن لا يمكنني مواصلة القيام بما أقوم به وأعود دائماً إلى هذا المنزل. إذا اكتشفوني وتبعوني إلى هذا المكان، سيكون الأمر كارثياً.

– لكن ألا تعتقد أنهم يعرفون بالفعل عن علاقتك بي؟

– قد يكون الأمر كذلك، لكن حتى الآن، لم يتمكنوا من اكتشاف الكثير من خلالي. في المستقبل، سوف يتغير ذلك وهو يتغير بالفعل. لهذا السبب لا يمكننا الاستمرار وكأن شيئًا لم يحدث.

– قالت لابينيا بصوت فاقد للهمة وهي تشعر بالتعب أكثر فأكثر وترغب بالنوم وعدم الاستيقاظ: «وهل ستذهب الآن؟»

– نعم. سيأتون لاصطحابي بعد نصف ساعة.

– هل أنت متأكد من أنك لا تخدعني فيليبي، ألن يكون الأمر هو أن تتوارى عن أنظار الناس كما فعلت فلور؟

– «كلا، لابينيا. صدقيني، الأمر هو ما قلته لك. إذا كنت سأتوارى عن الأنظار، سأخبرك بذلك».

اقترب من الأريكة وأخذها من يدها حتى وقفا وتمكن من معانقتها. أغلقت لابينيا عينيها واستسلمت لعناقه في الوقت الذي كانت فيه منهكة. تنفست رائحة صدر فيليبي من قميصه وأخذت بالبكاء بصمت.

– قالت له: «إنني خائفة».

– تمتم فيليبي وهو يضمها بقوة: «لا أريد أن أراك بهذا الحال. سيسير كل شيء على ما يرام. سترين».

– لا أريد أن أبقى وحيدة.

– لن تبقي وحيدة يا لابينيا. سنرى بعضنا بعضاً.

– لن يكون الأمر مثلما نحن عليه الآن...

– قال فيليبي وهو يمسّد على شعرها لمؤاساتها: «سيكون ذلك لبعض الوقت».

– كررت قولها: «أخشى ذلك» وضمّت فيليبي بقوة وهي تستمع إلى دقات قلبه واجتاحتها فجأة رغبة غير عقلانية في الإمساك به وعدم تركه خشيةً من توقف هذا القلب. لامست جلد فيليبي وعضلات ذراعه وهي تفكر في أن رصاصة واحدة كفيلة بأن تجعل من هذا الجسد هامداً وأصماً وأبكماً لا يستجيب لمداعباتها. أغمضت عينيها بإحكام في محاولة للشعور برؤية فيليبي معها مرة أخرى في منزلها، ذات يوم ليس ببعيد: لمحاولة رؤية نفسها معه وهما يقرآن جنباً إلى جنب في الليل الهادئ، لكن دون جدوى: لم تتمكن من رؤية ذلك. منذ أن كانت طفلة، كانت تتخيل أن لديها القدرة على رؤية نفسها في المستقبل. عندما كان يحدث لها شيء غير مؤكد، كانت تغلق عينيها وتركز لترى ما إذا كان بإمكانها رؤية ما وراء الحاضر. أن ترى نفسها، على سبيل المثال، في الطائرة عند الهبوط (كانت تخاف الطيران). لو كانت قد تمكنت من رؤية شيء، لاطمأنت. كانت تلك طريقتها في معرفة أن كل شيء سيكون على ما يرام وأنها ستصل إلى بر الأمان. كان ذلك يسير معها على ما يرام. كانت قد رأت ذلك عدة مرات، لكنها الآن لا ترى أي شيء.

– قالت له وهي تبكي بشدة وتحاول السيطرة على البكاء الذي يبدو أنه كان يأتي من وراء صدرها ومن وراء نفسها، كان يأتي من كرب أكبر من المساحة الصغيرة لصدرها: «إنني لا أراك».

– قال فيليبي بهدوء: «كيف لا يمكنك رؤيتي، ها أنا ذا».

– قالت لابينيا: «إنك لا تفهمني. إنني لا أراك في المستقبل. لا أرى أننا معاً...»

– قال فيليبي وقد أبعدها قليلاً ونظر إليها بابتسامة رقيقة: «لا أحد بوسعه أن يرى المستقبل».

– غطت لابينيا عينيها وأجهشت بالبكاء بشدة.

– قال فيليبي: «تعالي، تعالي، لا تكوني مأساوية. عليكِ أن تكوني قويةً ومتفائلة. لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بأن ننجرف مع الحزن والتشاؤم. علينا أن نثق بأن كل شيء سينجح. ليس من الجيد أن نطلق العنان للخوف. علينا أن نكون واثقين».

نعم، كان عليها أن تتحلى بالثقة. لم تستطع أن تترك فيليبي يذهب وهو متضايق من الحزن الذي انتابها. يجب أن تكون قوية. تنفست بعمق. لم تستطع أن تجعله يصدق المصادر الطفولية والسحرية والخيالية. كانت تتمزق إرباً إزاء الهواجس الرهيبة. كان خوفها يكمن في ذلك، لا أكثر.

– قالت: «إنك على حق، إنك على حق. سأذهب لأهدأ».

أخذَتْ نفساً عميقاً وكررت ذلك عدة مرات. كل شيء سيكون على ما يرام. لن يتوارى فيليبي عن الأنظار. ستراه غداً في المكتب. هدأت شيئاً فشيئاً.

ذهبت إلى الحمام للحصول على مناديل ورقية لتمسح أنفها ولتنشف دموعها. ذهب فيليبي ليحضر لها قدحاً من الماء.

– سألها عندما كانت جالسة على السرير وفي يدها قدح الماء وقد كَفَّت عن البكاء: «كيف سارت الأمور مع أدريان؟»

– أجابته: «أعتقد أن الأمور على ما يرام: كان من الصعب علي إقناعه، لكنه قد وافق في النهاية على إعارة السيارة. سألته إن كان بإمكاننا الاحتفاظ بالأسلحة في منزله، لكنه قال إن ذلك أمر مستحيل».

– قال فيليبي: «تخيلت ذلك، لكن هذا الأمر ليس بالقليل».

– «قال إنه لا يستطيع ذلك لأن سارة حامل وإن ذلك يعرضها للخطر».

– قال فيليبي: «هذا أمر طبيعي. إنني لا ألومه».

غادر بعد فترة قصيرة. أطبق الصمت الوخيم الذي لم يكن يفارقها على جميع أرجاء المنزل. لم تطفئ الأنوار. تركتها مُشعَلة كما لو كانت ستمنع الأفكار المظلمة بهذه الطريقة وسمحت بعودة الدموع التي كانت تخرج عنوة بمجرد أن خرج فيليبي من الباب.

- 22 -

يقوم الوقت، ذلك الإله اللعوب الذي بحث فيه المنجمون وهم يقيسون حركة النجوم، بفك ألغازه ويقوم القدرُ بنسجِ شباكه. إنها في قمة خضرة الحياة، تهتم بأمور الأرض. كانت «هويهتلاتوألي[1]» التي تُنشَد تقول:

اعتنِ بما هو من تراب

افعل شيئاً: اقطع الخشب، احرث التربة، ازرع الأشجار، احصد الثمار.

سيكون لديك ما تأكله وما تشربه وما ترتديه.

بذلك ستقف على قدميك.

ستكون صادقاً.

سيتحدث عنك الناس.

سيثنون عليك.

وبذلك ستُعرَف.

في هذا العالم الجديد، تتيح الأمور البسيطة المجال للعلاقات المعقدة.

إنها لم تتسبب بمعارك رماح. لكنها قد حاربت بقلبها حتى أُنهِكَت ورأت منظرها الداخلي يهتز بمئات البراكين وحتى رأت أنهاراً وبحيرات جديدة ومدناً مرسومة بلون باهت. إنني أسكن جسدها بصمت. أراها تدير البنى والأسس الصلبة لجوهرها الخاص. إنها الآن تقف على قدميها وتتقدم هنالك في المكان الذي سيجد الدم الهدوء فيه.

***

1- أقوال العظماء.

- قال لها سيباستيان عبر الهاتف في اليوم التالي: «لدي مفاجأة لكِ».

في مكتب لابينيا في منتصف الصباح، أشرقت الشمس مخترقة السماء لتضيء الجبال التي كانت تبدو بعيدة من النافذة. كانت تشعر بتحسن.

تغلبت في الليلة السابقة على دموعها التي كانت تذرفها في جو من الإرهاق الكبير الذي أغرقها في نوم عميق. لقد نامت فاقدةً للوعي في وقت متأخر. وصلت إلى المكتب حوالي الساعة العاشرة صباحاً.

- سألها سيباستيان: «هل أنتِ على ما يرام أم أنكِ لستِ بخير؟»

- ثم قال: «بالطبع إنكِ بخيرٍ وإنكِ على ما يرام. لكنني لا أريد أن أعطيك المفاجأة عبر الهاتف. أنتظرك حيث خالتي (تم الاتفاق على عنوان الخالة من قبل، تماماً مثل رموز الهاتف البسيطة «أبناء الخالة» أو «تاجر الأخشاب»). مُرّي لتصطحبيني في الساعة الخامسة مساءً (الخامسة هي السادسة بشفراتهم)».

- حسناً. أراك لاحقاً.

لم تستطع تخيل مفاجأة سيباستيان الجيدة التي أحضرها لها. سألت نفسها هل هو شيء يتعلق بفيليبي؟ لا تعتقد ذلك. كان قرار انتقال فيليبي قراراً صائباً. إذا كان عليه القيام بمهام حساسة، فمن الأفضل لهما أن يبتعدا بعضهما عن بعض.

تذكرت الليلة السابقة وردة فعلها اليائسة. لا يزال تَذَكُّر خوفها يؤلمها من الداخل. لقد تأججت بالتأكيد نتيجة محادثتها مع أدريان وما جال بذهنها لاحقاً في السيارة وإرهاقها. كانت تخجل من التصرف بطريقة ميلودرامية، لكنها كانت حزينة. من الصعب عليها التعود على غياب فيليبي. لقد رأته عندما وصلت إلى المكتب. كان رقيقاً ولطيفاً حينما سألها عمّا إذا كانت قد نامت. كان قلقاً عليها. طمأنته متظاهرة بالتفهّم والصمود اللذين كانت تتمنى أن تتحلى بهما واعتذرت عن أول رد فعل لها مشيرة إلى التعب والتوتر مع أدريان وتفاجؤها حينما وجدته يحزم حقائبه.

كالعادة، وصلت لابينيا مبكراً إلى الموعد. كانت «الخالة» ركناً قليلاً ما يتم التردد عليه في الشارع الموازي لجدار المقبرة المركزية. كانت هناك

شجرة لوز كبيرة اعتاد سيباستيان أن يتكئ عليها أثناء انتظاره وكان يقضم اللوز الناضج الذي يلتقطه من الأرض.

مرّت في المرة الأولى قبل ثلاث دقائق من الوقت المحدد. أعلنت مذيعة راديو مينوتو بالنبرة الرتيبة المعتادة: «إنها الساعة الخامسة مساءً وسبع وخمسون دقيقة». كانت هنالك امرأة تمشي على الرصيف عندما استدارت لتنعطف إلى الركن ولتقوم بالاستدارة التي تعيدها إلى شجرة اللوز في تمام الساعة السادسة مساءً.

اعتقدت وهي تبتعد أن شيئاً ما قد سجّله عقلُها عند المرور. استعرضت في مخيلتها صورة المكان بحثاً عن ذلك السجل غير المحسوس تقريباً. ما إن استدارت إلى الشارع في الوقت المحدد، حتى رأت المرأة متكئة على الشجرة تقضم اللوز مثلما يفعل سيباستيان وأدركت أن هذه الهيئة مألوفة لها قبل دقائق من رؤيتها وهي تسير نحو المكان.

كانت فلور.

رأتها لابينيا وهي تبتسم وصعدت فلور إلى السيارة. شعرت بيدها ممدودة تحمل لوزة وردية صغيرة ناضجة.

قالت فلور: «لقد أحضرت لك هدية صغيرة»، بينما كانت لابينيا لا تزال متشككة وسرعان ما تساقطت الدموع من عينيها وهي تأخذ الفاكهة الصغيرة من يديها. شعرت لابينيا بغمرة من الرغبة الشديدة بالبكاء.

لقد تعانقتا، إذ لم تستطع لابينيا كبح جماح بكائها المتقطع. أبعدتها فلور برفق كي لا تثير الانتباه.

– قالت فلور: «لا تبكي يا فتاة. لا يمكننا التوقف هنا. هيا انطلقي بالسيارة. أريدك أن تأخذيني إلى طريق إسباديّوس. خذي قضمة من اللوزة وسترين كيف سيعيد طعمها الحامض النشاط إليكِ».

استجابت لابينيا لما قالته فلور ووضعت اللوز بين أسنانها وهي تناور لاستئناف مسيرتها. كان من شأن الإيماءة البسيطة والثمار التي تنبت في الشوارع التي تم تسليمها لها والحضور غير المتوقع لفلور أن تكسر الجدار المنيع الذي كانت تتوارى وراءه في الأيام الأخيرة. لم تستطع منع استمرار

تدفق الدموع الكبيرة. مسحت خديها بظهر يدها وامتصت اللوزة وأخذت نفساً عميقاً لأن حركة المرور وإشارات المرور والمركبات خلفها وأمامها كانت تستدعي اهتمامها، مما أجبرها على إغلاق بوابات الدموع التي كانت على وشك الخروج.

– قالت لابينيا: «سامحيني. هذه الأيام هي عصيبة للغاية. كنتُ أسيرُ وأنا متوترة وعندما رأيتك لا أعرف ما حصل لي...»

قالت فلور: «لا تهتمي. في أيام مثل التي نعيشها الآن، عندما يمشي المرء متحملاً أعباء الكثير من الأمور الحبيسة، يمكن لأبسط شيء أن يطلق العنان لفيض الدموع...» ثم أضافت وهي تربت على يدها بمحبة: «كم أنا سعيدة برؤيتك!»

– قالت لابينيا وهي تخرج الهواء من رئتيها بزفير: «لم أتخيل قط أن هذه هي المفاجأة! حقيقةً، قد تجاوزت المفاجأة حدود توقعاتي. سيباستيان مذهِل... إنه ساحر لديه حيل».

– ولم تكن لديك أي مشكلة في التعرف عليّ، حقاً؟ الآن بعد أن أصبح شعري قصيراً وبنياً؟

– كلا. لقد تعرفت عليكِ على الفور. لقد رأيتك بالفعل. أتعلمين؟ منذ حوالي ثلاثة أشهر رأيتك في أبينيدا ثنترال[1]. كنتِ في سيارة مع رجل. كان من المفاجئ والمحيّر أن تكوني قريبةً جداً مني ولم أكن قادرة على جلب انتباهك أو الضغط على زر بوق السيارة أو أن أصيح باسمك، لا شيء.

– لم أرَكِ. عندما أكون في السيارة، أحاول تجنب النظر إلى خارج السيارة.

– قالت لابينيا: «وكيف سارت الأمور معكِ؟»

– بخير. على خير ما يرام. مشغولة بعملي. الرفاق غير العاديين والركض بين هذا المكان وذاك... وأنت كيف هي أحوالكِ؟

– لدي أيضاً الكثير من العمل للقيام به. منزل الجنرال بيلا بالفعل هو تقريباً شبه منتهٍ.

1- إسم شارع «الشارع المركزي».

– وكيف سارت الأمور معك في المقابلة الأولى؟

– بشكل ممتاز. تمكنتُ من كسب ثقة الجنرال بيلا من خلال الاهتمام وبذل قصارى جهدي بتصميم مكتبه الخاص وستكون هنالك فضلاً عن ذلك غرفة يتم فيها عرض مجموعة أسلحته. قمت من أجل ذلك بنسخ آلية جدار دوار في منزل مليونير في كاليفورنيا. كان بيلا مسروراً!

– وماذا عن الجدار الدوار؟

– يبدو الجدار ثابتاً من الناحية الظاهرية. إنه مؤلف من ألواح خشبية ذات محاور. سيسمح له ذلك بتحديد ما إذا كان سيعرض الأسلحة أم لا. إنها مثل الجدران السرية التي نراها في الأفلام. كانت تلك بطاقتي التي فزت بفضلها على بيلا. فقط خوليان وأنا والآن أنتِ نعرف ذلك...

– أيعني ذلك أنه إذا لم تكن هناك أسلحة على الحائط، فهذا يعني أنها موجودة في الجانب الآخر؟

– نعم. بالضبط.

– وكيف يتم تفعيل آلية القيام بذلك؟

– إنه أمر سهل للغاية. ببساطة، يتم رفع قفل مخفي خلف زر فتح وإغلاق في نهاية الجدار.

– قالت فلور: «عظيم. ها هو السبب الذي دعاك للتصرف بشكل جيد جداً في المقابلة».

– التزمتا الصمت. فرض الوقت الذي مضى المسافة بينهما كلتيهما. محا ظلام حلول الليل أشكال الأشجار المحاذية للطريق. سارت لابينيا ببطء لإطالة وقت البقاء مع فلور. بدا الطريق هادئاً وروتينياً. لا توجد مركبات مشبوهة وراءها حينما نظرت في مرآة الرؤية العاكسة للخلف.

– قالت فلور وهي تلاحظ نظرات لابينيا المستمرة: «أراك وقد أصبحت أكثر حذراً».

– لا سيما في هذه الأيام الأخيرة، الجو متوتر وقد زادت المراقبة.

– ازداد النشاط في الجبل ويريد الحرس أن يعطي انطباعاً بالقوة. مع ذلك، فإن نظريته هي أننا مدمَّرون بالفعل. بمجرد أن يقضوا في الشمال على

ما يسمونه جيوب المقاومة، سيظنون أنهم أبادونا إبادة تامة. إنهم يستخفون بنا. لا يتخيلون حتى أن لدينا القدرة على تدبير أمور ما في المدينة.

– لا يمل الجنرالُ بيلا أبداً من تكرار أن الأعمال التخريبية في البلاد ضئيلة للغاية. قالها مؤخراً في مؤتمر صحفي.

– قالت فلور وهي تهز برأسها بوعيد: «سنرى ذلك. خيراً تفعلين أن تكوني أكثر حذراً».

– قالت لابينيا: «ترك فيليبي بيتي. قال إن سبب تركه المنزل يكمن في المخاطرة بأن يكتشفوه في نشاط مشبوه ويتبعوه وهو في طريقه إلي».

– فعلاً. الأمر كذلك.

– لقد فكرتُ في ذلك. لكنني لم أطرح الموضوع من قبل لعدم رغبتي في رؤيته وهو يغادر. يبدو لي دائماً أنكم أشخاص تعرفون ما تفعلونه، أما بالنسبة لي، فعليّ فقط أن أنتظر أن تخبروني.

– إنكِ تعانين من مراسم البدايات المفرطة. يحدث ذلك للكثير منا، لا سيما عندما ننضم للحركة ونشعر بأننا لا شيء. أما الحقيقة، فهي أن كسب الثقة والصلاحية للقول وإبداء الرأي هو أمر يأخذ وقته. فيما يتعلق بفيليبي، لم نعتقد أن الأمر ضروري إلا الآن. الحقيقة في هذا البلد هي أنه عندما تنتمين إلى فئة معينة، فإنك عملياً شخص لا يرقى إليه الشك، حتى إنهم لا يراقبون قادة المعارضة التقليدية بشكل كبير. لديهم رؤية طبقية للغاية للقمع والتآمر... وهي صحيحة إلى حد ما. بالتأكيد سيتغير ذلك في المستقبل، لكن ذلك لم يحدث بعد. لذلك نحن لا نقلق كثيراً. الأمر لا يكمن فقط في عدم مؤاتاة أصلك، بل إن فيليبي، من ناحية أخرى، غير معروف ومحروق تماماً بالنسبة إليهم. كان لديه بعض الظهور عندما كان يدرس في الجامعة، لكن أجهزة المخابرات لا تأخذ ذلك في الاعتبار كثيراً، إذ تعتقد تلك الأجهزة أن جميع طلاب الكلية صاخبين وذوي حَمِيَّة. الحقيقة هي أن نظامها الأمني يعتمد على أماكن كانت صالحة لفترة طويلة، لكنها تتغير بمعدل أسرع من إمكانيات التكيف الخاصة بها. مع ذلك، لا ينبغي الاستهانة بها. لذا، لا يمكننا المخاطرة وخصوصاً الآن أقل من أي وقت مضى.

دخلتا الطريق الترابي المتفرع عن الطريق الرئيسي. سرعان ما سيتعين عليها أن تترك فلور.

- قالت لابينيا: «لكن حديثنا كان تقريباً عني فقط. ماذا حلَّ بالشكوك التي كانت تساوركِ؟»

- قالت فلور: «كان إلى حد ما كما توقعت». كان علي أن أتصرف بقوة، أن أتصرف كرجل بعض الشيء، إذا كنت تريدين ذلك، لكن التواري عن الأنظار يشكل فضاء للقاء والحميمية. في بعض الأحيان، عليكِ أن تقضي أياماً مغلقة عليكِ الأبواب في منزل مع زملاء آخرين. أثناء ذلك قد تتمكنين من التعرّف على أحدهم بشكل كبير وتضعف دفاعاتكِ الشخصية. يتحدث الناس عن أحلامهم وأسئلتهم.. ويتم العمل بصمت. لمعظم المحادثات علاقة بالمستقبل... إنها تجربة ثرية. في داخلي آمال أكثر من ذي قبل».

- والخوف، هل ذهب؟

- قالت فلور مبتسمةً بهدوء: «إنني أدير الأمر بشكل أفضل. لن يذهب الخوف بشكل تام مطلقاً عندما يكون بداخل المرء حبٌ للحياة ويكون عليه المخاطرة بهذه الحياة، لكنه يتعلم السيطرة عليه وإبقاءه ساكناً واستخدامه عند الضرورة. لا تكمن المشكلة في الخوف، كما أظن، بل في ما يجب الخوف منه وأن لا يُفسَح المجال للخوف غير العقلاني».

لقد وصلتا إلى طريق إسباديّوس. أوقفت لابينيا السيارة في المكان المعتاد.

- قالت فلور: «استمري بالسير قليلاً إلى الأمام».

- استمرتا بالتزام الصمت لبضعة أمتار أخرى حتى وصلتا إلى طريق يؤدي إلى قصر فخم يمكن رؤيته عن بعد. لم يكن واضحاً في الظلام.

- قالت فلور: «الآن نعم. دعيني أنزل. سأبقى هنا» وأضافت قائلة: أحضرتك إلى هذا المكان لأن عليكِ معرفته. إذا حصلت لك مشكلة خطيرة، خطيرة جداً، في الأيام القليلة المقبلة، على سبيل المثال، إذا اضطهدوك أو حاولوا القبض عليك وتمكنتِ من الهروب... عليكِ أن تفعلي ما بوسعكِ، دون أن يتم اكتشافك، للمجيء إلى هنا. أياً كانت الحالة، من الضروري التأكد

من عدم اتباعهم لكِ إلى هنا، عليكِ تضليلهم. من ناحية أخرى، إذا قبضوا عليكِ، عليكِ أن تحرسي هذا المكان بحياتكِ، إذا لزم الأمر. لا تكشفي هذا الموقع لأحد تحت أي ضغط أو تحت أي تعذيب في أي وقت».

أومأت موافقةً برأسها بنفس الجدية التي تحدثت بها فلور. نظرت إلى المنزل وإلى المناطق المحيطة التي كانت مألوفة لها، على الرغم من أن هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها المكان الذي كان يتجه إليه سيباستيان وغيره من الركاب المجهولين في الآونة الأخيرة. من خلال تخمين حجم ما كان على وشك الحدوث وخلط التخمينات السريعة، شعرت أنها قد تصلّبت خلف مقود السيارة وتجمدت بسبب الخوف، لكن فلور كانت بجانبها.

– قالت فلور: «من المحتمل أن نرى بعضنا بعضاً مرة أخرى. لذلك لن نودع بعضنا بعضاً». ثم أضافت قائلةً: «تذكري الإجراءات الأمنية وتذكري أن تتبعيها بالحرف»، ثم نزلت من السيارة.

رأتها لابينيا وهي واقفة تراقبها بينما كانت تستدير بالسيارة للعودة إلى المدينة. رأت يدها تلوح بتوديعها، كانت راحة يدها البيضاء تشبه اليراعة في الليل.

***

فلور هي «إكسوتشيتل[1]» في لغتنا. تذكرني إكسوتشيتل بصديقتي «ميميكسكوا[2]». كانت فنانة في نول النسيج. كانت تنسج ساعات وساعات وبصمت ثينتشونتيلماتلي جميلة، أي بطانيات متعددة الألوان، كانت والدتها تبيعها في الأسواق. في يوم برجي المائي، «أتل[3]» أهدتني تنورة وريشاً لشعري تزينت به واحتفلت.

حضرنا إلى «كالميكاك[4]» معاً. تعيّن عليها بسبب شخصيتها الخطيرة

1- وردة.

2- نجمة الشمال وهو اسم صديقتها.

3- الماء.

4- المدرسة.

والجميلة أن تخدم الآلهة عندما بلغت سن الرشد. كنا نتشابه قليلاً. كانت دائماً تعرف مكانتها في العالم بينما كنت أستاء من الساعات الطويلة التي أقضيها أمام المغزل أو عند «ميتلاتل[1]» حيث كنا نعجن الذرة. كانت «إيتشبوتشتلاتوكي[2]»، معلمتنا، توبخني باستمرار، مع ذلك، كنت أحب بعطف «ميميكسكوا». نتيجة لهذه الاختلافات، كانت تبدو أن هنالك مسافة بين الاثنتين، لكن الأمر لم يكن كذلك. لقد استمعت لي بلطف عندما أخبرتها عن مغامراتي مع «سيتلالكواتل[3]» لتعلم استخدام القوس والسهم، حتى إنها طلبت مني أن أعلمها ذلك، لكنها بعد أن سقطت في المرة الأولى على وجهها، لم تحاول مرة أخرى. كانت نظرتها عميقة مثل الهاوية المقدسة التي تم تقديمها فيها كأضحية «لكيوتي-تلالوك»، إله المطر. تحدثنا كثيراً في تلك الأيام التي سبقت الحفل. كسرت صمتها المعتاد لتخبرني عن أحلامها السحرية بنجوم ترقص وبرؤيتها عودة «كويتزالكواتل[4]»، الإله الذي تحبه أكثر من غيره والذي كانت تحلم بالاقتراب منه، بعد أن نظرت في عيون «تلالوك» التي هي بلون اليشم تحت الماء.

كنتُ حزينة، أما هي، فاستوعبت كم كان الانفصال مؤلماً لأننا كنا مثل الأختين، لكنها شجعتني على الرقص بحياتي. كانت تغني لي أبياتاً تقول: كل قمر/ كل عام/ كل يوم/ كل ريح/ كل شيء يسير ويمر أيضاً/ كل دم يصل أيضاً إلى مكان سكينته، إلى دار قراره.

كانت تعلم أنها ستموت. كانت حزينة لعدم رؤيتي بعد الآن وعدم رؤية الزهور في الحقول والذرة الذهبية واللون الأرجواني لغروب الشمس، لكنها، من ناحية أخرى، كانت سعيدة لأنها ستعيش مع الآلهة وسترافق الآلهة-الأمهات، «سيهواتيتيو[5]»، في رحلتهن إلى المكان الذي تغرب فيه الشمس. كانت تسديني نصائح حكيمة. أخبرتني أنها سترافقني

1- حجر الطحن.
2- المعلمة.
3- أفعى النجوم.
4- الأفعى ذات الريش.
5- الآلهة الأمهات.

دوماً. أعلم أنها تراني مع كل غروب. لقد رأتني من قبل وتراني الآن. إنها تسهر من أجلي.

في يوم التضحية، سرت مع والدتي بين المحاربين المسؤولين عن حفظ النظام إلى الكهف المائي المقدس. أخذوا «ميميكسكوا» مع الأطفال الآخرين والعذارى المزينات بشكل جميل إلى حمامات البخار لتطهيرهن. كنا أنا وأمي نرمي بخور البوم واليشم في المياه المقدسة.

استقبل الكهنة «ميميكسكوا» في «ناكوم[1]». جردوها من عباءتها المصنوعة من الريش وكانت ترتدي فقط قطعة قماش بيضاء بسيطة وألقوا بها في الماء. قبل أن تختفي في الينبوع الذي كان الماء يتدفق منه دائماً، ظلت تنظر إلي بلطف، ثم اختفت. بقيت صامتة لفترة طويلة مع والدتي وأدعوها أن تنقذها الآلهة وترسلها كرسولة، لكن «ميميكسكوا» لم تعد إلى سطح الماء حينها بكيت وصرخت على الرغم من محاولة والدتي لتهدئتي. لم أكن أريدها أن تغرق. لم أستطع الاستسلام لتسليمها إلى «تلالوك» الذي كان ينظر إليها في تلك اللحظة بعيونه بلون اليشم.

لم أكن أعلم أنه بعد سنوات سيستقبلني «تلالوك» إله المطر في أحضانه وسيرسلني لأسكن الحدائق، لأسكن هذه الشجرة التي أعيش فيها الآن والتي أتذكر فيها صديقي «ميميكسكوا» بتوق وحسرة.

1- منصة القرابين.

- 23 -

توقفت أمام المبنى. تم إنهاء العمل في منزل الجنرال بيلا. كان حشد من الرجال يتحرك حول المبنى الجديد وقاموا بتنظيف الأرض المحيطة به من بقايا العمل. كانت شاحنة شركة البناء تحمل كمية فائضة من الخشب والأسمنت وعلب الطلاء الكبيرة.

قامت مجموعة أخرى من العمال بتفكيك السقيفة التي كانت مكتباً للمشرفين ولكبار البنائين وهو المكان الذي أمضت فيه لابينيا ساعات طويلة في الأشهر الأخيرة مع المهندس ريثو والسيد رومانو ومع خوليان وفيتو.

إنه يوم 15 من كانون الأول، 1973. كان جدول العمل قد أُنجِزَ بدقة متناهية.

شغل المنزل الذي اكتمل بناؤه مساحة 6500 متر مربع، موزعة على أربعة طوابق، بأسلوب الشرفات البابلية والنوافذ الكبيرة في الطوابق الثلاثة العليا.

كانت المناطق الاجتماعية الأكثر أهمية هي: الصالات المختلفة التي طلبتها السيدة بيلا وغرفة الطعام وغرفة الموسيقى للجنرال التي كانت تتمتع بإطلالة بانورامية. كانت فقط غرفة النوم الكبيرة الخاصة بأصحاب المنزل والمكتب الخاص وغرف الأطفال وغرفة شقيقة الزوجة موجودة داخل المنزل خشيةً من اللصوص والاعتداءات.

شغلت منطقة الخدمة الطابق الرابع. لم تكن هناك نوافذ كبيرة، لكن لابينيا تمكنت من تثبيت نوافذ واسعة مزودة بمظلات واقية كانت رغم كل شيء تسمح ببعض التأمل للمناظر الطبيعية، كما تسمح بالتهوية الجيدة.

تم طلاء جميع الجدران الخارجية باللون الأبيض الممزوج بأقسام مغطاة بالطوب الطيني تتوافق مع الحدائق الداخلية.

على الرغم من الذوق السيئ لأصحاب المنزل، فإنه كان عملاً معمارياً رائعاً. كان يبدو كأنه معلّق بإحكام على منحدر أرضي حاد. كانت مساحاته الداخلية الفسيحة مضيئة بالعديد من المساحات المنيرة الخفيفة وغرف يتحرك فيها سكنة المنزل بمرونة.

كان الديكور الفخم هو الأمر الوحيد الذي أزعج لابينيا. كان من المستحيل جعل السيدة بيلا توافق على تكليف النجارين المحليين بصنع أثاثها. ما تم صنعه محلياً هو فقط الأثاث الكثير المدمج وأثاث غرفة المعيشة وغرفة النوم وغرفة الطعام والسجاد والستائر والملحقات. باختصار، تم إحضار كل ما عدا ذلك من ميامي. أمضت الشقيقتان الأشهر الأخيرة في السفر باستمرار منبهرتين بالمتاجر الكبرى لفلوريدا. لقد أرسلتا بالطائرة وسائدَ ذات ورود لا تنم عن ذوق راقٍ وثريات كريستالية ومزهريات وحاملات نباتات برونزية ومفارش مرقطة وكراسي من الروطان وكراسي بلاستيكية ومظلات المسبح...

لكن من الخارج، في المكان الذي كانت لابينيا تقف فيه، كان المنزل يبدو كهدية تسر العيون، كعش متناغم للنسور في أعلى التل. لم يكن سكان ذلك القصر يميزون المنظر الطبيعي، منظرهم المحبب نتيجة لنظافة وشفافية زجاج النوافذ.

حدثت نفسها: في يوم ما سنستعيد ذلك. سيكون ذلك المنزل يوماً ما مقراً لمدرسة فنية أو سيسكنه أشخاص حساسون تتناغم قلوبهم مع الجمال الذي يحيط به.

– قال صوت من خلفها: «يبدو ذلك كذبة، أليس كذلك؟» كان صوت الآنسة مونتيس.

– قالت لابينيا محاولة التعافي من جفلتها: «لقد أخَفْتِني. لم أشعر بوصولكِ».

– قالت السيدة أثوثينا: «كنتِ غارقة تماماً في أفكارك. وصلنا أنا وأختي قبل قليل. إنها موجودة في المنزل. جلبت الجنائنيين للبدء بتنسيق الحدائق الداخلية. جلبنا نباتات كثيرة جداً من ميامي. كذلك الأمر أيضاً بالنسبة للحدائق الخارجية. يجب أن يكون المنزل جاهزاً بحدائقه وبكل شيء في

20 من كانون الأول، إذ سيكون هذا اليوم يوم الافتتاح. سيكون موعداً لأول حفلة كبيرة في موسم عيد الميلاد».

- سألت لابينيا، متفاجئة: «في خمسة أيام فقط؟».

- «في بادئ الأمر، فكرنا في افتتاحه في السنة الجديدة، لكن الجنرال الكبير لن يكون موجوداً في البلاد. سيذهب في إجازة أعياد الميلاد إلى سويسرا، إلى سان موريتز، لذلك قررنا تقديم موعد إقامة الاحتفال. لهذا السبب اشترينا العشب والكثير من النباتات من ميامي. هناك يبيعون العشب كما لو كان سجادة. كل ما على الشخص فعله هو مده. سترين كم هو رائع!»

- قالت لابينيا «أستطيع أن أتخيل ذلك» وهي تفكر في مبلغ المال الذي يفترض أنهم أنفقوه على النقل وتفكر في عدم ذكر الجنرال بيلا لأي شيء لهم بخصوص الدفعة المقدمة لموعد حفلته. بالكاد رأته مؤخراً. أمضى معظم وقته في المنطقة الشمالية.

- ستأتين إلى الحفل، أليس كذلك؟ إنكِ ضيف الشرف.

- قالت لابينيا: «بالطبع، بالطبع نعم. ومتى سيعود الجنرال؟»

- أظن غداً. كما تعلمين، قضى المسكينُ وقته يتنقل ذهاباً وإياباً إلى الشمال. من حسن الحظ أن أختي تسافر أيضاً. إنها دائماً تكتئب جداً عندما يضطر إلى الخروج في تلك المهمات... هؤلاء المخربون فظيعون... وهم يكرهونه كما تعلمين. لقد أعلنوا عدة مرات أنهم سيقومون بإعدامه، كما يقولون عندما يغتالون الناس.

- قالت لابينيا: «فلنأمل ألا يصاب بمكروه وأن يتمكن من حضور حفلته. على أي حال، إنه يعتني بنفسه. لا أعتقد أن هنالك داعياً لتقلقي عليه كل هذا القلق».

- قالت الآنسة مونتيس: «دعيني أبحث عن دعوتك، لقد بدأنا بالفعل بتوزيع الدعوات. أعتقد أن دعوتكِ موجودة لدى أختي».

تبعتها لابينيا إلى داخل المنزل. وجدتا السيدة بيلا في نوبة من النشاط تعطي التعليمات لمجموعة من الرجال كانوا يتبعونها من هنا إلى هناك أينما تذهب.

– نادتها السيدة بيلا عندما رأتها تصل: «آنسة ألاركون! كيف الحال؟ ألا يبدو لكِ كذبة أن يكون المنزل جاهزاً؟ إنه جميل جداً! أفضل بكثير مما كنتُ أتصور! والآن بعد أن وضعنا جميع النباتات التي أحضرتها، سيبدو رائعاً! لقد أخبرتكِ أختي عن الحفلة. انتظري. أحتفظ هنا في حقيبتي بدعوتكِ».

كانت مبتهجة ومنطلقة في الحديث الذي لا نهاية له. كان البيت والحفلة بلا شك تتويجاً لأحلامها الاجتماعية. سيحسدهم أصدقاؤهم. إنه حدث السنة، ذروة ما يصل إليه وضع الجنرال بيلا، أما هي، بحكم كونها زوجته، تتمتع بميزة وضع لمساتها كامرأة في هذه الغرف وفي الحدائق وفي الديكور والتزيين.

ظهر ابنا الجنرال في البهو عندما مدت السيدة بيلا يدها لتسلّم الدعوة -التي كانت بطاقة هولمارك مع منزل في وجه البطاقة يظهر وسط شعاع مبتكر من وسط علبة هدايا ومكتوبة من الداخل بخط يد الآنسة مونتيس-.

كانت الفتاة تبلغ من العمر تسع سنوات وكانت سمينة بعض الشيء ذات ملامح لطيفة وتعبير خجول، لكنها تبدو معتادة على الإفراط في التدليل والاهتمام. اقتربت ببطء وهي تنظر إليها وتلمس حزام لابينيا المصنوع من الجلد.

– سألت الطفلة لابينيا: «هل تهدينني إياه؟» وصاحب السؤال تعبير جميل تستخدمه بالتأكيد للتودد والحصول على ما تريد. ابتسمت لابينيا. على الرغم من كونها ابنة بيلا، فإنها كانت لطيفة وسمينة بعض الشيء. في النهاية، إنها طفلة. من المؤسف أن تفكر في ما سيحدث.

– قالت السيدة بيلا: «ألقِ السلام على الآنسة، لا تكوني وقحة».

– قالت الطفلة مبتسمة لها: «مرحباً».

– «وأنت يا ريكاردو، ألقِ التحية. إنها المهندسة المعمارية التي صممت المنزل».

قام الصبي الذي دخل للتو مرحلة المراهقة وكان طويلاً وهزيلاً بعض الشيء ويتسم بالمكر الخجول بمد يده التي كانت تبدو طويلة. كان يشبه إلى حد ما الآنسة مونتيس، غير أنه كان ذا عينين حزينتين ويبدو أنه شخص يحتاج

إلى الحماية في بيئة عنيفة للغاية بالنسبة لأحلامه بالطيران. بينما كانت لابينيا تصمم غرفته، سألت نفسها أكثر من مرة عمّا إذا كانت لديه أحلام يحلق فيها كما تحلق هي في أحلامها.

– سألتهُ: «إذن أنتَ من يحلم بالطيران؟»

أومأ الصبي برأسه بإيماءة الإيجاب.

– وهل حلمتَ يوماً أن ترى نفسكَ تطير حقاً؟

– قال الصبي: «نعم» وكان ينظر إليها بعينين ذواتي بريق.

– قالت السيدة بيلا: «إنه يعيش في الأحلام، تلك هي مشكلته...»

عاد تعبير المراهق الذي لمعت عيناه للحظات أمام أسئلة لابينيا إلى طبعه الباهت الضعيف.

– قالت وهي تنظر إلى الصبي وتتعاطف معه وتشفق عليه: «الحلم ليس بسيء». تعتقد لابينيا أنه لو كان الصبي في بيئة أخرى، لربما كان بوسعه مواصلة الحلم.

قالت لابينيا وهي تنظر إلى ذلك المشهد العائلي ذي المشاعر الغامضة: «حسناً، أظن أن عليّ الذهاب. اتصلوا بي في المكتب لو احتجتم لأي شيء. غداً، في الساعة الحادية عشرة صباحاً، سأقوم أنا وخوليان بالمجيء مع المهندسين للقيام بالتسليم الرسمي للمنزل».

– قالت السيدة بيلا: «جيد جداً، آمل أن يكون زوجي موجوداً. من المفترض أن يعود صباح الغد باكراً».

– قالت لابينيا: «إذا لم يكن الأمر كذلك، فيمكننا القيام بذلك لاحقاً. خبّرينا بالأمر».

– قالت السيدة بيلا: «رائع» ورافقتها إلى الباب.

– قالت لابينيا قبل المغادرة: «انتظري لحظة. أرغب في مراجعة اللمسات الأخيرة في المكتب الخاص. لا تتأخري بسببي».

– قالت السيدة بيلا: «بالطبع. سأستمر مع الجنائنيين إن كنتِ لا تمانعين».

عند دخولها إلى مستودع الأسلحة شعرت بشعور غريب وخاطف بعدم الارتياح. حاولت أثناء بناء المنزل أن تنسى تلك الغرفة التي تمنح بيلا المتعة

الكبيرة. كانت غرفة متوسطة الحجم مفروشة بسجاد برتقالي اللون وذات نافذة واحدة وستائر بنية يطل عليها أحد الأفنية الداخلية للمنزل.

للوهلة الأولى، بدت الغرفة وكأنها تنتهي عند الجدار الخشبي أمام الكراسي ذات الذراعين: كان الأثاث مكوناً من أريكتين جلديتين مع طاولة خشبية بينهما مسند إلى الحائط بالقرب من الباب. رأت عدة صناديق خشبية مغلقة على الأرض. من المؤكد أنها تحتوي على الأسلحة المخصصة للعرض.

من ثلاثة ألواح من خشب الماهوجني المطعم بحجر اليَشب الجميل. اقتربت من نهاية الجدار حيث الآلية المخفية التي تطلِق الألواح. أطلقت تلك الألواح ودفعت بلطف أحد الألواح. دار اللوح الخشبي حول محوره وكشف المساحة الداخلية الضيقة والغرفة السرية ذات الرفوف والخزنة المدمجة في الوسط. على الجانب المخفي من اللوحة التي دارت، بالإمكان رؤية الدعامات المعلقة بالخشب، حيث يتم وضع الأسلحة. عدَّلَت اللوحة ثم قامت بتدوير اللوحين الآخرين وهي تلمس الآلية مرة أخرى لتثبتها في مكانها. كانت تعمل على أتم وجه. الآن، يمكن أن تُرَى، من غرفة الجنرال الخاصة، الألواح مع المساند الخاصة بجمع البنادق والمسدسات. أطلقتْ مجدداً الآلية التي سمحت بالحركة الدورانية وجعلت الألواح الملساء جداً تظهر مرة أخرى على جانب الغرفة.

قبل أن تغلق للمرة الأخيرة، ظلت للحظة في الغرفة السرية الصغيرة. شعرت بالبرد. كان المكان يحفظ درجة حرارة التكييف المركزي كأنه ثلاجة. لكنْ ذلك لا يهم. فعلى أي حال، لن يشغلها أحد لفترات طويلة.

- هل تحلمين؟

كان الصبي يقف عند عتبة الباب.

- أجابت «نعم. أحلم أن يعطيني جدي أجنحة بيضاء كبيرة ويجعلني أطير من جبل مرتفع».

- قال الصبي: «إنني أحلم أن أطير بلا أجنحة، مثل سوبرمان. كما أحلم أحياناً بأن أصبح طائراً، لكن والدي يصاب بالجنون. يقول إن الطريقة

الوحيدة للطيران هي أن يكون المرء طياراً. يريدني أن أصبح طياراً في سلاح الجو».

- قالت لابينيا: «غالباً ما يخطئ الآباء مع أبنائهم. لو كنت مكانكَ، لكرّستُ نفسي للطيران التجاري. أن تكون طياراً حربياً هو أمر محزن للغاية. إنه يطير ليُقتَل ولذلك، لا علاقة له بأحلامك بالطيران».

قالت في نفسها كأنها تحدث الصبي «خصوصاً إذا تمكنت من أن تصبح طياراً في سلاح الجو التابع للجنرال الكبير» وسألت نفسها عمّا إذا لم يكن تهوراً منها أن تتحدث إلى الصبي بهذه الطريقة.

- قال لها: «وداعا» وخرج راكضاً واختفى فجأة مثلما ظهر.

عند مغادرتها المنزل، سطع في عيني لابينيا ألق منتصف النهار. فركت ذراعيها لتتخلص من البرد. كم هما حزينتان عينا ابن بيلا!

كان فيليبي يرتب الأوراق على مكتبه عندما دخلت لابينيا إلى المكتب. كان من الصعب للغاية تغيير إيقاع علاقتهما. التقيا مثل العشاق السريين في الشارع والذين يختبئون في موتيلات غريبة وبائسة لممارسة الحب عادة ما في وقت الغداء.

- قالت وهي جالسة على الكرسي مقابل مكتب فيليبي بعد أن قبلته قبلة طويلة بينما كانت تبحث عن الدعوة الكريهة في حقيبتها: «قررت عائلة بيلا إقامة حفل الافتتاح في العشرين من الشهر».

- أضافت وهي تضعها على المنضدة: «هذه هي الدعوة».

أخذها فيليبي دون أن يقول أي شيء. قرأها وأعادها إليها.

- ولماذا يفعلون ذلك؟ ألم تعرفي؟

- لأنهم يريدون أن يحضر الجنرال الكبير. ولأنه سيقضي عيد الميلاد مع عائلته في سويسرا، كان عليهم تقديم موعد الحفل.

- قال فيليبي: «وكيف أصبح المنزل؟» بينما كان جالساً ويبدي تعبيراً بين المشتت والقلق.

- من الخارج، يبدو جميلاً. أما من الداخل... فهو غير جميل، إنه منزل رجل عسكري أصبح مؤخراً رجلاً ثرياً. حتى إنهم قد أحضروا العشب من

ميامي. فقط الأثاث المدمج يبدو جميلاً وكذلك بعض مجموعات الألوان المنسقة التي تمكنتُ من جعل بيلا يحترمها».

– حسناً، إنه أمر متوقع...

– نعم مستحيل. بينما كنت أنظر إلى المنزل، خطر لي أنه ربما في المستقبل يمكننا استخدامه كمدرسة للفن، عندما تتغير الأمور...

– قال فيليبي مبتسماً: «أحب تفاؤلك».

– سألت لابينيا: «هل سنتناول الغداء معاً؟»

– قال فيليبي بينما كان يبحث عن بعض الأوراق على المنضدة: «ليس اليوم، يجب أن أخرج».

– ردت بخيبة أمل: «لكنك قد قلتَ لي ذلك...»

– نعم، لكن ثمة أمر قد حدث...

– هل هو أمر سيئ؟

– «كلا، كلا. إنه فقط عاجل. أراكِ لاحقاً». قال ذلك وهو يقترب منها ليقبلها.

لم تره بعد ذلك، لا في مساء ذلك اليوم ولا حتى في اليوم التالي. لم تجد سوى ملاحظة في منزلها تقول إنه على ما يرام وأن لا تبحث عنه.

بعد يومين من انقطاع أخباره عنها، كان الليل قد حلّ وكانت رياح كانون الأول تهب وتحرك بشدة أغصان شجرة البرتقال في الحديقة. فجأة أصبحت وحيدة في هذه الحياة، وحيدة وتعيسة. لقد أدركت مدى تمثيل الحركة لكل حياتها تقريباً: عائلتها وأصدقائها. لم تفكر حتى في الذهاب إلى السينما والاستمتاع طوال أشهر. جميع الأطراف التي ذهبت إليها كانت من أجل مهماتها التي كُلِّفَت بها.

لقد أسرها الحب والتمرد تماماً وغرقت في دوامة ذلك برغبة منها وبحماس لم يسبق له مثيل من قبل. لقد غرقت في تلك الشبكة من المكالمات والاتصالات والرحلات لنقل وإحضار الرفاق والآن، خيّم هذا الصمت فجأة. لم تكن لديها وسيلة للتواصل معهم. لا يوجد رقم هاتف ولا أي شيء. فقط عنوان المنزل الغامض الذي خمنته في الظلام.

مما زاد الطين بلة، هو التوقف المتزامن للعمل الجنوني بمنزل بيلا في الأشهر الماضية. في اليوم السابق، جرى التسليم الرسمي بحضور الجنرال والزوجة وأخت الزوجة والأطفال. كان جميع أفراد الأسرة يجولون من غرفة إلى غرفة ومن ممر إلى ممر وهم يفتحون ويغلقون أزرار الإضاءة ويفحصون المقابس وصنابير المياه وبقية التفاصيل وكان الجنائنيون يزرعون النباتات ويمدون طبقات العشب لزراعتها في الحديقة. كان كادر شركة المسابح يهتم بملء المسابح وبوضع المواد الكيميائية في الماء لجعله يبدو نقياً تماماً. أما ابن بيلا، فكان ذا تعبير أكثر غموضاً من أي وقت مضى أمام والده.

أخبرها خوليان أن تأخذ إجازة لمدة أسبوع لترتاح، لكن لابينيا رفضت العرض لوقت لاحق. لم تكن تعرف متى، لربما في أي وقت آخر ما عدا هذا الوقت الذي تقضيه بدون فيليبي وبدون الآخرين. ماذا ستفعل الآن في منزلها الصامت الذي تصول فيه وتجول رياح كانون الأول، حيث خيّمت عليها الوحدة؟ كانت تفضل الخروج إلى المكتب حتى لو لم تفعل شيئاً سوى الجلوس وهي مغيّبة وشاردة الذهن وحزينة ومنتظِرة.

حتى أجواء عيد الميلاد بدت كأنها قد تلاشت بالنسبة لها، بل كانت تجعلها غير مرتاحة. كان الشيء الوحيد الذي رفع معنوياتها وهي محاطة بمصنوعات مثل بابا نويل بحجم عملاق أو الثلج المزيف في نوافذ المتاجر، هو الكتابة بالصبغ الموجودة على الجدران التي كانت نتاج صباحات عديدة من سهر رفاق مجهولين وغير مرئيين. كانت تلك الكتابة الصبغية تطالب بأعياد ميلاد بدون سجناء سياسيين وقد ظهرت فجأة في كل مكان قبل بضعة أسابيع.

كانت والدتها تتصل بها وتسألها عما إذا كانت ستأتي لتناول العشاء معهما. «من فضلك يا ابنتي، من فضلك.» ربما لم يكن لديها خيار آخر سوى الذهاب لتناول العشاء مع هذين الغريبين اللذين، رغم كل شيء، قد أنجباها. كانت تعتقد أنه ليس لديها أبوان وتشعر بالأسف. لم تغفر لهما أبداً حب عمتها إينيس ولم تغفر لهما حتى بداخلها تخليهما عن هذا الحب المريح الذي خفف عنهما من مسؤولياتهما الأبوية عندما كانا شابَّيْن ولم يكن لديهما وقت لتكريس نفسَيْهما لطفلة فضولية ومرحة ومحبة للكتب وغارقة في عالمها الخيالي، عالم البيوت الصغيرة والنماذج المجسمة.

يا له من تراكم لعدم الاستيعاب وسوء الفهم!

وأين يمكن أن يكون فيليبي؟ أين فلور وأين سيباستيان؟

اتصل بها أيضاً أدريان وسارة لدعوتها لقضاء ليلة عيد الميلاد معهما. «مع فيليبي». أخبرتها سارة أنهما الآن قليلاً ما يخرجان في الليل لأن أدريان بدافع الإحسان وحبه للناس، قرر إقراض السيارة لزميل في العمل حتى يتمكن من الذهاب إلى دروس ليلية ثلاث مرات في الأسبوع. رغم ثقل الحَمْل، لم تهتم كثيراً بإبطاء إيقاع حياتها الاجتماعية. هكذا أدركت لابينيا أن أدريان التزم بالاتفاق. ساد أخيراً صمت الاحترام بين الاثنين منذ اليوم الذي طلبت منه التعاون. لم يعد أدريان يضايقها بشأن نزعتها النسوية أو عدم استقرارها حتى إنها افتقدت ذلك. بات الحديث بينهما مقتصراً على المحادثات المملة الخالية من المضمون. كانت تفكر مع نفسها أنه من المفارقة أنهما في الوقت الذي يفترَض فيه أن يكون الحديث بينهما أكثر، فقد تمكنا أخيراً من التواصل من جديد بمصطلحات أكثر مساواة وأقل أبوية من جانب أدريان ونزعته الذكورية. إنها المسافات مرة أخرى.

العالم يتغير. كان عليها أن تتغير. تأملت مستذكرةً رفاقها المجهولين الذين يقاتلون على الجبل والأمل وسط هذه الأحزان التي تشعر بها. ماذا تشكل هذه الأوقات العصيبة التي تمر بها مقارنة بالبطولات اليومية للآخرين؟ في مكان ما في المدينة كانت مجموعة تستعد لتوجيه ضربة وهو العمل الذي لم تستطع تخيله بوضوح. كانت تحسدهم جميعاً. لا شك في أن فيليبي وفلور وسيباستيان كانوا معهم، إذ كانوا جزءاً من المجموعة، جميعاً ما عداها.

كانت وحدها، تركوها لوحدتها، إلى حفيف أغصان شجرة البرتقال وسط الرياح.

***

في ذلك اليوم، استيقظنا في الظلام. كان علينا عبور النهر قبل شروق الشمس. في الليلة السابقة، تحدثنا أنا وياريثي لوقت طويل مثلما يتحدث كبار السن بالقرب من النار. كنا نتذكر أيام طفولتنا ونتذكر سنوات الحب

والحرب والغيوم العاصفة. قصصنا سير حياتنا، كان السرد رسماً رقيقاً من الكلمات المتجمعة.

قال يارينثي إنه ربما سنلقى حتفنا قريباً. كان يرغب بتذكر الماضي لأننا كنا نشك بوجود مستقبل لنا.

احتضنتُه بين ذراعي النحيفتين. قال لي: «بهذه الأجنحة يمكنك احتضان العالم». نحن نحتضن بعضنا بعضاً. كان جسدانا لأيام مصدر متعة لا تنضب. كانت القوة الوحيدة المتبقية لنا كي لا نستسلم.

تم تقليصنا إلى مجموعة من عشرة محاربين. كنا نبدو نحيفين ومنهكين، كانت نظراتنا تبدو كنظرات حيوانات مطاردة.

كان الجو بارداً في ذلك الصباح. هبت رياح خفيفة تسببت في ثني القصب على ضفة النهر. كنا قريبين جداً من معسكر الغزاة، لذا كان علينا العبور بحذر شديد كي لا يتم اكتشافنا.

كانت حمولتنا قليلة، فقط بعض الأرانب البرية التي اصطدناها في اليوم السابق والأراجيح الشبكية والحصائر التي استخدمناها للتخييم وبعض الأواني الفخارية. سار تيكستليتل في المقدمة وقمتُ باتباعه أنا ومن بعدي ثلاثة محاربين وكان يارينثي في الأخير. رحلنا لننضم إلى الكهنة الكبار في العمر لمراسم الاستدعاء، لقراءة البشائر ومعرفة ما يخبئه لنا المستقبل. كنا نشعر أننا بحاجة للصلاة وبأن نتوكل على طواطمنا لتريحنا من المصائب الكثيرة التي تَحِل بنا.

كان تيكستليتل يحلم بتلالوك إله المطر. كان قد رآه كامرأة بعينين مبللتين تبتسم بينما كان الماء يغطيها. كان حلماً مشوشاً لم أتمكن من تفسيره إلا بعد حين.

ذهبنا هو وأنا في منتصف النهر عندما خرج الإسبان.

لقد انتظرونا جاثمين بين الأدغال والشجيرات.

ربما كانوا يراقبوننا منذ اليوم السابق.

لقد دُرْنا في الماء، كنا يائسين لأننا كنا بلا سلاح.

سمعتُ طلقات من أسلحتهم النارية كانت تتساقط في الماء على مسافة قريبة جداً. كانت عيناي تبحثان عن ياريتشي في الوقت الذي كانت فيه قدمي تحاول التشبث والوقوف على قاع النهر، على الصخور التي ساعدتنا على العبور.

لمحتُه وهو يركض إلى الجانب الآخر. لقد تمكن من الخروج من الماء.

لم يكن كذلك مصير تيكستليتل الذي شكل دمه بقعة حمراء حولي ورأيت جسده يطفو في النهر.

لم يحالفه الحظ مثلي.

لم يمت كما مِتُّ.

شعرت بضربة قوية على ظهري وبحرارة شديدة تسببت في شلّ ذراعَيّ. كانت لحظة واحدة عندما فتحت عينَيّ مرة أخرى ولم أكن في جسدي. كنتُ أطفو على مسافة قليلة من الماء وأرى نفسي وأنا أنزف حتى الموت وأراقب جسدي وهو ينزل في مصب النهر. سمعت صرخات الإنذار من الإسبان وفجأة رأيت ياريتشي بين الأشجار على ضفة النهر وهو المكان الذي رأيتُ في ياريتشي للمرة الأخيرة. سمعت تلك الصرخة الطويلة والعميقة لرجلي الذي جرحه موتي جرحاً بالغاً.

كان صوته صوتاً مخيفاً أسكت الأعداء وأرعبهم وجعلهم يخرجون من الماء ويختبئون بين الأدغال.

طفت بجسدي في تيار مصب النهر. بالكاد خمنت أن ياريتشي يركض كغزال مجنون على ضفة النهر يقتفي آثار دمي.

فتحت فمي لأصرخ وكان صرير الرياح مسموعاً. أدركت حينئذٍ أن الأصوات والمشاهد البشرية كانت مغلقة أمامي إلى الأبد. شعرت بأصوات ورؤى، لكنها كانت مجرد أحاسيس سجلتها روحي. كانت صوراً باهتة أعادت ذاكرة الحياة تكوينها. أيتها الآلهة، كم هو حجم الألم عندما شعرتُ بياريتشي دون أن يراني وكنتُ حتى عاجزة عن تحريك عضلة للمسه ولتجفيف دموعه.

تمكّن من الوصول لي عند منعطف النهر، حيث كان الماء هناك يمر من بين الصخور.

أخرجني هو وناتثوليتل وسحباني إلى ضفة النهر.

كان حب يارينثي يتساقط من فوقي كإعصار من الصراخ والرثاء. هز كتفي بشدة وعانقتني كتفاه. قال «إيتشا، إيتشا» بلغة اليأس المفهومة، بلغة الحياة في مواجهة الموت.

بالكاد استطعتُ مقاومة ذلك.

عندها بدأت أفقد الصوت، لكنني كنت ما أزال أشعر بيارينثي، لكنني كنتُ أسمع فقط أمواج الماء وصوت الماء وهو يرتد على الحجارة والمياه التي تلامس ضفة النهر.

أعلم أن تلالوك إله المطر قد منحني أن أكون بجوار يارينثي في المراسم عندما صلى الكهنة بجانب جسدي عند حلول الظلام. أجرى كبار السن الحكماء المراسم على حافة المياه حتى وهبني تلالوك إلى الحدائق.

ثم أخذ يارينثي جسدي وأخذني إلى هنا، إلى هذا المكان الذي انتظر فيه لقرون وهو من تصميم أجدادي.

– 24 –

في اليوم التالي سيكون افتتاح منزل بيلا ولم يكن لدى لابينيا من تسأله عما إذا كان ينبغي لها أن تذهب أم لا. قررت أن تأخذ إجازة عند المساء. أن تذهب إلى السينما أو تزور سارة أو والدتها. لم تتحمل وحدتها المقلقة ولا صمت رفاقها، كما لم ترغب أن يسألها خوليان عن فيليبي مجدداً. لم تكن تعرف بماذا تجيب.

استقلت سيارتها وتجولت في المدينة دون أن تحدد بعد إلى أين ستذهب. فجأةً رأت نفسها تسلك الطريق الذي كان يصعد إلى التل الأخضر في طفولتها، إلى النقش الذي حفرته في طفولتها وهي ترى العالم الذي كانت تعتبره عالمها. كانت تفكر في قرارة نفسها أنه لم يعد لها أي شيء، لا حبها ولا عائلتها ولا حياتها. لقد سلمت كل شيء بانتظار هذه القنبلة الموقوتة. اعتقدت أن عليها أن تكون سعيدة. رغم كل شيء، فقد حققت حلم إخضاع حياتها لمثل أكثر سمواً. كان الأمر أشبه بامرأة تفكر في الولادة وهي تنتظر تقلصات جسدها لتلد الحياة الجديدة التي بُنِيَت بصمت خلال شهور من العمل الصبور للدم، لأن الشعور بالوحدة هو كذلك. إنه ليس كالهجر أو الخوف من اختفاء الأحباء الذين يقعون في هاوية القدر المظلم. هذه الوحدة هي انتظار الولادة: كان رفاقها في مكان ما يستعدون لإطلاق سوط من لا صوت لهم، سوط المطرودين من الجنة. كررت ذلك مع نفسها. كانت هي التي أصيبت بالإحباط وحدها، لكن كان عليها أن تكون قادرة على التمييز بين الواقع وأوهامه. مما لا شك فيه أن الاستعدادات لهذه الأشهر العديدة كانت تقترب من نهايتها. ما هي الوسيلة الأخرى التي بقيت أمامها عدا التخمين؟ من بوسعه أن يعرف ما إذا كان بيلا سيكون هدفاً لهذا الاستعداد الطويل؟ من بوسعه أن يعرف ذلك؟

ستعرف ذلك اليوم أو غداً أو بعد ثلاثة أو أربعة أيام، ستعرف ذلك من الأخبار.

كان الطريق متعرجاً باتجاه الصعود. تمايلت أزهار كانون الأول الصفراء على حافة الأسفلت. صعدت دون أن تتوقف لتنظر إلى التفرع الذي ستصل من خلاله إلى طريق إسباديّوس. استمرت بسرعتها وتجاوزت المنحنيات الحادة حتى غادرت الطريق الرئيسي ودخلت إلى الطريق غير النظامي ذي الأحجار الذي تسللت إليه الأمطار والمؤدي إلى التل.

لم يكن هناك أحد تقريباً في ذلك الوقت من المساء. كان بعض الشبان من المزارع المجاورة يسافرون عبر الطريق السريع المجاور، أما على التل، فلم يكن هنالك سوى هبوب الرياح. لم يتمكن العشاق من التفكير في المناظر الطبيعية، إلا عند ظهور الشفق.

نزلت من السيارة وصعدت الطريق سيراً على الأقدام إلى القمة. جلست على الحجر الذي كان يشير إلى لغز حدٍ ما أو مسافةٍ ما. كان ما نقشته قد تم محوه وتآكل بفعل الفرك الذي قام به الكثير ممن كانوا يأتون إلى هنا للجلوس أو التحدث عن علاقاتهم العاطفية أو مشاريعهم أو أحلامهم.

كان يوماً صافي الجو. بزوال الضباب، اتضح المشهد الذي كانت تنظر إليه من الأعلى. كان خط البراكين الزرقاء بقممها الصامتة والصلبة المهيبة يمتد بعيداً ويطل على البحيرة والمدينة الصغيرة. كان المشهد الأقرب إلى ذلك هو الغطاء النباتي للجبال الذي كان يصل حتى المنحدرات المتجهة نحو المدينة، ليظهرَ خضارها وأشجارها المتشابكة مع تيجانها الوفيرة وجذوعها ذات الحبال المشدودة التي تميل بشكل خطير نحو الفراغ. جاءت رائحة قهوة حلوة من مكان قريب. اختلط صوت الريح بين الأوراق مع تغريد الببغاوات التي كانت تطير في أسراب.

أسندت حنكها إلى قوس راحة يدها وهي تنظر إلى كل ذلك. كانت تظن أن هذا الجمال يستحق الموت من أجله. الموت لمجرد الحصول على هذه اللحظة: حلم اليوم الذي يكون فيه هذا المشهد بالفعل ملكاً للجميع. لخصت تلك الصورة فكرتها عن الوطن. كان هذا المشهد هو الصورة التي

كانت تحلم بها عندما كانت على الجانب الآخر من المحيط. من خلال هذا المشهد، استطاعت أن تستوعب الأحلام الجامحة للحركة. كانت هذه الأرض ترنيمة لجسدها ولكونها امرأة مغرمة في تمرد على الثراء والبؤس، العالمان الرهيبان لوجودها المنقسم. كانت تلك الطبيعة الرائعة تستحق حظاً أوفراً. كان الشعب يستحق هذا المنظر الطبيعي وليس المجاري ذات الرائحة الكريهة على شاطئ البحيرة ولا الشوارع التي تتجول فيها الخنازير والأجنة السرية والمياه التي ينتشر فيها بعوض الفقر.

أين هم رفاقها؟ في أي بقعة صغيرة، في أي شارع يمشون؟ ما الذي يشغل وقت فيليب في هذه اللحظة عندما شعرت أخيراً بأنها جزء من كل ذلك؟

قبل الذهاب إلى الفراش، اتصلت بوالدتها بدافع مفاجئ.

– قال صوت الطرف الآخر على الهاتف: «لابينيا؟»

– «نعم أمي، أنا لابينيا» كانت متعبة. ترى أنهما كانتا تبدآن حديثهما دوماً على هذا النحو، ثم تتعرف على صوتها في كل مرة.

– كيف الحال؟

– «حزينة بعض الشيء، لأكون صادقة معك». سألت نفسها لماذا كانت تقول ذلك لأمها؟

– لماذا يا ابنتي؟ ما الذي حصل لكِ؟

– لا أعرف... نعم، أعرف. حصلت لي أمور كثيرة. الحقيقة هي أنني أود أن أكون قادرة على التصالح مع أشياء كثيرة.

– ألا تريدين أن تأتي يا بُنَيَّتي؟

– كلا يا أمي، إنني نعسانة. لا تقلقي. شعرت فقط برغبة في التحدث إلى شخص ما.

– لم نتحدث مع بعض منذ فترة طويلة.

– أظن أننا لم نتحدث قط مع بعض يا أمي. أعتقد أنكِ كنتِ تعتقدين دائماً أنني لست بحاجة إلى التحدث إلا مع العمة إينيس.

– أجابها الصوت بتوتر: «حسناً، إنكِ تحبينها هي فقط».

– لكن هل خطر لكِ يوماً أنني أحببتها لأنها كانت تهتم بي ولأنها تحبني يا أمي؟

- حاولت يا ابنتي، لكنك كنتِ تفضلينها دائماً. كنتِ لا تتكلمين معي.

- من الصعب التحدث عن ذلك عبر الهاتف. لا أعرف لماذا قلتُ ذلك.

- قالت الأم وهي تؤدي دورها: «لكن يجب أن نتحدث عن ذلك. لا أريدكِ أن تبقَيْ دائماً مع هذه الفكرة، فكرة أننا لم نحبك».

- لم أقل ذلك يا أمي.

- لكنك تعتقدين ذلك.

- نعم. إنكِ على صواب. إنني أعتقد ذلك.

- حسناً، لا يجب أن تفكري بذلك. عليكِ أن تفهمينا.

- نعم، ربما ينبغي علي ذلك. إنني دائماً من يجب أن يفهم.

- لا تكوني هكذا يا ابنتي. لماذا لا تأتين؟

- حسناً. سأمر خلال هذه الأيام.

- تعالي غداً.

- لا أدري إذا كان بوسعي...

- ابذلي قصارى جهدك.

- حسنا يا أمي. تصبحين على خير.

- تصبحين على خير يا ابنتي، هل أنت متأكدة أنكِ بخير؟

- نعم يا أمي. لا داعي للقلق.

- هل ستأتين غداً إذن؟

- نعم يا أمي، سأمر غداً.

أغلقت السماعة. كانت أطول محادثة قد أجرتها مع والدتها منذ شهور وربما منذ سنوات. في النهاية حصلت المحادثة. لقد تحدثتا عما في أعماقهما، عما هو أساسي، الأمر الذي لم تتحدثا عنه قط. تعتقد أنه في يوم من الأيام قد تحبان بعضهما بعضاً وتفهمان بعضهما بعضاً، في يوم ما. شعرت بالقدرة الآن على فعل ذلك. كان بإمكانها رؤيتها ببساطة كإنسانة أنتجها الزمن وكإنسانة ذات قيم معينة. بالتأكيد كانت والدتها تحبها بطريقتها الخاصة مثلما يفترض بها هي أيضاً أن تحبها. حددت رغبتها بالاتصال

بوالدتها عندما كانت تشعر بالوحدة مسارَ علاقتهما، رغم أنهما كلتيهما لم تفهما قط خيارات حياتهما، التي باتت الآن أقل بكثير عمّا قبل.

ذهبت إلى الحمام. فكرت أنه في يوم من الأيام سيتعين عليها وعلى والدتها ووالدها تأجيل المحادثة إلى الأبد، ليس من أجلهما، بل من أجلها هي. في وقت ما، كان عليها أن تتصالح مع الطفولة. كانت ترش الماء على وجهها وتغسل مكياجها عندما سمعت الضوضاء في غرفة المعيشة. كان هنالك صوت صامت كما لو كان ارتماء جسد وكان صوت الباب يُغلق.

خفق قلبها بشدة كأنه ارتطم بقوة داخل صدرها وأصابها الخوف بالشلل. شاهدت وجهها الشاحب في المرآة وهي تجهد سمعها في محاولة لاحتواء الشعور المفاجئ بالضعف في ساقيها. سارت على أطراف أصابعها نحو غرفة المعيشة وبحثت بقلق في الخزانة أولاً عن البندقية التي تركها لها فيليبي عندما غادر المنزل. كان ذلك عندما سمعت «لابينيا، لابينيا»، كما لو كان أحدهم يناديها تحت الماء. بالكاد كان لديها الوقت للتعرف على الصوت قبل أن تشعر باندفاع جسده السريع يندفع عبر الأبواب. ركضت إلى غرفة المعيشة حيث كان فيليبي مستلقياً على وجهه على الأرض.

- كادت أن تصرخ: «فيليبي، فيليبي! ماذا حصل لكَ؟»

- قال فيليبي بصوت أجش وهو لا يزال على وجهه كأنه بذل مجهوداً كبيراً: «إذهبي للخارج وانظري جيداً إذا كانت هنالك بقع عند المدخل وأغلقَ عينَيْه».

- خرجت بذهول إلى الرصيف. أين البقع؟ لم يكن هناك شيء على البلاط.

رأت بالقرب من الباب بقع الدم.

عادت إلى المنزل وجثت بجانبه.

- قال فيليبي وهو مرتمٍ على الأرض دون أن يرفع رأسه حتى: «نظفي البقع. نظفي البقع أولاً».

ركضت إلى المطبخ وبحثت عن أي قطعة قماش. بللتها وخرجت مرة أخرى راكضة.

لم تكن تعرف حتى كيف تنظف البقع. سارت بسرعة عبر الحديقة وهي تنظر في كل مكان وتمرر قدمها فوق العشب الرطب حيث كانت هناك أيضا دماء فيليبي.

لم يكن هناك شيء في الشارع. كان منتصف الليل تقريباً.

دخلت وأغلقت الباب، كما أغلقت النوافذ ونظرت مراراً وتكراراً إلى فيليبي على الأرض. كانت ذراعه مطوية تحت جسده الشاحب. لم يتحرك.

جثمت مجدداً بجانبه.

– قالت: «أتممتُ ذلك. قمتُ بالفعل بإزالة البقع وقد أغلقتُ كل شيء. ما الذي حدث لكَ فيليبي؟»

– تنفس وقال: «الآن ساعديني على الالتفاف. ساعديني، سأرى إن كان بوسعي الوصول إلى سريرك» ثم قال بصوت متقطع: «لقد تم ضربي».

مضروب أو جريح. إنه نفس الشيء. لقد سمعت التعبير مرات عديدة. كانت ترى أن عليها الهدوء. لقد أخذت نفساً عميقاً وساعدته بالالتفاف. كان عليها أن تمنع نفسها من الاستسلام ومن الإغماء عندما رأت الصدر والبطن والملابس المضرجة بالدماء والدم على الأرض.

كان الجهد الذي بذله فيليبي للجلوس جهداً كبيراً. أغلق عينيه وفمه.

– «من الأفضل أن آخذك إلى السيارة فيليبي. أعلم أين يمكننا الذهاب» قالت ذلك وهي تفكر في منزل إسباديّوس.

– قال فيليبي: «لا. لا. ساعديني» همس ذلك وكان الألم يجعله يلوي وجهه.

في وقت دام كأنه لا نهاية له، تمكن فيليبي من الجلوس. جر نفسه على ركبتيه متكئاً على لابينيا ووصل إلى ضوء الغرفة. لم يعرفا قط كيف تمكنا من الوصول إلى السرير. استلقى فيليبي على جانبه وكان عليها مساعدته مرة أخرى كي يتمكن من الاستلقاء على ظهره. كان خائر القوى تماماً جراء الجهد المبذول.

بدم بارد بعيداً عن الشعور، أحضرت لابينيا منشفة من الحمام وبدأت في فك أزرار قميصه بإيماءة ساحرة تقريباً، إذ كان القميص ممزقاً كلياً.

أوقفها فيليبي بوضع يده على يدها، مشيراً إلى وجوب الانتظار.

مرت عدة دقائق. كانت الأفكار تتعثر بعضها ببعض في ذهن لابينيا. عليها أن تنقله إلى المستشفى. لم تكن حالته مثل حالة سيباستيان. كان فيليبي يحتضر وكان ينزف حتى الموت. كان جرحه مفتوحاً على مستوى المعدة. لن يستمر طويلاً إذا لم تستطع نقله إلى المستشفى. كان عليها أن تتصل بالجيران. لا شيء يهم لا شيء أكثر من إنقاذ حياته حتى لو زُج بهما في السجن فيما بعد. لا شيء يهم.

- قالت لابينيا: «فيليبي، ذلك خطير. ليس لنا أن ننتظر هنا في هذه الغرفة. يجب أن آخذك إلى المستشفى».

كادت أن تخبره «ستموت»، لكنها قد تمالكت نفسها.

فتح فيليبي عينيه. عاد الهدوء إلى تعابيره. كان يتنفس بصعوبة.

وضعت بشكل فطري بعض الوسائد خلفه ليتكئ عليها ولتميله قليلاً وكانت تفكر في الدم والنزيف الداخلي والرئتين.

- كررت قائلة: «يجب أن آخذك إلى المستشفى»، بينما كانت تتخذ قرارها بالاتصال بأدريان. سيساعدها أدريان.

- قال فيليبي: «اقتربي. سأذهب إلى المستشفى، لكن يجب أن أتحدث إليكِ أولاً... من فضلك...»

- قالت لابينيا: «لكن دعني أتصل بأدريان، دعني أتصل بأدريان كي يتمكن من الحضور بينما نتحدث ليساعدني في اصطحابك إلى السيارة».

- كلا. كلا. اقتربي أولاً. ليس هناك وقت. فيما بعد. بوسع أدريان المجيء فيما بعد...

- لكن...

- رجاءً لابينيا... رجاءً...

كان مُصِراً. أصر بعينيه ويديه، بما هو سليم من جسمه. اقتربت لابينيا يملؤها اليأس.

- «اسمعي جيداً. غدا هو الحدث. الحدث في منزل بيلا. سنأخذ منزل بيلا. إنها مجموعة قيادية مؤلفة من ثلاثة عشر شخصاً وأنا أحدهم... كنتُ أحدهم... كل شخص مهم» قال ذلك شبه مبتسم.

كان يتحدث بحزم، كما لو استجمع كل ما أوتي من قوة للتحدث معها، آخر القوى التي كانت لديه.

– أريدكِ أن تأخذي مكاني. إنك تعرفين المنزل جيداً. لا يوجد وقت لأي شخص آخر ليعرف ذلك بشكل جيد. أريدكِ أن تكوني الشخص الذي يأخذ مكاني وليس شخصاً آخر. أعلم أنكِ تستطيعين فعل ذلك. إنني أيضاً مدين لكِ لأنني كنتُ من عارضَ مشاركتك...» تنفس، ثم أغمض عينيه وفتحها مرة أخرى وقال: «إنني مدين لكِ. يمكنك أن تفعلي ذلك وقد أثبت ذلك. يمكنك أن تفعلي ذلك... إذهبي إلى المنزل. أخبريهم أنهم ضربوني عندما كنا نقوم بعملية سيارة الأجرة. أخبريهم أنه ليس الحارس. كان سائق سيارة الأجرة عندما أخبرته أن يعطيني سيارة الأجرة. ظن أنني لص. أطلق النار من مسافة قريبة. فقلت له بعد فوات الأوان إنني من الحركة وتوترت. لم أكن أعتقد أنه مسلح. لقد أخفقت. كان غباء مني! قال لي سائق سيارة الأجرة نفسه «لو كنتَ قد قلتَ ذلك من قبل»» وابتسم فيليبي ساخراً من سوء حظه ومن مفارقة الحادث المؤسف. سعل وأغمض عينيه. بدا كأنه يأخذ نفساً للاستمرار. «هو نفسه من أحضرني إلى هنا. أراد مساعدتي. لم أجد ما أفعله. كان سيأخذني إلى المستشفى، لكنني أقنعته أن ينزلني بالقرب من هنا. حذرته من الاتصال بالشرطة حتى إني قد هددته... تحسباً لأي شيء» وأخذ صوت فيليبي يصبح ضعيفاً.

لقد فكرت في سوء حظ فيليبي. بالتأكيد، كان يحمل السلاح عندما قال لسائق سيارة الأجرة: «إنه اعتداء، أعطني السيارة». وكردة فعل سريعة من سائق سيارة الأجرة في مواجهة العنف، ضربه أولاً. مواجهة مميتة. إنه خطأ بفارق بضع ثوان.

لو أن عبارة قد قيلت في الوقت المناسب، لم يكن فيليبي ليتأذى. حتى إن بعض سائقي سيارات الأجرة يتعاونون مع الحركة. ربما لم يكن ليطلق النار عليه. ربما أشياء كثيرة! لم يعودوا يعرفون. لم يعد الأمر مهماً. تلاشت الأسئلة بالنظر إلى وجه فيليبي وإلى التعبير الذي تجلى على شحوب وجهه.

كان تعبيراً قوياً وثابتاً. كان ينظر إليها من مسافة قريبة. كان لديها إحساس

بفقدانه مثل إشارة راديو ضعيفة تتلاشى في الهواء. ظلت متوقفة مشلولة تنصت إليه وتسمعه يقول إنه منعها من المشاركة وهو الآن يطلب منها أن تأخذ مكانه. تقاطعت ومضات من الحب واليأس داخل صدرها مثل هبّات رياح باردة. لم تستطع الاستمرار على هذا المنوال. لم يتمكنا من الاستمرار على هذا النحو، ينظران بعضهما إلى بعض ويخبران بعضهما بعضاً بالنظرات ما لم يعد هناك وقت لحله. توقفت المناقشات الأبدية عند هذا الحد، إزاء الموت، إزاء دماء فيليبي المتدفقة من صدره والمنتشرة على ملاءات السرير حيث عرفا الحب والحياة والتناقضات.

- قالت لابينيا بهدوء: «دعني أتصل بأدريان» وهي تحاول تحرير يد فيليبي التي كانت تمسكها والتي كانت تسندها على السرير حيث كان ينزف حتى الموت.

- قال فيليبي: «لم تجيبيني، هل ستأخذين مكاني؟ هل ستقومين بذلك؟»

- قالت لابينيا: «نعم، نعم، سأفعل ذلك».

- لا تدعيهم يقولون لكِ لا.

- كلا. فيليبي، لن أجعلهم يقولون لي لا.

أدركَت أنه كان يتحدث إليها كطفل صغير. كان صوتها هادئاً ومواسياً، مثل صوت عمتها إينيس عندما كانت مريضة.

أغلق فيليبي عينيه وأرخى يده. بالكاد سعل وكان صدره يبدو محتقناً بشكل رهيب.

أدركت لابينيا إزاء هذا الصوت اقتراب الحياة التي كانت تهرب أمام عينيها والتي لم تستطع ببساطة قبول نهايتها. مع ذلك، كان عليها أن تتفاعل. رأت أنه لا يمكنها الاستمرار في المقاومة، الاستمرار بالتفكير أن فيليبي سيعيش رغم كل شيء.

نهضت وذهبت إلى الهاتف دون أن ترفع عينيها عن فيليبي وكانت عيناه مغمضتين وكان دمه يُحْدِث بحيرة حمراء على السرير.

- أدريان؟

أجاب بصوت النائم الأجش بنعم.

- أدريان، أنا لابينيا، استيقظ رجاءً.

أيقظت أدريان الحاجة الملحة الطارئة. أخبرته فقط أنها تحتاجه. لم تشرح له أي شيء آخر. إنها حالة طارئة. من فضلك. عليه أن يأتي لمنزلها على الفور. كان الأمر عاجلاً للغاية. قال أدريان: «سأصِل الآن».

حسب الوقت الذي سيستغرقه للوصول إلى هناك. كان يقدره أن خمس عشرة دقيقة كأقصى حد. في ذلك الوقت لم تكن هناك حركة مرور.

ذهبت إلى الحمام وبحثت عن منشفة أخرى نظيفة. اقتربت من فيليبي وهي تجثو بجانب السرير. فتح عينيه.

- «لابينيا؟» سألها وأرعبتها نظرة الغياب في عينيه.

- أنا هنا يا فيليبي. أدريان قادم. سنأخذك إلى المستشفى. كل شيء سيسير على ما يرام. عليك أن ترتاح. لا تقلق.

- «إنكِ امرأة شجاعة، أتعلمين ذلك؟» قال فيليبي ذلك بصوت رقيق مثل هبوب الريح عبر مضيق.

- قالت لابينيا: «أعتقد أنه من الأفضل ألا تتحدث. التزم الصمت حبيبي...» ولم تستطع كبت الرغبة في الاقتراب منه ووضع رأسها على جبين فيليبي وتقبيله وتمرير أصابعها على شعره.

- قال فيليبي «حبيبتي، حبيبتي» كما لو كان يكرر اسماً ويسعل من جديد، وهذه المرة بقوة أكبر وارتعبت لابينيا عند رؤيتها لخيط من الدم يخرج من فمه بينما كان رأسه مستنداً إلى المكان الذي قرّبت صدرها فيه. تحرك رأسه حركة خفيفة ثم صمت.

انحنت لابينيا لتمسح الدم من خده ورأت ثبات العينين والفم شبه المفتوح. مات فيليبي. لقد مات منذ لحظة، هناك، قريباً جداً منها: لم يعد صدره الذي كان ينهض وينزل متنفساً بصوت مسموع تقريباً يتحرك.

- قالت بهدوء خشية من أن توقظه كما لو كان قد نام: «فيليبي؟» ثم قالت بصوت أعلى قليلاً: «فيليبي؟».

لم يكن هناك جواب. كانت تعرف أنه لن تكون هناك إجابة. انحنت إلى

فيليبي وبكلتا يديها ضغطت بشدة على صدره للأعلى وللأسفل مثلما رأت لأكثر من مرة المسعفين يفعلون في عروض الإسعافات الأولية. تلطخت يداها بالدماء. لم يحدث شيء. كان فيليبي مرتخياً، لا يتحرك.

قالت لنفسها إنه ميت. ثم قالت لنفسها لا يمكن أن يكون. تساءلت أين أدريان وفكرت متى سيأتي. كانت تردد مع نفسها لا يمكن لفيليبي أن يموت وكانت تلمسه وتضع وجهها قريباً جداً من عينيه، من المكان الذي يفترض أن تتوجه نحوه نظرته، النظرة الحزينة التي لم تعد تراها.

كانت على وشك الصراخ لا!. قالت لوحدة الليل «لا!».

بدأت تقول بصوت عالٍ: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك» وبدأت تناديه بصوت عالٍ «فيليبي». قالت له «فيليبي، لا تمُتْ». «فيليبي، عُدْ أرجوك. فيليبي!» وتحولت نبرة صوتها إلى نبرة يائسة دون أن يتحرك، دون أن يحاول تهدئتها، ليقول لها «لا تكوني كذلك يا لابينيا، اهدئي».

نهضت ودون أن تعرف السبب، خرجت لإضاءة المنزل. كانت تتحرك بشكل مجنون. أرادت أن تفعل شيئاً بيديها. لم تكن تعرف ما هو. لم تكن تعرف ما إذا كانت تريد أن تضرب أو تنتزع شعرها أو تبدأ في البكاء، لكن الدموع لم تكن تتساقط. لم تستطع سوى التفكير في أدريان. كان على أدريان أن يأتي. لم تصدق أن فيليبي مات حتى وصل أدريان. لقد أغمي على فيليبي. لقد فقد وعيه في غرفتها. لقد فقد الكثير من الدم. من المؤكد أنه ذلك. لم تكن طبيبة. لم تكن تعرف كيف يتم التعرف على الموت. كان على أدريان أن يأتي. كل شيء سيكون على ما يرام عندما يصل أدريان.

وصل أدريان. فتحت الباب وأمسكت بيده، دون أن تنبس ببنت شفة واقتادته إلى الغرفة ولم يطرح أي أسئلة لأنه رآها ملطخة بالدماء ورأى الدماء على ثوبها ويديها.

جثا بجانب فيليبي ولمسه ووضع يده على جبهته. رأته يضع يده أمام فمه ورأته يضيء القداحة ويقربها من عيني فيليبي. قال لها «أعطِيني مرآة». أعطته إياها ورأته يضع المرآة أمام فم فيليبي. ثم رأته يغلق عيني فيليبي ويمرر يده على وجهه ويغمض عينيه مرة أخرى ويغلق فمه شبه المفتوح ويضعه بشكل استلقاء على السرير ويثني يديه على صدره كالموتى.

نهض من جانب السرير ووقف بجانبها ونظر إليها.

- قال لها بصوت خافت للغاية كأنه يخبرها بسر: «ليس هناك ما نفعله».

نظرت إليه لابينيا دون أن ترغب باستيعاب الأمر.

- قال لها أدريان: «إنه ميت». ما من شيء لفعله.

- قالت لابينيا: «علينا أن ننقله إلى المستشفى. نحن لا نفهم بهذه الأمور».

وضع أدريان يديه على ذراعيها ونظر بثبات في عينيها.

- «بلى، إننا نفهم بهذه الأمور لابينيا. لقد مات فيليبي» قال ذلك وعانقها وبدأ يمسد على رأسها بلطف.

- قالت لابينيا مبتعدة عنه: «لا يمكن أن يكون الأمر كذلك» وكررت «لا يمكن ان يكون كذلك» وصرخت «لا يمكن أن يكون كذلك!»

وعاود أدريان وضع يديه على ذراعيها وعانقها مرة أخرى.

- «لابينيا، أرجوك لا تجعلي الأمر أكثر صعوبة. من فضلك. إنه أمر مروع، لكن عليكِ تقبُّله».

لقد مات فيليبي. كان عليها تقبّل الأمر. فكرت لماذا كان عليها تقبّل الأمر. لماذا كان عليها أن تتقبل موت فيليبي؟ لم يكن على المرء تقبّل أي شيء. ابتعدت عن ذراعَيْ أدريان. جثت على ركبتيها بجانب السرير مرة أخرى. لمست فيليبي. كان جسمه بارداً. كانت بشرته باردة. لم يكن بارداً جداً، بل مجرد بارد، لكنه لم يتحرك. لم يكن يتنفس. كان عليها تقبّل الأمر. إنه ميت.

- قالت: «فيليبي؟ فيليبي؟» وجثت على ركبتيها وجهها فوق صدره وحنت كتفيها من دون دموع.

اقترب منها أدريان مجدداً. وضع يده على كتفها. طلب منها أن تنهض وأخذها إلى الحمام وجعلها تغسل يديها وتغادر الغرفة وتذهب إلى المطبخ، وتجلس على كرسي المطبخ بينما كان يعد لها قهوة ساخنة.

- قالت لابينيا: «على أي حال، علينا نقله إلى المستشفى».

- هل تعرفين عائلته؟

– كلا. ما أعرفه هو فقط أنهم يعيشون في بويرتو ألتو.

– وهل أنتِ متأكدة من أنه بوسعنا أن ننقله إلى المستشفى؟ أعلم أن الأمر صعب عليكِ، لكن ابذلي جهداً. حاولي التفكير لبعض الوقت إذا كان من المناسب نقله إلى المستشفى. سيطرحون الأسئلة هناك. ماذا سنقول لهم؟ أخبريني بما حدث؟ كيف حصل الأمر؟»

– ركب سيارة أجرة. كان عليه أن يأخذ سيارة الأجرة ويأخذها من السائق. أي إعارة وأنت تعرف كيف يحدث ذلك... لكن سائق التاكسي لم يفهم. كان يعتقد أنه لص وأنه كان يسرقها. أطلق عليه النار من مسافة قريبة. ثم أحضره إلى هنا... لقد ارتعب. قال إنه لن يتصل بالشرطة...

– قال أدريان: «ماذا؟ لم أفهم. ركب سيارة أجرة، ظن سائق التاكسي أنه لص وأطلق عليه النار. لكن كيف جاء ليتركه هنا؟ وكيف لم يطلق فيليبي النار عليه أولاً؟ ألم يكن مسلحاً؟»

– قالت لابينيا: «لا أدري. لا أعلم. أظن ذلك. أعتقد أنه لم يطلق النار عليه لأن السائق قد قام بذلك أولاً ولأنه لم يعتقد أنه سيطلق النار عليه. لا أعلم! لكنه قال له فيما بعد إنه من الحركة وأن لا يسلمه للشرطة، فَلَم يُسَلِّمه الرجلُ، بل جاء به إلى هنا. أعتقد أن الأمر كذلك!» ارتشفت القهوة من الفنجان الذي وضعه أدريان في يدها. لقد كان ساخناً. كان من الجيد أن تشعر بالحرارة. كانت ترتعش. كانت تشعر بالبرد الشديد. «هل مطرت؟ لماذا أشعر بهذا البرد؟ عائلة فيليبي... كيف ستكون عائلة فيليبي؟»

نهض أدريان وعاد وهو يحمل بطانية. وضعها على كتفيها.

– قالت لابينيا: «تعيش عائلة فيليبي في بويرتو ألتو. والده عامل تحميل وتفريغ في الميناء. هل ترى أنه يجب عليك الاتصال بهم؟ هل يجب أن نتصل بهم ونسلم فيليبي لهم؟»

كانت تفكر: الجثة، جثة فيليبي. فكرت أنه هنا تكمن المشكلة، لكنها لم تقلها. لم تستطِع قول ذلك. بدأت تشعر برغبة فظيعة بالتقيؤ. وضعت القهوة على المنضدة وأمسكت بطنها وانثنت على نفسها وهي تخفي رأسها بين

ركبتيها. هكذا أرادت أن تبقى، ألا ترفع رأسها مرة أخرى وألا ترى أحداً مرة أخرى وأن تبقى مع فيليبي هناك في المنزل.

- قال أدريان: «لابينيا...»

لم ترد. بدأت تفكر في والدة فيليبي. كيف يمكن أن تكون؟ هل يشبهها الابن؟ يا له من رعب! الوصول برفقة فيليبي وهو ميت. تخيل صراخ المرأة ونظرتها المؤلمة. ستقول بالتأكيد «ماذا حصل له؟». بدأ صدرها بالتقلص.

وضع أدريان يده على كتفها. سألها إن كانت تشعر بتوعك.

أحدثت صوتاً قبيحاً كادت لا تصدّق أنه صوتها. كان بكاءً جافاً أجش.

- قال أدريان: «إبكي. سيفيدك البكاء».

رفعت رأسها.

- قالت: «لا وقت. ليس لدي وقت. قال فيليبي إنه يجب أن أحل محله». لم يكن هناك وقت. بدأ ضوء الفجر يمر عبر النافذة. كان يمكن سماع صياح الديك من بعيد.

كان على أدريان أن يتولى أمر فيليبي، فيليبي الذي كان قد مات بالفعل. كان عليها أن تخرج من هناك وتذهب إلى المنزل، إلى المنزل الذي كان يجب أن يصل إليه فيليبي. سيكونون بالتأكيد بانتظاره. ستكون المجموعة القيادية متوترة وهي تفكر فيما يمكن أن يكون قد حدث. قد يحدث شيء ما إذا لم تصل بسرعة وإذا لم تخبرهم بما حدث. قد يقوم سائق سيارة الأجرة بالإبلاغ عنهم. ارتمت على الكرسي.

- قالت: «أدريان، عليك أن تتولى أمر فيليبي. يجب علي أن أذهب».

ظن أدريان أنها كانت مستاءة ولم تعرف ما كانت تقوله.

- «لا تقولي ذلك، لابينيا. سترين أننا سنجد حلاً معاً. لا تكوني هكذا. اهدئي. تناولي المزيد من القهوة».

- قالت لابينيا: «أنت لا تفهم. إنني بخير وهادئة، لكن علي أن أذهب. يجب أن أخبرهم».

- قال أدريان: «يمكننا أن نفعل ذلك لاحقاً».

- قالت لابينيا: «كلا. لا يمكن ذلك. لا أستطيع أن أخبرك بأي شيء

آخر. لكن لا يمكن تأجيل الأمر إلى وقت لاحق. علي الذهاب الآن قبل طلوع الفجر. يجب أن أذهب».

- قال أدريان: «وفيليبي؟ ماذا سنفعل بفيليبي؟» وكان خائفاً.

- قالت لابينيا: «عليك أن تتصل بخوليان». خوليان صديقه. إنه يعرف مكان العائلة وعليك إخراجه من هنا خفيةً دون أن يعرف سكان المنطقة بذلك. أخرجه من هنا وخذه إلى مكان آخر. في مكان آخر غير هذا المكان. ذلك في غاية الأهمية. يمكنني الاتصال بخوليان، لكني لا أستطيع انتظار الاتصال به. عليك أن تبقى هنا وتنتظره. إشرح له الحادث. أخبره أنه توجَّب علي الذهاب ولا تسأل عن أي شيء. سيقوم بمساعدتك، إنني متأكدة من ذلك، فهو صديقه. كانا يحبان بعضهما بعضاً كثيراً». قالت مرة أخرى إنها تشعر برغبة في البقاء هناك وفي البكاء، لكن لم يكن هناك وقت. كان عليها أن تذهب.

- لكن لا يمكنكِ أن تذهبي هكذا بمفردك. إنك لستِ بخير، لابينيا. على الأقل، انتظري لحين قدوم خوليان وسأرافقك.

- «كلا. إنني بخير. لن يحدث لي شيء. يجب فقط أن أذهب لأخبرهم. هذه الحقيقة، صدقني. لا يمكنك أن تأخذني إليهم لا أحد يستطيع أن يوصلني. يجب أن أذهب بمفردي». مررت يدها على شعرها. في بعض الأحيان، كانت تشعر بأنها قد جنَّت. كانت تقاتل ضد نفسها، ضد دافعها للعودة إلى الغرفة والبقاء مع فيليبي وللبكاء. لكن الدموع لم تكن تخرج. كانت تشعر بالجنون وبالإنهاك. أرادت المغادرة الآن وأرادت في نفس الوقت البقاء. رددت بينها وبين نفسها أن عليها الذهاب. عليها أن تفي بوعدها لفيليبي. كان ذلك آخر ما قاله لها: أن تحل محله. كان يجب عليها أن تفعل ذلك، فضلاً عن أن الآخرين سينتابهم القلق. قد يفشل كل شيء إذا لم تكن قوية وإذا بقيت بجوار فيليبي وبكت، لكنه من الفظيع تركه وحيداً. إن تركه هنالك متسخاً وملطخاً بالدماء على سريرها أمر فظيع، لكن كان عليها أن تذهب.

دخلت الغرفة. كان أدريان يتبع خطاها. كان فيليبي كما تركاه. لم يتحرك. كانت تأمل أن يكون فيليبي قد استلقى على جانبه عند دخولها، كما كان

يحب النوم. لكنه كان لا يزال مستلقياً على ظهره ويداه مطويتان على صدره تماماً كما تركه أدريان. اقتربت من الهاتف. بحثت في سجل الأرقام عن رقم منزل خوليان. أجابها هو على الهاتف. أخبرته أن عليه الوصول إلى المنزل وألا يتحدث بأي شيء سوى بما يتعلق بفيليبي. تعرض فيليبي لحادث ومن الضروري أن يصل على الفور.

ذهبت بعد ذلك إلى الحمام وغيّرت ملابسها المضرجة بالدماء. ارتدت الجينز الأزرق وقميصاً وحذاء تنس. رأت سترة فيليبي الزرقاء وأمسكت بها ووضعتها على كتفيها. كانت لا تزال ترتعش من البرد.

قبل أن تغادر الغرفة، جثت على ركبتيها بجانب فيليبي. اندفع البكاء من صدرها كتيار عارم لا مجرى له. كان ألماً أصاب كل ركن من أركان جسدها.

قالت وهي تقترب من وجهه: «سأذهب الآن، فيليبي». كررت: «سأذهب الآن، أيها الرفيق. إما الوطن الحر أو الموت». بكت وهي تقبل يديه وتشعر لأول مرة برطوبة الدموع التي كانت تنذرف.

نهضت هاربة من تلك الدموع التي كانت تهددها بالشلل. تركتها هناك مخففة على قميص فيليبي المضرج بالدم.

قالت لأدريان: «سأذهب وخرجت من الغرفة وهي تركض تقريباً».

تبعها أدريان إلى الباب. ودّعا بعضهما بعضاً بسرعة. قالت لابينيا: «الوداع. اعتنِ به من أجلي». قال أدريان: «اعتني بنفسك».

نظرت الى ساعتها. كانت الساعة تقترب من الخامسة صباحاً. أدارت محرك السيارة. مسحت الزجاج الأمامي للسيارة بيدها. كان مغطى بالضباب الندي، ثم خرجت. كانت الشوارع قد بدأت تنبض بالحياة بحركة شاحنات توصيل الحليب والسُعاة الذين يلقون الصحف على أرصفة المنازل من على دراجاتهم النارية. كان يوماً يضاف للأيام، يوماً آخر. بدا كل شيء طبيعياً. مرّت بمنازل كانت حدائقها مزينة بزينة أعياد الميلاد. كانت الأشجار مزينة بالشموع الملونة وكانت أشجار أعياد الميلاد تُلمَح من خلال النوافذ. يبدو أن لا شيء قد تغير. لم يحزن العالم على وفاة فيليبي. كان الأمر كما لو أنه لم يحدث. بدأت في البكاء. كان بكاؤها يحجب رؤية الطريق الذي كانت

تسلكه حينها والزهور الصفراء على حواف الطريق تتأرجح رطبة في الرياح الباردة لصباح كانون الأول.

شعرت أن البكاء كان ينبع من قدميها مسبباً ألماً حاداً في بطنها وفي معدتها. تنفست بعمق. كان عليها أن تهدّئ نفسها. ليس بإمكانها البكاء على هذا النحو. لن تتمكن من القيادة إذا استمرت في البكاء بهذه الطريقة.

أثارت الأفكار فوضى الصور في ذهنها. فيليبي وهو يضحك وفيليبي في السرير وفيليبي في المكتب وفيليبي في صباح آخر يوم رأته فيه وفيليبي الذي أخبرها أن الحدث لا علاقة له ببيلا وأخبرها أنه لم يكن يريدها أن تشارك وفيليبي عندما قابلته وعرفته وفيليبي وهو هامد في سريره ومضرج بالدم. لم يتغير العالم بدون فيليبي، لم يتغير شيء. مع ذلك، فقد تغير كل شيء بالنسبة لها. الغضب، الغضب عند وفاته التي ذهبت سدىً وموت الكثيرين والدكتاتورية والجنرال الكبير والجنرال بيلا ومنزله العبثي ونساء بيلا والحمقى. كانت تكرههم. كانت تكرههم كرهاً نابعاً من أحشائها التي كانت تؤلمها ومن دواخلها التي كانت تخِزها ومن بطنها. بوسعها قتلهم بيديها، بيديها المجردتين دون أن تشمئزّ.

كان عليها أن تستمر، أن تواصل. ما كان لفيليبي أن يموت عبثاً. يجب أن تتحقق أحلامه وأحلام الآخرين الكثيرين لتجنب أن يلقوا حتفهم بلا جدوى وأن يكون عديم الفائدة. لا يمكن أن يذهب موته سدىً. يجب أن يتحقق النصر، يجب القيام بأشياء كثيرة. كانت صور فيليبي وهو يضحك على الشاطئ وفيليبي على متن السفينة متجهاً إلى ألمانيا وفيليبي عندما كان طفلاً في المدرسة... كل صور فيليبي التي عرفتها والتي لم تعرفها تتقلب في ذهنها على شكل ومضات تشتعل وتنطفئ، وكذلك فيليبي العفريت وفيليبي العصفور وفيليبي الطائر الطنان وفيليبي الدب وفيليبي ذو النزعة الذكورية وفيليبي الجميل. في النهاية طلب منها أن تحل محله. ليس لأنه أراد ذلك، بل لأن الضرورة قد حتمت عليه ذلك. تدخل النساءُ التاريخَ بدافع الحاجة، حاجة الرجال التي لا تكفي للموت والقتال والعمل. كانوا يحتاجون إليهن رغم كل شيء، حتى لو أقرّوا بذلك فقط عند الموت.

- لماذا؟ فيليبي؟ لماذا؟ لماذا أخذك الموت مني؟ حبيبي، فتايَ، رَجُلِي الجميل.

وهكذا وصلت إلى منزل إسباديّوس. البيت المظلم. دخلت بالسيارة إلى أمام المنزل. أُنيرَت الأضواء. ظهر رجل. إنه الرفيق المسؤول عن المنزل. قالت لابينيا: «إنني إينيس. هل يبيعون النباتات هنا؟» كانت تلك كلمة السر. «أيتها الرفيقة، ضعي السيارة هنا في الخلف». قامت بوضعها هناك وتركتها خلف المنزل. رأت سيارات أخرى، سيارات أجرة. سيارات أجرة علامتها مرسيدس بنز. كانت هناك. شبه مخفية. كانت هناك سيارتَا أجرة، إحداهما قد تم إدخالها في المرأب بينما كانت الأخرى في الخارج مغطاة ببطانية وكذلك سيارتها. إنها ثلاث سيارات. لم يكن هنالك داعٍ لسيارة أجرة فيليبي.

عند الباب الخلفي للمنزل الذي كان باباً زجاجياً ينفتح على شرفة مغطاة بالعريشة، رأت سيباستيان وفلور يقتربان. كانا يرتديان سترتين فوق أكتافهما. بدت على مُحَيّاهما ملامح القلق. مرة أخرى تشعر بتمزق من الداخل عندما رأتهما واعترتها تلك الرغبة الرهيبة بالبكاء وبالصراخ أيضاً. مسحت أنفها بظهر يدها. اقتربت فلور وسيباستيان مسرعين نحوها. وضع سيباستيان ذراعه على كتفيها. قال: «ماذا حدث؟». لم تستطع لابينيا قول أي شيء وانفجرت بالبكاء. عانقت سيباستيان وبكت دون أن تتمكن من النطق بكلمة واحدة وشعرت أنها قد وصلت وأنها مع عائلتها ومع أحبائها وأشقائها. أدخلوها إلى المنزل، إلى صالة فيها القليل من الأثاث: عدد قليل من الكراسي المصنوعة من الألمنيوم ذات أغطية بلاستيكية منمقة بأشكال الزهور.

قالت فلورٌ شيئاً للرفيق المسؤول عن المنزل الذي خرج من المنزل مجدداً. قاموا بإطفاء الأنوار. كان الظلام يتلاشى بالفعل أمام ضوء النهار.

اختفت فلور وعاودت الظهور ومعها قدح من الماء للابينيا قد أعطته إياها. أجلَسَها سيباستيان على كرسي وهو يضع ذراعه على كتفيها وإحدى ساقيه جاثية على جنبها. كانت مستمرة بالبكاء.

شربت الماء وقالت لنفسها إن عليها أن تهدأ، فلَم تأتِ من أجل البكاء.

كان عليها أن تخبرهم بما حدث، لكنها كانت تشعر كما لو أن فيليبي قد مات في تلك اللحظة، كأنه قد مات بالفعل في تلك اللحظة فقط، في الوقت الذي كانت تخبرهم فيه. لم تكن الكلمات تخرج من فمها. كانت توشك أن تخبرهم بالأمر، ثم تعاود البكاء مرة أخرى.

– سأل سيباستيان: «هل تبعوك؟ هل بحثوا عنك؟ هل حصل شيء ما؟»

هزت رأسها بتناقض مع نفسها تقول «كلا» وتقول «نعم» دون أن تتمكن من النبس ببنت شفة.

– قالت فلور لسيباستيان: «دعها تهدأ» واقتربت منها لتربت على كتفها ولإعطائها المزيد من الماء.

كان عليها إخبارهم بسرعة. كانت تراهم متوترين مع كل دقيقة تمر. شعرت بالاستنفار في المنزل. كان هنالك ضجيج للخطى في الطابق العلوي ولأشياء كانت تتحرك.

نطقت أخيراً: «إنهم لا يتبعونني. لا داعي للقلق. إنهم لا يتبعونني. لم يحدث شيء مع الحارس».

تنفست نفساً عميقاً من فمها. كان عليها الاستمرار، عليها أن تذكر لهما ما حصل لفيليبي في تلك اللحظة وأن ترى موت فيليبي في عيون سيباستيان وفلور. كان عليها أن تفعل ذلك الآن، بعد أن هدأ نحيبها وبإمكانها التحدث.

– قالت: «ما حصل هو أن فيليبي...»، ثم شربت الماء وأخذت نفساً عميقاً وواصلت الحديث: «أن فيليبي قد اقتحم سيارة أجرة. اعتقد سائق سيارة الأجرة أنه كان لصاً، فأطلق عليه النار من مسافة قريبة. لقد مات فيليبي في منزلي منذ حوالي ساعة أو ربما ساعتين. هذا ما حدث».

كانت الدموع تنهمر على خديها في تلك اللحظة، لكن التنهدات كانت قد هدأت. كانت تحاول ألا ترى صورة فيليبي في مخيلتها، فكلما تراءت لها صورته في ذاكرتها، كانت تعاود التنهد. حاولت أن تفكر في شيء آخر، في كراسي الصالة وفي ذلك المكان غير المريح والمهجور وفي الجدران المتقشرة. لم تكن تريد أن ترى وجهي فلور وسيباستيان.

– قال سيباستيان وهو يشد على يدها ويجثو أمام كرسيها: «على مهل، ستبذلين جهداً في إخباري بما حدث».

كررت ما قالته على أمثل نحو ممكن بالنسبة لها. شربت رشفات من الماء واستخدمت منديلاً كبيراً خشناً سلمته فلور لها وكانت تقف بجوارها وتمسد على رأسها.

عندما انتهت من الحديث، ابتعد كل من فلور وسيباستيان وقالا شيئاً بعضهما لبعض.

- قال لها سباستيان بينما كان يتجه نحو فلور: «سنرسل أحد الرفاق ليرى موضوع منزلك وابقَي أنت معها».

- قال سيباستيان: «أعطِيني مفاتيح سيارتكِ».

قالت لابينيا: «انتظر. لا تذهب. علي أن أخبرك بشيء آخر. فيليبي يريدني أن آخذ مكانه. لقد أصر. قال إنني أعرف المنزل وأنه يثق بي وأن عليّ أن أقوم بذلك ويجب أن آخذ مكانه».

- حسناً، حسناً. سنتحدث عن ذلك.

- كلا. يجب أن أفعل ذلك سيباستيان، من فضلك. طلب مني فيليبي ذلك قبل وفاته وقال لي أن أصر على ذلك.

- قال سيباستيان: «سنتحدث عن ذلك» وغادر دون إعطائها الوقت للمتابعة.

- قالت لابينيا: «فلور، أرجوك، عليكِ مساعدتي. يجب أن أقوم بذلك. إنني أعرف هذا المنزل أفضل من أي شخص آخر».

- «نعم، نعم. إهدئي. لا تقلقي. انتظري قدوم سيباستيان. لم يقل لا. الموضوع هو فقط أن عليه الآن القيام بأشياء أخرى أكثر إلحاحاً. اشربي المزيد من الماء».

- 25 -

لقد مات فجراً. عاد إلى جوار الشمس. إنه الآن رفيق النسر، «كواوهتيكال[1]»، رفيق النجم. خلال أربع سنوات، سيعود «هيتثيلين[2]»، الطائر الطنان، الضعيف والبهي ليطير من زهرة إلى زهرة في الهواء المعتدل.

تولد الذرة والنباتات في الغرب، في «تامونتشان[3]»، وهي حديقة آلهة الحياة الأرضية. ثم تمر بمسيرة الإنبات الطويلة تحت الأرض. ترشدها آلهة المطر: كيوتي وتلالوك وتشاك وتشجعها كي لا تضل طريقها ولتظهر من جديد في الشرق في منطقة شروق الشمس والشباب والوفرة، في بلد الفجر الأحمر حيث يُسمَعُ تغريد طائر «كيتثالكوكستلي[4]»، حيث لا يكون الإنسان ولا الطبيعة محكوماً عليهما بالموت الأبدي. الموت والحياة وجهان فقط للقمر: أحدهما منير والآخر مظلم.

تنبت الحياة من الموت مثل حبة الذرة التي تتحلل في كنف التراب وتولد لإطعامنا.

كل شيء يتغير. كل شيء يتحول.

جعلت روحُ فيليبي الريحَ تهب لتحرك أغصاني. إنه الآن يعلم أنني موجودة وأنني أرى في دم لابينيا الخطط المكتوبة في ذاكرة المستقبل. سينظر إليها من موكب النجوم التي تغازل الشمس وتتبعها حتى تصل إلى أوجها. لن يغفل عن النظر إليها. سيلقي عليَّ بحرارته كي أتمكن من إسنادها.

1- رفيق النجم.
2- الطائر الطنان.
3- حديقة آلهة الدنيا.
4- الأفعى ذات الريش.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يغلي دم لابينيا كخلية مهتاجة. كان لابد من احتواء بكائها بالحجارة وتحويل الألم إلى رماح خارج غمدها تماماً مثل ألم يارينثي أمام جسدي المتيّبس.

أخذ رجلان يدفعهما الحزن جثة المحارب الذي سقط ميتاً. ألبسوه ملابس نظيفة وضمدوا جراحه العميقة.

حملاه من كلا الجهتين كما لو كانا يحملان رجلاً مخموراً بشراب «البولكي[1]».

***

أخذتها فلور إلى غرفة صغيرة فيها فراشان طويلان ورفيعان مفروشان على الأرض. قالت لها أن تحاول أن تستريح لبعض الوقت ريثما تخبر الآخرين بما حدث.

بعد قليل، سمعت لابينيا همهمة الأصوات في الخارج. كانت أصوات الناس تتحرك، ثم ساد الصمت وسمعت صوت فلور وهي تقول شيئاً عن فيليبي. لم تستطع تمييز الكلمات، لكنها كانت تسمع من وقت لآخر وبوضوح اسم فيليبي. أما باقي الكلام، فكان غير مفهومٍ. نظرت إلى جدران الغرفة الخضراء والمتقشرة. كان الجو بارداً. ضمَّت جسدها بين ذراعيها. لم تَعُد تبكي، بل إنتابتها حالة من الذهول. لم تكن تعرف كيف تُبعِد هذا الواقع الزمني الذي يمضي بداخلها الذي شوهه الألم والموت.

عادت فلور وهي تحمل في يدها فنجاناً معدنياً فيه قهوة بالحليب وقطعة خبز بالزبدة.

– قالت: «ألا ترغبين بتناول وجبة فطور صغيرة؟ ستجعلك على ما يرام».

وضعتها على الأرض بالقرب منها وجلست على الفراش الآخر.

– قالت فلور كما لو كانت مع نفسها: «يبدو الأمر لي كأنه كذبة. بالكاد أصدق أن فيليبي قد مات. حدث لي ذلك مؤخراً. لا أستطيع أن أصدق موت الرفاق. ليس ذلك ردة فعل مني. لا أعرف ما إن كنت سأبدأ في البكاء

1- العرق.

في أحد الأيام دون أن أكون قادرة على التوقف، البكاء على من لم أبكِ عليهم. نقول إن المرء يعتاد على تقبّل الموت كجزء من هذه الوظيفة، لكن ما إن نراه أمامنا دون أن نطأطئ له النظر ونراه بشكل طبيعي، أعتقد أن ما يحدث هو أننا سنرفضه بدلاً من ذلك. ليس بوسعنا تقبُّله، بل سنرفضه ببساطة. ما زلنا ننتظر رؤية الرفاق الأحياء. نعتقد أنه في يوم الانتصار سنجدهم جميعاً وسندرك حينئذٍ أنهم لم يموتوا وأنهم كانوا مختبئين في مكان ما...»

وضعت لابينيا وجهها بين ركبتيها المثنيتين على صدرها وهزته دون أن تتمكن من المحافظة على هدوئها.

– وهل مات وأنتِ وحدكِ؟ هل كنتِ معه بمفردكِ؟

– قالت لابينيا: «نعم. عندما رأيته، ظننت أن ذلك سيحدث في أي لحظة. لكن فيما بعد، عندما كنا نتحدث، رفضت تقبُّل احتمالية موته. عندما وصل أدريان وأخبرني أنه ميت، لم أصدقه أيضاً، حتى إنني في وقت لاحق، ذهبت إلى الغرفة لأرى ما إذا كان قد غير وضع استلقائه وما إذا كان قد تحرك. لكن لا شيء...»

– وهل شرح لكِ أن الحدث هو اليوم في منزل بيلا؟

– نعم. أخبرني أنه يجب أن أحل محله وأنه مدين لي لأنه كان هو من عارض مشاركتي. قال لي: «إنك شجاعة. يمكنك القيام بالأمر. لا تقبلي أن يخبروكِ بالرفض».

– لكن هل تدركي مدى صعوبة الانضمام الآن؟ لقد أمضينا في المجموعة القيادية شهرين في التركيز والمناورات والتدريب...

– لكني أعرف المنزل أفضل من أي شخص آخر. لقد كنت هناك، أما أنتِ، فلَستِ كذلك. أنا مَن صمّمه.

– لكن ذلك ليس كل شيء يا لابينيا. إننا نعرف مخطط المنزل جيداً.

– نعم. أعلم ذلك. أنا من أعطيت مجموعة المخططات لفيليبي، لكن تم إجراء العديد من التغييرات لاحقاً...

– لكنكِ لم تغيري ما هو أساسي.

– كلا، لكن تم إجراء بعض التغييرات. يمكنني أن أكون مفيدة. إن رؤية المخطط ليست مثل معرفة المكان على أرض الواقع.

كانت على حق. لقد وافقت فلور، لكن كان عليهما انتظار سيباستيان.
لقد صمتتا.
- قالت فلور: «أشعر أنك الآن أفضل قليلاً، أليس كذلك؟»
- لا أعلم. لا أعرف حتى ما هو شعوري. يبدو لي أنه لا شيء مما حصل حقيقي.
- قالت فلور: «عليك أن تكوني قويةً، خاصة إذا كنت تريدين المشاركة في الحدث. لا يستطيع سيباستيان رؤيتك بهذا الانهيار الشديد. عليك أن تبذلي جهداً لتستجمعي قواكِ ولتكفي عن تلك النظرة المبهمة للأمور وعدم التركيز. عليك أن تفعلي ذلك وأن تفعليه من أجل فيليبي، إنه ينتظر منكِ ذلك».
- من المحزن أنه أدرك فقط في النهاية أن بوسعي المشاركة، أليس كذلك؟ إنه أمر محزن.
قامت لابينيا بتعديل شعرها بيديها ورتّبت القميص داخل البنطال. فلور على حق. عليها أن تتغلب على آلامها إن كانت تريد المشاركة. قرّبت فنجان القهوة بالحليب وبدأت بتناول رشفات صغيرة وبقضم الخبز.
نظرت إليها فلور بصمت.
- قالت فلور بعد صمت طويل: «كان الأمر سيكون أكثر حزناً لو لم أتعرف عليه قط...» ثم أضافت بنبرة رسمية: «لابينيا، كانت لفيليبي مشاكله وأنت خير العارفين بتلك المشاكل. لكن الحركة ترى أنك أبديت شجاعة واستعداداً. اتفقنا مؤخراً على منحك العضوية القتالية. سيتم إبلاغك فيما بعد بالحدث، لكنني أظن أنه من المهم أن تعرفي ذلك الآن. أردتُ أيضاً أن أخبرك أنه مهما حدث، يمكنك الاعتماد عليّ. أحبكِ كثيراً، أحبكِ كأخت. أعلم أنك تمرين الآن بأوقات عصيبة، لكنني على ثقة من أنكِ ستخرجين من هذا الموقف قوية. لقد رأيتكِ تتغلبين على شكوكك ومخاوفك وأعلم أن لدي أسبابي التي تدعوني لأن أثق بكِ وأحترمكِ. لقد اخترتِ الانضمام إلينا والمخاطرة بكل شيء وأن تضعي حياتكِ على خط النار. لذلك قيمته وأعدكِ بالنضال من أجل السماح لكِ بالمشاركة لما تتمتعين به من مزايا خاصة وليس لأن فيليبي قد طلب منك ذلك، بل لأنك تستحقينه».
تعانقتا بقوة وبكتا بلا ضجيج ولا تنهدات. مسحت فلور وجهها بظهر

يدها وخرجت تاركةً لابينيا مرتاحة وهادئة، تشعر بالدفء والسلام في داخلها.

في الخارج، كان الرفاق يستعدون. كل شيء كان مصحوباً بالإثارة والانفعال. لمدة شهرين كانوا ينتظرون اللحظة التي تدربوا بدقة من أجلها. لا أحد يعرف بالضبط تفاصيل العملية. سيشرح لهم سيباستيان التفاصيل بدقة بمجرد وصوله. في هذه الأثناء، أعطت فلور تعليمات بمحو كل آثار إقامتهم هناك في المنزل. تم حرق الأوراق وتخزين الملابس التي لن يستخدموها في أكياس، كما تم تنظيف الأسلحة.

تتألف المجموعة الأصلية من أربع نساء وتسعة رجال.

الآن، بوفاة فيليبي، سيكون من الضروري معرفة ما إذا كان هناك خمس نساء سيشاركن.

عاد سيباستيان عندما كانت لابينيا قد انتهت من الاستحمام. كانت فلور قد أخذتها إلى حمام صغير. قالت لها: «الماء بارد جداً، لكنه سيكون مفيداً لكِ».

كان تدفق الماء على الجلد كضربة السوط. كانت مياهاً جبلية باردة جعلتها ترتجف وجددت نشاطها. وقفت تحت مرشة الحمام وتركت الماء يجري على وجهها وشعرها الطويل والثخين. كانت تريد أن تغسل الصور المروعة للساعات الأخيرة وأن تغسل عينيها المتورمتين من البكاء. لكن إحساس الماء على خديها أطلق الدموع مرة أخرى، لكنها الآن دموع هادئة ومستسلمة للقدر. كانت الدموع في نفس الوقت دموع حنين وعزم.

عاودت ارتداء ملابسها وسترة فيليبي الزرقاء. لم تَعُد تبكي. لا تستطيع البكاء بعد الآن. لا تستطيع ذلك لأن عليها التحدث مع سيباستيان. كانت أشعة الشمس تمنح الدفء بالفعل، لكن الطقس كان بارداً في تلك المنطقة، لا سيما في ذلك الوقت من العام.

خرجت إلى الصالة. توقعت أن ترى أشخاصاً آخرين، لكنها لم ترَ سوى سيباستيان وفلور. كانا ينحنيان على مجموعة من الخرائط موزعة على طاولة طعام مصنوعة من الألمنيوم والفورميكا.

رفع سيباستيان رأسه عندما شعر بمجيئها.

– قال: «تبدين أفضل الآن».

ابتسمت لابينيا قائلة إنها تشعر بتحسن. لقد أعاد الماء النشاط إليها. نظرت إليهما وهي تحاول تخمين ما سيحدث معها من خلال تعبيراتهما.

- سألت وهي تبذل قصارى جهدها كي تبدو هادئة: «هل قررتما بالفعل ما إذا كنتما ستسمحان لي بالمشاركة؟»

- قال: «نعم. ستشاركين. نعتقد أن معرفتك بالمنزل هي قيّمة بالفعل. مع ذلك، يجب أن نُعدَّكِ إعداداً سريعاً. لدينا القليل من الوقت. عشر ساعات تقريباً. سيعلمك الرفيق خمسة كيفية التعامل مع السلاح. سيكون رقمك اثني عشر. رقمي صفر ورقم فلور واحد. من الآن فصاعداً، سننادي بعضنا بعضاً بالأرقام. يجب ألا تذكري أسماءنا أمام الآخرين. سنجتمع جميعاً في غضون لحظة هنا لمراجعة تفاصيل العملية»، ثم أنهى الحديث بنبرة تنفيذية.

كانت لابينيا تفكر في مشاركتها. لقد أدرجوها. كادت تشعر للحظة بالسعادة.

بدا سيباستيان متوتراً ومنهكاً. بالتأكيد، لن يسمع هذه المرة نحيبها -الصوت الأجش الفطري ونحيب الليلة الماضية وهي بعيدة عن منزلها-. في هذه اللحظة، لم يكن هناك وقت ولا مكان للبكاء. مع ذلك، يمكن أن تشعر لابينيا بالألم بينما كانت مشاعرها تدور في دائرة من الحواف الحادة.

- قالت وهي مرتاحة: «شكراً. شيء واحد فقط. هل تم تدبير أمر فيليبي؟»

- قال سيباستيان «نعم. قمنا أيضاً بتحديد موقع سائق التاكسي. لقد أقسم أنه لو كان يعلم أنه عنصر عامل في الحركة، لما أطلق النار. يقول إنه يكن لنا كل الاحترام. وفقاً له، لم يقل فيليبي أي شيء إلا فيما بعد. ذلك أمر لا يصدق. على أي حال، الرجل الآن تحت السيطرة. أمر مؤسف!» قال ذلك بصوت منخفض وبغضب وعجز.

كانت لابينيا تسأل نفسها ما هو شكل الرجل الذي قتل فيليبي؟ لم تكن تشعر بأي كراهية تجاهه. لم تكن تعرف ما تشعر به. ربما كانت ترغب في رؤيته. لكن ذلك لا يهم. فلماذا تراه؟ ما الذي ستجنيه الآن من وراء ذلك؟ الشيء المؤكد هو أن فيليبي قد مات ضحيةً لعنف البلاد. عنف الشوارع الترابية والسكارى في الحانات والأكواخ على حافة مكبات النفايات غير

الصحية والانحراف وعمليات القبض في منتصف الليل وصور القتلى في الصحف وسيارات فلاتFLAT التي كانت تجوب الشوارع ورجال ذوي وجوه فظة لا شيء يعيقهم يرتدون الخوذات وقوات النخبة وشعاراتهم الرهيبة والطبقية وسلالة الجنرالات الكبار.

كان على المرء أن يصب الغضب ويستخدم الشجاعة ضدهم.

لقد شرد ذهنها. كانت فلور تنظر إليها. جعلتها نظرة فلور تتفاعل.

– قال سيباستيان «تعالي. أريدك أن تراجعي المخططات مراجعة أخيرة» بينما كان يوعز لها أن تقترب من مخططات منزل بيلا.

لقد اقتربت. تذكرت المساء الذي طلب فيه فيليبي المخططات منها وأخذها خارج المكتب لتصويرها دون أن يعلم أحد. لم تكن تريد إقراضها له. كان عليها أن تتغلب على حد آخر عندما وافقت في النهاية. لم يكن فيليبي قادراً على أن يشرح لها سبب حاجته إليها. قال لها: «لكي تكون موجودة لدينا فقط. لا أحد يعرف أبداً متى ستنفع. إننا بحاجة لجمع أكبر قدر ممكن. تذكري أنه عندما ذهبتِ إلى مكتب بيلا، طلبنا منكِ أيضاً الرسم التخطيطي.»

كانت *المخططات* على الطاولة دقيقة باستثناء بعض التغييرات الطفيفة في اللحظة الأخيرة: كانت العريشة على الشرفة أكبر والشواء الداخلي وغرفة الخياطة... الشيء الوحيد المهم الذي لم يكن موجوداً في المخططات هو النظام المعقد للإغلاق والأقفال التي أمر الجنرال بتركيبها لعزل الطوابق المختلفة للمنزل أثناء الليل. تم ترتيب ذلك لمنع اللص المزعوم من الانتقال من طابق إلى آخر. يمكن عزل كل طابق عن بقية الطوابق، عن طريق بوابة ذات قضبان وأقفال مغلقة.

– قال سيباستيان «ذلك مهم للغاية». كنا قلقين بشأن إمكانية الوصول والمرور من طابق إلى آخر.

– قالت لابينيا: «لا نعرف ما إذا كان الجنرال سيغلق منافذ الدخول. من المفترض أن تُغلَق في الليل فقط عندما يخلدون للنوم».

– قال سيباستيان: «إذا لم يكن الأمر كذلك، يمكننا أن نفتحها بمجرد أن يكون الناس متجمعين في أحد الطوابق... والفناء؟ ما الذي بوسعك أن تخبريني عنه؟»

– الفناء محاط بسور. لا يمكن لأحد الخروج من هناك. المنزل عبارة عن قلعة».

– سألت فلور وهي تنظر إلى لابينيا: «ماذا عن خدعة الحائط التي شرحتها لي؟»

نظر سيباستيان إلى الأعلى. وقطب حاجبيه بفضول.

– قالت لابينيا: «إنه هنا» وهي تشير إلى المكتب الخاص الموجود في المخططات. «لدى الجنرال أسلحته في هذه الغرفة وهي مرتبة على أرفف على الحائط. الحائط دوآر. إذا لم تروا الأسلحة، فذلك يعني أنها مخبأة على الجانب الآخر».

– سأل سيباستيان: «وكيف ذلك؟ إنه غير موجود في المخططات».

– قالت لابينيا: «كلا. إنه موجود في مخطط منفصل».

– أوعز سيباستيان لفلور: «من الأفضل أن تنادي الآخرين. سنقوم بآخر تشكيل مغلق ونعطيهم جميع التعليمات. من المهم أن يسمعوا ذلك».

اختفت فلور على درج يؤدي إلى الطابق العلوي. بعد دقائق، نزلت المجموعة بالترتيب.

كان هناك سبعة رجال وثلاث نساء. تعرفت لابينيا على لورينثو ورينيه وهما مدربا المدرسة العسكرية التي التحقت بها. لم تستطع إخفاء دهشتها عندما شاهدت بابليتو، صديق طفولتها الذي رقصت معه في حفل النادي الاجتماعي والذي أخبرها أنه يعمل في مكتب التحقيقات الاجتماعية التابع للبنك المركزي الذي افتتح مؤخراً. وفقاً لسارة، غادر بابليتو المسالم البلاد للعمل في أحد المصارف في بنما. كانت المفاجأة متبادلة، كان الاثنان على وشك تبرير نيتهما بسبب الشك الذي نظرا به بعضهما إلى بعض، لكنه أشار إليها بإيماءة كي تتجاهله. كان الرجلان الآخران غريبين عنها، وكذلك النساء. كانت إحداهن صغيرة ذات قوام جيد وشعر طويل وبني وعينين لوزيتي الشكل تتمتعان بنظرة ذات جمال خاص. كان هناك امرأة أخرى سمينة قليلاً وسمراء ذات تعبير لطيف، أما الثالثة، فكانت جادة وخشنة الطباع بعض الشيء وكانت أكبر من بقية المجموعة. قدّرت لابينيا أن معظم أعضاء المجموعة القيادية تتراوح أعمارهم بين عشرين وثلاثين عاماً باستثناء المرأة الأخيرة.

عندما كانوا جميعاً في الصالة، أمر سيباستيان للقيادة بأن تتشكل. اصطفوا في صفين. أوعزت لها فلور أن تصطف مع الآخرين. وقفت في نهاية الصف. كان رقمها اثني عشر.

- «اثبتوا!» وقف الجميع بفخر واتخذوا الوضع العسكري.

- أمر سيباستيان: «تعداد من الأمام إلى الخلف!».

بدأ العد. كان رقم بابليتو تسعة ورينيه ولورينثو اثنين وخمسة. أما الفتاة ذات العينين اللوزية الشكل، كان رقمها سبعة ورقم الفتاة السمينة اللطيفة ثمانية...

- «إسترح!»

خف الشد الذي كانت عليه الوجوه والصدور لكن لم يتحرك أحد من مكانه. وقف سيباستيان أمام المجموعة وبدأ بالكلام. من المعتاد في الحركة أن يتم شرح كل حدث من الناحية السياسية وأن يتم تكرار معناه. استمعت لابينيا، مثلما استمع الآخرون، باهتمام صامت ومحترم إلى كلمات سيباستيان الحازمة الذي أوضح كيف وثقت المنظمة بهم وبقدرتهم على تنفيذ عملية *إيوريكا*. قال إنهم كانوا واثقين من أنهم جميعاً وأن كل واحد منهم يعرف كيفية رفع اسم الحركة، مما يتيح للآخرين أن يعلموا بفاعلية نضالهم في المدن والجبال ضد قمع وعنف الدكتاتورية.

واصل الحديث أنه بهذا الحدث، سيتم كسر الصمت الذي حافظت عليه الحركة لعدة سنوات.

- قال بعد توقف: «لقد توفي أحد أعضاء هذه المجموعة القيادية هذا الصباح... كان الرقم اثنين».

نظرت لابينيا إلى وجوه الآخرين، إلى الدهشة والحزن.

روى سيباستيان باختصار ظروف وفاة فيليبي. قال: «هذه هي مخاطر هذه المهنة...» وأضاف أنه كان يفترض أن يعيش فيليبي بينهم. سيكرّم الحدث ذكراه. لقد تقرر أن يسمى الحدث باسمه. واصل الحديث بأن موت فيليبي وموت العديد من الرفاق قد ألزمهم بتحقيق الأحلام التي ضحوا بحياتهم من أجلها.

توقف سيباستيان. نظر إلى الأرض للحظة. رفع رأسه وقال بصوت عالٍ وغليظ:

- «الرفيق فيليبي إيتوربي!»

- قالوا جميعاً: «إنه حاضر!».

ساد صمت وجيز للتذكر والذاكرة ولم تستطع لابينيا أثناء ذلك أن تتخيل أن فيليبي ميت. فكرت مراراً وتكراراً أن كل هذا لم يكن يحدث. سمعت صرخة «حاضر» مثل صدى بعيد ورهيب.

استمر سيباستيان بعد ذلك موضحاً أن العنف لم يكن خياراً، بل كان فرضاً. حاربت الحركة ضد هذا العنف. لقد اقترحت نظاماً عادلاً لا يمكن تأسيسه إلا بعد نضال طويل لكل الشعب. لم يكن الأمر يتعلق ببيع الأحلام لفترة قصيرة الأمد ولا لمجرد استبدال الأشخاص، بل تم السعي لإحداث تغييرات أعمق من ذلك بكثير، فلا أوهام بنهاية النظام من شأنها أن تديم الوضع. شدد على أن ذلك يجب أن يكون واضحاً من أجل التمكن من الفهم وجعل الناس يفهمون سبب عدم بدء الحدث، إلا لحين مغادرة الجنرال الكبير للمنزل.

قال إن العملية هي مجرد بداية لمرحلة أخرى. اقترح تخفيف الضغط على الرفاق في الجبل المعزولين والمضطهدين منذ شهور وفتح جبهات أخرى.

في النهاية، أوضح المطالب التي سيتم طرحها: إطلاق سراح السجناء السياسيين وقراءة ونشر البيانات في جميع وسائل الإعلام كي تُشرح للناس أسباب الحدث ومطالب القيادة غير القابلة للتفاوض.

- قال: «إنها كانت عملية «الوطن الحر أو الموت». لا انسحاب. إما النصر أو الموت.

- قال: «إما أن ننتصر أو نموت» ثم قال بصوت عالٍ ورنان شعار «إما الوطن الحر»...

- أجابوا جميعاً مرددين وراءه كجوقة: «أو الموت».

- أصدر سيباستيان أمراً قائلاً: «انتهى الاصطفاف» كان متحمساً بشكل واضح. كان لموت فيليبي أثر كبير في هذا الجو وعلى الوجوه المهيبة.

رأت لابينيا أن الأمر يبدو فظيعاً بالنسبة لهم، أن يذهبوا إلى الحدث وذلك الموت البارد يجول في ذاكرتهم. كان من الصعب عليها إنهاء الاصطفاف

والتحرك من حيث كانت. سرعان ما خطر في بالها حجم ما سيشرعون به وهي مبتدئة وسط الجميع. كانت ترعبها فكرة ارتكاب بعض العثرات التي من شأنها أن تعرضهم للخطر ملأها الخوف والتسبب بمخاطر في مثل هذه العملية التي تم الإعداد لها بدقة والمهمة جداً والحاسمة بالنسبة لمستقبل الحركة. لكن الثقة التي وُضعت بها قد شجعتها وأجبرتها على التغلّب على الشكوك والمخاوف بسبب قلة خبرتها. قالت لنفسها إن عليها أن تكون قادرة.

تحرك الرفاق.

- قال سيباستيان: «سنقوم الآن بتشكيل نصف دائرة حول الطاولة. سأشرح التفاصيل»، ثم أضاف وهو يشير إليها بطريقة التعريف بها: «شاركت الرفيقة رقم اثنا عشر في تصميم المنزل. ستشارك معنا في العملية. ستقوم بالحديث بشكل أوسع عن التفاصيل المتعلقة بالداخل».

نظر إليها أعضاء المجموعة القيادية باهتمام ومودة. وقفت كعضو آخر بينهم إلى جانب سيباستيان الذي كان يتحدث مشيراً إلى المخطط:

- قال وهو يمرر أصابعه عبر غرف المنزل: «دعونا نراجع». ظنت لابينيا أنه يفترض بهم أن يعرفوا المنزل أفضل مني تقريباً بينما كانت تستمع إليه. للمنزل مدخل رئيسي. يمكن أيضاً الدخول من خلال المرائب. في الطابق الأول، ثلاث صالات مفصولة بحدائق وقاعة وغرفة طعام تحتوي على درج للنزول إلى الطابق الثاني وحمام للضيوف ومطبخ. على الجدار الجانبي الأيسر باب يمكن من خلاله الدخول عبر المرأب إلى الصالة...»

نظرت إلى المخطط تقريباً دون أن تراه. شرح سيباستيان الطابق الثاني وغرف النوم وغرفة الموسيقى ومخزن الأسلحة وغرفة الخياطة الصغيرة... لكنها قد فقدت مواصلة السماع. لقد تذكرت شهور العمل وهي منهمكة ومنحنية على منضَدة الرسم لتصميم ذلك المنزل، ذلك المنزل الذي تسبب بموت فيليبي. ما كان فيليبي ليموت لو لم تصل الأختان بيلا في ذلك المساء، وهي غارقة بعيداً في ذاكرتها. بدا لها كأنها تراهما مجدداً. تذكرت انطباعاتها الأولى عن أثوثينا، آنسة مونتيس، تلك الانطباعات التي تم تصحيحها في وقت لاحق للتخلص من الصورة التافهة والطفيلية للعانسة التي كانت مشغولة طوال الوقت بالحفاظ على الراحة التي توفرها لها أختها. كانت

الأخت مهووسة بالانتماء إلى «المجتمع»، حيث كانت تسمي الناس بالاسم والنسب... وتذكرت ابن بيلا وهو يحلم بأن يكون طائراً.

- سألها سيباستيان: «ماذا قلتِ عن كيفية عمل نظام البوابات؟» وأعادها بسؤاله إلى الصالة وإلى عيون الرفاق وهي تنظر إليها.

- قالت لابينيا متظاهرة بأنها كانت منتبهة للشرح الكامل: «هناك بوابتان ذواتا قضبان وأقفال: الأولى في غرفة الطعام والثانية بين مكتبه الخاص وغرفة الخياطة بالطابق الثاني. تفصل البوابة الأولى المنطقة الاجتماعية العامة عن منطقة النوم ومنطقة الأسرة الأكثر حميمية. أما الثانية، فإنها تقسم منطقة الخدمة. من المتوقع أن تفتح جميع البوابات خلال الاحتفال. أتصوّر أن الجنرال وزوجته سيرغبان في عرض المنزل بأكمله للزوار».

- وماذا عن الأسلحة؟

- الأسلحة في مكتب بيلا. يوجد أمام الباب جدار خشبي. الجدار دوّار. بوسع بيلا كشف الأسلحة أو إخفاؤها كما يشاء. إذا لم تروها، سيكون من الضروري تفعيل الآلية الموجودة خلف مفتاح غلق وإطفاء زائف على يمين الجدار. إنه هنا». انحنى الجميع عندما قالت ذلك ليروا المكان. «لفتح ذلك المفتاح، يتم سحب قفل صغير ثم يتم رفع العتلة الصغيرة التي تعمل على الإقفال. من شأن ذلك أن يطلق اللوحات. أعتقد أنه من المرجح أن يقوم بالكشف عن أسلحته خلال الاحتفال».

- قال لورينثو: «لم نكن نعرف أي شيء عن هذا».

- قالت لابينيا: «لا أحد يعرف، ولا حتى فيليبي...»

- قاطعها سيباستيان بسرعة: «وماذا عن المباني القريبة من الحديقة: الساونا والصالة الرياضية وباقي المرافق؟»

- قالت لابينيا مشيرة إلى التصميم: «يمكنكم رؤيتها هنا، على حافة المسبح. يحتوي هذا الجناح على حمامين مزودين بمرشة وغرفتي ملابس وغرفة رياضية. وفي هذه المساحة التي تفصل بين الحمامات وغرف الملابس التي تعود للساونا، يوجد بار ومساحة اجتماعية مسقوفة».

- قالت الفتاة السمينة، رقم ثمانية: «هذا هو المكان الذي لم نكن نفهمه».

- يوجد مدخل مباشر من المسبح إلى كل من الطابق الاجتماعي

والطابق العائلي: إنه هذا المسار المرصوف بالحصى الذي ترونه هنا. إن هذه المداخل مزودة أيضاً ببوابات وقضبان».

- قال بابليتو، رقم تسعة: «المنزل مُؤَمَّن بشكل جيد...».

واصلت لابينيا شرحها لهم حول المداخل والأقسام. تحدثت برباطة جأش وثقة. كانت تعرف المنزل. كانت حاضنته وكان جنينها. نظر إليها الآخرون بتعبير ملؤه الاحترام.

- سأل سيباستيان، رقم صفر، رئيس العملية: «وما هي الأسلحة الموجودة في المكتب؟ هل تعرفينها؟»

- قالت لابينيا: «فيه كل شيء: بنادق ومسدسات ورشاشات». كان رأسها يؤلمها بشكل رهيب.

أخرجت فلور قطعة من الورق وأوضحت لهم أنهم سينقسمون إلى ثلاث فرق. كل فرقة ستكون مكونةً من أربعة رفاق. ستدخل إحدى الفرق من الأمام وستدخل الأخرى عبر مدخل الخدمة الموجود بجوار المطبخ، أما الأخيرة فستدخل عبر المرأب. لن يتم تخصيص القائد، الرقم صفر، لأي فرقة، لأنه سيكون عليه تنسيق عمل جميع الفرق. سيدخل مع الفرقة رقم اثنين عبر الباب الرئيسي.

- قال سيباستيان: «أهم شيء هو الدخول. من سيبقي في الخارج هو شخص ميت. سنتولى أنا والفرقة اثنين مسؤولية إخراج الأسلحة من تلك الغرفة وتوزيعها».

على قادة الفرق التأكد، بمجرد دخولهم، من إغلاق كل مدخل. يجب على الفرقة واحد التي ستدخل من باب الخدمة أن تنضم إلى الفرقة اثنين، ثم تدخل إلى الطابق الثاني من المنزل. أما الفرقة رقم ثلاثة، فعليها أن تحيط بالمنزل وتتحقق من حافة المسبح وتأخذ الضيوف الذين سيكونون موجودين هنالك وتتوغل بالدخول من مدخل الطابق الثالث وتتحقق من هذا الطابق وتنقل الضيوف وموظفي الخدمة الذين ستجدهم إلى الطابق الثاني. بعد ذلك، ستنقسمان ومعهما الأسلحة التي استعادوها إلى فرقتين: فرقة لحراسة الضيوف وأخرى لتأمين الدفاع عن المنزل وحراسته. يتم جمع جميع الضيوف في الطابق الثاني، الأكثر حماية.

أما الأمر الأكثر حساسية وخطورة، فهي اللحظة التي سينزلون فيها من المركبات. أشار سيباستيان إلى أن فرقة المعلومات التي تتولى أمر حراسة المنزل ستنقل إليهم عبر الهاتف المعلومات المتعلقة بجهاز الأمن الذي سيظل يحرس الضيوف الآخرين بمجرد مغادرة الجنرال الكبير.

هنالك معلومات من بعض المصادر أن العديد من السفراء سيحضرون إلى الاحتفال، بالإضافة إلى كبار أعضاء القوات المسلحة وألقاب بارزة في البلاد والعديد من أفراد عائلة الجنرال الكبير.

قال سيباستيان: «عندما ننزل، سنطلق النار على أي شيء يتحرك. يجب على ركاب أول مركبتين أن يشقوا طريقهم إلى البوابة. سيغطيهم أثناء تقدمهم أولئك الموجودون في المركبة الثالثة. علينا الدخول بأسرع وقت ممكن، في تشكيل وتد».

– قال بابليتو مخاطباً سيباستيان: «رقم صفر. كنتُ قلقاً منذ البداية من عدم كفاية عددنا للسيطرة على عدد الأشخاص الذين سيكونون موجودين في ذلك الاحتفال...»

– لقد حسبنا أن العديد من الناس سيغادرون عندما يغادر الجنرال الكبير.

– أضافت لابينيا: «ولن يصل الكثير من الناس. الجنرال بيلا لا يحظى بشعبية كبيرة على المستوى الاجتماعي».

– «تعتمد اللحظة التي نبدأ فيها العمل على الجنرال الكبير وعلى عدد الأشخاص». ثم أوضح رقم صفر: «على أي حال، لا يمكننا السماح للأسماك الكبيرة بأن تفلت منا. من المهم جداً أن تتذكروا أنه عليكم عدم إساءة معاملة أي ضيف أو إطلاق النار عليه، إلا في حالة الهجوم. النتيجة المثلى هي الخروج من هناك دون وقوع إصابات بين المدنيين. لا نريد ذلك. لا يمكننا القيام بمذبحة. من الضروري أن يدرك الرهائن أنهم يتعاملون مع ثوار وليس مع قتلة أو أناس بلا قلب».

على الرغم من أن القيادة لم تعرف الهدف المحدد لأسباب أمنية، فإنها تتعامل بشكل صحيح مع نوع العمل الواجب تنفيذه. لقد تدربَتْ لمدة شهرين وفقاً لما تحدثت به فلور وقامت بتدريبات واعتداءات وتعرفَتْ على أسلحة ذلك. الآن قام أعضاؤها بمراجعة التفاصيل والحركات لأكثر

من مرة. استمرت الأسئلة لفترة طويلة حتى بدا الجميع راضين والأمور واضحة لهم وحتى تمكن الجميع من تصور ما يفترض أن يحدث خطوة بخطوة.

حينذاك وجّه سيباستيان بأن تبدأ الاستعدادات القتالية، في المرحلة المباشرة قبل المباشرة بالعملية.

أعطت فلور تعليمات للمجموعة بالتحقق من حقائب الظهر والتأكد من توفّر الأدوية والأغذية المعلبة والبيكاربونات والبطاريات والماء... ما سيحتاجون إليه في حالة الحصار المطول والغاز المسيل للدموع والجروح. كما وجَّهَتْ بالتحقق الأخير من الأسلحة المخصصة لكل منهم. رتبت مع الرفيقة التي تهتم بالمطبخ أن تُعِد وجبة خفيفة في وقت مبكر. كان من المهم أن يتم هضمها عند بدئهم العملية في حالة حدوث أي جرح في المعدة، فهي أكثر خطورة عندما تكون المعدة ممتلئة.

أمرت لابينيا بالذهاب إلى غرفة في النهاية مع الرقم خمسة للحصول على تعليمات حول استخدام سلاحها وكانت رشاشة علامة مادزِن قديمة ومكسورة.

كان النشاط ذو الحَمِية في المنزل يسير بانتظام. تحقق الفتية من المؤونة الموجودة في حقائب الظهر بنشرها على الأرض. كان سيباستيان يناقش التفاصيل الأخرى للعملية مع قادة الفرق: فلور ورقم اثنان ورقم ثلاثة.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً.

– 26 –

لقد وصلنا إلى اليوم المنشود، إلى التاريخ المؤاتي للمعركة الذي ميزه برج «ثي إتثويتلي[1]»[2]، المخصصة لإله النار والشمس.

قبل وصول الغزاة، لم نكن قط نذهب إلى الحرب بشكل مفاجئ. كان رئيس قبيلتنا يرسل العديد من الرسائل إلى الأراضي المتنازع عليها في محاولة للتوصل إلى اتفاقات ودية. لم نكن نمنح الخصم وقتاً كافياً لإعداد دفاعاته فحسب، بل كنا نقدم له أيضاً تروساً وهراوات وأقواساً وسهاماً. كانت حروبنا تطيع إرادة الآلهة منذ نشأة العالم، منذ أن نسيت الأربعمائة أفعى السحابية مهمتها في إطعام الشمس وشربها. حُسمت الحروب بأمر من الآلهة ولهذا السبب كان من الضروري عدم تشويه حكمها بمواجهات غير متكافئة أو بهجوم على الأعداء دون سابق إنذار.

كان الغزاة هم من فرضوا قوانين جديدة للحرب. كانوا ماكرين ومخادعين. لقد تم تدنيس الحروب التي شنوها علينا من البداية إلى النهاية. لم يحترموا القواعد الأساسية المعروفة. أدركنا أن علينا مواجهة هذا العدو ليلاً، فنختبئ ونتقدم إلى الأمام مستخدمين حيل الفأر، «كيميتشتين[3]»

1- كلب.

2- البرج الرابع عشر في تقويم طقوس الأزتيك. ويبدأ بيوم 1-كلب (ce itzcuintli). فترته 13 يوماً. يكون فيه الناس ولاسيما الحكام محظوظين. في اليوم العاشر من التقويم الزراعي البالغة مدته 20 يوماً يؤمر الكلب من قبل إله الموت. وفقاً للأساطير الأزتيكية، يمر المكسيكي بتسع مستويات من العالم السفلي. لا يتم الوصول إلى العالم السفلي إلا بعد أربع سنوات برفقة كلب يجري حرقه مع المتوفى.

3- فأر.

-المحاربون المقنعون الذين أرسلناهم إلى أراضي العدو للتحقيق- أو في الأراضي التي نعرفها فقط والتي قدناهم إليها بجعل «تاغويثتي»، المعدن الذهبي الذي كان يذهلهم، يتألق.

لكن فنون الحرب تغيرت كثيراً في عالم هذا الزمن الذي يسير بالمقلوب. التزم المحاربون المحيطون بلابينيا الصمت. لم يكن لديهم ترس للدفاع ضد نيران العدو. لقد نُسِيَ سلاح «الأتلاتل[1]» والقوس والسهام وسلاح «التلاكوتشتلي[2]» المسمم. إنهم لا يُهيّئون أجسادَهم بدهانها بالزيت قبل المعركة وأتصور أنهم عندما يقابلون العدو لن ينفخوا في القواقع لإحداث صفير ولن يطلقوا صرير عالي الحدة يصم الآذان من صفارات العظام.

آه، ماذا أقول، يا لها من ذكرى! ذكرياتي قديمة حتى بالنسبة لي. كسر الغزاةُ كل قوانينَنا. لم يكتفوا مثلنا بالاستيلاء على أهم معبد للعدو، مما يشير إلى انتصار إلههم الأبيض والإسباني وهزيمة «هويتيلوبو تشتلي»[3]. لقد دمروا كل شيء في طريقهم.

لم يحافظوا على محاربينا ليقدموهم كأضحية وليمنحوهم الموت المقدس. إنهم يقتلون الأسرى بلا رحمة أو يوصمونهم مثلما يفعلون مع الحيوانات، كما يوصمون الماشية، ليقدموهم فيما بعد كطعامٍ للكلاب أو ليستخدموهم كدواب أحمال. لم يقم الغزاة، كما جرت العادة، بعقد هدنة مع المنتصرين أو المهزومين ليحددوا بالاتفاق وبعد حكم الآلهة الجزية التي ينبغي تسليمها للمنتصر. لقد استولوا ببساطة على جميع البضائع. لم يتركوا شيئاً إلا ودمروه.

كانت حربهم حرباً شاملة.

إلههم الوحيد الأقسى من جميع آلهتنا هو أكثر تعطشاً للدماء.

1- سلاح لدفع الرماح.
2- رمح خفيف وصغير ذو طرف حاد.
3- سيد الآلهة والقائد الأسطوري للأزتيك. يختص بشؤون الحرب والتضرع الشمسي. تقول الأساطير إنه كطائر طنان قاد الأزتيك من مساكنهم القديمة في أزتلان إلى وطنهم الجديد حيث رأوا نسراً يأكل أفعى ويقف على شجرة صبار تنبت من الصخر. يقام له احتفال يتم في الانقلاب الصيفي. كان يعتقد أنه أول إله للطبيعة ترتبط حياته وموته بمسار السنة.

لم يكن «الزعيم» الذي كان يسمونه بالملك يشبع من «الذهب».

ما تبقى لنا هو فقط الشجاعة. في النهاية، لم نكن نملك سوى حماسة دمائنا للتصدّي لهم.

هزم يارينثي بتلك الحماسة الموت. لقد بحث عن القواقع، الأصداف الصلبة التي تحمي الحلزون وارتدى الجير والحجر لمواجهة الوحدة المتعددة في الليالي.

كان ما يزال يتجول عدة أيام بينما كنت أرقد في مثواي المبني من التراب وأشعر بخطواته التي لا أخطئها وأميزها من بين خطى النمر الأمريكي والغزلان.

لقد رأيت كل ذلك في المنام حتى حاصره الغزاة. لقد صعد كالأسد الأمريكي على الصخور ونظر من هناك، من ارتفاع الجبل، نظرة أخيرة إلى الأنهار وتفرعاتها التي كانت تبدو كالشعر وإلى الجسد الممتد للأدغال وإلى الأفق الأزرق للبحر، لتلك الأرض التي كان يسميها بأرضه والتي كان يملكها.

وصرخ في وجه الملتحين الذين نظروا إليه برعب: «لن تمتلكوني. لن تأخذوا ولا قطعة واحدة من هذا الجسد».

صرخ «إيتثا!» وأخرجني بذلك من حلمي إلى الأبد، ثم رمى بنفسه في الفضاء فوق الصخور التي تولت تمزيقه بلطف. لم يكن بوسع الغزاة قط حتى استعادة بقايا جسده. كانت تلك الأرضُ أرضَ أناشيدي وأرضي الحبيبة التي ترفض الغزاة إلى الأبد.

***

اتّباعاً لتعليمات فلور، تراجع كل من لابينيا ولورينثو إلى الغرفة المشار إليها.

بمجرد أن دخلا، عانقها لورينثو عناقاً قوياً.

قال: «إنني آسف يا أختي الصغيرة. أكاد لا أصدق ما حصل لفيليبي! يا لسوء الحظ! كيف أطلق سائق التاكسي النار عليه؟»

شرحت له الأمر بصوت هادئ. لسبب ما، ساورها شعور كما لو أن فيليبي كان قد توفي منذ زمن طويل أو كما لو أنها لم تعد ما كانت عليه بالأمس، بل

امرأة أخرى قوية وحازمة، غير متأثرة بالخطر أو الموت. كانت تفكر لبعض الوقت محدّثة نفسها «ربما لم يعد يهمني إن مِتُّ». ربما يكون ذلك هو السبب وراء تأملها بدم بارد ما سيحدث في الساعات القليلة القادمة.

استجمع لورينثو الذي كانت تتذكر فظاظته وسلطويته خلال تدريب عطلة نهاية الأسبوع في المزرعة في هذه المرة كل اللطف والرقة اللذين يضمرهما جسده القوي ذو العضلات.

لقد علّمها الكاميرات السرية للسلاح والتسليح ونزع السلاح وخصائص القتال ومميزات فريق الهجوم باستخدام سلاح المادزِن وكأنه يتحدث عن جسد امرأة، عن عروس داكنة صلبة. كان صوته حميماً وهادئاً ومريحاً لقناعته بأن لا شيء يمكن أن يعود بسوء. ستكون العملية ناجحة.

أمضيا عدة ساعات في هذا التمرين. كانت لابينيا منتبهة ولم تفُتْها أي تفاصيل. كانت تلك الغرفة وكلمات لورينثو هي المنطقة الوحيدة المضيئة في زنزانة عقلها. كانت تظن أنها لا بد أن تنجح، فهي فيليبي وفيليبي هو لابينيا. سيندمجان لاتخاذ المواضع في المعركة. سيعيش فيليبي في يديها وفي إصبعها الذي يضغط على الزناد وبروحه الحاضرة ودمه الحار ورأسه الواثق المرفوع وبشعار تشي جيفارا «علينا أن نكون أقوياء دون أن نفقد الرأفة».

– سألها لورينثو: «هل تشعرين بالفعل أنه جزء منكِ؟ هذا ما يجب أن تشعري به. في القتال، يجب أن يشعر المرء أن السلاح لن يخذله وأنه سيستجيب مثل ذراع أو ساق أو مثل شخص يحبه ويدافع عنه حتى الموت... هل تشعرين بذلك بالفعل؟» قال ذلك وهو يقترب منها ويضع يداً على كتفها والأخرى على الرشاشة التي أسندتها لابينيا إلى صدرها.

– قالت لابينيا: «نعم. أشعر به كشقيق... أو كما لو كان فيليبي».

– قال لورينثو: «إنه كذلك. ذلك هو. عليكِ أن تفكري بهذه الطريقة. السلاح هو فيليبي الخاص بكِ. فكري بذلك عند الإطلاق. فكري في الأمر عندما تستخدمينه للدفاع عن نفسكِ».

أرادت أن تبكي مرة أخرى، أن تبكي على الرشاشة بينما كانت تتخيلها

فيليبي. لكنها لا يجب أن تفكر في موت فيليبي. عليها أن تفكر في أنه حي، حي ونشط، حي وشجاع وصلب وقوي.

مسحت عينيها الرطبتين. نظر إليها لورينثو بلطف.

- قال لها: «هكذا أريدك، يا فتاة. لا تصدعي قلبي».

لقد تماسكت. سيكون هناك وقت للبكاء.

كان الوقت يقترب. خرج سيباستيان لتلقي الجزء الأخير من البيانات من فريق المعلومات. كانت المجموعة على أتم الاستعداد. كان أفرادها يبدون كأنهم يتسابقون وعضلاتهم مشدودة ويتمازحون بين حين وحين مزاحاً أشبه بفتحات لخروج البخار. تواجدت المجموعة في الصالة. كان بعضهم يجلس على الكراسي بينما كان الآخرون يفترشون الأرض ويسندون ظهورهم إلى الحائط.

تساءلت لابينيا وهي تنظر إليهم «يا ترى ما الذي يفكرون فيه؟»

بعد أن خرجت من الغرفة مع لورينثو، اقترب بابليتو منها. تحدثا في اعتراف تافه وودي بينهما طلب فيه كل منهما من الآخر أن يسامحه بإيماءة على ما كانا يَعْلَمَان ويفكران فيه بعضهما بشأن بعض.

بينما كانت تجلس على الأرض، رأته في تلك اللحظة متأملاً وصامتاً. كان يبتسم من وقت لآخر عندما تلتقي عيونهما، فهما على عكس الآخرين، لم يُجَرِّبا الفقر أو الذل. وصلا إلى ما وصلا إليه بدافع فراغ الوفرة: فلا شيء في حياتهما التي كانت تبدو مليئة بالخير ومريحة جداً وناعمة. لم تظن قط أنها يمكن أن تشعر على هذا النحو تماماً بعد وفاة فيليبي. لكن الوجود هناك وظهرها متكئ على الحائط وسط أولئك الذين تجرأوا على الحلم قد منحها دفئاً داخلياً لطيفاً ويقيناً بأنها قد وجدت نفسها أخيراً ورست في الميناء.

لقد تجاوزت مخاوفها أخيراً وتمتعت بالنهاية بالإيمان والثقة. كانت متأكدة من رغبتها في أن تكون هناك وأن تشاركهم، تشارك هؤلاء الأشخاص وليس أشخاصاً آخرين، ما قد يكون اللحظات الأخيرة في حياتها.

كانت فخورة بانتمائها للمجموعة وبأنها بينهم لا يميزها شيء عنهم، كلهم سواسية أمام اقتراب الخطر. هنا كانت نهاية مهد قماش التول أو المهد

الخشبي وذكريات الطفولة المختلفة. ربما لم تعرف قط ما إذا كانوا قد قبلوها بشكل مقرَّب أم لا، لكن الحقيقة هي أنهم جميعاً، في تلك اللحظة وفي تلك الفترة من الزمن قد اندمجوا جميعاً، كما تفعل الحيوانات من نفس النوع. كانت حياة الفرد منهم تعتمد على حياة الآخرين. كان كل واحد منهم يثق بالآخر ورهنوا حياتهم بالمصير المشترك والدفاع المتبادل والعمل كفريق.

سيدافعون عن أنفسهم وبعضهم عن بعض وسيتصرفون كجسد واحد تحركهم نفس الرغبة ونفس الإلهام.

بعد عدة أشهر، شعرت بأنها قد حصلت على هوية ترتديها وتمنحها الدفء، هوية بلا لقب ولا اسم -لم تكن سوى رقم اثني عشر- بدون ممتلكات ولا حنين إلى الماضي. شعرت أنه لم يكن لديها مثل هذا المفهوم الواضح لقيمتها وأهميتها ولأنها جاءت إلى العالم وولدت للحياة من أجل البناء وليس نتيجة تصادف عشوائي للحيوانات المنوية والبويضات. كانت تعتقد أن وجودها هو بحث عن تلك اللحظة. تشمَّمَتْ وتمكنت من التوصّل بلا خرائط أو مخططات فلكية إلى هذه الصالة والجلوس على هذه الأرضية الصلبة الباردة وإسناد ظهرها إلى تلك الجدران. كانت الشكوك الكثيرة والألم وموت فيليبي وتركها لوالديها والابتعاد عن سارة... أموراً ضرورية. فكرت في الابن الذي ستلده صديقتها في مستقبلٍ تأمَلُ أن يكون مختلفاً.

كانت عمتها إينيس ستفتخر بها. كانت تؤمن بالحاجة للتسامي ولترك المرء لأثر في الحياة.

أما جدّها، فكان شديد الإعجاب بتمرد السكان الأصليين ومحطّماً للأيقونات ومحامياً لقضايا خاسرة ومؤسساً رائداً للعمل لمدة ثماني ساعات ولمستوصفات العمال تقريباً في زمن العبودية المظلمة. كانت تنظر إليه وتظن أنه في النهاية كان قد وضع جناحين وطار.

إذا لم يكن الأمر بسبب موت فيليبي، فإن منظور المستقبل بدونه وذلك الانتظار سيكونان قد جعلاها تجرب البهجة والنشوة.

على الرغم من حزنها على فيليبي، كانت تشعر بالرغبة بالابتسام -لقد ابتسمت لكل العيون التي وجدتها في الغرفة- وعرفت بالبداهة

بشكل محير أنه على الرغم من أن فيليبي لن يكون بجانبها، فإنها ستجد في المحبة الجماعية إجابات عميقة من شأنها أن تخفف عنها وطأة شعورها بالوحدة.

بعد أن تصالحت مع كل ما أصابها منذ شهور، قررت أن تتقبّل بحزن حقيقة أنه فقط في علاقتها مع فيليبي لم تكن هناك مصالحة. في المعركة التي تواجهوا فيها، كان الموت فقط هو ما يجعلهم سواسية. كانت وفاة فيليبي هي فقط ما أعاد إليها حقوقها وأتاح لها التواجد هنالك. الرمز قاتمٌ ومفجعٌ، لكنها لم تستطع تقبّله على أنه نذير نحس للحب أو عداء قديم لآدم وحواء، أن فيليبي هو من سكان بداية العالم والتاريخ وأنه رجل كهف جميل مشعر. في وقت لاحق، ستتغير الأمور. ستتغير لاحقاً. حالياً، إنها تعلم أن سيباستيان كان يمضي متوعداً بيده وبالعمل.

تساءلت وهي تجول بنظرها إلى الوجوه المستغرقة في التفكير: «هل يقوم الآخرون بإعادة حسابات حياتهم كما تفعل هي؟»

كان سيباستيان قد أخبرهم بأنهم إما سينتصرون أو سيموتون. إنه عمل بلا تراجع.

ربما كانت هذه اللحظات هي الأخيرة في حياتهم. قالت لنفسها إنهم بالتأكيد يفكرون بذلك. حتى لو كان النصر أكيداً، فإن الموت راكب محتمل في هذه الرحلة. كانوا يدركون ذلك، حتى لو نأوا بنظراتهم بعيداً.

لكن الجو كان هادئا والأشجار هادئة. بينما كانت تفكر، استحضرت في ذهنها صورة شجرة البرتقال. كانت الشجرة تشعر أيضاً بالهدوء.

لم يكن هذا الموت مخيفاً كبقية المِيتات. لم تكن محاطة بالرعب المظلم أو الأشباح المجهولة. سيحدث بشكل متوقع تقريباً. إنها مخاطرة محسوبة. لم يكن هناك غموض يساورها. إن ماتوا، فلن يشعروا بأي ندم وإن كان قليلاً. يُفترَض أن يكون قراراً واعياً وخياراً يتم اختياره بحرية. لن يكون ما سيقدمونه هو الموت، بل الحياة. ستكون نهايتهم نهاية مشرِّفة ولا يعتريها شيء من التدهور والفراغ. سيدركون السبب الذي ماتوا من أجله والغاية منه وذلك أمر مهم ومطمئن. لم تكن حياتهم أراضي قاحلة أو قوارير بلا ماء واجب ملؤها، بل كانت حياتهم ذات معنى. لم تكن مدينة فاغواس مدينة

كبيرة يتم فيها البت في كل شيء بشكل مسبق ولم تكن الحياة تعني الكثير. لم يكن هناك مجال للشكوك الوجودية الكبيرة هنا. كان من السهل أن تنحاز لفكر ما. في هذه المدينة، بلدها الصلصالي الصغير حيث أن كل شيء لم يكن قد أُنجِز بعد، لا يمكن التهرب من المسؤولية بالحجج التي تم ابتكارها بشق الأنفس في المقالات الفلسفية الطويلة.

كان الناس يختارون بين النور أو الظلام.

كانت تفكر أنه على الرغم من فظاعة الاضطرار إلى وضع حياتها على محك الخطر في خط النار، فإنه لم يكن هنالك بديل سوى القتال والموت كما مات فيليبي في ربيع عمره. كان ذلك ملاذاً أخيراً كما بيّن لها فيليبي ذات مرة. إنه رد الفعل العنيف على العنف الذي يعتبره أصحاب الامتيازات أمراً طبيعياً.

كان يجب أن يتمتع جميعهم بالحق في نمط آخر من الحياة.

نظرت إلى النساء. فكرت في ما قد مرَرْنَ به ليَصِلْنَ إلى ذلك المكان، جالسات ينتظرن في صمت. بالنسبة لها، لقد كلفتها وفاة فيليبي، كان على فيليبي أن يموت ليمنحها مكانه.

النساء يدخلن التاريخ بدافع الضرورة.

كان هنالك ضوء مصابيح سيارة ينعكس في النافذة. لقد عاد سيباستيان. وقفوا ورفعوا حقائب الظهر الخاصة بهم ووضعوا الأقنعة المصنوعة من الجوارب في جيوبهم.

نظرت لابينيا إلى ساعتها. كان الأعضاء الثلاثة عشر يرتدون ساعات تم ضبطها بنفس التوقيت وكانت تشير إلى نفس الوقت، الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

- قال سيباستيان: «لنذهب! لقد غادر الجنرال الكبير وكذلك السفير الأمريكي وعدد لا بأس به من الضيوف أيضاً، لكن هناك ما يكفي من الأسماك الكبيرة في الحوض...»

جمعهم في وسط الصالة ليشرح لهم عن الجهاز الأمني الذي بقي في منزل بيلا: عدد قليل من العملاء والحراس الشخصيين للأسماك الكبيرة.

- قال سيباستيان: «هناك العديد من الحراس يلعبون الورق. إنهم لا

يتخيلون أي شيء، لذلك علينا الاستفادة القصوى من عنصر المفاجأة والدخول بسرعة! لا تنسوا أن من يبقى بالخارج هو ميت!»

فكرت لابينيا «لو لم تكن امرأة». لم تتمكن من تجنب السخرية من اللغة عند سماع الحديث بهذه الطريقة.

تم تشكيل الفرق.

خرج قادة الفرق، فلور والرقم واحد والرقم اثنان ورينيه والرقم ثلاثة وهو فتى متوسط القامة وذو سمار فاتح وشوارب طويلة إلى السيارات المتوقفة في الحديقة.

كانت سيارتَيْ أجرة مرسيدس بنز قديمتين بعض الشيء، لكنهما في حالة ممتازة، وسيارة لابينيا.

استوعبت كل سيارة فرقة واحدة.

كانت لابينيا جزءاً من الفرقة الأولى التي كانت تتكون أيضاً من الرقم ثمانية ولورينثو. كانت فلور قائد الفرقة.

- قالت فلور بصوت آمر: «اثنا عشر، تولَّ أنتَ القيادة».

جلست لابينيا خلف مقود القيادة. ركب كل من فلور ورقم ثمانية ولورينثو السيارة بسرعة. أُديرَت المحركات وسرعان ما دخلوا في طريق إسباديّوس. أصبح الطريق والمنزل القديم وراءهم ولم يكن يُرى له أثر جرّاء الضباب الخفيف الذي كان يخيم ليلاً.

- قالت فلور بينما كانوا يسلكون الطريق العام: «سنترك المركبات كحاجز عند وصولنا وسنوقفها على شكل مثلث. سيقوم رقم أحد عشر بتكوين الزاوية، أما أنتِ فاتركيها في المنتصف وسيقوم الرقم سبعة بتكوين شكل المثلث بسيارته مع سيارتك. بهذه الطريقة سنشكل خندقاً من نوعٍ ما أمام الباب عندما ننزل»، ثم سألتها: «أتفهمين؟»

أجابت لابينيا: «نعم» وكانت تقود بسرعة متوسطة، مدركة لمسؤولية القيادة دون ارتكاب أخطاء قد تعرض العملية للخطر. لم ترفع عينيها عن الطريق وحافظت على المسافة القريبة جداً من الرقم أحد عشر ولم تفقد متابعة مراقبة الرقم سبعة وهما سائقا المركبتين الأُخريين.

تركوا وراءهم ضباب المناطق المرتفعة. كان الليل بارداً وعاصفاً. كانت ليلة من ليالي كانون الأول.

- قالت الفتاة السمينة: «ستكون أعياد الميلاد هذا العام رائعة. أعياد ميلاد بدون سجناء سياسيين».

- قال لورينثو: «وسيكون هنالك طعام جيد. أنا متأكد من أننا سنأكل الديك الرومي في منزل بيلا».

سخروا جميعاً من حدوث ذلك.

- سألت فلور لابينيا: هل أنتِ على ما يرام؟»

- ردت لابينيا «جيدة جداً. يمكنني القول إنني أشعر بالسعادة، إلا فيما يخص فيليبي».

- قالت فلور: «فيليبي معنا. يمكنك التأكد من أنه سيساعدنا جميعاً».

- سألت: «وماذا كان سيفعل؟»

- قالت فلور: «كان سيصبح قائد الفرقة الثالثة والثاني في قيادة العملية. حل محله الرقم اثنان».

ابتسمت لابينيا ابتسامة لا تخلو من السخرية وعلقت على فكرة فيليبي بأنها يمكن أن تحل محله.

- قالت فلور: «لم تأتِ لهذه العملية كي تحلي محل فيليبي. تذكري أنني قد قلتُ لكِ ذلك».

كانت ممتنة لتذكيرها رغم أنها كانت تعلم أنه لو لم يكن فيليبي قد لقي حتفه في تلك اللحظة، لكانت في منزلها ما تزال تنتظر ومتوترة، خارج تلك الدائرة وبدون مشاركة.

- قالت فلور وهي تستدير إلى جانب واحد في المقعد لتتمكن من رؤية الرقم ثمانية ولورنثو: «دعونا نراجع مهمتنا. أولاً: ننزل من السيارة ونطلق النار على شكل وتد. قوموا بإطلاق النار على أي شيء يتحرك ويركض نحو الباب على الجانب الأيمن، باب الخدمة. ثانياً: ندخل بسرعة وننزل عبر المسار المؤدي إلى المسبح، إلى الطابق الثاني من المنزل. إذا واجهنا أحداً، علينا أن نجعله يخضع بدون إطلاق نار، إلا إذا كان مسلحاً، ثم نأخذه إلى

الطابق الثاني. تذكروا أننا سنقاتل فقط مع عناصر الأمن. في الطابق الثاني، نلتقي بالفرقة الأولى. تذكروا أنه يجب علينا ارتداء الأقنعة بمجرد دخولنا المنزل. هل كل شيء واضح؟»

أجابوا بالإيجاب. حاولت لابينيا أن تتخيل كل خطوة: المسار الضيق بجوار حوض السباحة حيث غالباً ما كانت تنزل للتحقق من العمل وهو مبني من ألواح خرسانية. كانوا في طريقهم إلى الطريق السكني الذي سيقودهم إلى أمام منزل بيلا. شعرَتْ بثقل السلاح على رجلَيْها وهو دليل قاطع على حقيقة غير عادية. لم تُطلِق النار قط من مثل هذا النوع من السلاح. كانت عملية إطلاق النار الوحيدة التي قامت بها هي من مسدس مع فيليبي على شاطئ مهجور ذات يوم. قال لورينثو: «لم يطلق العديد منا النار قط من الأسلحة التي نحملها». كان الأمر لا يكاد يُصَدَّق، لكنه كان كذلك. كان العمل مستنداً إلى الجرأة أكثر من استناده إلى الموارد. القتل أمر غير مجدٍ. تباعدت المركبات الثلاث قليلاً لتمر دون إثارة الشبهات أمام الزاوية بالقرب من منزل بيلا حيث كان هناك بعض عناصر الأمن الذين لديهم أجهزة لاسلكي. كانوا مشتتين يتحدثون. عبرت عدة سيارات عبر القطاع. لم يهتموا بسيارات الأجرة.

وقدم الفريق الإعلامي تفاصيل دقيقة عن أماكن تواجد جميع عناصر الأمن والحراس القريبين من المنزل. بناءً على هذه البيانات، تم تخصيص قطاع إطلاق نار لكل فرد من أفراد القيادة. كان عليهم إطلاق النار حتى لو لم يروا شيئاً، أن يطلق كل منهم النار على القطاع المخصص له. تلك كانت التعليمات.

- سمعَتْ فلور تقول: «الأقنعة. الأقنعة».

عندما كانوا على مسافة قصيرة من المنزل، تسارعت السيارات. وتسارعت لابينيا بالتزامن مع الآخرين.

- 27 -

بعد لحظات نزلوا من السيارات التي كانت أمام منزل بيلا وفاجأوا العناصر الأمنية التي، كما قال سيباستيان، كانت تلعب الورق والتي بالكاد انتبهت في تلك اللحظة عندما تسارعوا وتجاوزوا الحد المحظور، فبدأوا بالتراكض في حالة من الفوضى.

أطلقت الفرقة الأولى بقيادة سيباستيان أولى الطلقات النارية.

كان على لابينيا أن تقفز إلى الجانب الأيمن وتطلق الطلقات النارية بالرشاشة التي كانت بيدها. قال لها لورينثو: «إمسكيها بقوة». نزلت وسط صوت يصم الآذان. كانت الإطلاقات ترن في كل مكان. ركضت إلى الأمام واستدارت لتكون في المنطقة المخصصة لها لإطلاق النار، ثم ضغطت على الزناد. ارتعبت للحظة جراء شعورها بقوة دفع السلاح وهو يرفع يديها والضوضاء الجهنمية ترن في أذنيها. تذكرت أن عليها أن تقف بثبات على الأرض وأن تمسك سلاح مادزِن بإحكام وتجعله عند مستوى الخصر. تسبب إفراغ الطلقات في فقدان توازنها للحظة، بَيْدَ أنها ظلت واقفة. كانت تظن أنها لو بقيت في مكان واحد، فمن المحتمل أن تصاب.

ركضت إلى الأمام على نحو متعرج تماماً كما علّمها رينيه في التدريبات التي حصلت في المزرعة، ووقفت بثبات من جديد وأفرغت رشقة أخرى من الطلقات. كانت أذناها ترنان، إذ كان صفير الطلقات في كل مكان. لمحت سيباستيان ورينيه وهما يدفعان الباب. رفعت إصبعها عن الزناد وركضت مرة أخرى بانحناء وتعرج حتى وصلت إلى المدخل الخدمي لتَنضَم للآخرين.

كان سيباستيان والفرقة الأولى قد دخلوا بالفعل من الباب الرئيسي إلى المنزل.

كان قلبها يدق بشكل مخيف. لقد ذُهِلَت من ضجيج الطلقات. بدا لها أن كل ذلك كان إرباكاً. لم تكن تعرف ما إذا كان الأمر يسير على ما يرام أم لا. شعرت برغبة يائسة للدخول إلى المنزل. لم تكن تريد البقاء خارجاً، أن تكون «إنساناً ميتاً».

دفع لورينثو الباب بكتفه وضربه بقوة.

- قالت فلور بصوت يعبر عن الحالة الطارئة «رقم خمسة، بسرعة، بسرعة. اضربه بكل قوتك».

رأت على العشب، على بعد مسافة قصيرة، عنصرين من رجال الأمن يرتديان قميصي غوايابيرا أبيضين وبنطلونين أسودين. كانا ممددين وقد لقيا حتفهما. كانا يحرسان الباب الذي انفتح مؤخراً والذي دخلوا أخيراً من خلاله إلى داخل منزل بيلا.

قام لورينثو بالإغلاق، ثم قام هو ورقم ثمانية بتحريك أصيص نباتات كبير وثقيل وبوضعه خلف الباب. أمَّنوا الإغلاق بالأقفال. أوعزت فلور إلى لابينيا أن تتبعها وكانتا تتحركان نحو مدخل الطابق الثاني وهما تنظران إلى جميع الاتجاهات وأسلحتهما جاهزة لإطلاق النار.

كانت هناك في الخارج طلقات متفرقة. بدأ الصمت يحلّ في الشارع. لقد تمكنوا من الدخول إلى المنزل.

تمكنوا من سماع صوت محرك سيارة قد انطلقت بأقصى سرعة.

قالت فلور ملتفتةً إلى الاثنين الآخرين: «بسرعة، لنمشط هذه المنطقة بسرعة».

تم وضع الأقنعة. بدت ملامحهم غير قابلة للتمييز وغريبة تحت الجوارب النايلونية.

تذكرت كيف مزحت مع سيباستيان عندما طلب منها شراء درزنين من الجوارب النايلونية.

كادوا يشعرون بالأمان حتى أحدثت رصاصة صفيراً بجانب لابينيا. لقد

جاءت من شجيرة في الحديقة. انبطحوا جميعاً على الأرض. شعرت لابينيا أن نفسها قد توقف.

صرخ لورينثو وهو يتعرج باتجاه الشجيرة ويطلق النار: «قوموا بتغطيتي». قامت رقم ثمانية وفلور بإطلاق الرصاص. ضغطت لابينيا على الزناد وعيناها بين مغلقتين ومفتوحتين بانتظار إفراغ الطلقات، لكن لم يحدث شيء. كان صوت المادزن لا يحدث ضجيجاً والزناد لا ينزل. لقد ظلت بلا سلاح، بلا دفاع. حاولت معالجة الرشاشة بيدها.

وصل لورينثو إلى الشجيرة وأطلق النار من سلاحه علامة عوزي. أحدثت إحدى وابلات الطلقات تأوهاً من خلف الشجيرة وصوت سقوط جسد.

اقترب لورينثو خلفه وهو يزحف ونظر ثم وقف.

صرخ لورينثو قائلاً: «لن يسبب هذا المزيد من المتاعب»، ثم ركض ليعاود الانضمام إليهم.

- قالت لابينيا: «رقم خمسة. سلاحي لا يطلق النار».

أخذه لورينثو ونظر إليه للحظة وقال محاولاً أن يكون لطيفاً: «عليك أن تغيري مشط تعبئة الذخيرة. لا شيء غير ذلك».

في كنف ذلك التوتر والرعب الذي أصابها عندما كانت الطلقة قريبة جداً منها، نسيت أكثر التعليمات أساسيةً. أسفر عدم النوم ليومين تأثيره عليها.

استمروا في التقدم. سُمِعَ داخل المنزل صراخ النساء وأصوات تعثر ودهس بالأقدام. كانت منطقة الحديقة التي كانوا يتقدمون من خلالها هادئة بشكل ينذر بالسوء ومضاءة بشكل خافت بالفوانيس وبضوء القمر المحاق المتضائل.

رأوا الفرقة الثالثة تتقدم خلف المسبح. كان اثنان من الرفاق يمسكان بضيفين أو بثلاثة رافعين أيديهم إلى الأعلى. كان القليل من الناس في الحديقة وقت الهجوم، بالتأكيد بسبب برد ورياح وظلام الليل.

وصلوا أخيراً إلى البوابة التي سمحت لهم بالوصول من الحديقة إلى الطابق الثاني. لقد كانت مغلقة ومؤَمَّنة بقفل ثقيل.

- قالت الفتاة السمينة: «ماذا نفعل؟» وهي تلتفت إلى فلور بوجه حزين.

- قالت فلور: «ابتعدي» وصوبت على القفل بالمسدس وأطلقت النار. لقد صعقتهم الطلقة القريبة جداً بشكل أكبر. شعرت لابينيا كأن آلافاً من النحل تطن في رأسها.

- قالت فلور: «رقم خمسة، إرمِ نفسك على الباب».

- قال لورينثو مبتسماً للحظة: «سأمسك به بحكم المهنة»، ثم دفع بصدمة قوية الباب المغلق خلف البوابة ذات القضبان التي تم فتحها مؤخراً بكل ما لديه من قوة أعصاب وقوة عضلات.

لقد فُتِحَ الباب. اقتحموا بشكل غير منظم الطابق الثاني.

كان المشهد سيبدو فكاهياً لو كان في وقت آخر، لكن التوتر كان يخمد الفكاهة والضحك: كان الرجال والنساء يقفون بملابس الحفلة على الحائط وأيديهم مرفوعة. رأت لابينيا أيضاً العديد ممن كانوا يرتدون زي كبار المسؤولين. لقد وقع أحدهم على الأرض جثة هامدة. لم يستطع تحمل الصدمة.

تحرك الرقم سبعة والرقم ستة بين الضيوف وقاما بتفتيشهم. تم سحب مسدسين أو ثلاثة مسدسات من كاحل العسكريين. كان سيباستيان ورينيه يؤمّنان الحراسة وأسلحتهما بوضع التأهب لإطلاق النار. رأت لابينيا السيدة بيلا وأختها وكانتا شاحبتين وعيونهما المستديرة تدور في المدارات. أما ولدا بيلا، فكانت الطفلة تبكي مفجوعةً والصبي يطقطق الأسنان يتشبث بوالدته كالغزال الخائف.

كانوا حوالي ثلاثين شخصاً. كانوا كثيرين في تلك المنطقة. لقد شعرت بالأسف على الأطفال.

نظرت بسرعة نحو الباب المفتوح للمكتب. كانت الأسلحة معروضة. قام سيباستيان والآخرون بأخذها من أماكنها. تساءلت عما إذا كانت الألواح قد فتحت.

في تلك اللحظة، دخل الرقم تسعة والرقم عشرة من الطابق الثالث ومعهما ستة موسيقيين وعدة نوادل وخادمات منزليات، بالإضافة إلى ثلاثة ضيوف.

– صاح سيباستيان: «قفوا على الحائط!» فقط ليدرك أنه لم يعد هناك حائط حر، ثم قال مصححاً: «هنا!» وأشار إلى وسط الصالة.

– قال بصوت عالٍ للرقم تسعة: «عُدْ إلى الحديقة» وأضاف: «أخرج هذا من هنا»، مشيراً الى الضابط الميت.

خرج الرفيقان يحملان الجثة. بقي الضيوف والموظفون والموسيقيون فقط.

– وجّه الرقم صفر فلور: «فتشوهم».

اقتربوا. سبق للابينيا أن رأت عمليات تفتيش في شوارع المدينة. كانت تعرف كيف يقوم الحارس بذلك. قامت بذلك وهي تحاول أن تكون أقل وحشية وتتذكر أن عليهم إظهار كونهم مختلفين. هم ليسوا بأتباع ولا حراس.

كان الموسيقيون والخادمات يئنون شبه باكين. قالوا وهم يبكون بصوت عالٍ: «لا تفعلوا لنا أي شيء من فضلكم. لا علاقة لنا بالأمر».

– قالت فلور بسلطوية: «اصمتوا».

نظرت لابينيا حول الصالة بمجرد انتهائها من تفتيشهم ومن وضعهم حولها وفي منتصفها. كانت وجوههم التي أصبحت الآن باتجاههم تعكس الخوف. أما الضبّاط الذين يبدون واثقين من أنفسهم ويبتسمون على شاشات التلفزيون، فكانوا مرتعبين من جانب إلى آخر. كانوا محترفين في الحرب. بالتأكيد كانوا يفكرون فيما يمكنهم فعله. في الزاوية، احتضنت الأختان بيلا الابنَ والابنةَ بوجهين شوّه الرعب ملامحهما، إذ كان الفتى يئن حينها، أما الطفلة، فاستمرت بالصراخ. غمرتها موجة من الشفقة على هذين الطفلين. فهما أيضاً لم يختارا المكان الذي تحتّم عليهما أن يولدا فيه. لقد تحملا ذنب الأب الذي لا رحمة في قلبه ولربما سيتحملان هذا الذنب إلى الأبد. ما زالا لا يستطيعان الفهم، مع ذلك كان لا بد لهما من أن يعانيا.

لاحظت لابينيا أن بيلا لم يكن موجوداً. «لقد غادر مع الجنرال الكبير. ذهبت لمرافقته إلى منزله» هذا ما قالته السيدة بيلا التي كانت تبكي وتئن عندما كان سيباستيان يستجوبها. كانت لابينيا تفكر مع نفسها «ما الذي يمكن أن تتوقعه منه؟ لا تزال لديه نفس العادات عندما كان حارساً مرافقاً».

فجأةً، سُمِع صوت إطلاقات رصاص كثيرة في الخارج.

نظر الستة بعضهم إلى بعض. قام الضباط بحركة في الوقت الذي همست فيه فلور إلى لورينثو أنها إطلاقات هاون.

أمرت فلور وهي تلاحظ التحرك الخفيف للضباط: «لا أحد يتحرك!». أَمَـرَت قائلةً: «رقم خمسة، قم بإخراج هؤلاء الحراس من المجموعة واصطحبهم إلى تلك الغرفة –وكانت تشير إلى غرفة نوم ابن بيلا– اترك الباب مفتوحاً وابقَ معهم. رقم ثمانية، قم بمرافقتهم».

نظر الفتى نحو غرفته وبدأ بالبكاء.

صوّب الرقم خمسة سلاحه باتجاه الحراس واقتادهم إلى الغرفة وكان يرافقه في ذلك الرقم ثمانية.

– قال سيباستيان: «لننقسم إلى فرقتين. الرقم اثنان والرقم أربعة، إذهبا إلى الحديقة»، ثم أمر: «قوما بتأمين الدفاع عن المكان!»

كان صوت سيباستيان كالصاعقة التي سرت شحناتها الكهربائية في عمودها الفقري وقوّمته. أصبحت الفرقة الأولى مكونة من الرقم صفر وفلور ولورينثو والرقم ثمانية إضافة إليها.

سببت لها سرعة الأحداث الدوار والغثيان. كان الأدرينالين قد جعل فمها جافاً بشكل فظيع. كانت عطشى وشفتاها متشققتين كما لو أنها قد قضت شتاءً قاسياً وقارساً. نظرت من جديد إلى ما حولها. تعرفت على بعض الوجوه. لم يكن هناك أي شخص من الدوائر التي اعتادت أن تتردد عليها. لقد تعرفت فقط على زوجين اثنين، أحدهما كان مدير شركة إيسّو مع زوجته والآخر كان صناعيّاً ثرياً يسيطر على تجارة الأخشاب في البلاد وكانت زوجته تبكي. قام بإيماءات بيده لإسكاتها وكان عصبياً.

كانت بعض الوجوه مألوفة لها من رؤيتها في الصحف وفي الأخبار التلفزيونية.

دوّت في الخارج أصوات إطلاق العيارات النارية التي كانت متواصلة بشكل أكبر. سُمِعَ ضوضاء دراجات نارية. ظنت لابينيا أنها قد تكون سيارات فلاتFLAT قد حاصرتهم وقتلتهم جميعاً.

– قال سيباستيان: «رقم اثنا عشر، اقترب!»

اقتربت. كان تحركها يؤلمها وجسدها متثاقلاً. لقد شعرت بإحساس مراقبة المشهد من الخارج. أخبرها سيباستيان في أذنها أن تأخذ أخت زوجة بيلا وضيفين آخرين إلى وسط الصالة. سيرسلونهم مع منديل أبيض ويأمرونهم بعدم إطلاق النار وإلا سيقتلون جميع الرهائن. قال سيباستيان: «إن لم يكن الأمر كذلك، فسيتحول الأمر إلى مذبحة».

دون أن تنبس ببنت شفة، اقتربت من ركن الغرفة حيث كانت الآنسة مونتيس مذعورة تعانق ابنة بيلا. كانت تتساءل «هل سيتعرفون عليّ؟»، ثم قالت لنفسها كلا، لأنها هي نفسها واجهت صعوبة في التعرف على وجوه رفاقها خلف القناع المصنوع من الجوارب. لم تكن تريد أن يتم التعرف عليها. كانت خائفة من أن يتم اكتشافها.

أخذت الآنسة مونتيس من معصمها دون أن تنبس ببنت شفة ودفعتها إلى وسط الغرفة. نظرت إليها الآنسة مونتيس بتعبير مذعور.

- كانت تتوسل «كلا. لا. رجاءً!»

- قالت بطريقة سلطوية: «هيّا بنا!»

أخذت الثلاثة إلى جانب سيباستيان. لم تتعرف عليها الآنسة مونتيس.

عندما التفتت للتحقق من بقية الصالة ومن المجموعة الموجودة في الوسط والضيوف على الحائط تقابلت نظرتها بالوجه المنذهل والمرتاب للفتى المراهق الذي كان شاحباً وطويلاً وضعيفاً. كان يحدق بها. توقَّف عن البكاء وأظهر عدم القدرة على رفع عينيه عنها. لقد تعرَّف عليها. كانت متأكدة من ذلك. نظرت بعيداً وهي منذهلة من رد فعله جراء الصدمة والخوف.

قال سيباستيان مخاطباً الآنسة مونتيس: «ستخرجون، ستخرجون من باب المرأب. ستقولون لهم أن لا يطلقوا النار بعد الآن وإلا سنقتلهم جميعاً. هل فهمتم؟ سنقتل الجميع!»

أومأت الآنسة مونتيس برأسها موافقةً. كانت ترتعش. في الزاوية، كانت الفتاة مع والدتها تبكي وتئن على نحو خارج عن السيطرة. بدا الصبي كأنه سيغمى عليه. كان ينظر إلى لابينيا كما لو كانت منوماً مغناطيسياً.

كانت الأصوات في الخارج تنذر بالتهديد. كان يمكن سماع الحراس

وهم يركضون والهاونات والطلقات. كانت فرقة الحديقة تطلق النار وكان الحراس يطلقون النار في الخارج محاولةً منهم لتطويق المنزل. سمعوا صوت طائرة مروحية من بعيد.

– قال سيباستيان: «بسرعة، بسرعة! رقم واحد، خذهم إلى الباب. رقم ستة، رافقهم»، ثم عاد لأولئك الموجودين في الصالة وأمر النساء بالصراخ «لا تطلقوا النار». قال لهن: «إصرخْنَ، إصرخْنَ بكل قوتكن: أصرخن بأن لا يطلقوا النار».

سلم فلور منديلاً أبيضاً.

إزداد الارتباك للحظات. كانت المروحية تحلق في سماء المنطقة.

كان سيباستيان والرقم ثمانية ولابينيا والرقم سبعة يواصلون السيطرة على تلك المجموعة من العيون المفتوحة المذعورة والنساء اللواتي يصرخن بأعلى صوتهن.

خرجت فلور. لقد قضوا عدة دقائق بتوتر. كانت الطلقات والقذائف تدوّي في كل مكان.

ساد الصمت فجأة.

عادت فلور والرقم ستة. كانت أخت زوجة بيلا والاثنان الآخران خارج المنزل بالفعل.

ظل الصبي ينظر إلى لابينيا.

مرت ساعتان منذ بداية عملية *إيوريكا*.

كانت لابينيا تحرس الرهائن وهي تتكئ على جدار المكتب محاولة منها تجنب نظرة ابن بيلا.

كانت الغرفة كبيرة ومع ذلك، كان عدد الأشخاص خطيراً. رأت أن عدداً أكثر من اللزوم من الأشخاص يمسكون بالرشاشة. كانت يداها وفكها تؤلمها من الإجهاد. لا يزال رأسها يؤلمها.

أخذ الصمت بالازدياد التدريجي.

قال سيباستيان: «رقم ستة، إذهب إلى الحديقة. أحضِرْ لي تقريراً عن حالة الفرقة الثالثة».

كان سيباستيان ينظر إلى الوجوه في الغرفة ويتحدث إلى فلور وهو قريب جداً منها. قال إنه كان من الواضح أن بيلا قد غادر لمرافقة الجنرال الكبير وعندما عاد، وجد أن منزله قد تم الاستيلاء عليه. ستعطيه أخت زوجته التفاصيل. لكنهم كانوا يحتجزون زوجته وابنيه -كانوا سيطلقون سراح الطفلين بمجرد السماح للوسيط بالدخول- بالإضافة إلى اثنين من رجال الأعمال والعديد من أعضاء هيئة الأركان العامة وسفيرَي تشيلي وأوروغواي ووزير الأشغال العامة ووزير العلاقات الخارجية والأهم من ذلك صهر الجنرال الكبير، زوج أخته الوحيدة وأحد أبناء عمه... كان لديهم ما يكفي من الأسماك الكبيرة. سيسير كل شيء على ما يرام.

لكن كان هناك الكثير من الناس.

أعلن سيباستيان بصوت عالٍ: «سنسمح لمجموعة أخرى بالخروج» وبدأ في اختيار بعض النساء والموسيقيين والخادمات.

قال: «ستخرجون أربعة فأربعة، بسرعة!»

تكررت عملية إعدادهم للذهاب إلى الباب. ستكون الغرفة أكثر هدوءاً. عاودت المروحية التحليق من جديد.

- «أخبروا أولاد العاهرات أولئك أنه إذا عاودت تلك المروحية التحليق، فسنبدأ بإخراج القتلى!» صرخ سيباستيان بوجه أولئك الذين كانوا يغادرون.

في تلك اللحظة رن جرس الهاتف. شعر أعضاء القيادة بالزهو.

قال سيباستيان: «رقم اثنا عشر، أجب».

ذهبت لابينيا إلى جهاز الهاتف. كان مثيراً للسخرية بشكل رهيب. كان أبيض اللون مطعماً بلون ذهبي على غرار الأجهزة القديمة في مطلع القرن.

رفعت لابينيا السماعة. كان صوت الطرف الآخر صوتاً سلطوياً معتاداً على إصدار الأوامر للقيادة منذ أجيال. لقد أرعبها. كان الجنرال الكبير وهو من قال:

- «الرئيس يتحدث معك. من يتكلم معي؟»

- ردت لابينيا بصوت ثابت العزم: «إنك تتحدث مع قيادة «فيليبي إيتوربي» من حركة التحرير الوطنية».

– سأل الجنرال الكبير: «ماذا تريدون؟»

– لم تجب لابينيا. أشارت إلى سيباستيان ليقترب. أخذ الرقم صفر سماعة الهاتف. حلقت المروحية مرة أخرى.

– قال سيباستيان: «أوقفوا أي اعتداء على هذا المنزل وإلا فلن ينجو أحد! قال سيباستيان. أخبر الطيارين بالتوقف عن التحليق فوق المنزل».

ساد الصمت في الغرفة. كان الجميعُ يستمع إلى الحديث الهاتفي.

– نطالب بالقس روفينو خاركين كوسيط. نريد أيضاً طبيباً، دكتور إغناثيو خواريث.

كان الشخصان معروفين بكونهما غير سياسيين، لكن مسيرتهما نزيهة.

كان سيباستيان يستمع.

– قال سيباستيان: «نطالب بالإفراج عن جميع السجناء السياسيين وبنشر البيانات التي سنسلمها للوسيط دون رقابة وبكل الوسائل، بخلافه، ستكون وحدك مسؤولاً عما سيحدث للرهائن. لديك ساعة واحدة لإرسال الوسيط».

ثم قَطَعَ الاتصال.

بينما كان سيباستيان يتحدث، وقفت لابينيا في وسط الصالة، على بعد أمتار قليلة من مجموعة بيلا.

كان الصبي لا يزال ينظر إليها، لكنه الآن ينظر إليها بشكل مختلف. كانت تتجنب النظر إليه، إلا أنها كانت تشعر بشيء غريب في الطريقة التي يصر بها على النظر إليها. بدا مصمماً على جعلها تراه وتنظر إليه بثبات.

كانت فلور وأولئك الذين خرجوا لمصاحبة الموسيقيين إلى الباب في طريق العودة. سُمِعَت في الخارج أصوات أشخاص وأصوات سيارات.

اقتربت فلور من سيباستيان. سمعت لابينيا همس محادثتهما.

قالت فلور: «رقم تسعة قد أصيب. إنه موجود مع الفرقة الثالثة في غرفة خلع الملابس الخاصة بحمام السباحة. أصيب بساقه على ارتفاع الفخذ. لقد وُضِعَت له عاصبة لوقف النزيف، لكنه يفقد الكثير من الدم».

قال سيباستيان وعيناه لا تتحركان: «سننتظر الطبيب».

مرت أربع ساعات.

واصل الصبي التحديق في لابينيا ولم تعد أسنانه تطقطق، رغم أنه بدا شاحباً وأوهن من أي وقت مضى.

لماذا كان ابن بيلا ينظر إليها هكذا؟ بدأت تتساءل. بدا أنه يريد أن يقول لها شيئاً بعينيه. شعرت بالحر. كان الجورب يتعبها وتتصبب عرقاً. كانت تعانى من تداعيات التوتر، من الحراسة الطويلة. كانت لا تزال في حالة ذهول من الطلقات ولا يزال دويّ الطلقات يرن في أذنها اليمنى.

في كل مرة كان يُفتح فيها الباب الذي يدخل ويخرج من خلاله رفاق المجموعة القيادية إلى الحديقة، كانت أنفاسها تحتبس في صدرها خشية فتح النار عليهم، لكن لم يكن هناك شيء يحدث في الخارج. ساد صمت متوتر في الليل تقاطعت معه أصوات وقع الأقدام واتصالات اللاسلكي والمركبات.

استمر الفتى بالنظر إليها. نظرت إليه. التقت عيونهما تعترف بعضها لبعض. كانت لابينيا على وشك الابتسام له وطمأنته بأن لا يخاف وأنه لن يحدث له شيء. لقد أرادت إخباره، لكنها ظلت جادة. بمجرد أن لفت انتباهها، ألقى الفتى بنظرة خلفها بإصرار. بدا أنه كان يريد أن يشير إلى شيء ما وراء ظهر لابينيا.

لم تتحرك، فلربما هي خدعة لتشتيت انتباهها. فرغم كل شيء، هو ابن بيلا. أصر الفتى على نظرته من وقت لآخر وبشكل غير محسوس تقريباً، كان يصاحب اتجاه نظرته حركة من ذقنه. لم تكن السيدة بيلا التي كانت بجواره تنتبه إليه وكانت منغمسة في خوفها الخاص ومهتمة بالطفلة التي كانت تبكي بين الحين والآخر.

أصر الفتى على أن تنظر إلى الوراء.

بذلت لابينيا مجهوداً ذهنياً استهلك تقريباً آخر قوتها لتصور ما وراء ظهرها.

جلس الرهائن على الأرض بناء على أوامر من سيباستيان. ثم خرج مع الرقم ستة للاطمئنان على حالة بابليتو.

استعرضت لابينيا الخطط في ذاكرتها. كانت على اليسار بوابة الخروج إلى الفناء وغرفة الموسيقى والبلياردو... وعلى اليمين المكتب الخاص لبيلا حيث كانت الأسلحة موجودة. قام الرقم واحد والرقم صفر بتوزيعها على الجميع. تلَفَت بعض الأسلحة القديمة، المسدسات القديمة وأسلحة الصيد العائدة للمجموعة القيادية. لولا أسلحة بيلا، لكان أكثر من واحد منهم سيبقى دون سلاح. أما الآن، فكل منهم يحمل سلاحين. كان لدى لابينيا مسدس ماغنوم في حزامها.

لماذا كان الفتى ينظر كثيراً إلى المكتب؟

عاد سيباستيان. أصيب بابليتو بجروح بالغة. بالنسبة لباقي الأمور، كان الوضع تحت السيطرة في الحديقة.

ما إن سمعت الأخبار حتى استدارت لابينيا للعودة إلى موقعها.

- 28 -

رن الهاتف مجدداً.

قال سيباستيان: «رقم اثنا عشر، أجيبي. إذا كان هو الجنرال الكبير، فدعيني أتحدث معه».

لم يكن الجنرال الكبير. كان القس الذي طلبوا وساطته. وافق الجنرال الكبير على التفاوض. طلب الكاهن تعليمات الاقتراب من المنزل.

تحدث إليه سيباستيان.

عندما عادت لتأخذ مكانها من جديد، رأت لابينيا أمامها الجدار الخشبي الرخامي للمكتب. الغرفة السرية. الآن قد انتبهت! كانت تفكر كم كان غريباً أمر ذلك الفتى الذي كان يصر عليها أن تنظر للمكان. سألت نفسها «لكن لماذا؟». لم يعد هنالك أسلحة، حيث وزعها سيباستيان والرقم واحد... وسرعان ما تساءلت «هل سيفتحون الغرفة السرية؟» لعدم معرفتهم الجيدة لتلك الغرفة، كانوا مهتمين فقط برؤية ما إذا كانت الأسلحة موجودة على الحائط الدوار...

لقد عادت إلى موقع الحراسة الخاص بها. التفتت وأسندت ظهرها إلى الجدار البارد للمكتب الخاص لبيلا وقد انتابها الفضول لمعرفة ما يخبئه وراءه.

كان الفتى مستمراً بالنظر إليها. حدقَتْ فيه بنظرة متسائلة، فلمعَتْ عيناه وعبّر وجهه عن اكتشاف شيء. كان هذا التعبير يشبه تعبير شقيق سارة عندما كان ينظر إلى مكان الكنز في مزرعة جده بينما كانوا يقضون إجازتهم.

عندها قد فهمت. إنه يعرف بالأمر. اجتاحها اليقين وتركها مشلولة.

رأى المراهق تعابير وجهها وتوترها واستقامتها على الحائط كما لو أن ذلك الحائط يحترق وأومأ إليها برأسه بإيماءة الإيجاب، إذ حنى رأسه متظاهراً بالنظر إلى الأرض في إيماءة «نعم» لم يلاحظها أحد غيرها.

لم يلحَظْ أحد تبادل النظرات هذا. كانت لابينيا والفتى هما الوحيدين في هذا المكان يتحدثان بلغة الإشارة بعضهما مع بعض. كان بيلا هنالك مختبئاً في الغرفة السرية! كيف لم تشك في ذلك من قبل!

لم يشك أحد في أن السيدة بيلا كانت تكذب، لا أحد! ولا حتى هي التي كانت تعرف أبعاد تلك الغرفة! لم يخطر ببالها ذلك. لقد صدّقَتْ زوجتَه مثلما صدّقها الآخرون برمّتهم. كان بيلا معتاداً على ذلك، على أن يكون ذليلاً جداً وأن يرافق الجنرال الكبير إلى منزله. لا أحد يرى الأمر غريباً! والآن كيف ستقول ذلك؟ كيف ستقول إن بيلا موجود هنالك. لقد جمّدها يقين علمها بالأمر. كان هنالك ينتظر اللحظة المناسبة ليخرج ويقتلهم جميعاً! ليطلق النار ويقتلهم جميعاً! ليُفشِل العملية!

لماذا لم تلح عليهم كي يفتشوا تلك الغرفة؟

ببساطة، لقد افترضت أن الباقين سيتولون أمر ذلك! أما الآن، بينما كانت تتذكر التفسير الذي أعطته للقيادة قبل ساعات من ذلك فقط، أدركت أنها لم تدخل في التفاصيل حول المساحة المخفية. حتى إن الرقم واحد قد علّق في لحظة معينة من بداية العملية قائلاً إن الأسلحة كانت على مرأى من الجميع ولم يخطر ببالها أن تسأله عما إذا كان قد فتح الألواح.

لماذا؟ بأي آلية غامضة استبعدت أهمية الكشف عن وجود الجحر الذي يختبئ فيه بيلا الآن كحيوان ماكر ينتظر اللحظة المناسبة؟

وكيف تخبرهم بالأمر؟ بأن بيلا موجود هناك. لم يعد هناك شك بالأمر بعد الآن وذلك هو ما كان الفتى يحاول إخبارها به، بأن بيلا موجود هناك.

جلس الضيوف على الأرض وظهورهم على الحائط وكانوا ينتظرون. تحدث سيباستيان هاتفياً مع القس. ما تبقى الآن هو انتظار وصوله. كانت فلور والرفاق الآخرون قد خرجوا لتهيئة الوضع لدخول القس للمنزل. كانت مسألة انتظار. أطبق الصمتُ على المناطق المحيطة بالمكان.

نظرت لابينيا إلى الفتى. كان يجلس بوضع القرفصاء منتظراً. تساءلت لماذا نبهها؟ كان يبدو لها عندما رأته في اليوم الذي تم فيه تسليم المنزل جاداً ومتجهماً عندما كان يسير خلف والده حزيناً دون أن ينبس ببنت شفة. بالتأكيد كان يكرهه. لم يفهم الأب أحلامه. كان يسخر منه ومن أحلامه بالطيران. بالنسبة لبيلا، المعروف باسم «الطيار»، كان الطيران يعني الرمي بالفلاحين من الجو لقتلهم.

تساءلت «هل يعلم الولد بذلك الأمر؟» هل كان الأمر أحد أساليب ذلك الانتقام الطفولي الرهيب؟ وشعرت بقشعريرة. الانتقام بأن يقوم بتسليم والده! وهي... ماذا ستفعل؟

دخل الرقم أربعة. الرقم تسعة مات. لقد سمعَت الرمز عندما أخبر سيباستيان. الرقم تسعة هو بابليتو. لقد مات بابليتو.

كانت ترى ضرورة مواجهة بيلا بمفردها. ما من أحد كانت لديه أسباب تستدعيه للمخاطرة أكثر مما كانت لديها. لقد مات بابليتو. لا أحد سيموت بعد الآن. نظرت حولها. كان سيباستيان متكئاً على حائط غرفة النوم الرئيسية. كان الرقم ستة والرقم ثمانية باتجاه جانب غرفة الخياطة. وكان الرقم سبعة يغطي الدرج الذي يؤدي إلى الطابق الأول. لم يكن أحد موجوداً بشكل مباشر أمام منطقة الأسلحة. لا يستطيع بيلا إطلاق النار على أي شخص غيرها. بدأت يداها تتعرقان. ضغطت على الرشاشة. بحركات بطيئة ومخفية تحققت من مخزن البندقية. كان مركباً وجاهزاً لإطلاق النار.

لم يرفع الفتى عينيه عنها وكان يريدها أن تفعل ذلك. كان الأمر فظيعاً، لكنها شعرت أنه يريدها أن تقوم به وشجعها بنظرته. كان من الصعب عليها تصديق ذلك، فلربما كان يأمل أن تجد الأب وأن تنقذ حياته، ربما كان يقصد ذلك حيث سبق لها أن أخبرته عن الحزن الذي تسببه الحروب وقتل الناس. لربما اعتقد أنها ستحمي الأب. كان عليها أن تتصرف بسرعة وأن تنتظر اللحظة المناسبة.

استعرضت في ذاكرتها آلية عمل الألواح. يفترَضُ بها أن تفك القفل المثبت بالحائط، عندئذٍ سيكون بوسعها دفع اللوح بقدمها. يمكن أن يتم فتحه بضربة قوية بالقدم. لوحة واحدة تكفي.

يمكنها من هناك أن توجه البندقية صوب بيلا وأن تأمره بتسليم نفسه.

سيسلم بيلا نفسه. إنه يعلم حتى تلك اللحظة أنه ميت إذا خرج من هناك وهو يطلق النار.

سُمِعَت أصوات في الخارج. لقد وصل الوسيط. دخلت فلور لتخبر سيباستيان بذلك. خرج سيباستيان وأخذت فلور مكانه. لم يكن هنالك كلام بينها وبين لابينيا منذ بداية عملية *إيوريكا* منذ زمن طويل.

لقد طلع نور الفجر. كانت وجوه الضيوف الجالسين على الأرض متعبة من الأرق. نامت طفلة بيلا. أما عيون الفتى، فكانت تغلق من وقت لآخر دون التمكن من السيطرة على النوم. كان يناضل ضد النوم ولا يريد أن يرفع عينيه عنها. نظر إليها عندما فتح عينيه بعد غفوة قصيرة.

في ذلك الوقت فكرت لابينيا بأن عليها القيام بذلك. في ذلك الوقت، عندما نام الفتى. ضغطت مجدداً على المعدن الأسود للمادزن.

بدأ الفتى الذي كان مرهقاً بإغماض عينيه. تساءلت «هل للنوم سلطان أقوى من سلطان الخوف والترقّب... هل الأمر كذلك؟ بماذا سيشعر؟»

بمجرد أن رأته يغفو، بدأت بالتسلل إلى داخل الغرفة. كانت فلور والرقم ستة والرقم ثمانية ينظرون إلى الضيوف. سيستغرقون وقتاً حتى ينتبهوا إلى تحركها من مكانها. سيستغرقون وقتاً قصيراً، لكنه سيكون كافياً.

كانت السجادة البنية تخفي صوت خطواتها.

بمجرد دخولها الغرفة، تحركت بسرعة. كانت رابطة الجأش. من مكان ما، دفعتها موجة من الدم البارد قُدُماً. كانت ترى أن عليها مفاجأته وأن تتحرك بسرعة.

أطلقت خلسة آلية اللوح في أقصى اليسار ولم تُصدِر أي صوت.

دفعت اللوح الأول بقدمها.

سمعت صوت فلور في الصالة وهي تقول: «ذلك الطفل الذي لا يتحرك».

بعد ذلك، في اللحظة المناسبة التي كانت فيها عيون لابينيا تتكهن بمكان بيلا وهو رابض وتتصوره لتصوب نحوه، سُمع صراخ الفتى من الرعب وهو يقول «لااااااا» طويلة ذات رنين يثقب الآذان.

نظرت لابينيا وهي تحمل السلاح بقوة إلى الجنرال بيلا الذي اكتشفته في ظلام تلك الغرفة التي اخترعتها. شعرت بقشعريرة خوف. أستوقفهما كليهما هي وبيلا ذلك الصراخُ الثاقب للطفل لجزء من الثانية.

ابتعدت وهي تغطي نفسها بدوران اللوحة. كان بيلا مستعداً لإطلاق النار عليها.

جالت في ذهنها أفكار مضطربة كالمطر بسرعة النجوم في فضاء مجنون.

صرخ الفتى الصغير مرة أخرى: «لاااااااا».

***

كان ذلك الرجل هناك مثل القباطنة الغازين: كان وجهه المنحوت كإله شرير ينظر إلى لابينيا وقد تعرف عليها.

وكان الفتى يصرخ.

لقد تجمّد دمها. شعرتُ أن الصور تتراكم في ذهني. إنها صور مشرقة ومظلمة، ذكريات قديمة وحديثة.

رأيتُ وجه فيليبي ورأيت الطيور المعدنية الضخمة وهي تقذف الرجال من داخلها وأبراجاً محصنة مروعة وصرخات.

رأيتُ طفل سارة الذي لم يولد بعد وغرفة لوكريثيا المظلمة ورائحة الكافور والأحذية في المستشفى والطبيب الشرعي الذي تم اغتياله.

ورأيتُ الفتى الذي أراد الطيران، ذلك الفتى الذي وشى بوالده وكان يكرهه والذي حاول إنقاذه فقط في اللحظة الأخيرة بنعيقه كطائرٍ جريح، مما أدى إلى استيقاف لابينيا. كانت شخصية الفتى مبنية على الشك والتردد الذي لمسته لابينيا وتاهت فيه على نحو غامض.

لكنني لم أتردد. لقد اندفعت في دمها وصرخت من كل زاوية وصِحتُ بصوتٍ كصرير الرياح التي تأخذ معها تلك اللحظة من التردد وضغطتُ بأصابعي على ذلك المعدن الذي أطلق النار من فوهته.

***

شعرتْ لابينيا إزاء الفوضى في عروقها بقوة كل عمليات التمرد وبالجذور وبالأرض العنيفة لذلك البلد الجامح الذي لا يقهر وأدى ذلك إلى الضغط عليها من الداخل وإلى فرض نفسه كي تتغلب على رؤية الفتى وعلى ورؤية نفسها التي كانت تنعكس في عيون المراهقين وفي الحب والكراهية وفي عبارة الكتاب المقدس «لا تقتُلْ». أدركت حينها أن عليها أن تُغلِقَ آخر رسم للدائرة وأن تحطم البقايا الأخيرة لتناقضاتها وأن تختار وتتخذ موقفاً بناء على الاختيار لمرة واحدة في حياتها وإلى الأبد. لذا، تحركت بسرعة. وقفت وجهاً لوجه مع الرجل القوي البنية الذي صوبت سلاحها نحوه وضغطت بأصابعها -بقوة وبشدة- على الزناد.

أسكتت الطلقات المدوية الصرخات المتوالية للفتى. دوّى وابل الطلقات من سلاحها المادزن في الهواء قبل ثانية واحدة من إطلاق بيلا للنار معتقداً أنه المنتصر في الوقت الذي كان فيه يفرغ سلاحه ويطلق العنان للكراهية المظلمة لطبقته التي تدرّبت لسنوات على القتل.

شعرت لابينيا بضربة في صدرها وبحرارة قد غمرتها. رأت الجنرال بيلا لا يزال يقف أمامها متماسكاً وهو يطلق النار. تناثر الدم على زيه. كانت نظرته كالماء الملكي[1]، كالسُم.

بينما كان بيلا يواصل إطلاق النار، استعادت توازنها وبحزم ودون أن تفكر في أي شيء، في الوقت الذي رأت فيه صوراً متفرقة من حياتها قد بدأت تتراكض سريعاً كالغزلان المسرعة أمام عينيها وشعرت بفعل الحرارة بدمائها المسفوكة، قامت بالضغط على السلاح ووجهته صوبه وانتهت من تفريغ مخزن *السلاح* بأكمله.

لقد رأت بيلا يسقط منثنياً ومنهاراً. في تلك اللحظة فقط سمحت للموت بأن ينال منها.

لقد حدث كل شيء في ثوانٍ. تمكّنت فلور والرقم ثمانية اللذان لفتَ صراخ الفتى انتباهَهما من الوصول في اللحظة التي حسمت فيها المواجهة أمرها.

1- مزيج من حمض النتريك وحمض الهيدروكلوريك (تيزاب).

بعد لحظات ظهر سيباستيان.

قام الوسيطُ بأخذ المقترح وسيتم التفاوض عليه.

سارت *إيوريكا* على ما يرام.

غداً سينتهي كل شيء.

***

ساد الصمت في المنزل. كانت الريح الهابّة فوق أغصاني بالكاد تشبه نسمة من غيوم فوق نارٍ محتضرة. أصبحتُ وحيدةً مرة أخرى.

لقد أكملتُ دورة: قدري كبذرة نابتة، مبتغى أجدادي.

لابينيا هي الآن الأرض والدبال، ترقص روحها في رياح المساء ويغذي جسدها الحقول الخصبة.

رأيتُ عندما كنت أسري في دمها انتصار «الإكسيميكي[1]» العادلين.

لقد استعادوا إخوانهم وهزموا الكراهية بهدوء وبالشظايا الخشبية الحارقة لشجرة «الأوكوت[2]».

أُضيئَت الأنوار ولن يتمكن أحد من إطفائها. لن يُخمِدَ أحدٌ صوتَ قرع الطبول.

أرى حشوداً كبيرة تتقدم عبر الطرق التي فتحها يارينثي والمحاربون، محاربو اليوم ومحاربو الأمس.

لن يمتلك أحد هذا الجسد من البحيرات والبراكين،
وهذا الخليط من الأجناس،
وقصة الرماح هذه،
وهذا الشعب المُحِب للذرة،
الذي يحتفل في ظل ضوء القمر،
شعب الغناء والنسيج بكل الألوان.

1- ذوو الحماسة الثائرون.

2- نوع من الصنوبر الأمريكي.

لم تمتْ هي ولم أمتْ أنا بلا هدف ولا موروث.
لقد عدنا إلى الأرض التي سنحيا من خلالها من جديد.
سنملأ جو الزمن الجديد بالفواكه الريّانة.
سيرقص الطائر الطنان يارينثي
وسيرقص الطائر الطنان فيليبي
على تُوَيْجَيْنا
وسيُخصِبانِنا إلى الأبد.
سنعيش في شفق الأفراح
في الفجر الذي يطلع على كل الحدائق.
سنشهد قريباً اليوم المليء بالسعادة.
ستغادرنا سفن الغزاة إلى الأبد.
سيكون الذهب والريش
والكاكاو والمانجو
وخلاصة زهرة بلوميريا ملكاً لنا.
لن يموت مَن يحب أبداً.

ماناغوا، 1988

مكتبة
t.me/soramnqraa

470 يوم
غزة

مكتبة
t.me/soramnqraa

أحاط الليل بأغصاني وأصدرت صراصير الليل صياحها الرتيب وسط مغازلة اليراعات. بالكاد تمكنتُ من اللحاق بها في الحلم. كتبتُ اسمي: إيتثا، قطرة ندى، عند رؤيتها للزهور وعند تحليقها. حلمتُ بدوري بالطيران عندما رأيت العصافير تحلق مرتفعة في أسراب عند وصول الوحوش وأفواج الرجال النتنين والشُّعْر، إنها عصافير صغيرة جداً، لكن فائدتها كبيرة بالنسبة لنا!

إنني محتارة بما حدث. الجريان في دمها يعني أنها بداخلي. هذا ما يفترض أن يكون عليه جسدي. أشعر بالحنين إلى الأوردة والأحشاء والرئتين. بالمقابل، كانت أفكارها تدور حول عائلة من الببغاوات تحلق في دوائر وتحدث ضوضاء وتصعد بعضها فوق بعض في صخب فظيع. مع ذلك، كان لهذه الببغاوات نظام بالنسبة لها، إنني متأكدة من ذلك. تشير إحدى الصور إلى صورة أخرى وأخرى كمرآة تنعكس فيها الصور بلا حدود. تذكرتُ سحر المرايا. بالمرايا، تمكن الإسبان من لفت انتباهنا. في البداية اعتقدنا أن تلك الصورة التي تكرر كل حركاتنا هي استهزاء حتى أدركنا أننا كنا نرى بعضنا بعضاً ولأول مرة بوضوح وليس كما يحصل مع الانعكاس المتموج والعابر لمياه الأنهر وكنا مفتونين بذلك. ما الذي يمكن أن يكون أكثر روعة من أن يرى المرء نفسه لأول مرة؟ هل جربت ذلك؟ كان يارينثي غاضباً عندما فاجأني وهو ينظر إليّ في المرآة. لكنني لم أكن أعرف أنني كنت جميلةً حتى ذلك الحين وكنت أحب النظر إلى نفسي.

© Daniel Mordzinski

9 789933 617684